

إهداء من دار إحياء التراث العربي

مرفوس

مَنْ الثَّقَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

تَرْجِمَ

الاستاذ جعفر الهاوي

المجلد الثاني

دروس من الثقافة الإسلامية

العلامة ابراهيم الأميني

٢



مؤسسة أنصار إيران للطباعة والنشر

قم - ص - ب ١٨٧ - تلفن ٢٧٧٤٤

الجمهورية الإسلامية الإيرانية

٣٥٠ تومان

الْعَلَامَةُ الرَّاهِمَةُ الْأَمِينَةُ

مُرُوسٌ

مَنْ التَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

تَقْرِيبٌ

الاسْتاذ جَعْفَرُ الْهَادِي

الْجُزْءُ الثَّانِي



مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر
شارع شهداء - قم - ايران

الكتاب:	دروس من الثقافة الاسلامية
المؤلف:	العلامة ابراهيم الأميني
تعريب:	الاستاذ جعفر الهادي
الطبعة:	الاولى - ربيع الاول / ١٤١٣
المطبعة:	الصدر - قم المقدسة
الكمية:	٣٠٠٠
الناشر:	مؤسسة انصاريان - قم المقدسة - شارع شهداء ص - ب - ١٨٧ - تلفن (٢١٧٤٤)



51

بسم الله الرحمن الرحيم

بدايةُ أبحاثِ النبوةِ

في القسم الأول من هذا الكتاب قرأتم أن هذا الكون لم يُوجد من لدن نفسه، ولم يحدث بالصدفة وعلى سبيل الإتيافاق، بل إن له خالقاً قادراً، عليماً، حكيماً. هو الذي أوجده وخلق، وهو الذي يديره ويدبره، خلق العالم بقدرته وعلمه، وأنشأه بارادته، ومشيتته، عن عناية وحكمة، وأنه لا يصدر منه لغو أو عبث قط.

وفي القسم الثاني من هذا الكتاب قرأتم أن خلق الإنسان والعالم ليس عبثاً ولا لغواً وأن الإنسان لم يأت إلى هذه الدنيا ليعيش فترة قصيرة يأكل فيها، ويشرب، ويلهو ويلعب، ويستمتع بالملذات، ويقضي وقته في الشهوات، ثم يموت ويفنى، بل إن الله الحكيم هدفاً أسمى، وغايةً أعلى وراء خلق الإنسان.. إنه خلق الإنسان ليربي نفسه - في هذه الدنيا - بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الحسنة، ويعمل على تكميلها، وتركيبتها وتهيتها لحياة (الآخرة) السعيدة، الجميلة، الخالدة.

وعلى هذا الأساس فإن الإنسان لا يفنى بالموت، إنما ينتقل - بعد الموت - من

هذا العالم إلى عالم الآخرة، وهناك يشاهد نتيجة أعماله كاملةً.
الصالحون المحسنون ينالون - يومذاك - أجراً حسناً وكراماً، ويعيشون في جنة عدن، بنفْسٍ كاملةٍ، نورانيةٍ، ويستمتعون بشتى ألوان النعم الطيبة التي يعطيها لهم ربهم الرحيم.

والطالحون المسيئون يلقون عقاب أعمالهم السيئة، بالكامل.
إذن فهذه الدنيا مزرعة الآخرة، وهي المكان المناسب لبناء الذات، وصياغة النفس، ويجب أن تُهيأ نعم الآخرة في هذه الحياة، وتضمن السعادة الأخروية في هذا العالم.

وهنا تنطرح الأسئلة التالية:

١ - هل الإنسان بحاجة إلى برنامجٍ كاملٍ وشاملٍ من أجل سلوك طريق السعادة والكمال، وضمان سعادته الدنيوية والأخروية، أم لا؟.

٢ - هل الإنسان قادرٌ بنفسه على أن يهيئ ويدوّن مثل هذا البرنامج الكامل الشامل، وإن ينفذه في الحياة، أم أنه بحاجة إلى هداية من خالق هذا الكون، ومُنشئ هذا العالم، لتهيئة وتدوين مثل هذا البرنامج؟.

إن الإجابة على السؤال الأول واضحة، ولا تحتاج إلى توضيح، لأننا جميعاً نعلم بأن الإنسان يعيش ضمن المجتمع، ولا يمكن أن تكون له حياة هنيئة ومستقرة من دون وجود قانونٍ كاملٍ، بل يجب أن يكون هناك قانونٌ يكفل حقوق الأفراد، ويمنع من التجاوز والعدوان، ويضمن استقرار النظام، وسيادة الأمن.

وهكذا الحياة المعنوية والروحية الإنسانية هي الأخرى بحاجة إلى برنامج وقانون .. إنه بحاجة إلى برنامج لربية نفسه، وتهذيبها، ولضمان سعادته الأخروية. ولهذا لا مجال للشك في أن الإنسان يحتاج لضمان سعادته الدنيوية والأخروية إلى برنامجٍ كاملٍ شاملٍ متناسقٍ.

ولكنّ الإجابة على السؤال الثاني بحاجة إلى توضيحٍ أكثر .. وهنا تنطرح
مسألة النبوة.

وفي موضوع النبوة هناك بحثان:

الأول: البحث في المسائل العامة التي ترتبط بأصل النبوة، وتسمى بالنبوة
العامة.

الثاني: البحث في المسائل الخاصة التي ترتبط برسول الإسلام (ص) وتسمى
بالنبوة الخاصة.

وها نحن نبدأ بمسائل النبوة العامة.

* * *

الفصل الاول

النُّبُوَّةُ العامَّة

الدَّرْسُ الأوَّل

الإنسانُ وبرنامُجُ سعادته

خَلَقَ اللهُ تعالى الإنسانَ في أفضلِّ صورةٍ، وقرَّرَ أن يبلغَ هذا الإنسانُ مرحلةً من الكمالِ اللائقِ به، وأودعَ في كيانه رغبةً إلى الكمالِ، ومَكَّنَهُ من الحركةِ باتجاهه، والسعي لنيله.

إنَّ الإنسانَ بحاجةٌ إلى برنامجٍ، ومرشدٍ، لسلوكِ طريقِ الحياة، وضمانِ سعادته الحقيقية. وبدون ذلك لا يستطيع أن يصلَ إلى كماله المنشود، ويحقق سعادته المطلوبة. إنَّ الإنسانَ لا يتمكَّن - بمفرده - أن يكتشفَ برنامجَ حياته، وطريقَ تكامله، كما لا يمكنه بمفرده أن يطبِّقَ ذلك البرنامج، وينفِّذه على نفسه وعلى الآخرين، بل يحتاج - لمعرفة ذلك الطريق وسلوكه - إلى خالقِ الكون، ورُسلِهِ وأنبيائِهِ .. ومن هنا نقف على ضرورة إرسال الأنبياءِ وبَعَثِ الرُّسلِ .. ونحن ندرس هذا الموضوع في مرحلتين:

الأولى: دراسة الإنسان، ودراسة حاجته إلى برنامجِ الحياة، والخصائص التي يجب أن يتَّسمَ بها «البرنامجُ السعيد».

الثانية: التعريف بواضع البرنامجِ الكاملِ الصالح.

١ - لقد ثبت في مجال العلوم العقلية - أن الإنسان مركَّب من الجسد والروح، فمن جهة الجسد هو مثل كل الأشياء المادية عرضة للحركة و التغير، والتبدل والتحول.

ومن جهة الروح يُعدّ من عالم المجردات، ولكن بين الروح والجسد منتهى الترابط والعلاقة بل هما متحدان.

وحيث أن للروح تعلُّقاً وارتباطاً بالمادة لا تكون مجرداً محضاً، ولهذا يمكن للروح أن تتحرك وتستكمل نفسها، ايضاً. إنها في البداية كائنٌ ضعيف، ولكنها تترقى تدريجاً، وتتكمّل شيئاً فشيئاً، إلا أنها ليست في جميع المراحل إلا حقيقة واحدة.

٢ - حيث أن الإنسان يسير في طريق التكامل وهو يميل إلى الكمال بفطرته، كما هو مزود بقوة تمكنه من بلوغه، فلا بد أن يكون وصوله إلى تلك الغاية أمراً ممكناً، لأنه لا مكان للعبث واللغو في نظام الخلق والتكوين.

فكما أن كل نوع من أنواع الكائنات في هذا العالم المادي قادر على أن يبلغ كماله الممكن، وقد مُهدّ له طريق الوصول إلى تلك الغاية، كذلك الإنسان ليس هو الآخر محروماً من هذا الفيض الإلهي العظيم، بل هيأ له الخالق الحكيم طريق الوصول إلى الغاية المنشودة.

٣ - حيث أن الإنسان مركَّب من الجسد والروح لهذا من الطبيعي أن تكون حياته ذا طبيعة مزدوجة، أي مركبة من نوعين من الحياة: إحداهما دنيوية ظاهرة، وهي التي ترتبط بجسده، والأخرى روحية باطنية ترتبط بروحه ونفسه، كما ان من الطبيعي أن يكون لكل واحدة من هاتين الحياتين - في النتيجة - نوع من التكامل، والسعادة، أو التسافل والشقاء.

إن الإنسان، وحتى عند انشغاله بالحياة المادية، وغفلته عن الحياة الروحية

والنفسية غفلةً كاملةً، يتمتع في باطن كيانه بحياةٍ واقعيةٍ أيضاً فهو يسير إمّا باتجاه سعادته، وكما له الانساني وإمّا باتجاه شقائه وسقوطه.

إنَّ المعتقدات الصحيحة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة خير وسيلة للاستكمال النفسي، الروحي، والسعادة الباطنية.

كما أنَّ المعتقدات الباطلة، والأعمال السيئة والأخلاق الذميمة، توجب انحراف الانسان عن صراط الإنسانية المستقيم، وتقوده إلى مهاري الهلاك والشقاء.

فلو سَلَكَ الانسانُ طريقَ التكاملِ المستقيم، لتكاملَ جوهرُ ذاته، وبلغَ رُشدَه، وارتقى بعد طَيِّ مراحلِ الكمالِ إلى عالمِهِ الأصليِّ، عالمِ النور والسُّرور.

وإذا ضحى بالكمالات الروحية والاخلاق الحسنة، والأعمال الصالحة في سبيل إرضاء غرائزه الحيوانية، وظَهَرَ في صورة حيوانٍ شهوانيٍّ، أو سبعٍ مفترسٍ، فإنَّ مثلَ هذا الشخص يكون قد انحرف عن صراطِ التكاملِ المستقيم، وشذَّ عن طريقِ الإنسانية القويم، وسقط في وديان الشقاء والهلاك.

٤ - حيث أنَّ بين الجسد والنفس الإنسانية إرتباطاً كاملاً، واتحاداً عميقاً، فإن بين الحياة الدنيوية والحياة النفسانية أيضاً غاية الارتباط ولا يمكن أن نفصل بينهما، ولا بُدَّ أن نحسب لكلِّ واحدٍ منها حساباً خاصاً مستقلاً.

إنَّ أعمال الإنسان الحسنة أو السيئة تؤثر - ومن دون شك - في نفسه، تأثيراً سيئاً أو حسناً، كما أنَّ للصفات والملكات النفسانية تأثيراً في كيفية صدور الأفعال.

إنَّ الحياة النفسانية والباطنية لدى الانسان تنشأ من معتقداته وأخلاقه وأعماله الظاهرية .. ومن دون الإيمان الصحيح، والقيام بالأعمال الصالحة لا يمكن التحرك نحو الكمال المطلوب، والسعادة الروحية، كما أنه من دون تزكية النفس وتهذيبها لا يمكن تحقيق النجاح في مجال إصلاح الظاهر، وضبط الأعمال، والتصرفات نجاحاً كاملاً.

٥ - إنَّ الإنسانَ يعيشُ في المجتمع، وينتفعُ بجهودِ أبناءِ نوعه، ويُنفَعُهُمُ بجهوده، وإنَّ التَّراحُمَ بينِ المنافعِ والمصالحِ، والمآربِ والمطالبِ، والتعدي والتجاوزِ على حقوقِ الآخرين هو أحدُ اللوازمِ الحتميةِ للحياةِ الاجتماعيةِ البشرية.. وإنَّ العيشَ بِسلامٍ في أحضانِ مجتمعٍ يعاني من الاختلافِ والتَّراحُمِ، والعدوانِ والتجاوزِ أمرٌ في غايةِ الصَّعوبةِ، بل هو من غيرِ الممكنِ.

ولهذا السببِ يحتاجُ المجتمعُ البشريُّ إلى قانونٍ كاملٍ ودقيقٍ، وشاملٍ يكفلُ حقوقَ الأفرادِ ويحولُ دونَ العدوانِ والتجاوزِ.

من مجموعِ هذا كلِّه نستنتجُ أنَّ الإنسانَ - لكونه يتألفُ من بُعدين وجوديين، أي الجسدِ والروحِ اللذين بينهما غايةِ الاتصالِ والارتباطِ، واللذين لهما نوعان من الحياةِ بينهما كمالُ العلاقةِ والترابطِ - يحتاجُ من أجلِ ضمانِ سعادتهِ، وتحقيقِ كماله في الدارين، إلى برنامجٍ كاملٍ، ومنهجٍ عملٍ دقيقٍ ومتناسقٍ.

إنَّ البرنامجَ الذي يضمنُ سعادةَ البشرِ الدنيويةَ وكذا سعادتهم وكمالهم الأخروي يجب أن يكون بحيث لا تُلحقُ الحياةُ الدنيويةُ والجسديةُ الضررَ بالحياةِ الأخرويةِ، ولا تمنعُ الحياةَ الروحيةَ والمعنويةَ الإنسانَ من التمتعِ بالحياةِ الدنيويةِ والماديةِ.

يجب أن يكون برنامجاً يُطابقُ إحتياجاتِ البشرِ الحقيقيةِ، ويرشدُ الإنسانَ نحوَ كمالِهِ وسعادَتِهِ الواقعيَّةِ، لا السعادةِ الخياليَّةِ، والكمالِ الوهميِّ.

يجب أن يكون برنامجاً قائماً على أساسِ الفضائلِ والكمالاتِ الانسانية .. برنامجاً يُلِفَتِ نظرَ الإنسانِ نحوَ تربيةِ الروحِ الملكوتيةِ، ونيلِ الرُّلْفى عند الله، ويعتبرُ الدنيا مزرعةَ الآخرةِ .. برنامجاً رُوِّعِيَتِ في قوانينه ونُظِمَ مصلحُ جميعِ أبناءِ البشرِ الواقعيَّةِ، كما ويكون بعيداً عن ضيقِ النظرِ، وخالياً عن التمييزِ الباطلِ، والحزبيةِ والعصبيَّةِ الجاهليَّةِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا . فَأَمَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٢).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اٰخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ
مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِّنَ
الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

فكروا وأجيبوا

- ١ - إلى كم نوع تنقسم حياة الانسان؟
- ٢ - باذا ترتبط حياة الانسان الباطنية، وضحوا ذلك؟
- ٣ - هل يمكن الانفكاك بين الحياة الجسدية والروحية؟ ولماذا؟
- ٤ - كيف يجب أن يكون البرنامج الكامل الكافل لسعادة الانسان؟
- ٥ - إحتفظوا الآيات.

* * *

(١) الأنفال - ٢٤.

(٢) النساء - ١٧٤ - ١٧٥.

(٣) البقرة - ٢١٣.

الدرس الثاني

مَن القادر على وَضْعِ برنامجِ السعادة؟

بعد أن تعرّفنا على الشروط والخصائص التي يجب أن يتصف بها البرنامج الكامل الذي يحتاج إليه البشر، ينطرح هذا السؤال:

تُرى مَن الذي يقدر على وَضْعِ هذا البرنامج وتنظيمه؟ هل يتمكن البشر، وحتى العلماء والعقلاء والمصلحون منهم أن ينظّموا برنامجاً كاملاً ودقيقاً أولاً؟

إذا فكّرتم قليلاً فسوف يكون ردّكم بالنفي حتّى، وذلك لأسباب هي: أولاً إنها يستطيع أن يضع مثل هذا البرنامج مَن يكون عارفاً بالإنسان حقيقةً، ومَن تكون لديه معلومات كافية عن أسرار جسم الإنسان وروحه الملكوتية ودقائقها، وعن غرائز الإنسان، وقواه وأحاسيسه ومشاعره، وميوله ورغباته، ومصالحه ومفاسده الحقيقية، كما يكون عارفاً بمقتضيات الزمان والمكان، ومواضع التزاحم بين القوانين وآثاره. ومن المعلوم أنه لا يوجد بين أفراد البشر برمتهم مثل هذا الشخص.

وثانياً: على فرض أن يقدر المقننون البشر على وَضْعِ مثل هذا البرنامج الكافِل لشؤون الإنسان وحاجاته الدنيوية، لكنهم - ومن دون شك - لا يعرفون شيئاً عن أسرار رُوح الإنسان الملكوتية ورموزها، وإحتياجاتها المعنوية، وعن حياته النفسانية

ومتطلباتها الدقيقة، كما لا يعرفون شيئاً عن الترابط العميق الموجود بين حياته الدنيوية الظاهرية وحياته الروحية الباطنية، وليست لديهم أية معلومات كافية وجوهرية عن عوامل تكامل نفسه، وأسباب تسافلها، ولهذا فهم لا يتمكنون أن يضعوا للناس برنامجاً كاملاً شاملاً.

وأساساً إن مراقبة الحياة النفسية، والعناية بتربية روح البشر الملكوتية أمر خارج عن نطاق مقدرة المقننين البشر، وعن متناول عقولهم القاصرة المحدودة.

وعلى هذا لا يصلح الانسان الذي تنقصه المعرفة والمقدرة اللازمتان لأن يضع لنفسه قانوناً يكفل رفاه البشر، وراحتهم، وأمنهم وسلامتهم وسعادتهم الدنيوية، كما يضمن تكميل نفوسهم وسعادتهم الأخروية .. إنها الوحيد الذي يقدر على سنّ مثل هذه البرامج الكاملة والقوانين المتناسقة، ووضعها تحت تصرف البشر هو الله الخالق لهذا الكون، والموجد لهذا العالم.

إن خالق البشر هو وحده يعلم جيداً بما في كيان البشر وتركيبه الوجودي من أسرار ورموز، ويعرف بما أودع في جسمه وروحه من دقائق، معرفة كاملة، ويدري بمشاعره وغرائزه، وأحاسيسه وميوله، ومهتم بها.

وانه تعالى وحده الذي يعرف جيداً بكلمات الإنسان الحقيقية، ويعرف بأسباب تعاليه ووسائل استكمال نفسه، أو تسافلها وسقوطها.

إن الله الحكيم الذي يكون البشر جميعاً عنده بمنزلة سواء، فهم جميعاً مخلوقوه، ومربوبوه من دون إستثناء، فهو يحبهم جميعاً، ويريد سعادتهم وكمالهم من دون تمييز، ولا مكان للأناية، ولضيق النظر، والعصبية في ساحته المقدسة.

نعم إن الله وحده يمكنه أن يسنّ برنامجاً يكفل سعادة الانسان جسداً وروحاً، دنياً وآخرة، وأن يضعه في متناول أيدي البشر عن طريق الأنبياء الذين يصطفاهم ويختارهم بعناية، هذا مع العلم بأن أطافه المطلقة تقتضي أن يفعل مثل هذا العمل،

ولا يحرم عباده من هذا الفيض العظيم.

إنَّ الله الذي هيأ أسباب التكامل والرشد، لجميع أنواع الموجودات المادية ليُمكِّنَها من الوصول إلى كمالها المطلوب^(١) عن طريق السعي والحركة، من غير المعقول أن يُحرِمَ النوعَ الانساني وهو الكائن المختار، والموجود الفاعل بالإرادة، من ذلك الفيض العظيم، ولا يهييء له وسائل وصوله إلى الكمال المنشود.

إنَّ الله تعالى الذي خَلَقَ الإنسانَ بهذه الصورة الرائعة، وأودع في خلق جسده وروحه آلاف الأسرار والرموز، وسخر لخدمته ومصلحته العالم المادي بأسره، لا يمكن (ولا يُعقل) أن يغفل عن سعادته الحقيقية، وكماله الواقعي، وغايته الوجودية، وبالتالي لا يضع طريق الوصول إلى الكمال المطلوب اللائق به، في متناول يده.

من هنا يتحتم وجودُ الأنبياء في حياة البشر، ويصبح إرسال الرسل أمراً ضرورياً لا مندوحة منه فيختار الله لا يصال رسالته إلى البشرية أشخاصاً ويبعث عن طريقهم البرامج والقوانين التي يحتاجون إليها.

إنَّ الأنبياءَ أشخاصَ مختارونَ أصفاءَ من البشر يوصلون رسالات الله إلى الناس، ويقودونهم إلى السعادة والكمال، ويحذرونهم من عوامل الشقاء والسقوط.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢).

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٣).

(١) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه - ٥٠).

(٢) الأعراف - ٣٥ - ٣٦.

(٣) الانعام - ٤٨ - ٤٩.

من القادر على وضع برنامج السعادة ١٩

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(١).

فكروا وأجيبوا

١ - ما هي المواصفات والشروط التي يجب توفرها في من يضع برنامج السعادة

لل بشرية؟

٢ - لماذا لا يستطيع المقتنون البشر أن يضعوا برنامج السعادة للبشرية؟

٣ - فمن يستطيع أن يضع برنامج السعادة للبشر إذن ولماذا؟

٤ - ما هي الوظيفة الملقاة على عاتق الانبياء والرسل؟

٥ - احفظوا الآيات.

* * *

الدرس الثالث

عِصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ

لقد أوصى الله تعالى الأنبياء من بين البشر وبعثهم ليجعلوا أحكام الله وقوانينه، وبرامجه الحكيمة بشكل كامل، ومن دون زيادة أو نقصان، في تناول أيدي البشر، ويرشدوهم إلى طريق التكامل الانساني المستقيم، ويهدوهم إلى سبيل التقرب إلى الله الذي هو سبيل واحد لا أكثر، وأيضا لیساعدو البشر على سلوك درب السعادة والكمال قولاً وعملاً، ويتولوا قيادة الأمة، ويجتهدوا في تطبيق القوانين الإلهية، وتنمية الفضائل الإنسانية في القلوب والنفوس، لدى الافراد والجماعات.

إنَّ مسؤولية الأنبياء في هذا المجال تتلخص في ثلاث نقاط

- ١ - تلقي قوانين الدين وبرامجه عن طريق الوحي.
 - ٢ - إبلاغ تلك القوانين والبرامج الإلهية إلى الناس.
 - ٣ - العمل بانفسهم بأحكام الدين وتعاليمه ليكونوا دعاة للناس إلى هذه الأحكام والبرامج بأقوالهم وأعمالهم.
- ولا يتحقق الغرض الإلهي من إبتعاث الرسل وإرسال الأنبياء إلا إذا كانوا معصومين في جميع هذه المراحل الثلاث، يعني أن لا يخطأوا عند تلقي التعاليم الإلهية،

ويكونوا مصونين من الإشتباه والنسيان عند إبلاغ هذه التعاليم، والرسالات الإلهية. لأنه إذا لم يكن الأنبياء معصومين عن الخطأ والاشتباه والنسيان فكيف يمكنهم أخذ برامج الدين الحيوية الهامة ثم جعلها بعد ذلك في متناول أيدي الناس من دون زيادة أو نقصان؟ إذ في غير هذه الصورة هل يتحقق غرض الله الحكيم من إرسال الرسل، وابتعاث الأنبياء على وجه اليقين، وبالصورة الصحيحة؟ هل يستطيع الناس أن يثقوا بأن أقوال النبي هي نفس تعاليم الله ورسالاته؟ كلا، أبداً لن يكون هكذا إلا أن يكون الأنبياء والرسل الآلهيين معصومين من الخطأ والاشتباه والنسيان لكي يستطيعوا أن يضعوا برامج الدين في متناول أيدي الناس من دون زيادة أو نقصان، ويحققوا بذلك الغرض الإلهي العظيم.

وكذا يجب أن يكون الأنبياء معصومين في المرحلة الثالثة أي في العمل بأحكام الدين .. على الأنبياء أن يعملوا أنفسهم ببرامج الدين ويقوموا بالوظائف والواجبات، ويتجنبوا المحرمات والمعاصي، ويتركوا كل الأعمال القبيحة والحلال الذميمة.

يجب أن يكون الأنبياء ناهج عملية كاملة للدين وأن يدعوا الناس إلى الأعمال الحسنة، ويمنعوهم عن الأفعال السيئة بصورة عملية.

إذا لم يكن الأنبياء معصومين كيف يمكنهم إذن القيام بقيادة الناس، ودعوتهم إلى الدين، والعمل ببرامجه ودايتيره؟

إن الناس لا يثقون بمن يكون نفسه منحرفاً عن الصراط المستقيم، وتكون أفعاله مخالفة لأقواله، ولا يأترون بأوامره.

إنهم يقولون: لو كان ما يقوله هذا الداعية، حقاً وكان مؤمناً بأقواله وتعاليمه لعمل هو بها قبل غيره.

في هذه الصورة يرجح الناس - على الأغلب - أن يتبعوه في أعماله، وأن يتجاهلوا أقواله، ومن المعلوم أن الله لا يبعث شخصاً كهذا بالرسالة.

بناءً على هذا فإنَّ العقلَ يشهد بضرورة توفر العصمة في الأنبياء، ولا حاجة إلى ذكر البراهين النقلية، ولكننا سنشير مع ذلك إلى بعض تلك البراهين (النقلية) في الدرس القادم.

فكّروا وأجيبوا

- ١ - ماذا كان الهدفُ من إرسال الأنبياء؟
- ٢ - ماذا كانت مهمّات الأنبياء والواجبات الملقاة على عواتقهم؟
- ٣ - كيف يتحقق الغرضُ الإلهي؟
- ٤ - في آية أمور يجب أن يكونَ الأنبياء معصومين؟
- ٥ - أوضحوا الدليل الذي يدلُّ على ضرورة وجود العصمة في الأنبياء، جيداً؟



الدرس الرابع

سبب العصمة ومنشأوها

في الدرس السابق قرأتم أن الأنبياء معصومون عن الخطأ والزلل، والنسيان، ومصونون عن اقتراف الذنوب والآثام.

والآن ينطرح هذا السؤال وهو: ما هو منشأ العصمة، ولماذا يكون بعض الناس معصومين والبعض الآخر غير معصومين، وبعبارة أخرى، لماذا يتصف بها بعض دون بعض؟؟

كلُّ الناس يشتركون في الإنسانية، وكلُّ الناس يجوز عليهم الخطأ، فلماذا ولأَيِّ سبب تحصل لبعض الناس هذه العصمة دون غيرهم؟
إنَّ الغرائز والميول الحيوانية موجودةٌ في كيان جميع أبناء البشر، فما الذي يَهَبُ لبعض الناس تلك المقدرة التي يستطيعون بها السيطرة على ميولهم، وكبح جماح رَغَبَاتِهِم النفسية، فلا يميلون إلى ذنبٍ، ولا يرغبون في معصية؟

ما هو - ترى - السبب الأصلي والعامل الأساسي في جميع أنواع العصمة هذه؟
حسب إعتقادنا إنَّ العصمة صفة نفسانية بل هي أعظم قوة باطنية تحفظ صاحبها من إرتكاب الذنوب والمخالفات، وتمنعه من السقوط في أحضان الخطأ والزلل

والنسيان.

وإنَّ العامل الاساسيَّ والمنشأ الأصليَّ لمثل هذه الصفة هو الايمانُ الكامل الذي تجاوز مرحلة المفهوم والصورة وبلغ مرحلة اليقين والشهود الحضوريَّ. إنَّ الانسان الذي بَلَغَ في معرفة الله والاعتقاد باليوم الآخر (القيامة) الحدَّ الأعلى والمرتبة الأسمى، وشاهدَ بعين البصيرة، وببصر الباطن عظمة الله وجلاله، وآثار الأفعال الصالحة والأخلاق الحسنة كما شاهد بالعيان تبعات الأعمال والأخلاق السيئة، يكره المعصية ويبغض الإثم بشدة فيتجنبها عن وعي وإختيار، ويطيع الأوامر الإلهية عن بصيرة وإرادة .. وبمثل هذه القوة الملكوئية يسيطر على ميوله ورغباته، ويكبح جماح نوازعه النفسية، ولا يتخطى مطلقاً حدود العبودية، والتسليم للأوامر الإلهية.

ومن جانب آخر فإنَّ وجودَ مثل هذه البصيرة الكاملة، والمشاهدة الحضورية تمنعه عن الوقوع في الخطأ والنسيان، والزلل والإشتباه في تلقّي الوحي وإبلاغه. إنَّ النبيَّ يشاهدُ الرسالاتِ الإلهية مشاهدةً حضوريةً، ويتلقى من خزائن العلوم الغيبية، ولذلك فانه يتمتع بالعصمة، ويمتاز بالمصونية من الخطأ والإشتباه فيكون معصوماً من هذه الجهة.

إنَّ وجودَ مثل هذا الإنسانِ الكاملِ المعصومِ أمرٌ ضروريٌّ للنُبوَّة والرسالة، وإنَّ الله سبحانه وتعالى، قد رتبَ نظامَ الوجود بحيث يُنتج مثل هذا الفرد الممتاز كلاً ما اقتضت الظروفُ، وكانت الحاجة.

إنَّ التذكير بهذه النقطة أمرٌ ضروريٌّ وهي: أنَّ النبيَّ وإن كان معصوماً لا يذنب ولا يعصي أبداً، لكنَّ هذا الكلام لا يستلزم أن تسلب منه الإرادة والإختيار، والقدرة على المعصية، بيد أنَّه على أثر الإيثار القوي، والبصيرة الكاملة التي أودعت في كيانه، ووجوده بموهبة إلهية، يترك الأعمال القبيحة ويتجنب المعصية باختياره

وارادته الحرّة.

وفي الخاتمة نشير إلى بعض الأدلة النقلية التي تدلّ على ضرورة توفرّ العصمة في الأنبياء.

فمن باب النموذج قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا . لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾^(١).

قال العلامة الطباطبائي (قدس سره) في تفسير هذه الآية:

ظاهره أنه سبحانه يختص رسله بالوحي فيظهرهم ويؤيدهم على الغيب بمراقبة ما بين أيديهم وما خلفهم، والاحاطة بما لديهم لحفظ الوحي عن الزوال والتغير بتغيير الشياطين وكل مغير غيرهم، ليتحقق إبلاغهم رسالات ربهم، ونظيره قوله تعالى حكاية عن قول ملائكة الوحي ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٢) دلت الآيات على أن الوحي من حين شروعه في النزول إلى بلوغه النبي إلى تبليغه للناس محفوظ مصون عن تغيير أي مغير يغيره^(٣).

ويقول العلامة أيضاً:

ويدل على عصمتهم مطلقاً قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبْهَدِيهِمْ أَقْتَدِهِ﴾^(٤)، فجميعهم عليهم السلام كتب عليهم الهداية، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ

(١) الجن - ٢٦ - ٢٨.

(٢) مريم - ٦٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ج ٢ ص ١٣٩.

(٤) الانعام - ٩٠.

يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴿١﴾
وقال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾^(٢)، فنفي عن المهتدين بهدأيته كل
مضل يؤثر فيهم بضلال، فلا يوجد فيهم ضلال، وكل معصية ضلال^(٣).

فكروا واجيبوا

- ١ - ما هي العصمة؟
- ٢ - ما هو منشأ العصمة عند البعض؟
- ٣ - بينوا سبب العصمة.
- ٤ - هل المعصوم قادر على إرتكاب المعصية أم لا؟
- ٥ - إحفظوا الآيات في هذا الدرس وتعلموا تفسيرها جيداً.

* * *

(١) الزمر - ٣٦.

(٢) الكهف - ١٧.

(٣) الميزان ج ٢ ص ١٤٠.

الدَّرْسُ الخامس

عِلْمُ الأنبياء

إنَّ علوم الأنبياء نابعةٌ - عن طريق الوحي - من عِلْمِ الله المطلق ... إنَّ الله سبحانه يبعث الأنبياء حتى يجعلوا أحكامَ الدين وقوانينه وبرامجه في متناول أيدي الناس بصورةٍ كاملةٍ، ويجتهدوا في سبيل هدايتهم وإرشادهم، ويُعرضوا عليهم وسيلة تكاملهم، وسعادتهم الدنيوية والأخروية، ولهذا السبب يجب أن يعرفَ الأنبياء كلَّ الأمور الدينية التي يجب معرفتها، وتعدُّ ضرورةً لِنُبُوَّتِهِمْ، ولهداية الناس حتى يتحقَّق غرضُ الله من إرسالهم، وابتعائهم.

إنَّ الله تعالى لا يترك برامج دينه ناقصةً، ولا يُحرِّمُ الناس من إرائة صراط التكامل، والتقرُّب المستقيم، وليس هناك لإرشاد الناس وهدايتهم من طريق آخر سوى الأنبياء والرسل.

وعلى هذا الأساس يجب أن يعرفَ الأنبياء جميع برامج الدين الكاملة التي تتكفل سعادة الدنيا والآخرة.

إنَّ العُلومَ التي يجب أن يعرفَ بها الأنبياء يمكن تقسيمها إلى عدة أقسام:

١ - المعرفةُ الكاملةُ بالله وبأسائه وصفاته في أعلى المستويات، والدرجات.

- ٢ - المعرفة الكاملة بعالم البرزخ، وأوضاعه، وأحواله، والإطلاع الكامل على أوضاع القيامة والحساب وصحيفة الأعمال، والميزان والجنة والنار.
- ٣ - المعرفة الكاملة بالنفس الإنسانية وبأمراضها وأدوائها، وطرق وقايتها، ومعالجتها، والمعرفة الكاملة بالأخلاق الحسنة، والسيئة وطرق تزكية النفس وتهذيبها، وتكميلها.

٤ - المعرفة الكاملة بجميع أحكام الدين وقوانينه وبرامجه التي بتطبيقها تُضمّن سعادة البشر في الدنيا والآخرة.

إنَّ على النبي أن يعرف جميع الأمور المذكورة ليتمكن من هداية الناس إلى صراط الدين المستقيم ومنهجه القويم.

فاذا لم يكن النبي عالماً كيف يمكنه أن يقوم بهداية الناس .. إن الله بعث الأنبياء لهداية البشرية وليس من المعقول أن لا يطلعه على العلوم اللازمة. ولقد أُشير إلى هذا الموضوع في آيات قرآنية متعدّدة أيضاً، ونذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ .

فكروا وأجيبوا

- ١ - لماذا يجب أن يعرف الأنبياء كل الامور المرتبطة بالدين؟
- ٢ - كم هي أنواع العلوم التي يَتَحَتَّم معرفتها على الأنبياء؟
- ٣ - إذا لم يكن الأنبياء عارفين بالأمور المرتبطة بالدين فهل يمكنهم هداية البشرية وقيادتها؟
- ٤ - طالعوا الآيات المدرجة في الدرس وأشيروا إلى العبارات التي تدل على علم النبي.
- ٥ - إحفظوا الآيات وتفسيرها بعناية.

* * *

الدرس السادس

الأنبياء والعلم بالغيب

الغيب والشهادة

الموجودات بصورة عامة يمكن تصنيفها إلى صنفين: الموجودات الغيبية التي تُسمّى عالم الغيب، والموجودات الظاهرة التي تُسمّى عالم الشهادة. إن جميع الموجودات القابلة للدراك والملاحظة بواسطة الحواسّ تعدّ من عالم الشهادة مثل المادة والجسم وجميع آثارها وخواصها من قبيل الألوان، والمقادير، والأشكال، والطعوم، والروائح والأصوات، والخشونة واللطافة، والحرارة والبرودة، وبصورة عامة إنّ كلّ ما هو من جنس المادة والماديات يُعدّ من عالم الشهادة. إنّ الانسان يستطيع أن يدرك بحواسّه هذه الأشياء، والعلوم البشرية العادية تحصل من هذا الطريق.

ولكنّ عالم الغيب يقابل عالم الشهادة، فإنّ جميع الموجودات التي تكون أسمى وأعلى من المادّة والماديات تعدّ من عالم الغيب، مثل «الله» سبحانه وتعالى وأسماؤه، وصفاته، والملائكة، وعالم البرزخ والموجودات البرزخية، والقيامة وأحوالها وأوضاعها، والجنة والنار، ونعم الجنة، والعذاب الأخروي.

إنّ هذا الصنف من الموجودات حيث أنه ليس مادياً بل هو فوق المادة، لهذا يُعدُّ من عالم الغيب، فنحن لا نستطيع أن ندرك هذه الأمور بحواسِّنَا .. إنّها غائبة عن الحواس، ولهذا فإن إطلاعنا على عالم الغيب يجب أن يكون عن طريق آخر غير طريق الحواس، وهو ما يُطلق عليه اصطلاحاً اسم عالم الغيب.

نحن نستطيع بحواسِّنَا أن نتصل بموجودات العالم المادّي، ونكتسب العلم بها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولكنّ علومنا في نفس هذا المورد أيضاً محدودة، ومقيّدة..

إنّ عيوننا ترى وتبصر ولكن الأشياء التي تكون في حجم خاص وعلى بُعد مسافة معيّنة وفي ظروف زمنيّة أو مكانيّة خاصة.

فاذا كان شيء ما دقيقاً صغير الحجم جداً، أو كان على مسافة زمنيّة أو مكانيّة كبيرة، أو كان في ظلمة، أو كان بيننا وبينه حائل وسائر، لم تمكننا رؤيته ومشاهدته.

إن أحداث عصر النبيّ نوح (ع) أو ما بعد ذلك بألف سنة غير قابلة للرؤية والمشاهدة بالنسبة إلينا، فنحن لا نستطيع أن نقيم بأجهزتنا العلمية - إرتباطاً بيننا وبين تلك الوقائع .. إنّها غائبة عنا .. ولكنّ جميع موجودات العالم المادّي حاضرة عند الله تعالى، وهو عالم بها، مطلع عليها، ولا معنى لهذا الزمان أو ذاك بالنسبة إليه .. إنه محيط بجميع كائنات العالم المادّي وحوادثه وعالم الغيب، وأسراره، إحاطةً كاملةً.

﴿عَلَّمَ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(١).

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣).

(١) الانعام - ٧٣.

(٢) هود - ١٢٣.

(٣) الحجرات - ١٨.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^(١).

هل العلم بالغيب مختص بالله؟

والآن ينطرح هذا السؤال وهو: هل العلم بالغيب يختص بالله تعالى، أم أن في مقدور البشر أيضاً أن يطلع على الغيب؟
لقد ذهب بعض العلماء إلى أن العلم بالغيب خاص بالله سبحانه، واستدلوا لذلك بآيات من القرآن الكريم مثل قوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾^(٣).

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^(٤).

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٥).

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٦).
لقد استدلل هؤلاء العلماء بظواهر هذه الآيات وقالوا إن العلم بالغيب مختص

(١) آل عمران - ٤٤.

(٢) الانعام - ٥٩.

(٣) يونس - ٢٠.

(٤) النمل - ٦٥.

(٥) الأنعام - ٥٠.

(٦) الأعراف - ١٨٨.

بالله، والبشر محرومون منه، ولا يمكنهم العلم بالغيب قط.
ولكن يُستفاد من بعض الآيات أن بعض الناس يعلمون بالغيب أيضاً، ومن هذه الآيات ما يلي:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(١).
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾^(٣).
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^(٤).
﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾^(٥).

يُستفاد من هذه الآيات أن العلم بالغيب وإن كان أولاً وبالذات مختصاً بالله تعالى، وأن باب الإطلاع على ذلك العالم موصد في وجه البشر، ولكنه تعالى يُطلع أنبياءه على عالم الغيب عن طريق الوحي، ويوقفهم إذا شاء ومتى شاء على الحقائق والأمور الغيبية.

من مجموع هذه الآيات ونظائرها يُستفاد أن الغيب المطلق، والعلم به من خصائص الله تعالى، لأن وجوده غير المحدود محيط بعالم الغيب والشهادة، إحاطة

(١) الجن - ٢٦ - ٢٧.

(٢) آل عمران - ١٧٩.

(٣) التكوين - ١٩ - ٢٤.

(٤) آل عمران - ٤٤.

(٥) هود - ٤٩.

كاملة. وحتى الأنبياء هم أيضاً لا يتمتعون بمثل هذه الإحاطة العلمية، ولكن حيث أنهم يمتلكون المقدرة على تلقي الوحي، والإرتباط بعالم الغيب، فإنهم بفضل التأييدات الربانية والإفاضات الإلهية يتصلون بعالم الغيب، ويأخذون من حقائق ذلك العالم غير المتناهية ما يقدرّون على اخذه واستيعابه.

فكروا واجيبوا

- ١ - وضحوا معنى عالم الغيب.
- ٢ - وضحوا معنى عالم الشهادة.
- ٣ - ماذا يعني العلم بالغيب؟
- ٤ - هل يمكن لغير الله العلم بالغيب؟
- ٥ - كيف يجب الجمع بين الآيات التي تحصر العلم بالغيب في الله والآيات التي تصرّح بمعرفة الأنبياء بالغيب أيضاً؟
- ٦ - إحتفظوا الآيات في هذا الدرس وفسّروها جيّداً.

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ

المعجزة: وثيقة النبوة ودليها

يَدَّعي الأنبياء بأنهم على إرتباطٍ بالله تعالى وبالعالم الغيب .. وأنهم قد كُلفوا من جانب الله تعالى بأن يتلقوا رسالاته، ثم يُبلِّغوها إلى الناس، وأن يجتهدوا في إرشادهم وهدايتهم.

إنَّه إدَّعاء كبيرٌ لا يقبله الناس من دون شاهدٍ قوي، ودليلٍ معتبر .. ولهذا يجب أن يمتلك الأنبياء دليلاً وشاهداً لإثبات صحَّة دعواهم .. إنَّ أكبر دليل للأنبياء هو المعجزة .. والمعجزة هي العملُ المخارق للعادة الذي يعجز عن إتيانه الناس العاديون. أجل يجب أن يأتي الأنبياء بمعجزةٍ ليثبتوا بها صحَّة إدَّعائهم غير العادي، حتى يتأكَّد الناس من صحَّة ما يدَّعيه الأنبياء والرُّسل.

إذا لم يكن عند الأنبياء معجزةٌ فمن أين وكيف يميِّز الناس بين الأنبياء والرُّسل الإلهيين الصادقين، وبين الذين يدَّعون النبوة كذباً ودجلاً؟

إنَّ وجودَ المعجزة عند رُسل الله أمرٌ ضروري في نظر القرآن الكريم، وقد أُشير إليها بصراحة في عشرات الآيات مثل: إنقلاب عصا النبي موسى إلى حية، وابتلاع سحر الساحرين، وضرب الحجر بالعصا وانثاق اثنتي عشرة عيناً منه، وضرب البحر بالعصا، وانشقاق مائه، وظهور شوارع عديدة في عرضه لعبور بني إسرائيل، وغرق

جنود فرعون، وغير ذلك من المعجزات التي ظهرت على يدي النبي موسى عليه السلام.

ومثل تكلم النبي عيسى عليه السلام وهو في المهد، وشفاء الأعمى والأبرص والأكمه وعودة الموتى إلى الحياة بسببه.

وصناعة طير من الطين ونفخ الحياة فيه وانقلاب النار الحارة إلى برد وسلام لإبراهيم الخليل عليه السلام.

ونذكر على سبيل المثال الآيات التالية:

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِنَّتَ بَايَةَ فَاتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ﴾^(١).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٢).

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٣).

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَازْلَفْنَا ثُمَّ أَخْرَجْنَا . وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا هَاهُنَا إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ . قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا

(١) الأعراف - ١٠٦ - ١٠٩.

(٢) الأعراف - ١١٧.

(٣) البقرة - ٦٠.

(٤) الشعراء - ٦٣ - ٦٧.

عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١﴾.

فمن هذه الآيات المذكورة ونظائرها الكثيرة التي تعدّ بالعشرات نستفيد أنّ صدور المعجزة عن الأنبياء ووقوعها على أيديهم أمرٌ قطعيٌّ من وجهة نظر القرآن، وأن الذين يقبلون بالقرآن كتاباً سبواً لا يمكنهم إنكار أصل الإعجاز. وأساساً يصفُ القرآن الكريم نفسه بأنّه معجزة من المعاجز إذ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِّهِنَّ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٢).

فكروا وأجيبوا

- ١ - لماذا يجب أن يكون الأنبياء مزوّدين بالمعجزة؟
- ٢ - ما هي نظرة القرآن حول المعجزة؟
- ٣ - إحفظوا الآيات بدقة، وتعلّموا تفسيرها جيداً.

* * *

(١) الانبياء - ٦٨ - ٦٩.

(٢) الاسراء - ٨٨.

الدرس الثامن

ما هي المعجزة ومن عمل من هي؟

المعجزة عملٌ خارقٌ للعادة يتمُّ من طُرُقٍ غير طبيعِيَّةٍ وغير معروفةٍ .. ونقول في توضيح هذا المطلب: إنَّ قانونَ العِلِّيَّةِ هو أحد القوانينِ العقلِيَّةِ البديهيَّةِ التي اعترف بها القرآن الكريم أيضاً، وأقرها.

وعلى هذا الأساس لا تتحقَّقُ أيُّ حادثةٍ من دون عِلَّةٍ .. حتى المعجزات لا تقع من غير عِلَّةٍ وسببٍ، نعم إنَّ الظاهرة - أيَّة ظاهرة - يمكن أن تقع وتتحقَّق من طريقتين: طريق طبيعِي عادي، وطريق غير طبيعِي وبواسطة الإعجاز. مثلاً إنَّ العصا يمكن تبديلها إلى ثعبان عن طريقتين:

الطريق الأوَّل هو طريق العللِ والأسبابِ الطبيعيَّةِ المألوفةِ المعروفةِ مثل أن تتحوَّل مادة العصا بعد مرور الزمن ووقوع سلسلة من التفاعلات الطبيعيَّة، إلى حالةٍ تستعدُّ معها العصا لقبول حقيقة الثعبان وصورته، وبعد حصولٍ مثل هذه القابلية تفاض عليها صورة الثُّعبان وحقيقته من جانبِ الله تعالى، وفي هذه الحالة يكون الثعبان قد وجَدَ من طريقِ العللِ والاسبابِ الطبيعيَّةِ، ولم يكن للإعجاز في ذلك أيُّ دور.

الطريق الثاني: وهو طريق الإعجاز، ففي هذه الصورة تحصل لمادَّة العصا

قابلية التحوّل إلى ثعبان، ولكن لا بمرور الزمان، ولا من خلال التفاعلات الطبيعية، بل بتصرّف نفس النبي القوية الزكية، وإرادته القاطعة يحصل مثل هذه القابلية في مادة العَصَا، وفي هذا الوقت تفاض حقيقة الثعبان وصورته على العصا من جانب الله تعالى، وتتحول العصا إلى ثعبان حقيقيّ.

وفي مورد الإعجاز لم تتحقّق هذه الحادثة أيضاً من دون علّة، بل لها علّة كذلك، بيد أنّ علتها ليست من قبيل العلة الطبيعية المتعارفة والمعروفة، بل على أثر إرادة الله، وبالعوامل غير الطبيعية وبكيفية خارقة للعادة، ولهذا تسمّى (معجزة) ويمكن أن تكون شاهد صدق على صحّة دعوى النبوة، وبالتالي صدق النبي.

المعجزة فعلٌ من؟

هل الإعجاز من فعل الله مباشرةً ومن دون واسطة بحيث لا يتجاوز دور النبي دور طالب المعجزة لا أكثر، أم أنّ المعجزة من فعل النبي، بمعنى أنها تتحقّق بإرادته نفسه؟

لقد نسبت المعجزة في بعض الآيات إلى النبي وعلى سبيل المثال، ينقل القرآن الكريم عن النبي عيسى عليه السلام قوله:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(١).

وقال الله سبحانه في موضع آخر موجّهاً خطابه إلى عيسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي

وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴿١﴾

وقال تعالى حول النبي موسى عليه السلام:

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جئتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ . فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ﴾ (٢).

وفي طائفة أخرى من الآيات القرآنية نسب الإتيان بالمعجزة إلى الله سبحانه، وعلى سبيل المثال يقول الله تعالى:

﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوٰ﴾ (٣).

ولكن يستفاد من مجموع الآيات أن الإتيان بالمعجزة بصورة مباشرة هو فعل النبي، أي أنه إثر إرادته وطلبه تقع المعجزة، ولكن النبي غير مستقل في هذا العمل بل تتحقق المعجزة بإذن الله وتأييده تعالى.

إن إرادة النبي تقع - في الحقيقة - في سلسلة العلل، وضمن طريق الأسباب، وتشكل حلقة في سلسلة العوامل المنتجة للمعجزة، ولكن الموجد الحقيقي هو الله تعالى. ولهذا السبب أسند الإتيان بالمعجزة في أكثر الآيات إلى النبي، ولكنه إشتراط وقوعها وتحققها بإذن الله وعُلق على مشيئته سبحانه.

وفي إحدى الآيات القرآنية أشير إلى هذا الموضوع بصراحة أكمل وأكبر فقد قال تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤).

(١) المائدة - ١١٠.

(٢) الأعراف - ١٠٦ - ١٠٨.

(٣) البقرة - ٥٧.

(٤) غافر - ٧٨.

فكّروا وأجيبوا

- ١ - عرّفوا المعجزة.
- ٢ - هل المعجزة عمل خارج قانون العلية العام؟
- ٣ - الإتيان بالمعجزة فعل مَنْ؟
- ٤ - هل النبي مستقل في إتيانه بالمعجزة؟
- ٥ - إحفظوا الايات، وتعلّموا تفسيرها جيّداً.

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ

الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعْجِزَةِ وَالسِّحْرِ

والآن ينطرحُ هذا السؤال: إذا كان النبيُّ يقوم - في مجال الإعجاز - بعملٍ خارقٍ للعادة لا يقدر على إتيانه الآخرون .. فإنَّ السَّاحِرَ هو أيضاً يقوم بعملٍ عجيبٍ خارقٍ للعادة يعجز عنه الآخرون، فما هو إذن الفرق بين المعجزة والسحر؟.

وكيف يمكن أن نطمئنَّ إلى أنَّ عَمَلَ النبيِّ معجزة وليس سِحْرًا؟

في الإجابة على هذا السؤال نشير إلى عدَّة فروقٍ بين المعجزة والسحر:

الأوَّل: في عمليَّة السحر لا يقع أيُّ عمل واقعيٍّ، ولا يتحقق شيءٌ على صعيد الواقع الخارجيِّ، إنَّما يؤثِّر السَّاحِرُ (أوقلُّ يتصرَّف) في حواسِّ المتفرجين وأجهزة إدراكهم بحيث يتصوَّرون أمراً غير حقيقي حقيقياً، وواقعياً.

فقد حدَّث في قصَّة النبيِّ موسى (ع) أنَّ السَّحْرَةَ ألقوا جِبالهم وعِصِيَّهم وغير ذلك من أدوات سحرهم أمام الناس، فَبَدَّتْ هذه الأشياء - بسحرهم - وكأنَّها حيَّاتٌ وأفاعي تتحرَّك وتتململُ، واستوحش الحاضرون، في حين لم يحدث شيءٌ على صعيد الواقع الخارجي، ولم يكن هناك أية أفاعي وحيَّات حقيقيَّة.

ولهذا قال تعالى في القرآن الكريم:

﴿قَالَ الْقَوَّاءُ فَلَمَّا الْقَوَّاءُ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْأَرَهُبُهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾^(١).

﴿قَالَ بَلْ الْقَوَّاءُ فَإِذَا حَبَاهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(٢).

ولكن في مقام عملية الإعجاز يحدث أمرٌ حقيقيٌّ على صعيد الواقع والتكوين .. ففي قصة النبي موسى عليه السلام تبدلت عصا موسى عليه السلام إلى ثعبانٍ عظيمٍ واقعاً وابتلع سحرَ الساحرين حقيقةً.

قال الله تعالى لموسى عليه السلام:

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّهَا صَنَعُوا كَيْدَ سَحَرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى . فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾^(٣).

ولهذا عندما رأى السحرة أن آلات سحرهم قد ابتلعها ثعبانُ النبي موسى حقيقةً أدركوا أن ما عمله النبي موسى معجزة، وأنها تختلف عما صنعوه إختلافاً جوهرياً، ولهذا بادروا إلى الإيمان به.

الثاني: إنَّ الساحر يحتاج لعمله إلى أعمال خاصة أو أذكار معينة، أو رسم خطوطٍ أو نقشِ صورٍ وأشكال، وكتابة أشياء، ولكن في مجال الإعجاز والإتيان بالمعجزة لا يحتاج النبي إلى عمل خاص .. إنما تكفي إرادة النبي لتحقيق المعجزة وتقع بتأييدٍ من الله سبحانه وإمضائه.

الثالث: إنَّ المعجزة لا تُغلب أبداً، فعندما تشاء نفسُ النبي أن يتحقق شيء،

(١) الاعراف - ١١٦.

(٢) طه - ٦٦.

(٣) طه - ٦٨ - ٧٠.

فإنه يقع ذلك الشيء حتماً وجزماً ولا تستطيع أية قوة في الأرض أن تحول دون وقوعه، وتمنع من تحققه، أو تبطله بعد وقوعه، لأن ذلك صدر من منبع القدرة الإلهية، ولا تتمكن أية قوة في الأرض أن تقاوم قدرة الله ومشيئته الغالبة، ولكن الأمر في مجال السحر ليس هكذا، لأنه من الممكن أن يغلب سحر الساحر بسحر أقوى، أو يبطل بواسطة نبي مؤيد من جانب الله، كما حدث ذلك في قصة النبي موسى عليه السلام.

الرابع: إنَّ السحر يُعتبر من العلوم والحرف، فإن الإنسان العادي يمكنه عن طريق التعلّم والتدرب، أن يصير ساحراً ماهراً، ولا يحتاج إلى الإيمان بالله، ولا إلى التأييدات الإلهية، ولكن القدرة على الإتيان بالمعجزة موهبة إلهية، وهو ليس شيئاً يحصل عن طريق التعلّم والتدرب والتجربة، إنما يمتلك صاحب المعجزة إيماناً عظيماً وعميقاً، وارتباطاً وثيقاً وقوياً بالله تعالى.

فكروا واجيبوا :

- ١ - بيّنوا الفرق الأول بين المعجزة والسحر.
- ٢ - بيّنوا الفرق الثاني.
- ٣ - بيّنوا الفرق الثالث.
- ٤ - بيّنوا الفرق الرابع.
- ٥ - إحفظوا الآيات بدقة، وتعلّموا تفسيرها جيداً.



الدرس العاشر

الطريقُ إلى معرفةِ النبيِّ

يمكن الاستفادة من عدة طرقٍ لمعرفة النبيِّ الحقيقيِّ والوقوف على صدق مدَّعاه وهذه الطرق هي كالتالي:

الطريقُ الأول: المعجزة.

إنَّ الاتيان بالمعجزة والقيام بعملٍ خارقٍ للعادة هو أفضلُ وأوثق طريق لمعرفة النبيِّ والتأكد من صدق مدَّعاه. فإذا ادَّعى شخصُ النبوة، وأتى لإثبات دعواه بمعجزة او معاجز، وبلغنا ذلك بأدلة قطعية مثل المشاهدة، أو الخبر المتواتر والقطعي، ثبتت نبوته من هذا الطريق كذلك.

الطريق الثاني: إخبار النبيِّ السابق

إذا أخبر النبيُّ السابق الذي كانت نبوته قد ثبتت، بمبعث نبيٍّ من بعده، ونصَّ على اسمه وخصوصياته بصورة كاملة، ثبتت نبوة النبيِّ اللاحق من هذا

الطريق، كما حدث ذلك في شأن رسول الإسلام (ص) إذ أخبر الأنبياء السابقون بمجيئه ومبعثه، وقد دُوت بشاراتهم هذه في الكتب، كما نقل القرآن الكريم نفس هذا الموضوع عن لسان النبي عيسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَلْبِسِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾^(١).

الطريق الثالث: مطالعة برامج الدين وقوانينه

إنَّ العالمَ المحقِّقَ إذا نَظَرَ إلى معارف دين ما وأحكامه، وقوانينه وبرامجه، في أبعادها المتنوعة المختلفة، ودَرسَها دراسةً موضوعيةً، بعيدةً عن العصبية أو التحيز، لَاسْتَطَاعَ أن يَطْلُعَ على قيمة ذلك الدين، وشموليَّته.

إذا وَجَدَ أن العقائد في ذلك الدين تطابق الموازين العقلية، ورأى أن أحكامه وقوانينه نُظِمَتْ وَسُنَّتْ وفق احتياجات المجتمع الحقيقية، وأنها تدافع عن الحقوق الفردية والاجتماعية لجميع أفراد المجتمع، وتراعي العدل الاجتماعي في جميع الحقول والمجالات، وتكفلُ سعادة البشر الدنيوية والأخروية، وتوصي بمراعاة الأخلاق الحسنة، واجتناب الأخلاق الذميمة، فإنه سيهتدي - في مثل هذه الصورة - إلى حقانية ذلك الدين وكماله، ومن هذا الطريق تثبت عنده نبوة النبي الآتي بذلك الدين، ويصدق بها.

وهنا يجب أن نذكر بنقطتين:

الأولى: أن مثل هذه الدراسة الدقيقة والشاملة إنما تتسنى لأفرادٍ مخصوصين ومعدودين وهو أمر خارج عن قدرة عامة الناس.

الثانية: على فرض تحقق ذلك فإنه لا يتجاوز كونها من القرائن والشواهد على صدق النبي ولكن لا يمكن إعتباره دليلاً قطعياً.
وعلى كل حال فإنها لا تُغنينا عن دليل المعجزة.

الطريق الرابع: المطالعة في حياة مدعي النبوة وأخلاقه
إذا كان مُدَّعي النبوة شخصاً ثبتت أمانته وصدقته، واستقامته للجميع، ولم تكن أية نقطة ضعف في أخلاقه الباطنية والظاهرية، وكان يعمل بما يقول، ويأتمر بما يأمر به وينتهي عما ينهى عنه، فإن نبوته ستحظى من الناس بالقبول أيضاً.
ولكن هذا الموضوع يُعتبر هو الآخر بمنزلة أحد الشواهد والقرائن على صدق النبي وصحة دعواه، ولا يُعدّ دليلاً قاطعاً وحجة شرعية، ولا يغنينا بالتالي عن دليل الإعجاز.

فَكِّرُوا وَأَجِيبُوا

- ١ - ما هي الطرق لمعرفة النبي؟ بينوها.
- ٢ - كم من هذه الطرق تعتبر من القرائن والشواهد؟ بينوا ذلك بوضوح.

* * *

الدرس الحادي عشر

الوحي

الوحي في اللغة يعني إلقاء الكلام إلى آخرٍ بشكلٍ خفيٍّ وسريع، وفي الاصطلاح يعني تكلم الله سبحانه مع أنبيائه ورُسُلِهِ.

لقد كان الأنبياء يدعون أن لهم إرتباطاً خاصاً مع الله، فهو يتكلم معهم بصورة خفية، ويبعث عن طريقهم برسالاته إلى الناس.

كانوا يدعون أنهم يسمعون كلام الله، وأنهم يشاهدون حقائق من عالم الغيب، وأنهم مكلفون من جانب الله تعالى بأن يبلغوا رسالاته إلى البشر، وكانوا يسمون مثل هذه العلوم والمعارف بالوحي.

إن الوحي هو الطريق الذي تحصل بواسطته علوم الأنبياء، وهو يختلف تماماً عن طرق إكتسابنا للمعارف والعلوم.

إن لنا ثلاثة أنواع من المعارف والعلوم:

- ١ - العلم بالمحسوسات.
- ٢ - العلم بالكلّيات.
- ٣ - الأحاسيس الباطنية والوجدانية.

إنَّ العِلْمَ بالمحسوسات يحصل عن طريق الحواس الخمس بصورة مباشرة، وفي العلم بالكلّيات للحواس دخالة أيضاً لأنّ جزئيات هذه الكلّيات تدرك وتعرف عن طريق الحواس أولاً، ثم تُنتزع الكلّيات منها.

والنوع الثالث وهو العلم بالاحاسيس الباطنية مثل الإحساس بالألم، والإحساس بالجوع، والإحساس بالعطش، والإحساس بالفرح، والإحساس بالحزن.. كل هذه العلوم والمعارف تحصل عن طريق الحواس الظاهرية أو الباطنية بصورة مباشرة أو غير مباشرة .. ولكنّ الوحي لا يندرج تحت أيّ واحد من هذه الأصناف، وأساساً لا يسانخ الوحي هذه العلوم والطرق ولا يجانسها. إنَّ الأنبياء يشاهدون حقائق في عالم الغيب، ولكن لا بهذه العين، ويسمعون كلام الله ولكن لا بهذه الأذن.

في مجال الوحي تلقى العلوم من جانب الله تعالى إلى قلب النبي أولاً، ثم يفيض هذا العلم من قلب النبي على لسانه، على العكس تماماً من علومنا العادية التي تحصل لنا عن طريق الحواس أولاً، ثم تدخل في المآل إلى القلب والنفس.

إنَّ القرآن الكريم يُفسّر ظاهرة الوحي على النحو التالي:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(١).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^(٢).

وقد جاء في تفسير روح البيان: الوحي إذا نزل بالمصطفى نزل بقلبه أولاً لشدة تعطشه إلى الوحي ولأستغراقه به ثم انصرف من قلبه إلى فهمه وسمعه، وهذا تنزّل من

(١) الشعراء - ١٩٢ - ١٩٥.

(٢) البقرة - ٩٧.

العلو إلى السفلى وهو رتبة الخواص^(١).

وقال أستاذنا العلامة الطباطبائي (قدس سره الشريف) والمراد بالقلب المنسوب إليه الإدراك والشعور في كلامه تعالى هو النفس الإنسانية التي لها الإدراك واليه تنتهي أنواع الشعور والارادة دون اللحم الصنوبري المعلق عن يسار الصدر.....
ثم قال: ولعل الوجه في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ دون ان يقول: «عليك» هو الإشارة الى كيفية تلقيه صلى الله عليه وآله القرآن النازل عليه، وان الذي كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي الادوات المستعملة في ادراك الامور الجزئية، فكان صلى الله عليه وآله يرى ويسمع حينما كان يوحى اليه من غير ان يستعمل حاستي البصر والسمع كما روي انه كان يأخذه شبه اغماء يسمى برحاء الوحي.

فكان صلى الله عليه وآله يرى الشخص ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت غير انه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه الماديتين في ذلك كما نستخدمهما. ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديتين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره، فكان الناس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه والنقل القطعي يكذب ذلك، فكثيراً ما كان يأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس، فيوحى اليه ومن حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصاً يكلمه ولا كلاماً يلقي اليه^(٢).
وعلى هذا الأساس فإن علوم الأنبياء ومعلوماتهم التي تحصل لهم عن طريق الوحي ليست من سِنخ العلوم الإحساسية والفكرية البشرية الحسولية بل هي من نوع أعلى وأسمى نجهل ما هيته وحقيقته، إنه نوعٌ من الشعور الباطني الغامض الذي لا سبيل للخطأ والاشتباه إليه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(١) روح البيان ج ٦ ص ٣٠٦.

(٢) الميزان ج ١٥ ص ٣٤٦.

وُستفاد من بعض الآيات القرآنية أنَّ الوحي يحصل ويتم باحدى الطرق

الثلاثة التالية:

الطريق الأول: هو أن يُلقى الله تعالى الأمور في قلب النبي بصورة مباشرة.
الطريق الثاني: أن يُلقى هذه المواضيع إلى مكان آخر ويتلقاه النبي من ذلك المكان، مثل تكلم الله مع النبي موسى (ع) في طور سيناء بواسطة الشجرة:
﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾^(١).

الطريق الثالث: أن يلقي المواضيع بواسطة ملك الوحي (يعني جبرائيل) إلى قلب النبي، وقد أُشير في القرآن الكريم إلى هذه الطرق الثلاثة حيث يقول تعالى:
﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾^(٢).

ولكن يجب أن نعلم أنَّ التكلم عبر كل واحدة من هذه الطرق هو من فعل الله تعالى، ولهذا يُنسب الوحي في أكثر الآيات إلى الله تعالى ولكن مع أخذ الوسائط والأسباب التي من جملتها ملاك الوحي جبرئيل بنظر الاعتبار.

وعلى هذا فإنه لا بد من تفسير تنوع طرق الوحي إلى هذه الطرق الثلاث بأنه يكون على أثر اختلاف أحوال النبي النفسية، وأنه ناشئ من نوعيّة الجذبات الإلهية المختلفة المتنوعة في كيانه الشريف، وذلك بأن روح النبي القدسيّة ربما تصعد وتترقى إلى مقام جبرائيل فيستمع الوحي منه، ولكنه لا يراه عياناً، وربما رأى جبرئيل نفسه عياناً أيضاً، وربما بلغ هذا الرقي الروحي إلى درجة أنه يسمع الكلام الإلهي في مكان خاص، وفي شجرة مثلاً، وربما ازداد صعوداً وارتقاءً بحيث لا يعود يرى الوسائط بل

(١) القصص - ٣٠.

(٢) الشورى - ٥١.

يسمع الكلام من الله الحق مباشرة.

ولقد كتَبَ العلامة الطباطبائي في تفسيره يقول وهو يشير إلى هذا المعنى:

ثبوت الحجاب أو الرسول في مقام التكليم لا ينافي تحقق التكليم بالوحي، فإن الوحي كسائر أفعاله لا يخلو من واسطة، وإنما يدور الأمر مدار إلتفات المخاطَب الذي يتلقَى الكلام، فإن التفتَ إلى الواسطة التي تحمِلُ الكلام واحتجب بها عنه تعالى كان الكلام رسالة أرسل اليه بملك مثلاً ووحياً من الملك، وإن التفت اليه تعالى كان وحياً منه، وإن كان هناك واسطة لا يلتفت إليها^(١).

وعلى هذا الأساس فإن الوحي هو نوع من الإدراك الباطني، والشعور الخفي الذي لا دخالة للادراكات الحسية وللمقدمات العقلية في حصولها، بل يُلقَى إلى روح النبي القدسية المملوكة بصورة مباشرة.

إن نفس النبي القدسية حيث أنها في أعلى مرتبة من مراتب الإنسانية فإن لها قابلية تَلْقَى هذه العلوم والمعارف.

إن الوحي ليس علماً عادياً مألوفاً، بل هو أمرٌ خارق للعادة لا غير، ولهذا السبب يطالب الناس الأنبياء دوماً بالمعجزة، ويلجأ الأنبياء بدورهم إلى المعجزة لإثبات دعواهم في الحالات الضرورية.

فكروا وأجيبوا

١ - ما هي أصناف معلوماتنا ومعارفنا نحن البشر؟

٢ - كيف يكون الوحي وهل للحواس دورٌ فيه؟

٣ - بينوا الأنواع الثلاثة للوحي المستفادة من قوله: «ما كان لبشر...»

٤ - عندما يتلقّى النبيّ الوحي من الله تعالى مباشرة ألا تكون هناك واسطة

مطلقاً؟

٥ - كيف يقدر النبيّ على تلّقي الوحي؟

* * *

الدرس الثاني عشر

الأنبياء على مدار التاريخ

لقد بعث الله أنبياء كثيرين لهداية الناس وارشادهم على مدار التاريخ .. وكان النبي آدم أول أولئك الأنبياء، والنبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله آخرهم وخاتمهم.

إن عدد الأنبياء غير معلوم لنا على وجه التحديد واليقين، ولكن جاء في بعض الأحاديث أن عددهم هو مائة وأربعة وعشرون ألفاً (١٢٤.٠٠٠).

ولقد كان بعض أولئك الأنبياء أصحاب ديانات وشرائع خاصة ولم يكن بعضهم الآخر أصحاب شريعة خاصة، بل كانوا يروجون لشريعة من سبقهم من الأنبياء ويدعون إليها.

كما كان بعضهم أصحاب كتب وبعضهم الآخر لم يكونوا أصحاب كتب .. وربما كان في زمن واحد أنبياء متعددون يقومون بمهامهم ومسؤولياتهم الإلهية في البلدان والمدن المختلفة.

عن أبي ذر رحمه الله قال: قلت: يا رسول الله كم النبيون؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً

غفيراً؛ قلت: من كان أول الأنبياء؟ قال: آدم، قلت: وكان من الأنبياء مرسلاً قال: نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه. ثم قال: يا ابا ذر أربعة من الأنبياء سريانئون: آدم، وشيث، وأخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم، ونوح. وأربعة من العرب: هود، وصالح وشعيب، ونبىك محمد صلى الله عليه وآله. وأول نبى من بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى، وستائة نبى. قلت: يا رسول الله كم أنزل الله تعالى من كتاب؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله تعالى على شيث عليه السلام خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان^(١).

خمسة من الأنبياء العظام الذين كانوا أصحاب شرائع خاصة يُسمون «أولو العزم» وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم اجمعين. روى إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: أولو العزم من الرسل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم اجمعين^(٢). نحن لا نعرف أسماء الأنبياء جميعهم وعلى وجه التفصيل، ولقد ورد في كتب أسماء جماعة منهم.

ولقد ذكر في القرآن الكريم أسماء (٢٦) منهم وهم عبارة عن: آدم، نوح، إدريس، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، اليسع، ذو الكفل، إلياس، ايوب، يونس، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، موسى، هارون، داود، سليمان، زكريا، يحيى، إسماعيل صادق الوعد، عيسى، محمد صلى الله عليهم اجمعين.

* * *

(١) بحار الأنوار ج ١١ ص ٣٢.

(٢) بحار الأنوار ج ١١ ص ٣٣.

فكروا واجيبوا

- ١ - كم كان عددُ الأنبياء والرُّسل؟
- ٢ - مَنْ هم أولو العزم من الرُّسل؟
- ٣ - أذكروا الأنبياء الذين جاءت أسماؤهم في القرآن الكريم.

* * *

الدرس الثالث عشر

أهداف الأنبياء

كان الأنبياء يهدفون في مهامهم الإلهية إلى أمور عديدة خاصة جاءت الإشارة إليها في الآيات القرآنية، والاحاديث الشريفة، بيد أنه يمكن تلخيص جميع تلك الأهداف وجمعها في هدفين كُليّين أساسيين هما:

الهدف الأول: لَفَتْ نَظْرَ البشرية إلى قيمة الحياة الروحية وأهميتها، وهدايتهم وارشادهم إلى الأمور التي توجب تكميل النفس، والتقرب إلى الله، وضمان السعادة الأخروية، إلى جانب بيان عوامل سقوط النفس وشقائها في عالم الآخرة، والتحذير منها.

وفي هذا الصعيد وتحقيقاً لهذا الغاية كان الأنبياء يهتمون بعدة أمور هامة هي:

١ - معرفة الله الخالق، والإيمان به، وتوحيده، وإثبات صفات الكمال لتلك الذات المقدسة، وتنزيهاها عن صفات النقص، والعيب.

لقد كانت الدعوة إلى معرفة الله والإيمان به وحده هي الأساس في دعوة الأنبياء والرسل جميعاً، وكان أول ما يطرحونه ويقترحونه على اقوامهم ومجتمعاتهم .. ويختص قسم هائل من آيات القرآن الكريم بهذا الموضوع.

٢ - إلفات النظر إلى مسألة المعاد، وحياة ما بعد الموت، والإيمان بها، وبالجنة ونعمها، وجهنم وعذابها .. ولقد كان الانبياء يؤكدون على إثبات العالم الآخروي وعقوبات يوم الجزاء تأكيداً بالغاً، وهو أمر يختص به قسط عظيم من آيات القرآن الكريم أيضاً.

٣ - الايمان بالنبوة، وبارتباط الأنبياء والرسل بالله تعالى عبر الوحي، وتصديق الأنبياء السابقين من دون تفريق.

لقد كان الأنبياء يدعون أنهم على ارتباط بالله سبحانه، وأنهم مكلفون من جانبه بتبليغ رسالاته إلى الناس، وكانوا يطلبون من الناس ان يصدقوهم، ويقبلوا بنبوّتهم، وأن يتبعوا أقوالهم وأفعالهم حتى يسعدوا ويفوزوا.

إنّ هذه الأمور الثلاثة كانت تشكّل الأسس في دعوة الأنبياء .. ولقد قال رسول الاسلام صلى الله عليه وآله عند دعوته عشيرته وقومه:

أَلْحَمْدُ لِلّهِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ (ثم قال:) إِنَّ الرّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ عَامَّةً وَاللّهُ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَإِنَّهَا الْجَنَّةُ أَبَدًا وَالنَّارُ أَبَدًا^(١).

٤ - ترغيبُ الناس في مكارم الأخلاق وفضائلها، وتحذيرهم من ذمائم الأخلاق ورذائلها.

لقد دعى الأنبياء الناس من خلال بيان الآثار الدنيوية والأخروية الطيبة لمكارم الأخلاق إلى التحلي بالأخلاق الكريمة والخصال الحميدة، ومن خلال بيان التبعات السيئة للأخلاق الذميمة إلى تجنبها وحذروهم من الإتيان بشيء منها.

إن تزكية النفوس وتهذيبها يمكن اعتبارها أحد الأهداف الكبرى للأنبياء.
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١).
قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عَلَيْكُمْ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ
بَعَثَنِي بِهَا^(٢).

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتُمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ^(٣).
٥ - ترغيبُ الناس في عبادة الله الواحد والتسليم لأوامره سبحانه .. ولقد
وصف الأنبياء أعمالاً ومراسم خاصة بأنّها عبادة، وبأنّها من عوامل التكامل المعنوي،
والتقرب إلى الله، وبأنّ للقيام بها أثراً قوياً في إسعاد الإنسان في الحياة الأخرى، إلى
درجة أنهم وصفوا العبادة بأنّها هدفُ الخلق، قال تعالى في القرآن الكريم:
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٤).
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٥).
لقد دعى الأنبياء بارشاد الناس في جميع الأدوار والعصور إلى هذه البرامج،
إلى ما يضمن سعادتهم الأخروية.

الهدف الثاني: هو إصلاح الوضع الاجتماعي والحياة الدنيوية للبشر.
لقد اعتنى الأنبياء بإصلاح أمور الناس الاجتماعية والاقتصادية كذلك عنايةً
كاملة، فدعوا الناس إلى اكتساب العلم والمعرفة، والإستفادة من المصادر الطبيعية،

(١) آل عمران - ١٦٤.

(٢) بحار الانوار ج ٦٩ ص ٣٧٥.

(٣) مستدرک الوسائل ج ٢ ص ٢٨٢.

(٤) النحل - ٣٦.

(٥) الذاريات - ٥٦.

والعمل والسعي، وكانوا يرعون في رعاية العدل، والحق، ويحذرون من الظلم والعدوان حفاظاً على سلامة المجتمع وأمنه.

ولأجل الحيلولة دون وقوع الظلم والعدوان ولتطبيق العدالة الاجتماعية عرضوا على الناس الأحكام والقوانين الحقوقية والجزائية والقضائية والاقتصادية من جانب الله تعالى، وقاموا بجهود كبرى لتنفيذها وتطبيقها في حياة الناس والمجتمع.

لقد حاربوا الظلم والحيث، ودافعوا عن المحرومين والمستضعفين، وبمطالعة أحكام الإسلام وقوانينه يتضح - بجلاء - أن الأنبياء كانوا يهتمون بإصلاح أمور الناس الدنيوية وأوضاعهم الاجتماعية، إهتماماً كاملاً.

فمن بعض الآيات يُستفاد أن هذا الموضوع كان أحد أهداف الأنبياء والرسل.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

فكروا وأجيبوا

١ - بماذا كان يعتني الأنبياء في هدفهم الأول؟

٢ - ماذا كان الهدف الثاني للأنبياء؟

(١) الحديد - ٢٥.

(٢) البقرة - ٢١٣.

اهداف الأنبياء ٦١

٣ - ما هو الدليل على أنّ الأنبياء كانوا يهتمون بإصلاح أمور الناس

الاجتماعية؟

٤ - إحتفظوا الآيات بدقة، وتعلّموا تفسيرها جيداً.

* * *

الدرس الرابع عشر

هَدَفُ الأنبياء النهائي

في الدرس السابق قرأتم أنَّ للأنبياء هدفين كُليَّين في مهمتهم الإلهية، أحدهما معرفة الله، وتوحيده في العبادة والتقرب إليه، وهو أمرٌ يرتبط بحياة البشر الروحية، وسعادته الأخروية، والآخر هو إقامة العدل والقسط، ومحو الظلم والتمييز وهو يرتبط بحياة البشر الدنيوية المادية.

والآن ينطرح هذا السؤال وهو هل كان الأنبياء تنويين في رسالتهم يسعون إلى تحقيق الهدفين المذكورين، كل بصورةٍ مستقلةٍ.

أم أنَّهم كانوا يعتبرون أحدَ الهدفين أصلياً والآخر تبعياً، ومقدمةً للآخر أو متممًا له.

وعلى الفرض الثاني أيهما هو الهدفُ الأصلي عند الأنبياء، وأيها هو التبعيُّ

الثانوي؟

إنَّها هنا عدَّةُ احتمالات:

- ١ - لقد ظنَّ البعض أنَّ هدفَ الأنبياء الأصليَّ كان هو ضمان سعادة البشر الدنيوية، وإقامة القسط والعدل، ومحو الظلم والتمييز .. وأنَّ الأنبياء جاؤوا لكي يَمنعوا من الاختلافات والتجاوزات، وكلِّ أشكال العدوان، وأن يجعلوا حياة البشر

مقرونة بالأمن والطمأنينة، والرخاء والرفاه، وإنما أكدوا على وجوب معرفة الله، وحثوا على عبادته والايان بالمعاد، والمثوبات والعقوبات الأخروية والقيم الاخلاقية كالعدل والاحسان والتضحية والايثار، والدفاع عن المحرومين والمستضعفين، من أجل أن يستفيدوا من كل ذلك في إقرار العدالة الاجتماعية ومحو الظلم والتمييز.

لقد قال هذا الفريق: ما هي فائدة التوحيد النظري، ومعرفة الله في حد ذاتها .. فنحن سواء عرفنا الله أو لم نعرفه، عَبدناه أو لم نعبدَه فماذا يجدينَا ذلك؟ وماذا يستفيد الله تعالى من ذلك؟.

يجب ان يُعتبر ذلك وسيلة للتوحيد الاجتماعي، واقامة المجتمع الخالي عن الطبقات.

٢ - ولكنَّ المحقّقين والعارفين بالاسلام، الواقعيّين يعتبرون الهدف الأصليّ والنهائي في دعوة الأنبياء ومهمّتهم هو تربية النفوس البشرية، وإصلاح حياة البشر الأخروية، وللوصول إلى هذا الهدف يعتبرون التوحيد النظري، والايان بالمعاد، والايان بالنبوة والعبادة والتسليم أمام الله الواحد الأحد، وتركيز النفس، والتخلّق بالأخلاق الحسنة، مفيداً بل وضرورياً لذلك.

ولدعم هذه النظرية نُشير إلى عدة أمور:

١ - يُستفاد من الفلسفة الإسلامية ومن الآيات والأحاديث أن الانسان من جهة روحه الملكوتية كائنٌ مجرّد، وأعلى من المادة والماديات، وانه باقٍ مُخلّد لا يفنى بالموت بل ينتقل من هذا العالم إلى عالم الآخرة، ليرى هناك نتيجة أعماله الصالحة او السيئة.

إنّ الانسان باعتبار روحه الملكوتية في حال حركةٍ وتكاملٍ دائمين، فهو يريد الله ويطلبه بفطرته، وينجذب اليه بجبليّته، ويرى كماله وسعادته وصلاحه في معرفة الله وعبادته والتقرب إليه، وأنّ حياته الأصلية هي حياته النفسية (الروحيّة) والأخروية.

٢ - لقد صرَّح في العديد من الآيات والأحاديث بأن الدنيا والأمور الدنيوية ليست بذات قيمة هامة، وإن حياة الانسان الأصلية والقيِّمة هي حياته الآخروية والنفسية وللمثال:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾^(١).

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطًّا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَلَعُ الْغُرُورِ . سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

٣ - لقد وُصفت الدنيا - في أحاديث كثيرة - بأنها ممر لا مقر، وأنها مكان مؤقت، وبأنها مزرعة الآخرة، وأنه بالتالي يجب أن يستفاد منها لبناء الحياة الآخروية الخالدة، وتشبيدها.

ونذكر على سبيل المثال ما يلي:

قال علي عليه السلام: أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنُّونَهَا وَتَرَغَّبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحْتُمْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلَا مَنَزِلِكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ، وَلَا الَّذِي

(١) الكهف ٤٦.

(٢) الحديد ٢٠ - ٢١.

(٣) القصص - ٦٠.

دُعِيتُمْ إِلَيْهِ، أَلَا وَإِنَّمَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا، وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَرْتُكُمْ شَرَّهَا، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا وَأَطَاعُهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا^(١).

قال علي عليه السلام: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مَقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازًا لِتَزُودُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ^(٢).

قال علي عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ وَاخْرُجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ فَفِيهَا أُخْتَبِرْتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ^(٣).

من هذه الآيات والأحاديث ونظائرها العديدة البالغة حدّ المئات يُستفاد أن حياة الإنسان الأصيلة التي خُلِقَ لأجلها انما هي - حسب نظر الإسلام ورؤيته - حياته الروحية والأخروية وان الحياة الدنيا وسيلة لضمان السعادة الأخروية.

ومن هنا يمكن أن نستنتج أن هدف الأنبياء الأساسي والنهائي أيضاً هو أن يمهّدوا للبشر طريق التقرب والكمال، والفوز بالسعادة الأخروية، ولا يمكن لأحد غير الأنبياء الذين يعلمون عن الله أن يوقف البشر على مثل هذا الطريق، وقد اعتبر الأنبياء الإيمان بالله، وبالمعاد والإيمان بالنبوة، وعبادة الله الواحد والتخلق بالأخلاق الحسنة، الطريق الوحيد للوصول إلى السعادة الأخروية.

وعلى هذا الأساس يتأيد الرأي الثاني، وأما الرأي الأول الذي يعتبر إصلاح أمور الناس المعيشية الهدف الأصيل والنهائي للأنبياء فهو مرفوض لأنه يخالف الآيات والأحاديث.

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٧٣.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٣٢.

(٣) نهج البلاغة، الكلام ٢٠٣.

غير أن مقصودنا ليس هو أن الأنبياء لم يعتنوا أبداً باقامة العدل والقسط، ومحو الظلم و التمييز، بل كانوا يعتبرون العمل والسعي وإسداء الخدمة للناس والعمل بالقسط والعدل إذا تم على أساس أخلاقي، من أفضل العبادات، وأحسن القربات لأن بهذه الطريقة يمكن توفر الحياة الانسانية الاجتماعية، وتوفر البيئة المناسبة لتزكية النفس وتهذيبها، ولعبادة الله الواحد الأحد.

ومن هنا يتضح بطلان القول بأن الأنبياء كانوا ثنائيين في أهدافهم، وأنهم كانوا يعتنون بالأمور الدنيوية والأخروية على حد سواء، لأنه قد تبين من المعلومات السابقة أن الدنيا ليس لها في نظر الأنبياء إلا قيمة مقدمة وإلا قيمة كونها مزرعة للآخرة، ويمكن فيها القيام باكتساب الكمالات النفسية، والسعادة الأخروية .. وأساساً لم يكن الأنبياء يفرقون بين الدنيا والآخرة، ولا يقيمون بينها حداً متميزاً، بل كانوا يسعون دائماً وأبداً إلى أن يجعلوا الأمور الدنيوية في طريق تكميل النفس، وضمان السعادة الأخروية.

فكروا وأجيبوا

- ١ - ما هو الهدف النهائي في مهمة الأنبياء؟
- ٢ - بينوا أدلة ذلك.
- ٣ - كيف تبطلون الاحتمال الأول؟
- ٤ - كيف تبطلون ثنائية الأنبياء في أهدافهم؟
- ٥ - احفظوا الآيات، وتعلموا تفسيرها جيداً.



الدرس الخامس عشر

الأنبياء والنظرة العامة إلى الحياة

كيف ترون الحياة؟ آية ظاهرة هو الانسان؟ ما هي نظرتكم حول الإنسان والكون؟

هناك رؤيتان متباينتان تماماً في هذا المجال هما: الرؤية الإلهية، والرؤية المادية.

الرؤية المادية إلى الانسان والحياة

في هذه الرؤية يعتبر الماديون الكون شيئاً مستقلاً، والوجود فاقداً للشعور والإرادة.

إن العالم في هذه الرؤية مجموعة ليس له هدف خاص وهي تتشكل من عناصر مادية تدور حول نفسها من دون هدف .. جميعها عبت وجميعها بلا هدف، وبين هذه المجموعة الكبرى يكون الانسان هو الآخر كائناً عبثياً، وموجوداً حائراً غير هادف، يتقدم بخطى حثيثة نحو الفناء والعدم .. لا هدف في عمله، ونهايته اليأس والظلام، والقنوط والعدم .. لا ملجأ له، ولا ملاذ، ولا بصيص أمل .. إنه يعيش في عالمٍ مظلمٍ عارٍ عن الأمل، زاخرٍ بالخوف.

إنَّ حياة الإنسان هي الأخرى حسب هذه الرؤية الماديّة أمر عبث ، وظاهرة غير ذات قيمة، وغير ذات معنى، ليس هناك من يكون الانسان مسؤولاً تجاهه .. وليس هناك كائنٌ عالمٌ، وموجودٌ أسمى يدرك حسنَ عمل الإنسان وقبحه، ليعاقب على السيِّء ويثيب على الحَسَن .. بل ولا يوجد هناك ملاك ثابت لتقييم أعمال الانسان وتمييز الحَسَن والقبح.

الرؤية الالهية الى الانسان والحياة

في الرؤية الالهية لا ينظر أصحابها إلى الكون على أنه كائن مستقل، بل يعتبرونه مخلوقاً مرتبطاً .. في هذه الرؤية العالم مخلوق، قد خلق على أساسٍ من المحاسبة الدقيقة، والنظم والتناسق الدقيقين، ولهدفٍ معين ... والعالم يرتبط بقدرة خالقٍ قادرٍ تحفظه ارادة قاهرة، ويحرسه عالمٌ قدير.

في الرؤية الالهية لا شيء في الكون الفسيح عبث، ومن دون نهاية وغاية وهدف .. والإنسان في هذه المجموعة الهائلة من الموجودات يتمتع بمقام الافضلية، وله هدفٌ أعلى ينتظره، وهو يسعى إلى ذلك الهدف طيلة حياته.. فلا يتملكه اليأس والقنوط بل يحده الشوق والأمل، إنه موجودٌ غيرُ فاني، يسافر من هذا العالم الفاني العابر إلى عالمٍ باقي ثابتٍ.

الإنسان في الرؤية الالهية مسؤولٌ تجاه إرادة ربّه المطلقة .. إنه مسؤولٌ تجاه خالقه الرحمان الرحيم .. وان عليه مسؤوليّة عظمت تجاه إلهه، لأن الله خلقه، وجعله مختاراً، واعتبره كائناً مكلفاً مسؤولاً.

إنَّ الرؤية الإلهية تعتقد أن للإنسان والعالم خالقاً بصيراً خبيراً حاضراً في كلّ مكان، ناظراً لأعماله، وهو الذي يعيّن الخير والشرّ والحسنة والسيئة، ويثيب المحسنين الأبرار، ويعاقب المسيئين الاشرار.

رؤية الأنبياء حول الانسان والحياة

إن نظرة الأنبياء إلى الإنسان والحياة هي نفس الرؤية الإلهية، وعينها. حول الكون: يعتقد الأنبياء أن الظواهر في هذا الكون موجودات مرتبطة ومحتاجة .. إنها آيات القدرة وعلامات العظمة الإلهية .. إنها مظاهر قدرة الله العليم القدير.

إن الأنبياء وأتباعهم يعتقدون أن العالم بأسره مخلوق لله الرحمن الرحيم .. وأن جميع الخيرات منه سبحانه، وأن تدبير الكون برمته بيده .. وبالتالي أن العالم ليس لغواً، ولا عبثاً، ولا لعبة، بل هو مخلوق لهدفٍ خاصٍ، وغايةٍ معينة.

حول الإنسان وسعادته: إن للأنبياء رؤية خاصة حول الانسان، ونظرة مخصوصة حول هذا الموجود المتميز .. إنهم يعتبرون الإنسان موجوداً مكرماً وكائناً حر الإرادة مختاراً، ومخلوقاً مركباً من جانبيين: من الجسم الذي هو مخلوق من التراب، ومن الروح المنسوبة الى الله، والمقتبسة من العالم الربوبي.

ولهذا السبب فهو موجودٌ أرقى وخالد، وهو في التالي أمين الله، وحامل الأمانة الإلهية، والقائم بها، ومكلفٌ من جانب الله، ومسؤول تجاهه.

إن سعادة الإنسان الحقيقية في هذه الرؤية وإن التكامل الواقعي تكمنان في معرفة الله، وفي السير في سبيله، والعمل برضاه، وحيث أن جميع القدرات والخيرات منه لذلك فإن التوجه إليه تعالى توجهٌ إلى جميع الخيرات، والإيمان به إيمانٌ بجميع القيم الإنسانية الرفيعة.

إن أول ما بدأ به الأنبياء في دعوتهم هو دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونبذ جميع أنواع الشرك .. لقد كان الأنبياء يرون أن قيمة الإنسان وشرفه بمعرفة الله وتوحيده وأن تناسي الله، والإعراض عن ذكره سبحانه أساسٌ لكل ألوان

الشقاء، وأنَّ التعلُّق بغيره منشأ لجميع أنواع الشرور، والبلاء والضياع.

حول مستقبل الانسان (المعاد): إنَّ مستقبل الإنسان في رؤية الأنبياء مستقبل واضح بين في غاية الوضوح والجلاء .. إنَّه مستقبل مشرق وجميل يبعث على الأمل، ويدعو إلى النشاط.

إنَّ الأنبياء يعتقدون أنَّ للانسان الصالح المؤمن مستقبلاً مشرقاً جداً وواضحاً جداً.. إنه ينتقل من هذا العالم الى عالم آخر (عالم الآخرة) الذي هو أوسع، وأسمى من هذا العالم، وهناك يرى الانسان نتيجة أعماله كاملة.

لقد كانت رؤية الأنبياء حول العالم والإنسان وسعادة الانسان ومستقبله مثل هذه الرؤية الواضحة الحق، وكان الأنبياء أنفسهم على يقين قوي بهذه الرؤية السامية الحق.

الحجر الأساس في دعوة الأنبياء

كانت هذه الرؤية الخاصة هي الحجر الأساس في دعوة الأنبياء الذي بنوا عليه صرح الدين والشرعية.

إنَّ أوَّل ما كلَّم به النبي نوح قومه هو:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وهكذا فإنَّ أوَّل ما كلَّم به النبي هود قومه هو:

﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢).

(١) الاعراف - ٥٩.

(٢) هود - ٥٠.

وأول ما كلم به صالح النبي قومه هو نظير هذا الكلام اذ قال:
﴿يَقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾^(١).

وقال النبي شعيب لقومه في بداية دعوته:

﴿يَقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي
أَرْكُمُ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَقُومِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٢).

وقال الله تعالى حول رسالة النبي موسى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ
فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
الْمُورَدُ . وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بئسَ الْوَرْدُ الْمُرْفُودُ﴾^(٣).

ونقرأ في التعقيب على هذه الآيات في القرآن الكريم:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا
فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا
مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا
مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾^(٤).

ولو أمعنا جيداً في هذه الآيات لرأينا أن هناك ركنين جوهريين وأصيلين
اساسيين في دعوة هؤلاء الأنبياء، وجميع الأنبياء ممن سواهم - مضافاً إلى اثبات نبوتهم

(١) هود - ٦١.

(٢) هود ٨٤ - ٨٥.

(٣) هود ٩٦ - ٩٩.

(٤) هود ١٠٥ - ١٠٨.

وبيانها وهما:

الأول: عبادة الله الواحد (التوحيد).

والثاني: مستقبل الانسان وسعادته أو شقائه (المعاد).

إنّ الايمان بهذين الأصلين الأساسيين (التوحيد والمعاد) يشكّل الحجر الاساس في دعوة الأنبياء .. إنّ الأنبياء كانوا يبدأون دعوتهم للناس بالدعوة إلى الايمان بهذين الأصلين من خلال إقامة الأدلة والبراهين، وإرائة البيّنات والمعجزات. إنهم كانوا يدعون الناس في لباس الحث والترغيب، إلى التفكير في أسرار الكون وعجائبه ثم إلى الاعتقاد بهذين الركنين .. إنهم يوقظون فطرة الانسان المنجذبة جبلياً إلى الله والمحبة له، كيما يعرفوا الله، ويوحّدوه في الايمان والعبادة، وليهتدوا - من خلال رؤيتهم الإلهية لآيات العظمة وآيات القدرة الإلهية في كلّ زاوية من زوايا الكون - إلى الغاية من خلق الانسان، والهدف من إيجاده، ويقفوا على عالم ما بعد الموت (عالم الآخرة) ويؤمنوا به، ويفكروا في سعادته أو شقائه في المستقبل. إنّ الأنبياء كانوا - في البداية - يصلحون عقائد الناس التي تشكّل القاعدة التحتية والحجر الاساسي لكلّ أعمالهم وتصرفاتهم، إنهم في البداية يدعون الناس إلى هذين الأصلين (التوحيد والمعاد) ثم يعرضون عليهم البرامج والمناهج السماوية والأحكام والقوانين الدينية.

ومن هذا الطريق كانوا يدعون إلى سبيل السعادة والخير والصلاح، لأنّ الايمان والاعتقاد، والرؤية إلى الحياة والكون لدى كلّ إنسان هي منشأ كلّ الأعمال والتصرّفات ، ومنبع كلّ الأفكار والأخلاق، فإن كلّ شخص إنما يعمل وفق ما يعتقد، ويتصرّف وفق ما تلمي عليه رؤيته للحياة والكون والإنسان.

إن أخلاق كلّ إنسان وتصرفاته تعكس - في الحقيقة - إيمانه وعقيدته، وتنبع منها، فالأعمال والاخلاق مظهران للايمان والإعتقاد عند كلّ انسان.

إنّ الإيَّان الحقَّ والعقيدة الصحيحة السليمة يثمران العملَ الصَّالحَ، وينتجان التصرفات السليمة، ويعطيان ثمارَ الإحسان الجميلة.

إنّ العقيدةَ الفاسدة وغير الصحيحة تنتجُ الانحرافَ والفَسَادَ، والظلمَ والضِياعَ.

وعلى هذا الأساس فإنَّ لإصلاح الناس يجب أن يُبدأ من إصلاح رؤيتهم واعتقادهم، وهذا هو ما كان يتبعه الأنبياء. إنهم كانوا يقوُّون الإيَّان بالله، وبيوم الجزاء ويرسخونها في أفئدة الناس وعقولهم، حتى لا يسعى الناسُ لغير الله، ولا يتخذوا لأنفسهم طريقاً غير طاعته سبحانه، وهدفاً غير جلب رضاه.

هدف الأنبياء:

إنَّ هدف الأنبياء الكبير هو زرعُ الإيَّان بالله الواحد في النفوس، ودفعها إلى التقربِ إليه .. ان الهدف هو احياء القلوب بذكر الله، وتنشيط الارواح بمحبته وتعشقه سبحانه .. وإنَّ جميع أحكام الدين وقوانينه الإجتماعية والسياسية، بل وحتى إقامة القسط والعدل في المجتمع لها صفة البنية الفوقية، وتأتي في الدرجة الثانية في سلم إهتمامات الرُّسل.

إنَّ الأنبياء كانوا يرون سعادةَ البشر في الإيَّان بالله الواحد، وكانوا يطلبون من الناس أن يجعلوا كلَّ أعمالهم وتصرفاتهم في مسار الرضى الإلهي، وفي سبيل التقربِ إلى الله ... أن يخدموا الآخرين من بني نوعهم من أجل الله .. أن يعمِّروا الأرضَ لله .. أن يقارعوا الظالمين لله .. أن يعملوا على إقامة العدل والقسط لله .. أن يبادروا إلى مساعدة المحرومين والمستضعفين لله، بل ويجعلوا نومهم وأكلهم لله أيضاً، فلا يطلبوا إلاَّ رضاه، ولا يعبدوا سواه، إذ هكذا يسعدون ويفوزون ويفلحون.

فكروا وأجيبوا

- ١ - كيف يُنظر إلى الكون والحياة في الرؤية المادية؟
- ٢ - وكيف ذلك في الرؤية الالهية؟
- ٣ - كيف يكون موقع الإنسان في رؤية الأنبياء؟
- ٤ - ما هي الأصول التي تشكّل حَجَرَ الأساس في دعوات الأنبياء ورسالاتهم؟
- ٥ - أيّ أسلوب يجب إتباعه أولاً لإصلاح الناس؟
- ٦ - إحفظوا الآيات بدقة، وتعلّموا تفسيرها جيداً.

* * *

الدرس السادس عشر

الأنبياءُ وَوَحْدَةُ الطَّرِيقِ وَالْهَدَفِ

جاء إلى البشر من قِبَلِ الله تعالى طوال التاريخ آلافُ الأنبياء والرُّسل، من أجل هدايتهم وإرشادهم، بعضهم كان صاحبَ دينٍ وشريعة خاصة، وبعضهم الآخر كانوا يروِّجونَ لشريعة من سَبَقَهُم من الرسل، ولكن أصول الأديان السماوية، وبرامج الأنبياء بقيت في جميع الأدوار والأعصر واحدة لا تتعدَّد، وكان الأنبياء يؤيِّد بعضهم بعضاً، وكانوا يدعون الناس في مختلف العصور إلى هدفٍ واحدٍ ويسعون إلى تطبيق برنامجٍ واحدٍ.

إنَّ جميع الأديان الإلهية السماوية تقومُ على أصول أساسية ثلاثة:

الأول: معرفة الله الواحد الخالق والايان به (التوحيد).

الثاني: الإيمان باليوم الآخر ومستقبل الإنسان الخالد (المعاد).

الثالث: الإيمان بالانبياء ووحدة طريقهم وهدفهم (النبوة).

لقد دعَى الأنبياءُ البشرَ - جميعاً - إلى الإيمان بهذه الأصول الثلاثة، وكانوا يطلبون منهم أن يصغوا إلى نداءاتهم ويتأمَّلوا في برامجهم الإلهية الهادية، ويقبلوها ويسلِّموا لأمر الله العليم القدير، ولا يأخذوا منهج حياتهم إلا من خالقهم وربهم عزَّ وجل.

لقد دعى جميع الأنبياء من الأولين والآخرين، ومن آدم إلى النبي الخاتم محمد (ص)، لقد دعوا جميع الناس إلى هذه الحقيقة .. ولقد سمى الأنبياء الطريق والسبيل الذي اختاره الله تعالى لحياة البشر وحبّده لهم بـ «دين الله» وذكروا بأن دين الله واحد لا يتعدّد.

لم يختلف الأنبياء فيما بينهم أيّ اختلاف في أصول الدعوة وكتليّاتها .. فكلُّ نبيٍّ كان يجيء يؤيّد الأنبياء الذين سبقوه، ويذكرهم باحترام ويمدحهم ويوقرهم، ويؤيّد طريقة عملهم ومبادئ دعوتهم، ويبشّر بأنبياء لاحقين، ويوصي أتباعه بطاعتهم وإتباعهم بعد الإيـان بهم وقبول دعوتهم وتأيدهم.

ولقد ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم أنّه كلّما كنّا نؤقي نبياً الكتاب والحكمة، نوّكّد عليه بأن يوصي قومه بأن يؤمنوا بالنبيّ الذي يأتي من بعده وينصروه اذ قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾^(١).

وقد قال القرآن الكريم حول الإيـان بالأنبياء ووحدة طريقهم، وهدفهم:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

إنّ الاسلام يعني التسليم أمام أمر الله ودينه والتسليم لبرامج الأنبياء تسليم لأمر الله .. والأنبياء بهذا المعنى كانوا كلّهم مسلمين. وإن كان الاسلام بمعناه الخاص

(١) آل عمران - ٨١.

(٢) آل عمران ٨٤ - ٨٥.

يُطْلَق على آخر دينٍ سهاوي، اي الدين الذي أتى به رسول الله وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله من جانب الله تعالى، والمسلم يقال للفرد الذي يعتنق هذا الدين.

ان النبي إبراهيم عليه السلام يطلب من الله في مناجاته هكذا:

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ إِسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَسْئَلُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

إنكم تلاحظون كيف يصف الله الأنبياء بأنهم - من حيث وحدة الطريق والهدف - لا فرق بينهم، وأنهم اصحاب هدف واحد، وهو حث الناس على التسليم لأمر الله، ويصف الذين يعرضون عن طريقهم الواحد بأنه من السفهاء الجاهلين .. انظروا - في هذا المجال - إلى الآيات التالية:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ . وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَنُفِّخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَلَمَّا

أَحْسَ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ
ءَامِنًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾.

إن الأنبياء والرسل الآلهيين - مثل معلّمي مدرسة واحدة - بُعثوا الواحد تلو الآخر، ودعوا البشر عامّة إلى التسليم أمام الدين الآلهي، وقادوهم - بارشاداتهم - في هذا الطريق، وعملوا على تكميلهم وترشيدهم مرحلة بعد مرحلة، وعلموهم دين الله شيئاً فشيئاً.

إنّ الدين الآلهي ليس إلّا ديناً واحداً هو الصراط المستقيم، وإنّ هدف الأنبياء ليس إلّا هدفاً واحداً هو ابتغاء رضا الله، والتقرب إليه، ولا خلاف بين الأديان السماوية، وبين الأنبياء ابداً.

نعم يمكن أن تكون هناك طائفة من الفروق بين الأديان في الأحكام الفرعية، ولكن هذه الفروق - ولا شك - اقتضاها اختلاف الظروف والأوضاع الزمانية، والتفاوت في قابليات الأفراد، لأنّ ظروف الزمان، ودرجات إدراك الأقوام والشعوب وقابليّاتهم ليست متساوية في جميع الازمنة والعصور، ولهذا كان الأنبياء يُحدّثون الناس طبقاً لمستويات إدراكاتهم وقابليّاتهم، وكانوا يمنحونهم التكامل والرشد تدريجاً، ويصعدّون من مقدراتهم على الفهم والإدراك لمعارف الدين شيئاً فشيئاً حتى وصل الدور إلى آخر نبيّ ساهويٍّ ورسولٍ إلهيٍّ هو محمد صلى الله عليه وآله، فبعث لهداية الناس بمعارف وأحكام واسعة ودقيقة لا نعهدّها في الأديان والشرائع السابقة، ولأجل سعة وعظمة المعارف، وشموليّة الأحكام التي جاء بها الاسلام إلى الناس، ولأجل أنه فتح باب التفكير والتحقيق والاستنباط والاجتهاد في النصوص الدينية فجعل هذا الدين من قبل الله آخر وأسمى الأديان.

قال الله تعالى حول محتوى الدين الاسلامي وعلاقته بالأديان السابقة هكذا:
﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١).

فكروا واجيبوا

- ١ - ما هي الأصول الثلاثة التي كان الأنبياء يدعون الناس إلى الايمان بها؟
- ٢ - ما هو بيان القرآن حول وحدة الأنبياء في الطريق والهدف؟
- ٣ - إحفظوا الآيات وتعلموا تفسيرها جيداً.

* * *

الدرس السابع عشر

الأنبياء والإستقامة

كان للإيمان بالله واليوم الآخر جذور عميقة ونفوذ كبير في نفوس الأنبياء والرسل وفي أعماق ضمائرهم، وكانوا قد بلغوا في هذين الأمرين إلى مرحلة اليقين والشهود، وكانوا على إرتباط بعالم الغيب، ولم يكن عندهم أدنى شك أو تردّد في مهمّتهم الإلهية.

لقد كانوا يعتمدون على قوة لامتناهية ولهذا كانوا لا يخافون من أية قوة، وكانوا مصمّمين في عملهم، قد عقدوا العزم على القيام بمسؤوليتهم السماوية، من دون أن يستوحشوا من قلة الأعوان وندرة الأنصار.. وكان ركّام المشكلات والعراقيل التي يثيرها أعداؤهم ترسخ عزائمهم أكثر، وتزيد من تصميمهم على المضي في الدرب، ولا تترك ادنى خلل في نفوسهم وعزائمهم، بل كانوا يسعون إلى حلّ المشكلات بالاستقامة والثبات، ويمكن إعتبار ذلك الثبات وتلك الاستقامة عاملاً مهماً من عوامل إنتصارهم ونجاحهم في أداء مهمّاتهم.

إن مطالعة حياة الأنبياء وسعيهم الحثيث أمر رائع ومفيد جداً، ونحن هنا نشير من باب المثال إلى طرف منها:

إستقامة النبي إبراهيم عليه السلام

لقد نهض هذا النبي الألهي العظيم وحده وبمفرده في وجه الشرك والوثنية وقارع نمرود ونظام حكمه الطاغوتي الذي كان يحمي الأوثان والوثنية، ولم يخف قط من قوته العظيمة، وقال من دون وجل وخوف:

﴿وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ لَأَصْنَمِكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾^(١).

لقد قام النبي إبراهيم بوحده بتكسير الأصنام وتحطيمها .. ففي ذات يوم عندما خرج الوثنيون إلى الصحراء في عيد لهم، دخل إبراهيم عليه السلام المعبد الكبير حيث الأصنام منصوبة، وحطم تلك الأصنام ونثرها على الأرض .. وعندما مثل أمام محكمة نمرود الطاغوتية، وحكم عليه بالموت حرقاً بالنار، بتهمة تحطيم الأصنام لم يبدُ عليه، عليه السلام أي ضعف، ولا أقل ندامة، وبقي ثابتاً صامداً يدافع عن عقيدته ورأيه في الأصنام، وحتى عندما وُضع في المنجنيق ليرمى به في وسط النار الملتهبة العظيمة لم يُظهر أدنى ضعفٍ ووجلٍ، ولم يطلب العون والمدد من غير الله سبحانه الذي تحولت تلك النار بإرادته إلى بردٍ وسلامٍ على إبراهيم.

لقد كانت إستقامة النبي إبراهيم عليه السلام وثباته في مكافحة الوثنية، وإقامة صرح التوحيد، عجيبة جداً إلى درجة أن القرآن الكريم وصفه بانه «أمة واحدة».

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

(١) الأنبياء - ٥٧.

(٢) النحل - ١٢٠.

إستقامة النبي موسى عليه السلام

لقد بُعثَ النبي موسى عليه السلام بالرسالة أيضاً وكُلِّفَ من جانب الله بأن يذهبَ لإبلاغ رسالته إلى قومه المضطَّهدين من بني إسرائيل، وتخليصهم، كما كُلفَ بأن يذهبَ إلى بلاط فرعون ويدعوه .. فذهبَ عليه السلام وبيده عصاً لا بساً ثوباً من الصُوف، ومعه أخوه هارون ودخل البلاط الفخم الذي يسكنه فرعون الطاغية الظالم من دون وَجَلٍ وَخَوْفٍ وقال للطاغية المتجبر بكل شجاعةٍ وشهامةٍ ما أمره الله ان يقول.

﴿وَقَالَ مُوسَى يُفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . حَقِيقٌ عَلَى أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(١).

لقد جاهد النبي موسى (ع) في سبيل دعوة قومه بني إسرائيل إلى التوحيد، وتخليصهم من فرعون الظالم وجهازه الطاغوتي سنيماً عديدة، وواجه جميع المشكلات، وجميع عمليات التعذيب والتشريد والاضطهاد بل والقتل التي مارسها الفرعونيون بالصبر والثبات، وكان يدعو بني إسرائيل في ذروة الضغط والاضطهاد إلى الصبر والإستقامة يقول تعالى عن ذلك:

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

ولما أعلن قومه أن صبرهم يكاد ينفذ من شدة الأذى و:
﴿قَالُوا أَوِذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾^(٣).

(١) الأعراف - ١٠٤ - ١٠٥.

(٢) الأعراف ١٢٨.

(٣) الأعراف ١٢٩.

أجابهم موسى عليه السلام مُطْمَئِنِّاً إياهم بالنصر لتقوية معنوياتهم إذ:
﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

ولقد بالغ النبي موسى في الثبات والإستقامة في سبيل القيام بمهمته الجسيمة والخطيرة والى أن انتصر، وأهلك فرعون وأطاح بجهاز حكمه الطاغوتي البغيض، وحرّر بني إسرائيل من ذل العبودية، وخلصهم من ظلم الفرعونيّين وتعذيبهم وأذاهم المرير.

إستقامة رسول الإسلام وثباته العظيم
لقد نهض النبي محمد صلى الله عليه وآله بمفرده في وجه الشرك والوثنية، وسعى بعزمٍ راسخٍ وإرادة قوية إلى تحقيق هدفه واستقام وثبت أمام جميع المشكلات والمصاعب.

لقد واجهت نبوة رسول الله (ص) طوال مدة ١٣ عاماً مئات بل آلاف المشاكل الكبيرة المضنية ولكنه لم يُظهر من نفسه أدنى ضعف وتردد.. إنه كان مكلفاً من جانب الله أن يستقيم هو وأتباعه في طريق هدفه المقدس.

يقول تعالى في القرآن الكريم في هذا المجال:
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢).
لقد بلغ رسول الإسلام مبادئ دينه الحنيف طيلة مدة نبوته، بل وأعلن عنها في بداية دعوته بصورة قاطعة وصريحة، ولم يرهب كثرة الأعداء ولم يستوحش من قلة الأنصار والمؤيدين.

(١) الأعراف ١٢٩.

(٢) هود - ١١٢.

عندما نَزَلَ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وَكُلَّفَ بِأَنْ يَدْعُوَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ إِلَى دِينِهِ عِلَانِيَةً، أَمَرَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يُعِدَّ طَعَاماً وَيَدْعُوَ أَقْرَبَاءَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، لِيَدْعَوْهُمْ بَعْدَ الطَّعَامِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَعَدَّ عَلِيٌّ طَعَاماً كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ وَدَعَا مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعِينَ شَخْصاً مِنْ أَقْرَبَائِهِ، فَنَهَضَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنَ الْأَكْلِ لِيَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ .. فَمَنَعَ أَبُو لَهَبٍ عَنْ ذَلِكَ، وَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ.

يقول عليُّ بنُ أبي طالب: فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْ أَصْنَعَ طَعَاماً مَرَّةً أُخْرَى فَفَعَلْتُ، وَأَيْضاً لَمْ يَسْمَحُوا لَهُ بِالتَّكَلُّمِ، فَكُرِّرَ الدَّعْوَةُ ثَلَاثَةً، وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ نَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) ثُمَّ تَكَلَّمَ فَقَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ شَابَّاً فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا قَدْ جِئْتُكُمْ بِهِ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ فَأَيْتُكُمْ يُوَازِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ»، فَاحْجَمَ الْقَوْمُ عَنْهَا جَمِيعاً وَقُلْتُ - وَإِنِّي لِأَحْدِثُهُمْ سِنّاً وَأَرْمُصُهُمْ عَيْناً وَأَعْظُمُهُمْ بَطْناً وَأَحْمِشُهُمْ سَاقاً: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكُونُ وَزِيرَكَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَ بِرَقَبَتِي ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، قَالَ فَقَامَ الْقَوْمُ يَضْحَكُونَ فَيَقُولُونَ لِأَبِي طَالِبٍ: قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْمَعَ لِابْنِكَ وَتَطِيعَ^(١).

لقد استخَدَمَ الْمُشْرِكُونَ لِثَنِي الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ مُحَمَّدٍ (ص) عَنْ آدَاءِ رِسَالَتِهِ وَالْمُضِيِّ فِي دَعْوَتِهِ كُلِّ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ بَقِيَ صَامِداً ثَابِتاً فِي الطَّرِيقِ.

فَذَاتَ يَوْمٍ - مِثْلاً - جَاءَ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ عَمِّ النَّبِيِّ فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ إِنَّ لَكَ سِنّاً وَشَرَفاً وَإِنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ أَنْ تَنْهِيَ ابْنَ أَخِيكَ فَلَمْ تَفْعَلْ وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا مِنْ شَتَمِ آلِهَتِنَا وَآبَائِنَا وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا حَتَّى تَكْفَهُ عَنَّا أَوْ نَنَازِلَهُ وَإِيَّاكَ فِي ذَلِكَ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ أَوْ كَمَا قَالُوا ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ.

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٦٢.

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له، ولم تطب نفسه باسلام^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم وخذلانه، وبعث إلى رسول الله (ص) فأعلمه ما قالت قريش وقال له: إبقِ على نفسك وعليّ ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، فظنّ رسول الله (ص) أنّه قد بدا لعمه، وأنه خذله وقد ضعف عن نصرته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عمّاه لو وضّعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(٢).

لقد واجه رسول الاسلام عالماً من الكفر والشرك، وواجه في جميع مراحل دعوته مئات المشكلات، والمتاعب، فقد آذوه في نفسه وأهله .. عذّبوا أنصاره وأتباعه القليلين بصنوف التعذيب .. حبّسوه وأهله وأتباعه في شعب أبي طالب وحاصروهم اجتماعياً واقتصادياً اشدّ المحاصرة .. وكان معرضاً دائماً لخطر الاغتيال والقتل، فقد قرّروا مراراً قتله والقضاء عليه، و.. و.. ولكنه بقي يواصل مهمته رغم كل ذلك بصبر وثبات وصلابة واستقامة حتى انتصر على أعدائه ومعارضيه ورفع لواء التوحيد في العالم، وبهذا أعطى للمسلمين والموحّدين والمصلّحين دروساً بليغة في الصبر والإستقامة، والثبات والهادفية.

فكّروا وأجيبوا

- ١ - كيف أدّى الأنبياء مهمتهم الإلهية، وما هو أكبر عاملٍ من عوامل إنتصارهم ونجاحهم؟
- ٢ - من أيّ مصدر كان الأنبياء يستمدّون إستقامتهم؟
- ٣ - أذكروا شاهداً واحداً على إستقامة النبي إبراهيم عليه السلام وثباته.

(١) اي تسليمه إلى قريش.

(٢) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٦٤ - السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٨٤.

- ٤ - اذكروا شاهداً واحداً على إستقامة النبي موسى عليه السلام وثباته.
- ٥ - اذكروا شاهداً واحداً على إستقامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وثباته.
- ٦ - ما هي الدروس التي أعطاها الأنبياء وبخاصة رسول الاسلام للمسلمين والموحدين باستقامتهم؟.

* * *

الفصل الثاني

النُّبُوَّةُ الْخَاصَّةُ

الدَّرْسُ الثَّامِنُ عَشْرُ

مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الْإِسْلَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

في قسم النُّبُوَّةِ العامَّةِ تعرَّفتم على مسائل النبوة العامَّة مثل: ضرورة إرسال الأنبياء أساساً، شرائط النبوة، برامج الأنبياء وأهدافهم، طرق معرفة الأنبياء .. وفي قسم النبوة الخاصَّة يتركِّز البحثُ على دراسة وتعيين المصاديق الخاصَّة، وبعبارةٍ أخرى معرفة الأنبياء الصادقين وطرق إثبات نبوتهم، وفي هذا المجال سنكتفي بدراسةٍ حول رسولِ الله صلى الله عليه وآله فقط لأنَّ باثبات نبوته ستثبت نبوة غيره من الأنبياء الذين مرَّت الإشارة إلى ذكر اسمائهم والتي وردَّت في القرآن الكريم أيضاً. لقد قلنا فيما سبق أنَّ صحَّة دعوى النُّبُوَّة وصدق النبي في إدِّعائه يثبت بإحدى طرق أربع هي:

- ١ - مطالعة شخصيَّة مدَّعي النبوة ودراسة أحوال وأخلاقه، وتصرفاته وسوابقه.
- ٢ - دراسة العقائد والأخلاق والأحكام والقوانين التي عرضها مدَّعي النبوة على الناس.
- ٣ - إخبارات الأنبياء السابقين الذين ثبتت نبوتهم بالأدلة القطعيَّة وبشائهم

به وبمبعثه.

٤ - الإتيان بالمعجزة والعمل الخارق للعادة.

إن الذين يؤمنون بنبوّة أحد ويعتقدون دينه يستفيدون من إحدى هذه الطرق، ولنرى الآن من أيّ طريق استفاد المسلمون الأوائل وكيف وبأيّ دليل آمنوا برسول الإسلام محمّد صلى الله عليه وآله؟.

من دراسة سريعة وقصيرة لتاريخ الإسلام إبان ظهوره يتضح لنا ان المسلمين استفادوا من جميع هذه الطرُق الأربع، ولكن كل جماعة من طريق واحد منها.

الطريق الأوّل دراسة حياة النبيّ

إنّ شخصيّة رسول الإسلام المعنويّة الممتازة، وأخلاقه العظيمة وسلوكه الرفيع كانت بشهادة التاريخ أحد العوامل المهمّة في نجاحه صلى الله عليه وآله وما أحرزه من انتصار.

إن شخصيّة محمّد (ص) المتميزة الإستثنائية كانت واضحة الملامح منذ طفولته وصباه وشبابه .. كان يدافع عن المحرومين والمظلومين ويحميهم .. ولم تكن في سجلّ حياته أيّة سابقة سوء، ولا أيّة نقطة سوداء مشينة .. كان شخصيّة روحانية معنوية رائعة .. ولم يكن كسائر الناس يعشق المال والجاه .. كان صادقاً، أميناً، حسن الأخلاق محسناً، رحيماً، كان محترماً لدى الآخرين مبجّلاً عند الناس مشتهراً بالصادق الأمين حتى قبل بعثته .. وعلى أثر هذه المنزلة المعروفة، وهذه السوابق الساطعة قبل فريق من الناس دعوته، وصدّقوا بنبوته وانصّوا تحت لوائه.

ولهذا عندما عاد إلى منزله من حراء في بدء نزول الوحي عليه مضطرباً، وقصّ على زوجته خديجة ظهور جبرائيل له، وقضية نبوته أيّدته السيدة خديجة فوراً، ولم تردّد في صدق دعواه أبداً.

يقول رسول الله (ص): «فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ لَقَدْ أَشْفَقْتُ عَلَى نَفْسِي وَأَخْبَرْتُهَا خَبْرِي».

فَقَالَتْ: ابْشِرْ، فَوَالله لَا يَخْزِيكَ أَبَدًا. فَوَالله إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ، وَتُدِّيَ الْأَمَانَةَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ، وَتُقْرِىَ الضَّيْفَ، وَتَعِينَ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ! (١).
على أن رسول الله (ص) نفسه يشير إلى هذه الناحية ذاتها في دعوته عندما دعى عشيرته الأقربين.

يقول البلاذري في هذا المجال: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفا فنَادَى: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ» فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مُحَمَّدٌ عَلَى الصَّفا يَهْتَفُ، فاقْبَلُوا واجْتَمِعُوا،
فَقَالُوا: مَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ؟

قال: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً أَسْفَحَ هَذَا الْجَبَلَ، أَكُنْتُمْ تَصَدِّقُونِي؟
قالوا: نَعَمْ، أَنْتَ عِنْدَنَا غَيْرَ مَتَّهَمٍ وَمَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ.
قال: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي زُهْرَةَ، حَتَّى عَدَّ الْأَفْخَاذَ مِنْ قُرَيْشٍ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنَفْعَةً وَلَا مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيحًا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (٢).

الطريق الثاني دراسة العقائد والأحكام والقوانين

لقد قبل جماعة أخرى دعوة النبي لأنهم وجدوا العقائد التي يدعو إليها منطقاً على الموازين العقلية كما وجدوا الأحكام والقوانين التي يعرضها عليهم يمكنها

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٨.

(٢) أنساب الأشراف ج ١ ص ١٢٠.

توفير سعادتهم وراحتهم، والحيلولة دون المفسد الاجتماعية.

إنهم أحسّوا بأن عرض مثل هذه العقائد الصحيحة السامية، وتنظيم مثل هذه القوانين الجامعة الكاملة لا يمكن أن يتحقق بواسطة إنسان عاديٍّ أميٍّ يعيش في مثل ذلك المجتمع المنحطّ، بل لا بدّ أن يكون من جانب الله تعالى، وهذه الجهة قبلوا دعوته وآمنوا به .. أجل إنهم كثيرون هم الذين آمنوا برسول الله (ص) وأسلموا من هذا الطريق، وعلى سبيل المثال:

كتب أبو الفداء: عمرو بن عنبسة السلمي رضي الله عنه قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول ما بُعث وهو بمكة، وهو حينئذ مستخفٍ فقلتُ: ما انت؟ قال: أنا نبي، فقلتُ: وما النبي؟ قال رسول الله قلت: الله أرسلك؟ قال: نعم. قلتُ بِمَ أرسلك؟ قال: بأن تعبد الله وحده لا شريك له وتكسر الأصنام، وتوصل الأرحام. قال: قلتُ: نعم ما أرسلك به قال: فأسلمتُ^(١).

ويكتب أبو الفداء أيضاً: قدّم ضهاد مَكَّة، وهو رجلٌ من أزدشنوءة وكان يركب من هذه الرياح. فسمع سفهاء من سُفّه مكة يقولون: إن محمداً مجنونٌ. فقال: أين هذا الرجل لعلّ الله أن يشفيه على يديّ؟ فلقيتُ محمداً فقلت: إني أركب من هذه الرياح وإن الله يشفي على يديّ من شاء فهلّم. فقال محمد: إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضلّ له. ومن يضلّل فلا هادي له، أشهد أن لا آله إلا الله وحده لا شريك له، ثلاث مرات فقال: والله لقد سمعتُ قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعتُ مثلَ هذه الكلمات فهلّم يدك أباعك على الإسلام فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

وبعد أن هاجر جماعة من المسلمين إلى الحبشة حفاظاً على دينهم وعقيدتهم

(١) السيرة النبوية لأبي الفداء ج ١ ص ٤٤٢.

(٢) السيرة النبوية لأبي الفداء ج ١ ص ٤٥٢.

بعثت قريش رجلين منهم مبعوثين بهدايا إلى ملك الحبشة لِيَسْتَرِدَّا المسلمين اللاجئين إلى تلك البقاع .. فذهبا إلى الحبشة، وطرحا مطلبهما على ملكها (النجاشي) فاستدعى النجاشي المسلمين واستخبرهم الحال. فدار حوارٌ جميلٌ في ذلك المجلس نذكره هنا:

كتب ابن الأثير: ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي (ص) فدعاهم فحَضَرُوا وقد اجتمعوا على صدقه فيما ساءه وسره، وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب، فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتُم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحدٍ من الملل؟ فقال جعفر: أيها الملك؛ كنّا أهل جاهليّة نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي من الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا لتوحيد الله وأن لا نشرك به شيئاً ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام، وعدّد عليه أمور الإسلام قال: فأما به وصدقناه، وحرّمنا ما حرّم علينا وحلّلنا ما أحلّ لنا . فتعدّى علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان فلمّا قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيّها الملك. فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه سطوراً من كهيعص، فبكى النجاشي وأساقفته، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . إنطلقوا والله لا أسلمهم اليكما ابداً^(١).

وفي الخاتمة يجب التذكير بهذه النقطة وهي أن إيمان أغلبية من أسلموا في صدر الاسلام وإن كان حاصلاً من أحد هذين الطريقتين، وهكذا إطمأنوا إلى صحة ادعاء

نبي الاسلام وتيقنوا نبوته، ولكن هذين الطريقين - كما أسلفنا - تعتبران من الشواهد والقرائن على صدق الدعوى، ولهما قيمة الشاهد والقرينة، ولا يمكن عدّهما من الأدلة القطعية.

فَكِّرُوا وَأَجِيبُوا

١ - هل كان لشخصية رسول الاسلام الممتازة أثر في إيمان الناس بدعوته ؟ ما هو ذلك الأثر؟

٢ - ماذا قالت خديجة للنبي؟

٣ - ماذا قال رسول الله لقريش؟ ماذا كان هدفه من هذا الكلام؟

٤ - من أي طريق آمن عنبسة؟

٥ - كيف وصف جعفر الإسلام للنجاشي؟

٦ - كيف برّر إيمانهم برسول الله وقبولهم للإسلام؟

* * *

الدرس التاسع عشر

رسول الإسلام والبشارات

إن موضوع البشارات بمجيء رسول الله (ص) أمر قطعي وغير قابل للشك في نظر القرآن الكريم، وعلى سبيل المثال نلفت نظركم إلى الآيات التالية:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١).

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).

(١) البقرة - ٨٩.

(٢) البقرة - ١٤٦.

(٣) الأعراف - ١٥٧.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(١).

يُستفاد من الآيات المذكورة ونظائرها أن اليهود والنصارى القاطنين في الجزيرة العربية في عصر البعثة النبوية وإبان نزول القرآن كانوا ينتظرون ظهور نبي يُبعث من تلك الديار، يدافع عن التوحيد والموحدين، وكانوا على علمٍ بصفاته وعلائمه، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، بل ويعرفون أن اسمه «أحمد» .. وكان اسمه وعلائمه موجودة في التوراة والانجيل، وقد بشر بمجيئه النبي موسى وعيسى وغيرها من الأنبياء والرسل الإلهيين..

ولقد كان هذا الأمر واضحاً وقطعياً جداً إلى درجة أن اليهود كانوا كلّمًا تعرّضوا لأذى من المشوكين، ولم يمكنهم الدفاع عن أنفسهم هددوهم بأنه سرعان ما يُبعث النبي المعهود ويدافع عنهم، ويحميهم.

ولقد كتب ابن هشام في هذا المجال يقول: عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إنّ ممّا دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهُداهُ لنا، لما كنّا نسمعُ من رجال يهود - وكنا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علمٌ ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ - فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقاربَ زمانُ نبيّ يُبعثُ الآنَ ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمعُ ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنّا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١﴾.

يقول البلاذري: إِنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ قَالَتْ لِأَبِي لَهَبٍ: أَيُّ أَخِي أَحْسَنُ بِكَ خِذْلَانُ ابْنِ أَخِيكَ وَإِسْلَامُهُ؟ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ الْعُلَمَاءُ يَخْبُرُونَ أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنْ ضَنْضِيِّ عَبْدِ الْمَطْلَبِ نَبِيٌّ هُوَ (٢).

لقد كان موضوع بشارات وتنبؤات الأنبياء السابقين وبخاصة النبي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام بظهور رسول الإسلام أمراً معروفاً وشائعاً بين الناس، ولهذا بادَرَ فريقٌ من الناس إلى الاستجابة لدعوة النبي واعتناق دينه .. وان إسلام ثعلبة بن سعية واسيد بن سعية واسد بن عبيد وجمع آخر من أهل الكتاب كان على اثر هذه البشارات (٣).

كما كان إسلام عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وجماعةٍ أخرى من هذا الطريق. ولقد كان يُتوقع - مع وجود مثل هذه البشارات البيّنة - أن يرحّب يهود الجزيرة العربية ونصاراها بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله ويؤمنوا به قبل غيرهم، ولكن وللأسف لم يحدث مثل هذا ومع أن أكثر المشركين قبلوا دعوته، أعرَضَ اليهود والنصارى عنه وأمتنعوا عن قبول الإسلام بحججٍ واهيةٍ، وخاطئةٍ.

صحيحٌ أن بعضَ أهلِ الكتاب أيضاً عمدوا إلى قبول دعوة النبي، ولكن أكثرهم لم يكتفوا بالإحجام عن قبول دعوته فحسب، بل التحقوا بصفوف معارضيهِ .. إنهم كانوا يقولون ان النبي الموعود يجب أن يكون من بني اسرائيل، ومحمدٌ ليس كذلك، ومع أن التوراة والإنجيل الموجودين فعلاً ليسا هما التوراة والإنجيل للذين

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٢٥.

(٢) أنساب الاشراف ج ١ ص ١١٩.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٢٦.

نزلا على النبي موسى وعيسى، بل تعرّضا للتحريف، ولكن مع ذلك نلاحظ فيهما
بشارات بالنبي محمد (ص) تفيد المنصفين المتحرّرين من العصبية والتحيز.
ولكن التحقيق في البشارات يحتاج إلى دراسة التوراة والإنجيل وبعض كتب
الأديان الأخرى، وكذا كتب التاريخ والحديث، دراسة دقيقة وهو أمر لا يلائم شرائط
هذا الكتاب ودروسه، وهو يحتاج إلى بحثٍ مفصّلٍ وتأليفٍ مستقلٍّ.

التكليف:

- ١ - إحفظوا الآيات وتعلّموا تفسيرها جيداً؟
- ٢ - ماذا كان الناس ينتظرون إبان نزول القرآن؟
- ٣ - ماذا كان منشأ هذا الإنتظار والتوقع؟
- ٤ - ماذا كان يقوله أهل الكتاب للكفار قبل ظهور نبيّ الاسلام؟
- ٥ - ماذا كان أثر البشارات بمجيء رسول الاسلام، في الناس يومذاك؟
- ٦ - كيف كان تعامل أهل الكتاب أنفسهم مع هذه البشارات بعد تحقّقها
بظهور رسول الاسلام؟

* * *

الدَّرْسُ العِشْرُون

رَسُولُ الْإِسْلَامِ وَالْإِعْجَازُ

قلنا سابقاً أنَّ أفضلَ طريقٍ لمعرفة النبيِّ هو إتيانه بالمعجزة .. فإنَّ الله القادرَ الحكيمَ يُمْكِنُ أَنْبِيَاءَهُ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمَعْجَزَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَلِاثْبَاتِ صَدَقِ دَعْوَاهُمْ .. وَكَانَ رَسُولُ الْإِسْلَامِ يَمْتَلِكُ مِثْلَ هَذِهِ الْقُدْرَةِ عَلَى غَرَارِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَيْضاً. وَلَقَدْ أَيْدَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَوَعَ الْإِعْجَازُ عَلَى أَيْدِي الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، وَقَدْ اعْتَرَفَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي جَاءَ بِالْعَشْرَاتِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَاجِزِ الَّتِي أَتَتْ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُوَ عَاجِزاً عَنِ الْإِتْيَانِ بِالْمَعَاجِزِ؟

هل يمكن أن يقول للناس: لقد أتى الأنبياء السابقون بمعاجز لإثبات نبوتهم، ولكنني لا أقدر أنا على الإتيان بالمعجزة، فاقبلوا دعوتي من دون معجزة؟

كلّا إنَّ هذا لا يمكن أبداً .. لقد كانوا يطلبون المعجزة من رسول الإسلام، وكان يأتي بها في المواضع اللازمة وكلما اقتضت الحاجة، وقد كان هذا الأمر منذ بداية البعثة.

كتب البلاذري قائلاً: قَالَ وَرَقَةُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ نَبِيٌّ إِلَّا لَهُ آيَةٌ وَعَلَامَةٌ فَمَا آيَتُكَ؟ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سُمْرَةَ فَأَقْبَلَتْ تَحْدُ الْأَرْضَ خَدّاً.

فقال ورقة أشهد لئن أمرت بالقتال لأقاتلن معك، ولأنصركن نصراً مؤيداً^(١). ولقد ذكرت مئات المعاجز لرسول الإسلام صلى الله عليه وآله في كتب الحديث والتاريخ والفضائل^(٢)، ونذكر من باب النموذج معجزة واحدة ذكرها الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام:

قال: ولقد كنت معهُ صلى الله عليه وآله لما أتاه المَلَأُ من قريش، فقالوا له: يا محمد، إنك ادعيت عظيماً لم يدعه أبأوك ولا أحدٌ من بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتنا علمنا أنك نبيٌ ورسولٌ. وإن لم تفعل علمنا أنك ساحرٌ كذابٌ. فقال صلى الله عليه وآله: وما تسألون؟ قالوا تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك.

فقال صلى الله عليه وآله: إن الله على كل شيء قدير. فإن فعل الله لكم ذلك أتؤمنون وتشهدون بالحق؟ قالوا نعم.

قال فإني سأريكم ما تطلبون وإني لأعلم أنكم لا تفيثون إلى خير، وإن فيكم من يطرح في القلب، ومن يحزب الأحزاب ثم قال صلى الله عليه وآله: يا أيها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقي حتى تقفي بين يدي باذن الله. فوالذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دويٌّ شديدٌ، وقصفٌ كقصف أجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله (ص) مرفرفةً، وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وبيعض أغصانها على منكبي وكنت عن يمينه (ص).

فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا - علواً واستكباراً - فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها، فأمرها بذلك فاقبل إليه نصفها كأعجب إقبال واشده دويّاً، فكادت تلقف

(١) انساب الاشراف ج ١ ص ١٠٦، والسمة ضرب من شجر الطلع.

(٢) راجع كتاب البداية والنهاية ج ٦ وكتباً أخرى.

رسول الإسلام والإعجاز ١٠٣

برسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا - كفراً وعتواً - فمرّ هذا النصف فليرجع إلى نصيفه كما كان، فامرّه رسول الله صلى الله عليه وآله فرجع.

فقلت أنا: لا إله إلا الله، إني أول مؤمن بك يا رسول الله وأول من أقرّ بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوّتك وإجلالاً لكلمتك.

فقال القوم كلّهم: بل ساحرٌ كذابٌ عجيبُ السحر، خفيف فيه، وهل يُصدّقك في أمرِك إلا مثل هذا؟!^(١).

لقد نُقِلَ في كتب الحديث والتاريخ مئات المعاجز للنبي الإسلام ثبت أصل وقوع المعجزة على يديه بصورة قاطعة وحتمية، ولكننا لا ندعي أنّ كل تلك المعاجز التي نسبت إلى رسول الله (ص) في الكتب هي قطعية ولا تقبل الشك والنقاش، بل أنّ بينها قضايا موضوعيّة ومختلقة أو ضعيفة قابلة للخدش والجرح أيضاً، ولكن طائفة من تلك المعاجز صحيحة ومعتبرة وتكفي لإثبات أصل وقوع الإعجاز للنبي (ص).

إنّ نبوة النبيين موسى وعيسى ثبتت من هذا الطريق، وأدلة إثبات نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله لا تقلّ عن ذلك شيئاً.

وفي الخاتمة نرى من الضروري أن نذكر بنقطة وهي: أن إثبات المعجزة للنبي لا يستلزم أن يأتي النبي بالمعجزة وفق رغبة هذا أو ذاك أو في كلّ وقت أرادوا منه أن يقوم فيه بعمل معيّن خارق للعادة، أي ليس عليه أن يأتي بكل عمل إعجازيّ اقترحوه عليه وفق أهوائهم وميوههم.

إنّ المعجزة عملٌ خارق للعادة، الهدف منه اتمام الحجة وإثبات صدق النبي، وهو يقع في المواقع الضرورية والأوقات اللازمة.

إنّ النبي ليس صاحب شعبة وقهرماناً كي ينفذ ما يقترحه الآخرون من

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٢ السمرة: تحدّ الارض: تشق الأرض.

أعمال غريبة وفق أهوائهم وميولهم لغرض التسلية، واللّهو واللعب. أو اظهار القوة. إنما هو رسول الله بعثه سبحانه هداية الناس وإبلاغ رسالاته اليهم، ولهذا عليه أن يظهر آيةً ومعجزةً كلّما اقتضت الضرورة لإثبات صدق مدّعا، وإتمام حجّته. ولكن بعد إتمام الحجّة لا يلزم أن يكرّر المعجزة لأهل اللجاج، والمعاندين.

فبعد أن أظهر رسول الاسلام معاجز عديدة بل وأعلى من ذلك قد عرض القرآن الكريم وقدمه للناس على أنه معجزته الخالدة، وقبل جماعة دعوته، وصدّقوا مقالته، لو امتنع بعض المعاندين المتحجّجين عن الايمان به، واتّهموه بالسحر والجنون وقالوا: إننا لن نؤمن بك حتى تقوم لنا بالعمل الفلاني، أو العمل الفلاني من طريق الاعجاز لا يجب عليه أن يلبي مطالبهم، وينفذ مقترحاتهم لأنه قد أتى بالمعجزة اللازمة وتمت حجّته، وثبت صدقه وحقه. ولقد وقع مثل هذا الأمر فعلاً من بعض المشركين المعاندين .. أنظروا إلى الآيات التالية:

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً . وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَةِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾^(١).

ففي هذه الآيات يشير سبحانه في البداية إلى القرآن الكريم على أنه المعجزة الخالدة، التي لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله ثم بين مطالب المعارضين

المعاندين الذين رفضوا الإيمان عناداً، رغم أنه قدم لهم القرآن الكريم كمعجزة لا يقدرّون على الاتيان بمثلها وقالوا لرسول الله (ص): نحن لا نؤمن بك حتى تشقّ لنا الارضَ ينابيعَ وأنهاراً، أو يكون لك بستانٌ زاخر بالتمر والعنب تجري من تحتها الانهار، أو يكون لك بيتٌ من ذهب أو تصعد إلى السماء وتأتي من الله برسالةٍ خاصةٍ إلينا، فيقال لرسول الله بأن يقول لمثل هؤلاء المعاندين العتاة: كل هذه الأمور بيد الله وأنا لست سوى بشرٍ مبعوثٍ من جانبه تعالى، أرسلتُ لكي أُبلغكم رسالات الله وما أتيتُ لكي أقوم لكم بما تقترحه أهوائكم من خوارق الأعمال كلّما شئتم وهو يتم .. إن المعجزة بيد الله، فهو يفعلها متى شاء ورأى.

فَكَّرُوا وَأَجِيبُوا

- ١ - لماذا يجبُ أن تكونَ لرسول الإسلام معجزةٌ؟
- ٢ - بينوا المعجزة التي شهد الامام عليٌ بوقوعها.
- ٣ - ما هي المعجزة؟
- ٤ - هل يجبُ على النبي أن يأتي بكلّ معجزة طلبها الناس منه؟
- ٥ - ماذا قال النبي ردّاً علي طلب المعاندين؟
- ٦ - إحفظوا الآيات، وتعلّموا تفسيرها جيداً.

الدرس الواحد والعشرون

القرآن المعجزة الخالدة

القرآن المجيد أهم معجزة وأفضل دليل لنبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وهو يتميز على ^{غيره} حقيرة من المعاجز من نواحٍ عديدة.

فهو أولاً: المعجزة الخالدة التي أُقيمت للناس في جميع العصور والدهور والأوقات والأزمنة، على العكس من سائر المعاجز التي لها زمان خاص، أي أنها مؤقتة.

وثانياً: ان هذا الكتاب يمكن أن يكون حاضراً في كل مكان وأن يكون معجزة لكل أحد ليلمس إعجازه بنفسه، بخلاف المعجزات الأخرى التي تقع في مكانٍ خاص ويشاهدها فريق خاص من الناس.

وثالثاً: مضافاً إلى أنه دليل على نبوة النبي فإنه يهدي البشر، ويقدم برنامجاً كاملاً لحياتهم، بخلاف سائر المعجزات التي يؤتى بها لمجرد إثبات صدق إدعاء النبي.

ولقد وصف القرآن الكريم نفسه منذ البداية بأنه الكلام الإلهي، والوحي الساوي، وأنه المعجزة التي يعجز الآخرون عن الإتيان بمثلها، وطلب من الناس إذا لم يقبلوا بإعجازه ان يأتوا بعشر سور أو سورة واحدة من مثله على الأقل.

لاحظوا الآيات التالية رجاءً:

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٣).

ففي هذه الآيات كما تشاهدون يتحدّى القرآن الناس بصراحة، ويطلب منهم إذا ما كانوا في شك في أن القرآن وحي من جانب الله، أو كانوا في شك من نبوة محمد واحتملوا أن القرآن كلام آدمي أن يأتوا بعشر سور أو بسورة واحدة من مثل سور القرآن. كما ويقول صراحة أنه لو تضافرت جهود الإنس والجن وتعاونوا على أن يأتوا بذلك لما استطاعوا.

فلو كان النبي محمد صلى الله عليه وآله يشك في رسالته ونبوته، لما كان يتحدّى معارضيه بمثل هذه القوة، والصراحة، ولكان معارضوه يفعلون ذلك حتماً لو قدروا واستطاعوا حتى لا يضطروا إلى خوض كل تلك المعارك والحروب وسفك الدماء وتحمل المشاق، والحال أنهم لم يفعلوا مثل ذلك العمل قط.

إن تحدّي القرآن الكريم لا يختص بالذين كانوا يعيشون في عصر النبي، بل هو يتحدّى كل البشر في جميع الأزمنة والأمكنة، ويطلب منهم أن يفعلوا لو استطاعوا،

(١) الاسراء - ٨٨.

(٢) هود - ١٣ - ١٤.

(٣) البقرة - ٢٣ - ٢٤.

ويقول لجميع العلماء ولجميع فئات الناس: إذا شككتكم في كون القرآن وحياً منزلاً، وشككتكم في رسالة النبي محمد فأتوا بمثل القرآن ولكن - وكما أخبر القرآن سلفاً - لم يحدث مثل هذا الفعل وإلى الآن.

لقد اجتهد أعداء الإسلام طوال التاريخ في معارضة الإسلام والمسلمين ومواجهته بكل وسيلة ممكنة، بل وأقدموا على تأليف كتب في الرد على القرآن، ولكنهم لم يقدروا على تدوين كتاب على غرار القرآن، ولم يأتوا بمثل آياته وسوره. إن القرآن الكريم حيث أنه كلام إلهي فانه يتمتع بجاذبية كبيرة وحلاوة خاصة لا تتسم بها الكتب الأخرى، وعلى أثر هذه الجاذبية مالت إليه القلوب الطيبة وانجذبت الضائر اليقظة، والنفوس الحرة، فقبلوا بأن القرآن وحي إلهي، وصدقوا برسالة محمد (ص) وأسلموا.

إن الكثير من الناس لما استمعوا إلى القرآن إهتدوا إلى إعجازه، وعرفوا بانه ليس كلاماً عادياً فأسلموا من هذا الطريق، كما نلاحظ لذلك نماذج عديدة في التاريخ.

لقد كانت جاذبية القرآن من القوة والعمق بحيث خلّب هذا الكتاب الأبواب أعداء الإسلام أيضاً فاعترفوا باعجازه، على عنادهم ولجاجهم، ونذكر على سبيل المثال ما يلي:

كتب أبو الفداء يقول: ان الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكانه رَقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم، قال ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول، فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن

القرآن والمعجزة الخالدة ١٠٩

لَقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُهُ حَلَاوَةٌ، وَإِنْ عَلَيَّ لَطَاوَةٌ، وَإِنَّهُ لَمُثْمَرٌ أَعْلَاهُ، مَغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ. قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ.
قَالَ: قَفَّ عَنِّي حَتَّى أَفَكَّرَ .. فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يُؤْثَرُهُ عَنْ غَيْرِهِ^(١).

نافع عن ابن عمر قال: لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله على عتبة بن ربيعة ﴿حَمِّ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أتى أصحابه فقال لهم: يا قوم أطيعوني في هذا الأمر اليوم وأعصوني فيما بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعتُ أذنائي كلاماً مثله وما دريت ما اردُ عليه^(٢).

فكروا وأجيبوا

- ١ - بماذا يمتاز القرآن على غيره من المعجزات؟
- ٢ - كيف يصف القرآن نفسه؟
- ٣ - لماذا طلب النبي محمد من الناس بمثل هذه القاطعية أن يأتوا بمثل القرآن؟

- ٤ - هل كان أعداء الاسلام يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن؟ لماذا؟
- ٥ - لماذا لم يقدر الأعداء طيلة التاريخ على أن يأتوا بمثل القرآن؟
- ٦ - لماذا كان الناس يسلّمون بمجرد إستماعهم للقرآن الكريم؟
- ٧ - ماذا قال الوليد بن المغيرة حول القرآن؟
- ٨ - إحفظوا الآيات، وتعلّموا تفسيرها جيداً.

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٨ - المستدرك على الصحيحين ج ٢ ص ٥٠٦.

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٢.

الدرس الثاني والعشرون

إعجاز القرآن في أسلوب النظم والتأليف

في الدرس السابق قرأتم أن القرآن وصف نفسه بأنه باعتباره كلام الله وبأنه معجزة يختلف عن كلام الآدميين اختلافاً كبيراً، ولا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله قط، وعلى أثر هذا الإمتياز لبى فريق من الناس دعوة الرسول وآمنوا به واعتنقوا الإسلام. وحتى أنه اعترف جماعة من المعاندين بأن القرآن يختلف عن غيره من الكلام، ولكننا لم نبيّن في ذلك الدرس جهة إعجاز القرآن، والآن نبحث حول الخصوصية التي جعلت القرآن هكذا أمراً خارقاً للعادة، ونرى ما هي؟

لقد ذكر العلماء والمفسرون وجوهاً في هذا المجال نشير إلى بعضها هنا:

الوجه الأول: الأسلوب البديع في التأليف

إذا طالعنا القرآن الكريم بعناية ودرسناه بدقّة شاهدنا أن آياته نُظِّمَتْ بصورةٍ بديعةٍ مبتكرةٍ تختلف عن أسلوب وطريقة التأليفات والكتب الأخرى إختلافاً كاملاً .. إن آيات القرآن ليست شعراً، لأن للشعر قوافي وأوزاناً خاصة والقرآن ليس كذلك .. هذا مضافاً إلى أن الأشعار غالباً ما تكون مصبوبة في قالب من الخيال والمبالغة، والقرآن ليس كذلك، ورغم أن القرآن ليس شعراً فإن آياته قد رتبت على نحو مقاطع

الشعر في انسجام وتناسق خاصين، ليست له قافية ولكن بين آخر كل كلمة وحرف من الآيات تشابهاً واضحاً وتناسباً خاصاً يمنحها جاذبية مثيرة وجمالاً ساحراً وفريداً .. ومع أن القرآن ليس شعراً، ولم يُنظم وفق أوزان الشعر، لكنه يتمتع بنوع من الانسجام الذي يمنحه عند التلاوة إيقاعاً رائعاً، وجاذبيةً عجيبةً لا نجد نظيرها في الكتب الأخرى قط.

إن القرآن الكريم نُظِمَ على نمط النثر، ولكن يختلف عن غيره من النثر اختلافاً كلياً، وذلك لأنه - أولاً - في أعلى مرتبة من مراتب الفصاحة والبلاغة وجمال التركيب، قد صُبَّت فيه أرفع المفاهيم في أجمل القوالب اللفظية والتعبيرية التي في عين بساطتها تحظى بجمال وجاذبية وحلاوة خاصة لا تشاهد في كلام آخر مهما كان جميلاً ولطيفاً.

والعجيب أنه حتى خطب النبي محمد صلى الله عليه وآله وأحاديثه وأدعيته لا تتمتع بمثل هذه الجاذبية.

كما وإن الامام علياً عليه السلام رغم كونه من أقوى الفصحاء، ورغم أنه كان قد أنس بالقرآن الكريم منذ صباه، وكان حافظاً وكاتباً للقرآن، لا تتمتع كلماته وخطبه في نهج البلاغة بما يتمتع به القرآن الكريم من جمال وجاذبية، وكلما استشهد الإمام في أحاديثه أو في خلال خطبه ورسائله وكلماته في نهج البلاغة بآية من آيات القرآن الكريم لمعت تلك الآية خلال الكلام العلوي كما يلمع النجم اللامع مما يجعله متميزاً على كلام الإمام علي عليه السلام.

وثانياً إن المطالب والمفاهيم نُظِمَت في القرآن الكريم بأسلوب خاص لا يرى في الكتب الأخرى.

فلقد طُرِحَت في القرآن الكريم مواضيع متنوعة ومختلفة، مثل معرفة الله والمعاد والقيامة، والجنة والنار، والنبوة، وقصص الأنبياء السابقين، والحث على عبادة الله

الواحد والأخلاق الحميدة والذميمة، وخلق الأرض والسموات والانسان والحيوان، والنبات والبحار والجبال، والسحاب والرياح، والمطر، ووظائف الانسان، وأحكام الدين وقوانينه، والمحرمات، والعبادة، والموعظة وعشرات المواضيع الأخرى.

لقد طُرِحَت هذه المواضيع والعشرات من نظائرها في القرآن الكريم ولكن لا بالشكل الذي يُطرح عادةً في الكتب المتعارفة .. فالمتعارف بين المؤلفين هو أن يعالجوا في كتابهم موضوعاً واحداً ويدرسوا ما يرتبط به من مسائل بصورة منظمة مُرتبة، ثم يستنتجوا مما سبق .. ولكن جميع المسائل ترتبط على كل حال بهذا الموضوع الواحد، وإذا ما تعرّضوا لمسائل أخرى فإن ذلك يكون على نحو الإستشهاد .. وربما عُولج في الكتاب موضوعات متعددة ولكن يُبحث في كل موضوع على حده وبصورة مستقلة، وتطرح المسائل فيه بصورة منظمة .. إنَّ مثل هذا الكتاب في الحقيقة كُتِبَ متعدّد لا كتاب واحد.

ولكن القرآن الكريم لم يُنظَّم على هذا النمط ، .. إن المسائل المرتبطة بموضوع واحد لم تجمع ولم تُدوّن في مكان واحد، بل تمّ بيانها بمناسبات مختلفة في موارد متعدّدة، وربما كرّرت مع رعاية التناسب بعبارات مختلفة، بل وربما كرّرت نفس العبارات مرتين أو مرات.

إنَّ موضوعات القرآن ومطالبه المتنوعة جاءت في القرآن الكريم بصورة متفرقة ووضّع بعضها إلى جانب بعض ولكنَّ بينها مع ذلك كمال الترابط والتناسب، وهو ترابط وتناسب في غاية الجمال، وبحيث لا يقبل الوصف.

إنَّ المفاهيم الرفيعة والمعارف العالية القرآنية المتنوّعة نظّمت في هذا الكتاب مثل مجوهرات ثمينة متنوعة وجُعِلَ بعضها الى جانب بعض في انسجام وتناسب خاصين وتشكّل الآيات السور.

ان مثل هذا التركيب والتناسق البديعين الجميلين لانجدهما في أيّ كتاب آخر

غير القرآن .. وعلى هذا فإن القرآن لا يشابه الكتب الاعتقادية أو الاخلاقية، ولا كتب القانون، أو القصة، أو الموعظة، أو العلوم الطبيعية، أو العلوم الانسانية، أو الكتب الأدبية أو التاريخية. ولكن له مزايا جميع هذه الكتب، فجميع مواضع القرآن المتفرقة متناسقة وتسعى الى تحقيق هدف واحد وهو عبارة عن تزكية النفوس وتهذيبها ومساعدتها في طريق الصعود إلى الله.

وثالثاً إن المفاهيم القرآنية العالية قد تمّ بيانها في هذا الكتاب بصراحة وقوة وأسلوب بديع يجعلها تنفذ الى أعماق القلوب، فيحس الإنسان وكأن صاحب هذا الكلام يشاهد الحقائق، ويخبر عما وراء حجب الغيب .. فإذا تحدث عن الجنة ونعمها، أو عن النار وعذابها، قد شاهد هذه الأمور بنفسه، وإذا بشر أو أنذر فعَل ذلك عن بصيرة، ورؤية واقعية.

إن هذا الأمر - في نظري - هو أهم مميزات القرآن الكريم وخصائصه، ولهذا السبب يترك القرآن في رُوح المستمع اليقظ الضمير تأثيراً عجباً وعميقاً، ويجذبه ويستحوذ على مشاعره وأحاسيسه، وعلى أثر هذه الجاذبية المعنوية تحير حتى المعاندون كيف يصفون القرآن، فإذا هم يحملونه - في المآل - على السحر.

كتب ابو الفداء يقول: إجتمع قريش يوماً فقالوا أنظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا وعاب ديننا فليكلّمه ولينظر ما ذا يردّ عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا وليد، فأتاه عتبة، فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله (ص) قال فان كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلّم حتى نسمع قولك، إنّنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش

ساحراً وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الجبل أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل إن كان إننا بك الحاجةُ جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إننا بك الباهُ فأختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً.

فقال رسول الله (ص): فرغت؟ قال: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابُ فَصَلَّتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

فقال عتبة: حسبك ما عندك غير هذا؟ قال: لا، فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، ثم قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت بما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويملك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة^(١).

وخوفاً من تأثير هذه الجاذبية المعنوية للقرآن الكريم كان قادة الشرك يوصون الناس بعدم الاستماع إلى رسول الله (ص) كيما لا يضلوا حسب زعمهم!!.

يكتب ابن الأثير: كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا فقد عضل بنا وفرق جماعتنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل، وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه وبينه وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك فلا تكلمه ولا تسمع منه. قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً، ولا اكلمه حتى

حشوتُ أذني كرسفاً فرقاً أن يبلغني من قوله وأنا أريد أن لا أسمع، قال: فغدوتُ إلى المسجد فاذا رسولُ الله (ص) قائمٌ يصلي عند الكعبة، قال: فقمْتُ قريباً منه فابى الله إلا أن يسمعني قوله، فسمعتُ كلاماً حسناً، قال: فقلت في نفسي: واثكلُ أمي والله إنِّي لرجلٌ شاعرٌ لبیبٌ ما يخفى عليّ الحسَنُ من القبيح، فما يمنعني أن اسمع هذا الرجل ما يقول، إن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته، قال فمكثتُ حتى انصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلتُ عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا، ثم إن الله أبى إلا أن اسمع قولك فسمعتُ قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك قال: فعرض عليّ الاسلام وتلى عليّ القرآن قال: فوالله ما سمعتُ قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعَدَل منه، فاسلمتُ^(١).

وفي الخاتمة نرى التذكير بهذه النقطة ضرورياً وهي: إن إدراك جمال القرآن وعجائبه وبدائعه ليس أمراً بسيطاً وسهلاً حتى يتيسر لكل من كان في أي وقت اتفق بل يحتاج إلى الانس بالقرآن، والتفكير والتدبر في مفاهيمه السامية والتأمل في كيفية إنتقاء الألفاظ واختيار التراكيب وتنظيم الآيات في ذلك الكتاب السماوي العظيم.

فكروا واجيبوا

- ١ - لماذا القرآن ليس بشعر؟
- ٢ - ما هي الفروق بين النثر القرآني وغيره من النثر؟
- ٣ - ما هي المميزات اللفظية للنثر القرآني؟
- ٤ - ما هو أسلوب تنظيم المواضيع في القرآن الكريم؟
- ٥ - هل بين آيات القرآن إنسجام وترباط؟

الدرس الثالث والعشرون

عدم وجود الاختلاف في القرآن

من مظاهر الإعجاز القرآني عدم وجود الاختلاف بين مجموعة السور والآيات في القرآن الكريم .. والقرآن نفسه يشير إلى هذه الجهة اذ يقول:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُكُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

لقد وُتِّخَ الناسُ في هذه الآية لماذا لا يفكرون في آيات القرآن وسوره ولا يتدبرون فيها حتى يعلموا أنه منزَّلٌ من جانب الله، وليس من صنع البشر، لأنه لا اختلاف فيه، في حين لو كان كلاماً آدمياً لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

إن الكتاب الذي يكون من تأليف البشر لا يخلو قط من الاختلاف والتفاوت .. ففي مثل هذا الكتاب يكون نوعان من الاختلاف: الاختلاف والتفاوت من حيث كمال العبارات ونقصها ومقدار الفصاحة والبلاغة فيها.

الثاني: الاختلاف والتنافي في موضوعات الكتاب ومطالبه، وسندرس كلا هذين النوعين.

الأول: الاختلاف من جهة كمال العبارات، ونقصها، ومن حيث مقدار الحسن والجمال في الكلام .. فلو أنكم درستكم كتاباً وتأملتُم فيه جيّداً لشاهدتم فيه إختلافات - قليلة أو كثيرة - فالعبارات ليست في مستوى واحدٍ من حيث الفصاحة والبلاغة والجمال الادبيّ.

إن عوامل متعدّدة يمكن أن تكون مؤثرة وموجدة لهذا التفاوت:

العامل الأول: نقص الانسان وقابليته للتكامل - ان المؤلّف حيث أنه من البشر فانه ناقص وقابل للتكامل، فهو كلّما تدرب أكثر حاز على كمال اكبر .. إن المؤلّف البشري يتكامل يوماً بعد يوم، وتتكامل كتابته يوماً بعد يوم، فهو عند ما يراجع كتاباته السابقة يهتدي إلى نواقصها ونقائصها، فيرغب - لو استطاع - أن يُزيل تلك النقائص وخصوصاً إذا كان تاليفه الأوّل، وكان قد ألفه منذ زمن بعيد، ولهذا فإنّ المؤلفين غالباً ما يستخدمون المسودات والمبعضات عند التّأليف، وغالباً ما يرغبون بعد مدة في أن يعيدوا النظر في كتاباتهم السابقة، لتعديلها وتحسينها وتصحيحها.

العامل الثاني: التفاوت النفسي - إن الحالات النفسيّة المختلفة لدى مؤلّفٍ واحدٍ تؤثر - بلا شكّ - في كيفة تأليفه .. والأوضاع النفسيّة هذه ناشئة من ظروف العيش وأوضاعه ومن الوضع المزاجي والصّحي الذي يكون متغيراً في الإنسان طوال مدّة التّأليف: ولهذا ربّما يكون الإنسان سليماً نشيطاً، وربّما يكون كسلاناً تعبانياً، وربّما يكون فرحاً مسروراً وربّما يكون مُغتماً حزيناً، وربّما يكون ممثلاً ثقةً بنفسه يحسّ بالقوّة والقدرة وقد يحسّ بالحقارة والصغار، والهزيمة والعجز.

ولا يخفى على المحققين أنّ حالات المؤلّف النفسيّة المختلفة مؤثرة بشكلٍ أساسيٍّ في كيفة تأليفه ومقدار الحسن والجمال في تعابيره كما أنه مؤثّر في إختيار المواضيع وكيفة أدائها، ولهذا فاننا لا نجد كتاباً يكون متساوياً من أوله إلى آخره، لأنّ تاليفه قد تمّ بواسطة البشر الذي هو عُرضة للتغيير والتكامل طوال حياته.

إنَّ الكتابَ الوحيدَ الذي لا نشاهد فيه مثل هذا الاختلاف والتفاوت هو (القرآن الكريم) خاصّة، فعلى الرغم من أنَّ القرآن الكريم نَزَلَ على رسول الله (ص) تدريجاً خلال (٢٣) عاماً وفي أزمنة وأمكنة مختلفة وكان رسولُ الله حين تنزّل القرآن عليه في حالات نفسية مختلفة .. حال المحنة، والسكون، حال الرخاء والضراء، حال الحرب والصلح، حال الهزيمة والانتصار، حال قلّة الاتباع، والانتصار وكثرتهم، حال السرور والحزن، فانه رغم تباين هذه الحالات لا نلاحظ اي تفاوت بين أوّل سورة وآخر سورة من القرآن الكريم، ولا بين آياته وسوره الأخرى من حيث الفصاحة والبلاغة وجمال التعبير، وسحر البيان، في حين لو كان هذا القرآن كلام رسول الله (ص) لما خلي من هذا الاختلاف والتفاوت قط.

وهنا نستنتج أنَّ القرآن كلامُ الله المنزّه من التغيّر والتبدّل، الذي لا مكان للتكامل في وجوده وأفعاله.

الثاني إنَّ النوعَ الثاني من الاختلاف هو التناقض والتنافي في المعاني والمسائل المطروحة، فلو ألّف كتابٌ خلال ٢٣ عاماً تدريجاً، وكان المؤلف أمياً لم يدرس، ولم يكتب كتاباً بيمينه، بل كان يملي على الآخرين، ولم يكن كتابه في موضوع واحد بل تعرّض لعشرات المواضيع المتنوعة والكلية .. إنَّ مثل هذا الكتاب لن يخلو - عادةً - من التناقض والاختلاف .. اذ يمكن أن يكون المؤلف قد طرح فيه مسألة في زمن سابق بصورة معيّنة، ولكنه قال خلافها في زمن لاحق نسياناً واندھاشاً .. ويمكن أن يكون قد كتب شيئاً ورأى رأياً في زمان سابق، ثم تغيّرت عقيدته، وتبدّل رأيه في الزمن اللاحق، ويمكن أن يكون قد أعطى غفلةً، رأياً في إحدى المسائل الجزئية يخالف مبادئه الكلية في نفس الموضوع أو يخالف موضوعاً آخر من المواضيع.

في مثل هذا الكتاب ومثل هذا المؤلف ستُشاهد موارد كثيرة وعديدة من الاختلاف والتفاوت والتعارض والتناقض، وعدم الانسجام وعدم التناسق، لأنَّ مؤلفه

واحد من البشر غير المصونين من الخطأ والزلل، والغفلة وتبدل الرأي.

ولكننا لا نرى أي شيء من هذا الاختلاف والتناقض وعدم التناسق والإنسجام في القرآن الكريم قط.. فمع أن القرآن تناول عشرات المواضيع الكلية المتنوعة ونزل تدريجاً على رسول الاسلام طوال ٢٣ عاماً حافلة بأنواع الحالات والظروف المختلفة، وكان رسول الله (ص) بشهادة التاريخ أمياً، ولم يكن هو يكتب الوحي والآيات النازلة عليه بل كان يملي ويكتب آخرون.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْقَلْبُوتُ﴾^(١) فانه رغم كل ذلك لا يرى أدنى إختلاف وتناقض وتعارض بين آيات القرآن الكريم .. لا يوجد في الأحكام والقوانين الإجتماعية، وفي الواجبات والمحرمات المذكورة في القرآن موضع واحد يتعارض مع المباني الاعتقادية والأخلاقية التي يتبناها هذا الكتاب العظيم.

في المسائل الاخلاقية لا يوجد ولا مورد واحد يخالف المباني الاعتقادية .. في قصص الأنبياء وأمهم السالفة، ولا يوجد موضع واحد يخالف المباني الاعتقادية أو الأخلاقية . وفي المسائل العلمية لا يوجد شيء واحد يتعارض مع المباني الاعتقادية .. في قضايا المعادِ والثوبات والعقوبات الأخروية لا يوجد موضع واحد يخالف أسماء الله وصفاته العليا، وفي القضايا المتعلقة بالنبوة العامة والخاصة لا يوجد شيء واحد يخالف مسائل التوحيد الإلهي.

وبصورة عامة لا توجد في جميع قضايا القرآن المتنوعة المتشعبة مسألة واحدة لا تتسجم مع دعوته إلى التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد.

وعلى هذا فليس بين مواضع القرآن الكريم ومسائله المتنوعة أي إختلاف

وتفاوت وأي تناقض وتعارض، بل ليست مسائل القرآن فقط عارية عن مثل هذا الاختلاف والتفاوت، إنما هي متناسقة منسجمة بعضها مع بعض، ويؤيد بعضها بعضاً. من مجموع هذا البحث نستنتج أن القرآن ليس كلام آدمي، لأنه لو كان كلام آدمي لوجد فيه الاختلاف والتناقض .. وعلى هذا يجب القول بأن القرآن كلام آلهي نزل بواسطة الوحي على قلب رسول الله (ص).

فكروا واجيبوا

- ١ - هل الكتاب الذي يؤلفه فرد من البشر يمكن أن يكون على مستوى واحد من حيث الفصاحة والبلاغة؟ لماذا؟
- ٢ - ما هي العوامل الموجبة للاختلاف والتفاوت؟
- ٣ - لو أن كتاباً ألفه بشر في الظروف التي ألف فيها القرآن الكريم هل كان يمكن أن يكون عارياً من الاختلاف والتناقض من حيث المواضيع؟ ولماذا؟
- ٤ - وضّحوا عدم وجود التناقض والتفاوت في مواضيع القرآن.
- ٥ - لماذا لا يوجد في القرآن أي تناقض وتعارض من حيث المواضيع والمسائل؟
- ٦ - ماذا نستنتج من عدم وجود الاختلاف والتناقض في القرآن الكريم من حيث الفصاحة وجمال التعبير، وكذا من حيث المواضيع والمطالب؟



الدرس الرابع والعشرون

القرآن والأخبار الغيبية

إن في القرآن الكريم أخباراً غيبيةً عديدةً بأحداث ووقائع المستقبل تحققت فيها بعد وفق ما أخبر به القرآن .. وحيث أن اكتساب هذا النمط من المعلومات لا يمكن من الطرق العادية يجب أن تكون من العلوم الغيبية، ومن سنخ المعاجز. وتعد من دلائل الإعجاز القرآني. ونشير إلى بعض هذه الإخبارات الغيبية على سبيل المثال:

من هذه الإخبارات الغيبية ما جاء حول إنتصار جيش الروم على الجيش الفارسي الذي تحقق فيما بعد.
فقد جاء في القرآن:

﴿الْم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بَنَصَرَ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

(١) الروم ١ - ٦.

يستفاد من هذه الآيات أنَّ هزيمة كبرى لحقت الجيش الرومى في زمان نزول هذه الآيات يعني في صدر الاسلام، وهذه الهزيمة كانت في مكان يقرب من أرض الحجاز .. وكانت هذه الحادثة تهمَّ عرب الجزيرة العربية، وبالأخص المسلمين جداً، ولهذا كانوا في اضطرابٍ وقلقٍ شديدين لأجلها.

في هذا الوقت بالذات نزلت هذه الآيات تسلياً للمسلمين وبشارةً بأنه سينتصر الروم على أعدائهم الفرس في أقلَّ من عشر سنوات وستبدلُ الهزيمةُ إلى إنتصارٍ ساحقٍ مرة أخرى وحينئذ سيفرحُ المؤمنون بالنصر الالهى ولتوضح هذا الموضوع نشير على نحو الاجمال إلى تلك الواقعة:

يُستفاد من كُتب التاريخ أنَّه كان قبلَ ظهور الإسلام امبراطوريتان كبيرتان وقويتان في آسيا في جوار أرض العرب إحداهما الإمبراطورية الفارسية الإيرانية التي كانت تحكم على منطقة واسعة أكبر من إيران الحالية، بل وحتى على قسم من أرض العراق الحالية، وكان عاصمتها «المدائن». على مقربةٍ من بغداد الحاضرة. والأخرى الإمبراطورية الرومية التي كان دائرة حكمها تمتدُّ إلى أرض مصر والشامات.

هاتان الإمبراطوريتان القويتان كانتا في تنازعٍ وتنافسٍ مستمرَّين من أجل توسيع منطقة نفوذهما وحكومتها .. فكلما كان يضعف جانبٌ يستغلُّ منافسه ذلك الضعف ويهاجم بجنوده وعساكره مستعمرات الامبراطورية الاخرى المجاورة له وينهبُ ثرواتها أو يضمُّها إلى منطقة نفوذه وسيادته، أو ينصبَّ حكومةً مواليةً له، ثم يفرض على أهلها الضرائب والأتاوات. وبعد مدةٍ وعندما تعود إلى المنافس قوته يفعل هذا الصنيع نفسه ويستردُّ ما اقتطع من اراضيه، أو نهب من ثرواته.. وكانت هذه المناوشات والمعارك قائمةً على قدمٍ وساقٍ بين هاتين القوتين العظميين المتنافستين طيلة أعوامٍ عديدةٍ.

ولم يكن العربُ القاطنون في الأراضي المجاورة لهاتين الإمبراطوريتين بمأمن من هذه النزاعات السلطوية، والاستغلالية بين هاتين القوتين، فقد كان ملوك بني لخم الذين كان عاصمتهم بالحيرة (قرب الكوفة) يحكمون تحت حماية الملكية الساسانية الإيرانية وقد امتد سلطانهم إلى ما يقارب (٦٠٢) ميلادية، وفي ذلك الوقت عزم خسرو برويز الملك الإيراني أن ينهي سلطانهم ويلحق أرضهم ببلاده العريضة تدريجاً^(١).

كما أن الملوك الساسانيين وجهّوا حوالي سنة (٥٩٨) ميلادية جيشاً إلى جنوب الجزيرة العربية لأن ملك بني حمير أراد أن يخرج من تحت السيادة الإيرانية .. فانتصر الإيرانيون في هذه المعركة وهكذا صار جنوب الجزيرة العربية إحدى الولايات الساسانية^(٢).

ومن جانب آخر كانت الحكومات الرومية البيزنطية تهتم كثيراً بجنوب الجزيرة العربية، وتدافع عنه وتحميه من أعدائه لأن جماعة من النصارى كانوا يقطنون في هذه المنطقة.

وعلى هذا لم يكن سكان الجزيرة العربية غير مكترئين تجاه الانتصارات والهزائم التي كانت تصيب كل واحد من هذين المتنافسين المعتدين بل كانوا يشعرون بحساسية بالغة تجاهها لارتباطها بمصيرهم ومصير إخوانهم وبني قومهم.

فكلما كان الملوك الساسانيون ينتصرون في نقطة ما من الأرض إنزعج نصارى الجزيرة العربية، وعلى العكس كان يفرح المشركون لأن الإيرانيين كانوا آنذاك مجوساً يعبدون النار، فكان العرب يعتبرونهم مشاركين لهم في العقيدة وكانوا يعتبرون إنتصارهم إنتصاراً لهم.

(١) تاريخ إيران ازسلوكيان تافروپاشى دولت ساساني ج ٣ ص ٢٦٣.

(٢) تاريخ إيران پروهش دانشگاه كمريج ج ٣ ص ٢٥٦.

وعلى العكس كلما كانت الإمبراطورية الرومية تحقق نصراً في نقطة من النقاط يفرح النصارى لهذا الانتصار، بينما يغتم مشركو الجزيرة العربية لغلبة الروم على الفرس ويشعرون بالخطر.

ولنعد الآن إلى أصل الكلام:

بعث رسول الاسلام في سنة (٦١٠) ميلادية بمكة، وكانت السنوات (٦٠٢ - ٦١٠) أعواماً سيئة بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية لأنها تعرضت لانتفاضة شعبية، وللهرج والمرج والفوضى الداخلية فقدت على أثرها قوتها، ومنعتها.

فاستغل خسرو برويز الملك الساساني هذه الفرصة، وقام بتوجيه ضربة شديدة إلى منافسه الامبراطورية الرومية ببعض الحجج، وشرع حملاته العسكرية منذ عام (٦١٠) واستمرت هذه الحملات إلى سنة (٦١٩) وحرز انتصارات كبرى في عدة جبهات من القتال ..

لقد استطاع الجيش الإيراني أن يسيطر على دارا، آمد، ادسا، هيرابوليس، جلب، آباميا، وان يحتل في سنة (٦٠٥ - ٦١٣) دمشق.

أعلن برويز الذي كان ممثلاً بنشوة الانتصار، الجهاد ضد النصارى، والتحق بجيشه (٢٦٠٠٠) يهودياً، فاحتلت القوى المشتركة هذه، اورشليم عام (٦١٤) ونهبوها وقتلوا (٩٠٠٠٠) مسيحياً، واحترق الكثير من كنائسها ومنها كنيسة القيامة، وأخذ الصليب الواقعي الذي كان أحب تراث النصارى إلى إيران.

كتب برويز إلى هيراكليوس امبراطور الروم: من خسرو أكبر آلهة الأرض وأسيادها إلى هيراكليوس عبده الحقير الأحمق .. أنت تقول: إنك تعتمد على ربك، فلما لم ينقذ اورشليم من يدي؟.

وفي سنة (٦١٦) وجه جيشاً إلى الاسكندرية واحتل كل مصر إلى سنة (٦١٩)

كما وجّه جيشاً إيرانياً إلى آسيا الصُغرى واحتلّ خالكدون سنة (٦١٧)^(١).
 هذه الانتصارات الساحقة والسريعة التي أحرزها الجيش الإيراني في مختلف الجبهات كانت مثيرةً ورائعةً حقاً، وقد بلغت أنباء هذه الانتصارات إلى مسامع عرب الجزيرة العربية المجاورين لتينك الامبراطوريتين شيئاً فشيئاً، فيظهرون ردود فعلٍ متفاوتةٍ .. فالمشركون كان يظهرون الإبتهاج والفرح لانتصار الإيرانيين المجوس عبدة النار ويعتبرون انتصارهم إنتصاراً ضدّ جبهة التوحيد أما النصارى فكانوا يَعتَمُونَ لانهم كانوا يرون أمنهم ودينهم يتعرض بسبب ذلك، للخطر.

واما مسلمو صدر الاسلام وهم يومذاك قلةٌ قليلةٌ مضطهدةٌ يقاسون من أذى المشركين الأمرين، فهم كانوا قلقين أشدّ القلق للإنتصارات السريعة الساحقة التي أحرزها جيشُ الفرس لأن انتصارهم كان يعني في نظرهم تقوية جبهة الشرك المضادة لجبهة التوحيد وهو أمرٌ خطيرٌ للغاية هذا مضافاً إلى أنهم كانوا يخشون أن تمتدّ تجاوزاتُ الفرس إلى أرض الجزيرة العربية أيضاً. وخاصة أن جيش العدو قد تقدّم إلى مدينة «أذرعات» وهي حسبَ تعبير القرآن «أدنى الأرض» وأقربها إلى أرض الحجاز والجزيرة العربية، واحتلها .. فالخطر كان على الأبواب بل وقريباً جداً.

في هذا الظرف الحرج الدقيق نزلت الآيات المذكورة تبشّر المؤمنين بأنّ جنودَ الروم سرعان ما يتغلّبون على جيشِ الفرس وأنّ هذا لن يتجاوزَ بضعةَ سنوات، وحينذاك سيفرحُ المؤمنون بالنصرِ الآلهي.

يكتب ابنُ الاثير في هذا الصدد: أدنى الأرض اذرعات وهي أدنى أرض الروم إلى العرب وكانت الروم قد هُزمت بها في بعض حروبها، وكان النبيّ والمسلمون قد

(١) تاريخ ويل دورانت القسم الاول ج ٤ ص ١٨١ وتاريخ ايران ازسلوكيان تافروياشى دولت ساساني

ساء إليهم ظفرُ الفرس، أولاً لأنَّ الروم أهل كتاب، وفرَحَ الكفارُ لأنَّ المجوسُ أميون مثلهم فلما نزلت هذه الآيات راهن أبو بكر الصديق أبي بن خلف ولم يكن الرهنُ ذلك الوقت حراماً^(١).

فَتَحَ هذا الوعدُ الآلهي بابَ الأمل أمام المسلمين، فراحوا يُحصون الليالي والأيام في انتظار وقوعه وتحققه حتى تحقق في النهاية، وانتصر الروم على الفرس كما أخبر القرآن الكريم.

لقد أزعج إنتصارُ الإيرانيين على الروم هراكليوس (هرقل الأول) إمبراطور الروم وبقي ذلك يقض مضجعه .. فكان يتحينُ الفرص لاسترجاعِ أراضيه، فأقدم على إيجاد إصلاحات في بلدّه، واعدَّ جيشه لحملةٍ كبرى. وفي عام (٦٢٢) حمل بواسطة أسطولهِ البحريّ القويّ على ارمينية عن طريق البحر الاسود، وهاجم من الخلف الإيرانيين، وفي السنة الثانية تسلل إلى آذربيجان مولد زرادشت ودمرها وأطفأ النار المقدسة الخالدة، واسترجع صليب النصارى المقدس من الإيرانيين وأعادهُ إلى بيت المقدس^(٢).

ونظراً إلى أنَّ حملة الجيش الرومي الشجاعة والقوية قد بدأت عام (٦٢٢) يمكن القول بأنَّ هذا الانتصار والظفر تحقق للروم في حدود تسع سنوات بعد الهزيمة السابقة في أدنى الارض عام (٦١٣).

وعلى هذا تحققت نبوءة القرآن الكريم يعني غلبة الروم على الفرس ثانية في أقل من عشر سنين وهو ينطبق مع ما قاله القرآن: ﴿فِي بضعِ سنين﴾. في ذلك الوقت فرح المسلمون والمسيحيون لغلبة الروم الذين كانوا أهل كتاب

(١) الكامل ج ١ ص ٤٦٧٩. يقول مؤلف كتاب المنجد: اذرعات هي اليوم درعا (الاردنية) ذكرها العهد القديم باسم ادرا. عندها انتصر الفرس على البيزنطيين (٦١٣).

(٢) تاريخ ايران ج ٣ ص ٣٦٦، تاريخ ويل دورانت القسم الاول ج ٤ ص ١٨٢.

وتوحيدٍ واطمأنوا إلى وعودِ الله^(١).

فكروا وأجيبوا

- ١ - هل يمكن اكتساب الأخبار الغيبية المرتبطة بالمستقبل من الطرق العادية؟.
- ٢ - ما هي الآيات التي نزلت بشأن الحرب بين الامبراطورية والامبراطورية الفارسية؟.

٣ - لماذا فرح مشركو مكة لغلبة الفرس على الروم؟.

٤ - بإذا وَعَدَ الله المؤمنين بعد هذه الغلبة؟.

٥ - ماذا حدث بعد نزول الآيات الأولى من سورة الروم؟.



(١) لإثبات أن الوعد الإلهي بصدد إنتصار الرُّومِ وغلبتهم ثانية وبعد هزيمتهم الأولى تحقَّق في أقلَّ من عشر سنوات يجب أن ندرس بدقة تاريخ تلك الهزيمة وهذا الإنتصار وللأسف لم اجد ذلك في كتب التاريخ وفي المصادر الاسلامية ولهذا اضطررنا إلى أن نراجع مصادر التاريخ الإيراني والروم القديمة. على أن مؤرخي الاسلام مثل الطبري وابن الاثير وغيرها وكذا المفسرون الاسلاميون اتفقوا جميعاً على أن هذا الوعد الإلهي قد تحقَّق في المآل وانتصر جنودُ الروم على اعدائهم بعد مغلوبيتهم الأولى في مدَّة تقلُّ عن عشر سنوات ولكنهم لم يذكروا التاريخ والموعَدَ الدقيقَ لذلك، كل ما يوجد في المصادر الاسلامية هو أن غَلَبَ الرومُ كان في وقت صلح الحديبية (السنة السادسة للهجرة) أو في وقت معركة بدر (السنة الثانية للهجرة) وهذا لا ينطبق لا مع المصادر المحقَّقة المرتبطة بتاريخ إيران والروم القديمة، ولا مع تنبُّ القرآن الكريم، لأنَّ الهزيمة الأولى التي لحقت الرومَ على أيدي الفرس في ادنى الارض يعني اذرعَات وقَعَتْ في عام (٦١٣) الميلادية (اي السنة الثالثة للبعثة). وصلح الحديبية وقع في السنة السادسة للهجرة الشريفة، وعلى هذا تكون الغلبةُ الثانيةُ للروم قد تحقَّقت للروم بعد (١٦) عاماً، وهذا يخالف تنبُّ القرآن الكريم، كما لا ينطبق أيضاً مع زمان معركة بدر أي السنة الثانية للهجرة.

الدرس الخامس والعشرون

محمّد خاتم النبيّين (١)

النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله آخر رسل الله وخاتم أنبيائه، ولم يُبعث بعده نبيّ آخر قطّ، ولن يُبعث بعده أحد أبداً.
إنّ موضوع خاتميّة نبيّ الإسلام أمرٌ مُسلّمٌ وبديهيّ، لا يقبل الشكّ والإنكار عند المسلمين، وقد وصّف النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه في بداية دعوته ورسالته بأنّه آخر الأنبياء وخاتم المرسلين فالمسألة إذن مسلّمةٌ ولا تحتاج إلى سرد دليلٍ ولا إقامة برهانٍ، ولكننا - مع ذلك - نشير إلى برهانين فقط، على نحو الاختصار والايجاز.

البرهان الأول: آيات القرآن الكريم

إنّ في القرآن الكريم آياتٍ عديدةً تدلّ على خاتميّة نبوّة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله منها قول الله تعالى:
﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾^(١).

(١) الأحزاب - ٤٠.

فإذا قرأنا (خاتم) بكسر التاء كما فعل ذلك بعض القراء، كان المعنى من يضع نهايةً لأمرٍ أو لشيء، ويتمه، ودلت اللفظة - بصراحة - على أن بعث الأنبياء قد انتهى ببعث رسول الإسلام وأن الرسل قد ختموا به صلى الله عليه وآله.

وإذا قرأناها بفتح التاء (خاتم) كان المعنى ما يُختم به، ومن هذا المعنى الخاتم الذي تُختم به الرسالة، أو الكتاب، لأنه علامةٌ توضع في آخر الرسالة أو الكتاب للدلالة على إنتهائه، وختامه.

وعلى هذا تدلُّ الآيةُ بصراحةٍ كاملةٍ على أن إرسال الرُّسل وبعث الأنبياء قد ختمَ ببعث رسول الإسلام، وأنه لن يُبعث نبيٌّ بعده قط.

وعلى كلِّ حالٍ فإن الآية المذكورة على كلا التقديرين تُمثِّلُ أفضلَ الأدلة، وأقوى الشواهد على خاتمة النبوة المحمدية ..

وقد كان هذا هو بالذات ما فهمه المسلمون من الآية منذ البداية، ولم يكن موضع ترددٍ أو شكٍ منهم أبداً.

وهناك آياتٌ أخرى في القرآن الكريم يمكن الإستدلال بها في هذا المجال، ولكننا نكتفي هنا بالآية المذكورة.

البرهان الثاني: الأحاديث الشريفة

إن في كتب الحديث رواياتٍ وأحاديثَ كثيرةً تدلُّ بجلاء وصراحة على أن رسول الإسلام كان آخرَ الأنبياء وخاتمَ المرسلين .. ونذكر على سبيل المثال ما يلي:

١ - روى سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: «أنت مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(١).

وقد نُقل هذا الحديث، والمعروف بحديث المنزلة، في كتب السنة والشيعة، بطرق متعددة وأسناد كثيرة، وهو يدلُّ بصراحةٍ على أنه لن يُبعثَ نبيٌّ بعد رسول الإسلام أبداً.

٢ - عن أبي هريرة أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أُرسلتُ إلى الناسِ كافةً وبِي خُتِمَ النبيون»^(١).

٣ - عن أبي امامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الناسُ لا نبيَّ بعدي ولا أمةَ بعدكم، ألا فاعبدوا الله وصلُّوا خمسكم، وصُومُوا شهركم، وحُجُّوا بيتكم وأدُّوا زكاةَ أموالكم، طيبت بها نفوسُكم، وأطيعُوا ولاةَ أمركم تدخلوا جنَّةَ ربيكم»^(٢).

٤ - قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أُرسلهُ على حين فترةٍ مِنَ الرُّسل وتنازعِ مِنَ الألسُن فقفى به الرُّسل، وختم به الوحي»^(٣).

من هذه الأحاديث والعشرات من نظائرها يُستفاد أن رسول الإسلام كان آخر الأنبياء وخاتم المرسلين وأنه لم يُبعثَ أحدٌ بعده بالنُّبوة والرسالة أبداً، وأن هذه المسألة مسألة قطعية من حيث الأدلة، ولا تقبل أي لون من ألوان الشك والترديد. غير أن هناك شبهات وإشكالات في أصل مسألة الخاتمية ينبغي طرحها هنا والاجابة عليها:

الإشكال الأول

ما هو سرُّ الخاتمية؟ ولماذا خُتِمَ إرسالُ الأنبياء، وابتعث الرُّسل، ببعثة النبي محمد (ص)؟ ألم يكن من الأفضل أن يبعث الله تعالى في كلِّ زمانٍ رسولاً أو رسلاً

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٩٢.

(٢) وسائل الشيعة ج ١ ص ١٥.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٢٩.

آخرين بعد رسول الإسلام هداية البشرية وإرشادها كما كان يفعل ذلك في الأزمنة والأمم السابقة، وهذا كان الارتباط بين الله تعالى وبين عباده مستمراً إلى يوم القيامة؟؟.

الإجابة على هذا الاشكال

في الإجابة على هذه الشبهة نقول على سبيل الإجمال: مع إرسال رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، وإنزال القرآن الكريم لم تعد (أو بالأحرى لم تبق) أية حاجة إلى إرسال رسول جديد، أو إنزال كتاب جديد، ولهذا انتفتت الضرورة إلى ابتعث نبي جديد إلى البشرية، وخُتِمت النبوة والرسالة.

وتوضيحاً لهذا الموضوع نقول: إنَّ البشر - كما قرأتم في مبحث النبوة - يحتاج في معرفة المبدأ والمعاد، وكذا في معرفة البرنامج الكامل الجامع الكافل لسعادته الجسمانية والنفسية، الدنيوية والأخروية، إلى أنبياء يتلقون بدقة معارف الدين وبرامج الشريعة من الله عن طريق الوحي، ثم يوصلونها إلى البشر.

إنَّ البشر لم يكن - في البداية - على المستوى الراهن من حيث التوجه إلى الله، ومعرفة القضايا والبرامج الدينية، والفضائل والقيم الأخلاقية، بل وصلت البشرية إلى هذا المستوى على أثر التفكير العقلي المتواصل، وممارسة تجارب الحياة، وعلى أثر جهود الأنبياء والرسل الآلهيين، وسعيهم الدائب العظيم.

إنَّ جميع الأديان السماوية متفقة في أصول العقائد، وفي المعارف الدينية، ولا خلاف بينها في هذه الأصول والمعارف، وهي بأجمعها تدعو البشرية إلى هدف واحد، وإنما التفاوت فيما بينها في جانبين:

أحدهما: في مدى العمق والدقة في إلقاء المعارف الدينية.

والآخر: في كيفية الإتيان بالمراسم العبادية ودساتير الحياة التي كانت تتغير

وتتطور، وتتكامل تدريجياً جنباً إلى جنب مع تنامي الرشد الفكري لدى البشر، وتبعاً للظروف والأوضاع. ووفقاً للأزمنة والأمكنة.

لقد كان جميع الأنبياء يدعون الناس إلى التوحيد ولكن مفهوم الآله الواحد الذي كانت أذهان البشر القدامى تتصوره يختلف اختلافاً كبيراً عن المفهوم الذي يتجلى من هذه الكلمة الآن في ذهن العالم العارف، كما أن العرفاء أنفسهم ليسوا سواء في إدراك التوحيد.

لقد كان الأنبياء يراعون في دعواتهم - دائماً - المستوى العقلي لدى الناس، وكانوا يكلمونهم - في هذا المجال - على قدر عقولهم وإدراكاتهم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم^(١).

ومع مضيّ سنين طويلة جداً من اكتناز البشرية للتجارب والخبرات، ونتيجة لسعي الأنبياء والرسل وجهودهم الكبيرة في سبيل بثّ المعارف الدينية بلغت عقول البشر تدريجاً إلى درجة من الرشد والبلوغ، استطاعت معها البشرية أن تدرك أعلى وأسمى المعارف، وتستوعبها، وتحمل عبء أكمل الأحكام والقوانين والمقررات العبادية، والسياسية، والاجتماعية، وتطبّقها في حياتها العملية.

هذا مضافاً إلى أن المجتمع البشري في ذلك الزمان كان قد بلغ حداً من حيث العقل والفكر والإمكانات العلمية، يستطيع معه أن يحافظ على الموارث العلمية والدينية بصورة كاملة، وينقلها إلى الأجيال اللاحقة بأمانة ودقة.

في مثل هذا العصر بُعث رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله من جانب الله تعالى بالرسالة، ليضع بين يدي النفوس البشرية المتكاملة المستعدة أسمى المعارف

(١) تحف العقول ص ٣٦، طبعة بيروت. منشورات الأعلمي.

وأرقاها، ويعرض على المجتمع الانساني أكمل وإشمل الأحكام والقوانين الكلية الوافية.

لقد أنزل عليه كتاباً لا يبلى أبداً .. كتاباً كلّما غاص فيه العلماء، وتدبروا فيه أكثر فأكثر، حصلوا على حقائق أسمى، ومعارف أدقّ .. ووَضَعَ تحت تصرفه كلّ الاحكام والقوانين الكلية التي يحتاج اليها الجنس البشري في مختلف أبعاد الحياة ليضعها هو بدوره في متناول أيديهم في صورة أحاديث على غرار دستور كامل شاملٍ بحيث لو أمعن العلماء والفقهاء، واجتهدوا فيه لأمكنهم أن يستنبطوا كلّ الاحتياجات القانونية الجزئية التي تتطلبها ظروف البشر المتغيرة المتطورة في جميع العصور والأزمنة، والأوضاع والأحوال، ويقدموها للطالين والراغبين.

وبملاحظة ما قلناه إتضح أنه لا حاجة بعد بعثة رسول الاسلام، ونزول القرآن الكريم، وبثّ الأحكام والقوانين الاسلامية، إلى ابتعاث نبيّ آخر، وإنزال شريعةٍ اخرى بعد شريعة الإسلام، بل إن إرسال نبيّ آخر وإنزال شريعة أخرى لا يبرره شيء لأنّ في مقدور القرآن الكريم، والدين الاسلامي أن يلبي جميع احتياجات البشر في جميع الأمكنة والأزمنة حتى قيام يوم القيامة.

ولقد بقي القرآن الكريم - كما تلاحظون - وعلى أثر حفظ الحُفَاط، وكتابة الكتاب، في صورته الكاملة من دون أي زيادة أو نقصان، ومن دون أيّ تغيير أو تحريف، وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة .. وهكذا بقيت الأحكام والقوانين والمقررات الاسلامية في صورة «حديث» مُدَوّن ومضبوط في بطون الكتب والمؤلفات.

وهذه هي إحدى خصائص الدين الاسلامي الحنيف ومميزاته البارزة.
هذا وسنتعرّف - في الدرس القادم - على الإشكالات الأخرى فيما يتعلق بخاتمة رسول الاسلام، والإجابة عليها.

فَكَّرُوا وَأَجَبُوا

١ - كيف نُثبت خاتمة النبي محمد بالآية المذكورة في هذا الدرس؟ وضخوا ذلك.

٢ - اُكتبوا حديثين من الأحاديث الدالة على الخاتمة.

٣ - وضخوا الإشكال الأول على مسألة الخاتمة جيداً.

٤ - اُذكروا الردّ على ذلك الإشكال كاملاً.

٥ - اِحفظوا الآيات والأحاديث المذكورة في هذا الدرس.

* * *

الدرس السادس والعشرون

مُحَمَّد خَاتَمُ النَّبِيِّينَ (٢)

الإشكال الثاني

إنَّ الإشكالَ الثاني على خاتمةِ نبيِّ الاسلام هو أنَّ حياةَ الناس الفرديةَ والاجتماعيةَ ترافق دائماً تغييراً في الأوضاع والأحوال، وأن الظروف في تبدلٍ وتحولٍ مستمرَّين، والتغيرات الجديدة تتطلب أحكاماً وقوانين، وبرامج جديدة، وعلى هذا الأساس فإنَّ أحكام الاسلام وقوانينه التي نزلت قبل ألف وأربعمائة وإحدى عشرة سنة تناسب إحتياجات البشر في ذلك العصر ولكنها لا تقدر على ضمان السعادة للمجتمع ولا تصلح لحلِّ المشكلات الناشئة من الحياة الصناعية للبشرية في هذا العصر، والعصور القادمة، ولهذا فإنَّ الدينَ الاسلاميَّ لا يمكن أن يكون ديناً دائماً وشرعيةً خالدةً، بل إنَّ اللطفَ الالهيَّ يقتضي أن يبعث الله تعالى في كلِّ عصرٍ نبياً أو أنبياء لهداية الناس وإرشادهم، كما كان يفعل في العهود السابقة، والعصور الغابرة.

الجواب على الإشكال

في الإجابة على هذا الإشكال يقال: إنَّ لحياة البشر جانبين:

أحدهما: جانب الثبات والدوام والكلية.

والآخر: جانب التغير والتحول، والتطور.

وجانب الثبات والدوام في الحياة ينبع من تركيب الإنسان الخاص وغرائزه الوجودية، وإن جميع البشر في جميع الأزمنة والامكنة يشتركون في هذه الجهة. إن جميع الناس - مثلاً - يحتاجون إلى المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وإلى إرضاء الغريزة الجنسية، ولضمان هذه الاحتياجات المتنوعة على بني البشر أن يعملوا ويكدحوا، ويعيش بعضهم مع بعض بصورة إجتماعية، وأن يتعاونوا فيما بينهم .. وفي هذا الصدد يحتاجون - لهداية غرائزهم وتعديلها وضبطها بصورة صحيحة بهدف الحيلولة دون وقوع التزاحم والتعارض بينها - إلى تدوين برنامجٍ وقانونٍ يكفل كل ذلك.

ولقد نُظِّمَت قوانين ترتبط بالزواج والوظائف المتبادلة بين الزوجين، والوالدين والأولاد، وقوانين ترتبط بالعمال وأرباب العمل والملكية والبيع والشراء وغير ذلك من القوانين الاجتماعية.

إنَّ الكُلِّيات والقوانين العامة في هذا الصنف من القوانين والأحكام تنبع من طبيعة كيان البشر، وهي من لوازم الحياة البشرية .. فاذا روعيت في سنّ ووضع تلك القوانين تركيبة الانسان الخاصة، وغرائزه المتنوعة، واحتياجات أبعاده الجسميّة والروحيّة، الدنيوية والأخروية، الفردية والاجتماعية، وهُدِّفَ إلى ضمان العدل والأمن الاجتماعي والمنع من التجاوزات، أمكنَ لهذه القوانين أن تكون قوانين ثابتة، ودائمة، ومفيدة لجميع أبناء البشر، وأن تكون صالحة للتطبيق في جميع الأزمنة والأمكنة.

إنَّ ثبات الأحكام والقوانين الإسلامية من هذا القبيل، ولهذا لا تنافي خاتمية نبي الاسلام.

ولكنَّ حياة الإنسان هذه الثابتة في جوهرها على أساس خلقته الخاصة وعلى

أساس غرائزه هي من حيث الصورة والكيفية في حال تغير وتنوع مستمرين ..
إن تكامل البشر الفكري، ورفي العلوم والصنائع المتزايد قد غير أوضاع الحياة
وكيفيتها، وأوجد في المآل مسائل جديدة في كل عصر ومصر وفي كل الأوضاع
والظروف ... مسائل جديدة تحتاج إلى الإجابة، وتتطلب الحل المناسب.
في مثل هذا المورد، لصاحب الإشكال السابق أن يقول: إن المقررات
والأحكام التي تم تدوينها في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لا تجدي في حل
المشكلات الموجودة في هذا العصر.
بيد أنه يمكن القول عند الإجابة على هذا الإشكال أن الاسلام لاحظ أيضاً
هذه الحاجات، واتخذ لتلبيتها وضمانها وسيلتين:

الوسيلة الأولى: الاجتهاد

فلقد ألقى الاسلام على عاتق العلماء والفقهاء الواجدين للشرائط، مسؤولية
الإجابة على المسائل الجديدة الحادثة في حياة الامة الاسلامية في ضوء موازين
صحيحة، ومع مراعاة الاوضاع والظروف الزمانية والمكانية، وذلك بالفحص في المصادر
الاسلامية العلمية الغنية (اي القرآن والسنة والاجماع والعقل) والغور فيها ثم
استنباط الأجوبة والحلول الدينية للمسائل المستحدثة لعرضها بعد ذلك على المجتمع.
إن المصادر العلمية والفقهية الاسلامية غنية جداً، وهي إذا اقترنت بحسن
التمييز والاستنباط، ورافقت ملاحظة متطلبات الزمان والمكان المتجددة ومقتضيات
الأوضاع والظروف الجديدة، لأمكن للدين الاسلامي أن يسير جنباً إلى جنب. مع
المجتمع المتحول المتكامل، ولقد أن يلبّي الاحتياجات البشرية المتنوعة، الفردية
والاجتماعية في جميع الأزمنة والأمكنة.
إن الاجتهاد مفهوم متطور ومتكامل، وهو يحتاج في كل عصر وزمان، وفي جميع

الأحوال والظروف إلى رؤية خاصة، وإدراك معين، وإن أعدى أعداء الاجتهاد هو الجمود والتوقف على نظرة خاصة للفقهاء السلف، والتعصب الشديد في الدفاع عن أفكارهم.

إن على المجتهد أن يكون عارفاً بالزمان والمكان، وبأوضاع مجتمعه وظروفه، وإحتياجاته الجديدة، وأن يكون في حال استخراج واستنباط دائمين للحلول المناسبة من أجل حل مشكلات المجتمع المتنوعة المتعددة.

وعلى هذا إذا تحرك الفقهاء عند استنباط أحكام المسائل الجديدة، جنباً إلى جنب مع المجتمع المتحوّل المتكامل، وجنباً إلى جنب مع الكشف الجديدة في شتى مجالات الحياة والعلوم، أمكن تلبية كل إحتياجات المجتمع، ولا يكون حينئذ أي إشكال في صلاحية الأحكام والقوانين الإسلامية الحيوية للبقاء والدوام، وقيادة الحياة بصورة مستمرة.

الوسيلة الثانية: الصلاحيات الممنوحة للحاكم الاسلامي.

إن مبدأ وجوب إقامة الحكومة الإسلامية بهدف تطبيق الأحكام الإسلامية، السياسية والاجتماعية، لغرض إقامة العدل الإجتماعي، وضمان حقوق الأفراد، والمنع من الظلم، والعدوان حكم إسلامي ثابت، ودائم، ولكن القيام بهذا الأمر المهم يحتاج إلى منح صلاحيات خاصة للحاكم الشرعي الاسلامي، والتي بدونها لا يمكن للحاكم المذكور إدارة البلد الإسلامي بصورة جيدة.

ولهذا السبب أذن الاسلام للحاكم الشرعي الإسلامي بأن يضع أحكاماً، ومقررات خاصة حسب الضرورات، مع مراعاة أصول الاسلام الكلية، وقواعده العامة، ومراعاة مصالح الأمة الإسلامية، ويستفيد منها في إدارة البلاد وتسيير شؤونها. إن الصلاحيات المذكورة هي في الدرجة الأولى من شؤون رسول الاسلام،

وهي ممنوحة - من بعده - للإمام المعصوم .. وإنَّ على المسلمين أن يطيعوا النبي والأئمة المعصومين - وهم أولوا الأمر - في هذه الأحكام.

جاء في الكتاب العزيز في هذا الصدد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١).

ولقد أُوكلت هذه الصّلاحيات ومُنحت في عصر غيبة الإمام المعصوم - حسب الأحاديث - للفقهاء الجامع للشرائط، الذي يتم إختياره من قِبَل الناس، بهدف قيادة الأمة الإسلامية - ويشغل أعلى مركز في الحكومة الإسلامية.

وهذا الطريق يمتلك الحاكم الشرعي في النظام الإسلامي صلاحياتٍ جدَّ واسعةٍ .. صلاحيات يضع - على أساسها، ووفق مقتضيات الأوضاع والظروف المستجدة، والأمكنة والأزمنة المختلفة - الأحكام والمقررات اللازمة، ويقوم بتطبيقها وتنفيذها في حياة المجتمع والأفراد.

ومن هنا لن تواجه الحكومة الإسلامية أبداً أية ضائقة قانونية، وأيَّ طريقٍ مسدودٍ في مجال المقررات والأحكام اللازمة، لأنها ستستعين في حلِّ المشاكل المستجدة، والمسائل المستحدثة، باجتهاد الفقهاء والمجتهدين، أو تتوصل إلى المقررات، والأحكام اللازمة بواسطة الخبراء العارفين، وفي هذه الصورة يمكن أن يكون الدين الإسلامي خالداً ابدياً، وأن لا يردَّ أيُّ إشكالٍ على خاتمة رسول الإسلام.

الإشكال الثالث

على فرض أن الحاجة إلى إرسال أنبياء من أولى العزم (أي اصحاب شرائع) انتفت نظراً لكمال الأحكام والقوانين والمعارف الدينية الإسلامية وكفايتها، فلماذا -

ترى - تنتفي الحاجة إلى أنبياء مبلغين يقومون بمهمة الترويج لتلك الشرائع. فكما أن الله سبحانه كان يرسل بعد كل نبيٍّ صاحبَ شريعة (من أولى العزم) أنبياء عديدين. ليقوموا بترويج الشريعة المتقدمة وتبليغها للأجيال اللاحقة، فلماذا لا يبعث الله - بعد مبعث رسول الإسلام وتشريع الأحكام والقوانين الجديدة - أنبياءً لتبليغ الرسالة المحمدية والترويج لها، مع العلم بأن وجود أمثال هؤلاء الأنبياء أمرٌ ضروريٌّ ومفيدٌ في المجتمعات.

في الإجابة على هذا الإشكال يمكن القول بأن المجتمع البشري في عصر البعثة المحمدية كان قد بلغ في التكامل الفكري والرشد العقلي حداً أصبح معه صالحاً لأن يحافظ على موارث الأنبياء العلمية والدينية، ويصونها من خطر الحوادث، وأن يكون نفسه مبلغاً لتلك القيم والمفاهيم المقدسة، وقد وصل في هذا المجال إلى درجة الاكتفاء الذاتي ولهذا لم تبق حاجة بعد هذا إلى إرسال الرسل وابتعث الأنبياء.

قال تعالى في القرآن الكريم

﴿الْيَوْمَ يَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

ويمكن بيان صلاحية الأمة الإسلامية لتحمل المسؤولية وعدم الحاجة إلى رسل آخرين من ثلاثة طرق:

الطريق الأول: تشريع الإمامة

حسب عقيدة الشيعة الامامية إختار رسول الله في حياته «علي بن أبي طالب» عليه السلام لخلافته، وإمامة الأمة من بعده، وأستودع لديه العلوم والمعارف اللازمة

ليقوم من بعده بحفظ أحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها، ونشرها وتبليغها.
واختار بعد الإمام عليّ عليه السلام أحد عشر إماماً معصوماً لمقام الخلافة،
ولأجل أن يتحمّلوا - الواحد بعد الآخر - مسؤوليّة التبليغ والدعوة، ويقوموا بتنفيذ
أحكام الشريعة وقوانينها، ويدافعوا عن الاسلام وقيمه مع مراعاة متطلّبات الأوضاع
والأحوال، ومقتضيات الزمان والمكان.
ولقد استمرّ هذا الوضع إلى وقت وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام
(عام ٢٥٥ هجرية).

ولقد خلّف الأئمة الأطهار عليهم السلام، مئات الألوف من الأحاديث في
شتى المجالات الإسلامية، وهذه الأحاديث محفوظة ومدوّنة في الكتب والمؤلفات. كما
وتخرّج على أيديهم آلاف العلماء، والخبراء العارفين بالدين الاسلامي، والمجاهدين
المتفانين في سبيله.

الطريق الثاني: تربية العلماء حمّلة المسؤولية

حيث أن المستوى العقليّ لدى الناس في عصر رسول الله والأئمة الطاهرين
صلوات الله عليهم قد بلغ مرتبةً عاليةً جداً بحيث ظهر بين المسلمين شخصيات كثيرة
أصبّح في مقدورهم إستيعاب المعارف الدينية العالية وتحمل مسؤولية تطبيق الأحكام
والقوانين الإسلامية والقيام بتبليغها ونشرها، والدفاع عنها بكل وجودهم عن قيم
الاسلام.

فان نبيّ الاسلام والأئمة المعصومين بالغوا في تربية أعداد كبيرة من هذه
العناصر الواعية العالمّة، ثم وضعوا مسؤولية تبليغ الدين والدفاع عنه على عواتقهم،
وهناك أحاديث كثيرة تشير إلى هذه الحقيقة، ونحن نذكر هنا نماذج منها:
عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَاكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ**

لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ^(١).

قال النبي صلى الله عليه وآله: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ^(٢).

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: رحم الله خلفائي، فقيل: يا رسول الله من خلفاؤك؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله ^(٣).

وقال صلى الله عليه وآله: إن مثل العلماء في الأرض كمثال النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فإذا طُمست أو شك أن تضل الهداة ^(٤).

وعن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة وزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء ^(٥).

وقال النبي صلى الله عليه وآله: من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة ^(٦).

الطريق الثالث: تحريك العقول وإثارتها

إن من الأهداف الكبرى التي يهدف إليها الأنبياء هو تقوية عقول الناس وترشيدها .. فقد بذل الأنبياء طيلة التاريخ الإسلامي جهوداً عظيمة في هذا الصعيد

(١) الكافي ج ١ ص ٣٢.

(٢) بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٢.

(٣) بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٥.

(٤) بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٥.

(٥) بحار الأنوار ج ٢ ص ١٦.

(٦) بحار الأنوار ج ١ ص ١٨٤.

وعلى أثر جهود الأنبياء السابقين، وكذا جهود رسول الإسلام والأئمة المعصومين عليهم السلام بلغت عقول البشر تدريجاً حداً من الكمال والرشد، ومرتبته من الاكتفاء الذاتي استطاعوا معها - بالاستفادة من القرآن الكريم وهدايات الأنبياء والمعصومين - أن يُشغّلوا عقولهم، ويبلغوا حدّ الاكتفاء الذاتي في باب المعارف الدينية وأن يعرفوا الطريق الصحيح، ويميّزوا الحق عن الباطل، ويتحركوا في طريق الحق، ويستوعبوا علوم الدين، ويحققوا في القرآن الكريم لاكتشاف حقائقه ومعرفة أسرارهِ، ويجتهدوا في إستنباط الأحكام من مصادر الإسلام الغنيّة.

ولقد استفاد النبيُّ الأكرمُ والأئمة المعصومون من هذه الحالة، ودَعَوْا الناس بقوةٍ إلى إكتشاف العلوم وإلى التعقل والتفكّر.
إنَّ في القرآن الكريم مئات الآيات التي تدعو الناس وتحثهم على التفكير والتعقل، والتدبّر والتفكّة.

وكذا ثمتّ مئات الأحاديث من هذا القبيل، وهي مدوّنة في مصادر الأحاديث، ولهذا السبب ولأجل أن يتحقق تشغيل عقول الناس وإثارتها ولكي تقطع هذه العقول طريق رشدّها بسرعة، لم يكن هناك حاجة إلى إرسال الأنبياء المبلّغين، أيضاً، بل أعلن عن ختم النبوة، وإقفال باب الإرسال بصورةٍ مطلقةٍ.

فَكَّرُوا وَأَجِيبُوا

- ١ - وَضَحُوا الإشكالَ الثاني على خاتمة نبي الاسلام جيداً.
- ٢ - وَضَحُوا الجانبَ الثابت في حياة البشر.
- ٣ - وَضَحُوا الجوانبَ المتغيرة في حياة البشر.
- ٤ - ماذا يعني الاجتهاد؟ وكيف يمكن تأمين وتلبية إحتياجات البشر بواسطته؟
- ٥ - ما هي صلاحيّات الحاكم الشرعيّ الإسلاميّ؟

- ٦ - كيف تجيب على الإشكال؟
- ٧ - وضّحوا الإشكال الثالث.
- ٨ - كيف تجيب على هذا الأشكال؟
- ٩ - ما هي الطرقُ الثلاث التي أَهَلَّتِ الأُمَّةَ الإسلامية لتحمل المسؤولية؟

* * *

الدرس السابع والعشرون

مُحَمَّدٌ قَبْلَ الْبَعْثَةِ

وُلِدَ النَّبِيُّ «مُحَمَّدٌ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ عَامَ (٥٧٠) مِيلَادِيَّةً^(١) فِي مَدِينَةِ مَكَّةِ الْمَكْرُمَةِ.

كَانَ أَبُوهُ عَبْدِ اللَّهِ وَأُمُّهُ آمَنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ وَقَبْلَ أَنْ يُولَدَ مُحَمَّدٌ (ص) تُوِفِيَ وَالِدُهُ عَبْدِ اللَّهِ فِي سَفَرَةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَدُفِنَ فِيهَا.

وَلَقَدْ دَخَلَ «مُحَمَّدٌ» مِنْذُ صِغَرِهِ تَحْتَ كِفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ .. وَكَانَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ وَزَعَائِمِهَا .. وَكَانَ يُحِبُّ مُحَمَّدًا كَثِيرًا وَيَكْرَهُهُ أَكْرَامًا كَبِيرًا، وَكَانَ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لَشَأْنًا عَظِيمًا^(٢).

كَانَ مُحَمَّدٌ فِي الْخَامِسَةِ مِنْ عَمَرِهِ عِنْدَمَا تُوفِيَتْ أُمُّهُ «آمَنَةُ» أَيْضًا، وَكَانَ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عَمَرِهِ عِنْدَمَا تُوِفِيَ جَدُّهُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بَعْدَ أَنْ سَلَّمَ مُحَمَّدًا إِلَى وَلَدِهِ أَبِي طَالِبٍ .. وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ عَمَّ مُحَمَّدٍ وَيَحْفَظُ عَلَيْهِ مَحَافِظَةَ الْوَالِدِ الرَّحِيمِ .

(١) قصة الحضارة المجلد ٤ القسم الأول.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٥.

تزوج «محمد» خديجة بنت خويلد وهو ابن خمس وعشرين سنة .. وكانت «خديجة» امرأة شريفة وثريّة، ومعروفة، وطاهرة من نساء قريش. ولقد رزق منها «محمد» بولدين توفيا في الصغر، وأربع بنات باسم: زينب ورقية وأم كلثوم، وفاطمة، ولقد بعث «محمد» بالرسالة في الأربعين من عمره.

والآن يلزم أن نبحث في موضوعين:

الأول: كيف كان يعيش «محمد» قبل البعثة؟ وكيف كانت أخلاقه؟.

الثاني: بماذا كان يتدين «محمد» وماذا كان دينه قبل الإسلام لو كان يتدين بدين؟.

قبل كل شيء لا بد أن نذكر القارئ الكريم بأن من المؤسف أنه لا تتوفر المعلومات الدقيقة والتفصيلية عن حياة محمد قبل البعثة، اللهم إلا أمور متفرقة لا بد أن نستفيد منها جميعاً في هذا المجال.

الموضوع الأول: يستفاد من مجموع المعلومات المتناثرة في هذا الصدد أن النبي «محمد» كان يمتاز في أقواله وأفعاله وسلوكه في صغره وصباه وشبابه عن أقرانه، امتيازاً كاملاً.

فمنذ ذلك العهد كان يبدو «محمد» إنساناً غير عادي، بل شخصية متميزة .. يقول عنه أبو طالب عمه:

لقد كنت كثيراً ما أسمع منه إذا ذهب من الليل كلاماً يعجبني وكنا لا نسمي على الطعام ولا على الشراب حتى سمعته يقول: بسم الله الأحد، ثم يأكل. فاذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله كثيراً. فتعجبت منه وكنت ربما أتيت غفلة فارئى من لدن رأسه نوراً ممدوداً قد بلغ السماء ثم لم أر منه كذبة قط، ولا جاهلية قط، ولا رأيت يضحك في موضع غير موضع الضحك، ولا وقف مع صبيان في لعب، ولا إلتفت إليهم وكانت

الوحدة أحب إليه والتواضع^(١).

ويقول ابن عباس: كان بنو أبي طالب يصبحون رُمَصاً عُمَصاً، ويصبح رسول الله صقيلاً، دهنياً.

وكان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أول البكرة فيختلسون وينتهبون ويكف رسول الله يده فلا ينتهب معهم فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حده^(٢).

ويكتب أبو الفداء قائلاً: وشب رسول الله صلى الله عليه وآله على أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد من كرامته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطةً وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حِلماً، وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى، ما رثي مُلاحياً ولا مُمَارياً أحداً، حتى سمّاه قومه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة^(٣). وعندما دخل رسول الله منزله مضطرباً بعد أن أوحى إليه أول مرة قال لزوجته خديجة: لقد خشيتُ على نفسي.

فقالت خديجة في جوابه: إيش، كلاً والله لا يخزيك الله أبداً، إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق^(٤).

يقول أنس بن مالك: وكان صلى الله عليه وآله يسمى الامين قبل النبوة لما عرفوا من أمانته وعدله. وعن الربيع بن خيثم: كان يتحاكم إلى رسول الله (ص) في

(١) المناقب ج ١ ص ٣٧.

(٢) السيرة النبوية لابي الفداء ج ١ ص ٢٤٢.

(٣) السيرة النبوية لابي الفداء ج ١ ص ٢٤٩.

(٤) السيرة النبوية ج ١ ص ٣٩٤.

الجاهلية قبل الإسلام. وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر. لا والله ما هو بساحر^(١).

من هذه العبارات وأمثالها يمكن إلى حد ما معرفة شخصية النبي محمد الأخلاقية والاجتماعية قبل البعثة .. لقد كان (ص) شخصاً نظيفاً، عفيفاً، حسن الخلق، كريم الفِعال، صادقاً، حليماً، صبوراً، أميناً، عادلاً، مضيافاً، يحمي المحرومين ويدافع عن المظلومين والمستضعفين .. لم يكن فحاشاً، ولا بذيئاً، ولم يُعرف منه أذى لأحد.

الموضوع الثاني: التعبّد بالدين وهنا نعالج مسألتين:

المسألة الأولى: هل كان النبي محمد (ص) يتعبّد بدين أو شريعة قبل البعثة أولاً؟

في الجواب على هذا السؤال يقال: من المحتّم أنه (ص) كان متعبّداً بدين وشريعة، ويمكن التمسك لإثبات هذا الموضوع بوجوه:

أولاً: أنّ النبي محمد كان مثل سائر الناس مكلفاً .. وكان عليه أن يتعبّد بالأحكام والقوانين السماوية .. وقد قلنا في مبحث العصمة أنه لم يرتكب (ص) كفراً ولا معصية حتى قبل مبعثه أيضاً، وعلى هذا لا بدّ أنه كان متديناً قبل البعثة.

وثانياً: ان كتب التاريخ نسبت إليه أعمالاً تنبئ عن انه كان متقيداً بشرع، ونذكر على سبيل المثال ما يلي:

يكتب أبو الفداء قاتلاً: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرج إلى

محمد (ص) قبل البعثة ١٤٩

«حراء» في كلِّ عام شهراً من السنة، يتنسَّك فيه، وكان من نُسك قريش في الجاهليَّة، يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة^(١).

غياث بن إبراهيم عن جعفر عليه السلام قال: لم يحجَّ النبيُّ بعد قُدومه المدينة إلاَّ واحدةً وقد حجَّ بمنكته مع قومه حجَّات^(٢).

وجاء في بحار الأنوار: وقد كان صَلَّى قَبْلَ ذلك وهو ابن أربع سنين^(٣). ولقد سمعتم في وصف أبي طالب للنبيِّ «محمد» كيف أنه كان يُسمَّى ويقول بسم الله، قَبْلَ الطَّعام ويقول بعده الحمد لله.

ويستفاد من هذه العبارات أنَّه كان يتنسَّك في غار حراء شهراً من كل عام، ويحسن إلى المساكين، ويطوف بالكعبة، وأنه أدَّى مراسم الحج مرات، وأنه صَلَّى يوم كان في الرابعة من عُمره، وكان متقيداً بالتسمية والتحميد قبل الطعام وبعده، ومثل هذا الفرد متدينٌ حتماً، ومن دون شك.

وثالثاً: لقد نفى القرآن الكريم عن النبيِّ محمد الضلالة بشكل قاطع ومطلق إذ يقول تعالى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾^(٤).
إنَّ إطلاق هذه الآية يشمل فترة ما قبل البعثة أيضاً.

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٣٩٠.

(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٨٨.

(٣) بحار الأنوار ج ١٥ ص ٣٦١.

(٤) النجم ٢.

المسألة الثانية: بآية شريعة كان يتعبد؟

إن هناك عدة احتمالات في هذا المجال:

(الإحتمال الأول): انه كان تابعاً لشريعة موسى أو عيسى عليهما السلام، لأنها كانتا الشريعتين السماويتين الوحيدتين اللتين كانتا رائجتين يومذاك. ولكن هذا الإحتمال مرفوض، لأنه (ص) لو كان مسيحياً أو يهودياً، وجب أن يشارك في مراسيمهم وطقوسهم الدينية، وأن يعاشرهم، في حين لا نرى أي اثر أو ذكر لهذا الأمر في التاريخ كما لا يدّعيه أحد من اليهود والنصارى قط. هذا أولاً.

وثانياً: إن الأعمال التي كان يقوم بها محمد (ص) قبل البعثة كالْحَجِّ، والطواف، والصلاة لم تكن معدودة من عبادات وطقوس دينك الدينين.

(الاحتمال الثاني): انه كان يتبع شريعة النبي إبراهيم عليه السلام، ومما يؤيد هذا الإحتمال هو أن العرب القاطنين في الحجاز كانوا في الأغلب من أبناء إسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، ولقد كان النبي إبراهيم مؤسس التوحيد، وواضع أسس العبودية لله تعالى في تلك البقاع، وكان يروج لشريعته التي كانت تدعى بالحنيفية بين الناس، وقد إتبع إسماعيلُ نهج والده، وأيد شريعته ذاتها، وكان عربُ تلك البقاع لكون أغلبهم من أولاد إسماعيل يتبعون شريعة إبراهيم، وكان ذلك الدين الساموي رائجاً في أوساطهم رواجاً كاملاً، وقد بقي الأمر على هذا المنوال مدةً مديدة من الزمان حتى نُسبت أحكام ذلك الدين الحنيف وقوانينه، واختفت مراسيمه شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، وتراكم الأعوام حتى لم يبق من مراسيم ذلك الدين سوى أشياء قليلة كالْحَجِّ، والطواف والوقوف في عرفات، والمشعر ورمي الجمار، والأضحية، وبعض أعمال أخرى.

بل لقد حَلَّ الشركُ والوثنيَّة محلَّ التوحيد بمرور الأيام، ولم يُعَدِ المشركون يعترفون بآله إبراهيم الواحد، الأحد، الصَّمدِ الفردِ بل كانوا يشركون مع الله في العبادة إلهاً أو آلهة أخرى مختلفة، من الأشياء والاشخاص بحجج واهية، ومع هذا كلَّه كانوا يعدُّون أنفسهم أتباعاً لدين إبراهيم وشريعته.

نعم كان بين تلك الجماعات الضالَّة التائهة عدة أشخاص من ذوي الضمائر اليقظة، أدركوا بأن الناس قد تورَّطوا في التيه والضلال، وأن حقيقة الدين الإبراهيمي قد اختفت وزالت فصار الوقوفُ على حقيقة الدين الحنيف وقوانينه ومراسيمه أمراً صعباً بل غير ممكن في ذلك الزمان ولهذا صار فريق منهم بصدد تحصيل ذلك الدين، والتعرف على معالمه وملاحمه الحقيقية.

كتب ابن هشام يقول: واجتمعت قريش يوماً في عيدٍ لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة فخلص أربعة نفر منهم نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم ورقة بن نوفل ... عبید الله بن جحش ... عثمان بن الحويرث ... وزید بن عمرو بن نفيل. فقال بعضهم لبعض: تعلّموا والله ما قومكم على شيء. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به؟ لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم! إلتمسوا لأنفسكم ديناً فانكم والله ما أنتم على شيء. ففترقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم^(١).

ويكتب نفسه قائلاً: وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية، ولا نصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح على الأوثان، ونهى عن قتل المؤودة وقال: أعبد ربَّ إبراهيم، وبأدى قومه بعيب ما هم

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٣٧.

عليه^(١).

هذا ويُستفاد من بعض الأحاديث أن أجداد النبي (ص) كانوا أيضاً يتبعون دين إبراهيم، فعن الأصمغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين (ع) يقول: والله ما عبد أبي ولا جدي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط، قيل: فما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلّون إلى البيت على دين إبراهيم متمسكين به^(٢).

فدين إبراهيم وشريعته كما تلاحظون كان يُعدُّ في ذلك الزمان الدينَ الرَّائجَ والرسميَّ عند عرب الحجاز، وحتى المشركون أنفسهم كانوا يعدّون أنفسهم أتباع الدين الحنيف في حين كانوا قد ضيّعوا حقيقة ذلك الدين وأكثر أحكامه وشرائعه.

مع ملاحظة النقاط المذكورة يبدو للنظر أن النبي محمد صلى الله عليه وآله كان قبل البعثة أيضاً يتبع دين النبي إبراهيم ويتدين بشريعته، كان يعبد الله الواحد، ويخالف الشرك والوثنية، ويؤدّي الحج والطواف للذين كانا من بقايا شريعة النبي إبراهيم .. كان يعتزل قومه، ويحب ذكر الله، والصلاة، وكان يتحلّى بالاخلاق الكريمة، ويتجنب الأخلاق الذميمة .. يأتي بمراسم الدين الإبراهيمي الحنيف، ويحظى بالعنايات الربانية عند الإقتضاء، وبصورة عامة كان يستفيد مكارم الاخلاق، والعقائد الصحيحة، ومراسم الدين الإبراهيمي الحقيقية من هدايات الملك الذي وُكِّلَ به.

يقول الإمام علي عليه السّلام في هذا الصدد:

وقد قرّن الله به صلّى الله عليه وآله من لدنّ كان فطيماً أعظم ملك من ملائكتِهِ يَسْلُكُ به طريقَ المكارم ومحاسنِ أخلاقِ العالمِ، ليلَه ونهارَه^(٣).

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٣٩.

(٢) بحار الأنوار ج ١٥ ص ١٤٤.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٩٤.

ويقول العلامة محمد باقر المجلسي: رُوي أنَّ بعض أصحاب أبي جعفر محمد ابن علي الباقر عليه السلام سأله عن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَانَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصْدًا﴾^(١) فقال يوكلُ الله تعالى بأُنبياؤه ملائكة يحصون أعمالهم ويؤدون إليهم تبليغهم الرسالة ووكل بمحمد ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع، يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ويصده عن الشرِّ ومساويء الاخلاق، وهو الذي كان يناديه: السلام عليك يا محمد يا رسول الله، وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد فيظنُّ أنَّ ذلك من الحجر والأرض فيتأمل فلا يرى شيئاً^(٢).

يستفاد من مجموع هذه العبارات أنَّ النبي محمد صلى الله عليه وآله كان قبل البعثة مثل عمه أبي طالب وأجداده وعددٍ كبيرٍ من أصحاب الضمائر اليقظة يتبع دينَ النبي إبراهيم عليه السلام ويتدين بشريعته، يعبد الله وحده، ويخالف الشرك والوثنية، ويأتي بالمراسيم الدينية والأخلاق الإجتماعية وفقاً لشريعة النبي إبراهيم، وكان في معرفة العقائد الصحيحة، وأحكام الشريعة وقوانينها والإلتزام بها واجتناب الأعمال القبيحة مؤيداً - على الدوام - بالتأييدات الالهية، والتسديدات الربانية.

ولقد عدَّ رسولُ الإسلام بعد البعثة نفسه تابعاً للنبي إبراهيم واعتبر الإسلام تكميلاً لحنيفية إبراهيم عليه السلام.

يكتب العلامة المجلسي قائلاً: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٣)

وهي الحنيفية العشرة التي جاء بها إبراهيم: خمسة في الرأس وخمسة في البدن: فالتى في الرأس فطم الشعر وأخذ الشارب وإعفاء اللحي والسواك والحلال، وأما التي في البدن فالغسل من الجنابة والطهور بالماء وتقليم الأظفار وحلق الشعر من

(١) الجن - ٢٧.

(٢) بحار الأنوار ج ١٥ ص ٣٦١.

(٣) النحل - ١٢٣.

البَدَن والْخَتَان وهذه لم تنسخْ إلى يوم القيامة^(١).

فكروا وأجيبوا

- ١ - كيف وَصَفَ أبو طالبِ النبيَّ مُحَمَّدًا؟
- ٢ - كيف وَصَفَ أبو الفداء النبيَّ مُحَمَّدًا؟
- ٣ - هل كان النبيُّ مُحَمَّدٌ متعبداً قَبْلَ البعثة بدين؟ ما هو الدليلُ على ذلك؟
أذكروا دليلين من الأدلة الثلاثة.
- ٤ - هل كان النبيُّ مُحَمَّدٌ متديناً - قَبْلَ البعثة - بدين موسى أو عيسى؟ ما هو
الدليل على ذلك؟
- ٥ - بأيِّ دينٍ كان يتدينُ النبيُّ مُحَمَّدٌ قَبْلَ البعثة؟ أذكروا دليل ذلك، ووضّحوه
جيداً.

* * *

الدرس الثامن والعشرون

بعثة رسول الاسلام

بُعِثَ محمد صلى الله عليه وآله بالرسالة في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب عام (٦١٠) ميلادية^(١) وهو في الأربعين من عُمره .. ففي مثل هذا اليوم نزل جبرئيل على محمد (ص) وأبلغه أنه رسول الله .. ولكن لم يتحقق هذا الأمر دفعة واحدة ومن دون تهيؤ سابق، بل كان يشاهد علائم وإرهاصات، منذ أيام صباه، وربما رأى في منامه أو يقظته شخصاً، أو سمع صوتاً، بل ربما خاطبه منادٍ بقوله: يا رسول الله، وذلك خاصة في الاعوام الثلاثة ما قبل بعثته.

يكتب البلاذري قائلاً: ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان حين اراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً، ويفضي إلى الشعاب والأودية، فلا يمرّ بشجرة إلا قالت: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت عن يمينه وشماله، وخلفه فلا يرى أحداً^(٢).

(١) بحار الأنوار ج ١٨ ص ١٨٩ - ١٩٣ يرى بعض المؤرخين انه (ص) بعث يوم ٢٠ أو ١٧ من شهر رمضان.

(٢) أنساب الأشراف الجزء الأول ص ١٠٤.

ويكتب البلاذري قائلاً أيضاً: أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وآله الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا كانت مثل فلق الصبح وحُببت إليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (والتحنث: التعبد) ويمكث الليالي قبل أن يرجع إلى أهله ثم يرجع إلى خديجة فيتزود، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء وعرض له جبرئيل^(١).

لقد دأب محمد صلى الله عليه وآله على أن يذهب كل سنة شهراً واحداً على الأقل إلى جبل حراء، ويختلي بنفسه هناك، ويشغل بالعبادة والتفكير.

نقل ابن هشام عن عبيد بن عمير أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجاور في حراء من كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية^(٢).

وقال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين فإذا قضى رسول الله جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته^(٣).

أجل إن النبي محمداً كان يشاهد المراسم الوثنية التي يقوم بها الناس، وتحز في نفسه ضلالتهم وجهالتهم .. يرى مظالم الأشراف والأغنياء وتعدياتهم وفقراء الفقراء والمستضعفين وحرمانهم، ويفكر في حيلة لخلاصهم من ذلك .. وربما اعتزل قومه ولجأ إلى غار حراء، واختلى بنفسه وربّه، واستغرق في التفكير .. فكر في الساء ونجومها الجميلة، في الشمس المشرقة والقمر، وطلوعها وغروبها، في البحار وأمواجها الهائجة، في الأرض والأشجار والنباتات والحيوانات والبشر، وكان يشاهد ما وراء هذه الحجب

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٥١.

(٢) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٥٢.

(٣) بحار الأنوار ج ١٨ ص ١٨٤.

والمظاهر عظمة الله الخالق، وقدرته المطلقتين، ويتأسف من إيكال الله الخالق، الناس إلى أنفسهم وتركهم يعبدون الأصنام التافهة..

هكذا كان يقضي محمد رداً من وقته في مثل هذه العبادة والتفكير، ثم يعود بنفسٍ منوّرة، وقلب مطمئن إلى مكة، وبعد أن يطوف بالكعبة المعظمة يرجع إلى بيته، ويواصل حياته اليومية.

وكان ربما شاهد شخصاً - تارةً في اليقظة وأخرى في المنام - يقول له: يا رسول الله. فيسأله محمد: من أنت؟ فيجيب المنادي: أنا جبرئيل بعثني الله لأبعثك بالرسالة ولكن محمد (ص) كان يكتنم جميع هذه الحوادث^(١) وربما أسرّبها إلى زوجته خديجة فتقول له خديجة: ارجو أن يكون كذلك^(٢).

ولقد استمر هذا الأمر، حتى بَلَغَ سنّ الأربعين وفي تلك السنة، في شهر رجب خرج إلى غار حراء لغرض العبادة والتفكير.. وفي اليوم السابع والعشرين من ذلك الشهر بينما كان غارقاً في التدبر والتفكير إذ نزل عليه ملك الوحي، جبرئيل وقال له: أنت رسول الله، وإن عليك أن تبَلِّغَ رسالات الله وتجتهد في إرشاد الناس وهدايتهم.

ولقد نُقلت قصّة بدء الوحي والبعثة المحمدية بواسطة جبرئيل في كتب التاريخ بصور مختلفة لا يليق بعضها بشأن رسول الله، ومكانته النبوية الرفيعة، ولهذا فاننا نكتفي هنا بالاستفادة من الحديث المروي عن الإمام الهادي عليه السلام:

قال عليّ بن محمد عليه السلام إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما ترك التجارة إلى الشام، وتصدّق بكلّ ما رزقه الله تعالى من تلك التجارات كان يغدو كلّ يوم إلى حراء يصعده وينظر من قلله إلى آثار رحمة الله، وإلى أنواع عجائب رحمته

(١) بحار الأنوار ج ١٨ ص ١٨٤.

(٢) بحار الأنوار ج ١٨ ص ١٩٤.

وبدائع حكمته، وينظر إلى أكناف السماء، وأقطار الأرض والبحار والمفاوز والفيافي، فيعتبر بتلك الآثار، ويتذكر بتلك الآيات، ويعبد الله حقَّ عبادته، فلما استكمل أربعين سنة ونظر الله عزَّوجلَّ إلى قلبه فوجده أفضل القلوب وأجلَّها وأطوعها وأخشعها وأخضعها أذن لأبواب السماء ففتحت ومحمد ينظر إليها، وأذن للملائكة فنزلوا ومحمد ينظر إليهم، وأمر بالرحمة فأنزلت عليه من لدن ساق العرش إلى رأس محمد وغرته، ونظر إلى جبرئيل الروح الأمين المطوق بالنور طاووس الملائكة هبط إليه وأخذ بضبعه^(١) وهزه وقال: يا محمد اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال يا محمد ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٢) ثم أوحى إليه ما أوحى إليه ربه عزَّوجلَّ ثم صعد إلى العلو ونزل محمد صلى الله عليه وآله من الجبل وقد غشيه من تعظيم جلال الله وورد عليه من كبير شأنه ما ركبته الحمى والنافض^(٣) يقول وقد اشتدَّ عليه ما يخافه من تكذيب قريش في خبره ونسبتهم إياه إلى الجنون، وأنه يعتريه شياطين، وكان من أول أمره أعقل خلق الله، وأكرم براياه، وأبغض الأشياء إليه الشيطان وأفعال المجانين وأقوالهم، فأراد الله عزَّوجلَّ أن يشرح صدره، ويشجَّع قلبه، فأنطق الله الجبال والصخور والمدن، وكلما وصل إلى شيء منها ناداه: السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا وليَّ الله، السلام عليك يا رسول الله أبشر، فإنَّ الله عزَّوجلَّ قد فضلك وجملك وزينك وأكرمك فوق الخلائق أجمعين من الأولين والآخرين، لا يحزنك أن تقول قريش إنك مجنون، وعن الدين مفتون، فإنَّ الفاضل من فضله ربَّ العالمين، والكريم من كرمه خالق الخلق أجمعين، فلا يضيّقْ صدرك من تكذيب قريش وعتاة العرب لك، فسوف يبلغك ربُّك

(١) الضبع وسط العضد.

(٢) العلق ١ - ٥.

(٣) النافض حمى الرعدة.

أقصى منتهى الكرامات، ويرفعك إلى أرفع الدرجات^(١).
 لقد استضاء كيان محمد صلى الله عليه وآله كله بمشاهدة جبرئيل وتلقي
 الوحي، ونزل من جبل حراء وتوجه نحو منزله وهو يحمل بين جوانحه إيماناً قوياً،
 وضميراً مطمئناً، وعزماً راسخاً.
 يقول ابن شهر آشوب: فلما دخل الدار صارت الدار منورة، فقالت خديجة:
 وما هذا النور؟

قال: هذا نور النبوة، قولي: لا إله إلا الله محمد رسول الله.
 فقالت: طال ما عرفت ذلك، ثم أسلمت^(٢).
 ثم إن هناك إختلافاً في أول سورة نزلت على رسول الله في بدء الوحي، وأنها
 ما هي؟ ولكن حسب ما كتبه أكثر المؤرخين وحسب الأحاديث المعتبرة إن أول سورة
 نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله هي سورة: «العلق».
 كتب محمد بن يعقوب الكليني: علي بن أسرى عن أبي عبد الله عليه السلام
 قال: أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَقْرَأْ
 بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ وآخره ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾^(٣).

فكروا وأجيبوا

- ١ - كيف كان يهتو محمد للنبوة؟
- ٢ - لماذا كان يذهب إلى غار حراء؟
- ٣ - بماذا كان يفكر في غار حراء؟

(١) بحار الأنوار ج ١٨ ص ٢٠٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٤٦.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٦٢٨.

- ٤ - صِفُوا قِصَّةَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ؟
- ٥ - مَاذَا قَالَ جِبْرِيلُ لِمُحَمَّدٍ عِنْدَ ابْتِعَاثِهِ؟
- ٦ - مَاذَا كَانَ يَخَافُ رَسُولُ اللَّهِ (ص) بَعْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟
- ٧ - عَلَى أَيِّ أَيْةٍ حَالَةٍ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ مَنْزِلَهُ بَعْدَ بَدْءِ الْوَحْيِ؟
- ٨ - مَاذَا قَالَ لِحَدِيجَةَ؟
- ٩ - وَمَا هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَيْهِ؟

* * *

الدرس التاسع والعشرون

نُزول القرآن وحفظه وكتابته

القرآن كتاب المسلمين السّماويّ، وكلام الله تعالى، كانت معاني القرآن ومفاهيمه العالية تُصَبّ في قالب الكلمات والعبارات العربية ثم تنزّل على قلب رسول الإسلام الطاهر بواسطة جبرئيل.

ولقد كانت آيات هذا الكتاب السّماويّ تنزل على النبيّ محمد صلى الله عليه وآله في المناسبات المختلفة، في السفر والحضر في الحرب والسلام .. فربما كانت تنزل آية واحدة، وربما نزلت عدة آيات، وربما سورة كاملة .. وقد تمّ هذا تدريجاً خلال ٢٣ سنة.

في القرآن الكريم مائة وأربعة عشر سورة تبدأ كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم إلاّ سورة التوبة التي يخلو مطلعها من البسملة. كل سورة تتكوّن من عدة آيات قليلة أو كثيرة، بعض هذه السور كبيرة وتسمّى السور الطوال، وبعضها الآخر صغيرة وتسمّى السور القصار، وطائفة أخرى من هذه السور متوسطة.

بعض هذه السور نزلت بمكة أو في نواحيها، وتسمّى السور المكيّة، وبعضها

الآخر نزلت في المدينة أو ما حولها وتسمى السور المدنية.
كان النبي صلى الله عليه وآله يهتم بنشر الآيات النازلة بين المسلمين، وبقائها للأجيال اللاحقة إهتماماً كاملاً وبالغاً. وقد جسد إهتمامه هذا في عدة إجراءات وعدة مراحل:

المرحلة الأولى: كان يتلو كل آية كانت تنزل على قلبه الطاهر، ويجريها على لسانه الشريف، ثم كان يدّخرها في ذهنه بدقة بالغة بحيث لا ينساها قط.
يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(١).

كان صلى الله عليه وآله يهتم إهتماماً كاملاً بتلاوة الآيات القرآنية، ويقرأوها في كل مناسبة .. في الخطب والمحاضرات، عند بيان الأحكام، وعند الوعظ، في الصلوات المندوبة والواجبة صباحاً ومساءً، وبخاصة في أيام شهر رمضان المبارك .. وكان في جميع هذه المراحل معصوماً مَصُوناً من الخطأ والنسيان والإشتباه. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه حافظاً لجميع آيات القرآن الكريم وسوره.

المرحلة الثانية: كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يهتم إهتماماً بالغاً بأن يتلو الآيات النازلة، على أصحابه حتى يتعلموها ويحفظوها، ويستفيدوا منها في ضمان سعادتهم الدنيوية والأخروية.

ولهذا الغرض كان يتلو الآيات النازلة على أصحابه، ويوصيهم بأن يتعلموها جيداً، ويحفظوها.

لقد كان النبي (ص) يهتم بأن تُحَفَظَ آيات القرآن الكريم بصورة صحيحة، وأن تبقى كذلك أيضاً، ولهذا كان حُفَاط القرآن من الصحابة يعرضون ما حفظوه من آيات الكتاب العزيز على رسول الله، صلى الله عليه وآله ويستمع إليهم رسول الله

بدقة، ويؤيد، أو يصحح قراءتهم. هذا مضافاً إلى أنه صلى الله عليه وآله كان يعرف للمسلمين جمعاً من أصحابه الذين كانوا يجيدون قراءة القرآن ويتقنونها ليقرأوا عليهم القرآن الكريم.

قال السيوطي: المشتهرون بإقراء القرآن من الصحابة سبعة: عثمان وعلي وأبي زيد بن ثابت وابن مسعود وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري^(١).

لقد كان كل واحد من صحابة رسول الله يجتهد بمقدار وسعه في إستيعاب وحفظ الآيات القرآنية وتصحيح قرائته لها، ويحفظ مقدراً من السور والآيات - قلت أو كثرت - ، وقد وُفّق فريق من المسلمين لحفظ كل السور والآيات القرآنية وسُموا بالقرّاء أو الحفاظ. ولم يضبط عدد قرّاء القرآن بصورة دقيقة، غير أن عددهم كان كبيراً اجمالاً.

يكتب السيوطي في هذا المجال قائلاً: قال القرطبي قد قُتِلَ يوم اليمامة سبعون من القرّاء وقتل في عهد النبي (ص) بيئر معونة مثل هذا العدد^(٢).

يستفاد من هذه العبارات أن عدد حفاظ القرآن كان كبيراً جداً بحيث قُتل في هاتين المعركتين (١٤٠) شخصاً منهم، ولكن لا يُستفاد من هذه العبارات أن جميع هؤلاء كان يحفظون القرآن الكريم بكامله، بل يستفاد من بعض الكتب أن حفاظ القرآن بكامله كانوا أقل من هذا العدد.

يقول الشيخ عبد الحي الكتاني: وفي الرياض المستطابة: جمع القرآن حفظاً على عهد رسول الله (ص) عشرة: عليّ وعثمان وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وأبو زيد الأنصاري وقيم الداري وعبادة بن الصامت وأبو

(١) الإِتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٩٦.

(٢) الإِتقان ج ١ ص ٩٤.

أيوب^(١).

ولكن لا يمكن حصر حفاظ القرآن فيمن ذُكر، لأنه يُرى في كتب التاريخ والحديث أشخاص آخرون كانوا يحفظون القرآن.

المرحلة الثالثة: الكتابة

لقد اختار رسول الله صلى الله عليه وآله فريقاً خاصاً من أصحابه ممن كانوا يجيدون القراءة والكتابة، لكتابة القرآن الكريم .. وعندما كانت تنزل آيات من الكتاب العزيز أحضر أحدهم وأملئ عليه الآيات النازلة كلمة كلمة، وأمره بكتابتها وتدوينها بدقة وإتقان. ثم يطلب من الكاتب أن يقرأ عليه ما كتبه، فيصحح له ما أخطأ فيه إن كان.

وربما عيّن موضع الآية ويقول: ضع هذه الآية في السورة الفلانية، وبعد الآية الفلانية^(٢).

لقد بلغ عدد من ذُكر من كُتاب النبي (ص) إلى ٤٣ شخصاً^(٣) بيد أن هذا العدد لم يكن كلهم من كُتاب الوحي كما لم يكن جميعهم كُتاباً رسميين دائمين. بل كان بعضهم كُتاباً رسميين مقدّمين على غيرهم، بينما كان بعضهم الآخر كُتاباً غير رسميين يُحضرون عند غياب الكتاب الرسميين لغرض الكتابة.

يقول الشيخ عبد الحمّي: كان عثمان بن عفان ممن يكتبون الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله فان غاب كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت .. فان لم يحضر أحد منهم كتب الوحي من حضر من الكتاب وهم معاوية وجابر بن سعيد بن العاص وابان

(١) التراتيب الادارية ج ١ ص ٤٦.

(٢) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٤٣.

(٣) التراتيب الادارية ج ١ ص ١١٥ - ١١٦.

بن سعيد والعلاء الحضرمي وحنظلة بن الربيع^(١).
 ان الأشخاص المذكورين كانوا ممن يُكَلَّفون بكتابة نسخة القرآن الخاصّة
 برسول الله (ص) وإلاّ فقد كان هناك ممن يكتبون الآيات النازلة في نسخهم الخاصّة
 بهم، بل حتى هؤلاء الكتاب الرسميين كانوا يكتبون مضافاً إلى نسخة النبي من
 القرآن نسخاً من آيات القرآن لأنفسهم.
 ولقد كان الكتاب يكتبون في مطلع كلّ سورة تنزل «بسم الله الرحمن الرحيم»
 ويكتبون الآيات، الواحدة تلو الأخرى وتباعاً. حتى تنزل بسملة^(٢) جديدة فتكون
 علامة لسورةٍ جديدةٍ فيكتبون الآيات الجديدة عقيب البسملة الجديدة، اللهم إلاّ في
 موارد خاصة كان يأمر فيها النبي (ص) بكتابة ووضع آية ضمن سورة معيّنة.
 يقول اليعقوبي: عن ابن عباس أنه قال: أنه كان يعرف فصل ما بين السورة
 والسورة إذا نزل بسم الله الرحمن الرحيم، فيعلمون أنّ الأولى قد انقضّت وابتداء
 بسورة أخرى^(٣).

على أيّ شيء كان يكتب القرآن؟

كان في صدر الاسلام ما يسمى بالقرطاس، ففي الصين كان يُصنّع الورق من
 العلف، وفي الهند كان يكتب على قطع الحرير، وفي إيران كانوا يكتبون على جلود
 رقيقة مدبوغة تسمى (الأديم) كما كان يكتب على ألواح بيضاء ورقيقة من (اللخاف)،
 وعلى صفائح النحاس والحديد وعلى العسيب وعلى أكتاف الإبل والغنم^(٤) وكذا على

(١) التراتيب الادارية ج ١ ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) اي جملة بسم الله الرحمن الرحيم.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٤.

(٤) التراتيب الادارية ج ١ ص ١٢٢.

قطع الخشب^(١).

كما ويستفاد من القرآن الكريم أيضاً أنه كان في ذلك الزمان ما يسمّى بالقرطاس الذي كان يُستخدم في الكتابة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٢).

فانه يستفاد من هذه الآية انه كان في ذلك العهد ما كان يدعى بالقرطاس الذي كان يؤلف فيه الكتب.

ولقد ذكروا أنه كانت تستخدم جميع الأشياء المذكورة في كتابة القرآن أيضاً (ما عدى الورق الصيني)^(٣).

لقد كان كتاب الرحي يكتبون آيات القرآن الكريم بصورة مستمرة على الأشياء المذكورة وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحافظ عليها في مكان خاص في المنزل إلى أن تهيأت قبيل وفاته نسخة كاملة من القرآن الكريم، ويبدو أنه سلم تلك النسخة إلى الإمام علي عليه السلام الذي كان بدوره أحد كتّاب الوحي قبيل وفاته صلى الله عليه وآله.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ (ع) يا عليّ! القرآن خلف فراشي في المصحف والحريير والقرطاس فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه كما ضيعت اليهود التوراة^(٤).

* * *

(١) الإتيان ج ١ ص ٧٨.

(٢) الأنعام ٧.

(٣) الإتيان ج ١ ص ٧٨.

(٤) بحار الأنوار ج ٩٢ ص ٤٨.

فكّروا وأجيبوا

- ١ - هل ألفاظ القرآن وعباراته من النبي؟
- ٢ - ما هي المرحلة الأولى للحفظ على القرآن؟
- ٣ - ما هي المرحلة الثانية للحفظ على القرآن؟
- ٤ - ماذا فعل النبي حتى يُحافظ على القرآن بصورة صحيحة؟
- ٥ - ما هي أساء حُفّاظ كل القرآن؟
- ٦ - ما هي المرحلة الثالثة للحفظ على القرآن؟
- ٧ - مَنْ كانوا المقدّمين في كتابة القرآن؟
- ٨ - على ماذا كانوا يكتبون القرآن الكريم؟
- ٩ - لمن سلّم رسول الاسلام نسخته من القرآن الكريم قبيل وفاته؟



الدرسُ الثالثون

جَمْعُ الْقُرْآنِ

لقد تمَّ جمعُ القرآن وتأليفه في عدة مراحل:

المرحلة الأولى في زمان رسول الله: فقد جُمعت وألّفت كل آيات القرآن وسوره في زمان حياة رسول الله صلى الله عليه وآله في صورتين:
الصورة الأولى:

كتبت كل آيات القرآن الكريم بأمر رسول الله، وتحت نظارته المباشرة في ألواح .. وعُيِّنَ عددُ سورِه وأسمائها. وكانت تبدأ كل سُورة ببسم الله الرحمن الرحيم، وتدوّن آياتها على الترتيب الذي يأمر به النبي (ص) .. وهذه الطريقة تهيأت نسخةً كاملةً من القرآن الكريم عند رسول الله، وحُوِفِظَ عليها في مكانٍ خاصّ.
ويُستفاد من بعض الكتابات أنّ نوعاً من التنظيم والتأليف للقرآن الكريم قد تمَّ في زمان حياة رسول الله وتحت إشرافه .. يقول زيد بن ثابت كُنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم نؤلّف القرآن من الرّقاع^(١).

(١) الإِتقان ج ١ ص ٧٦.

هذا مضافاً إلى إهتمام جماعة من الصحابة أيضاً بكتابة وتأليف آيات القرآن الكريم بصورة جامعة لأنفسهم .. بحيث كان أعدُّ كل واحد منهم مصحفاً خاصاً لنفسه جاء ذكره في الكتب مثل مصحف الإمام علي بن أبي طالب، مصحف ابن مسعود، مصحف أبي بن كعب، مصحف زيد.

ولقد وصف ابن النديم أولئك بالعبارة التالية: الجُماع للقرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، سعد بن عبيد بن النعمان بن عمرو بن زيد (رضي الله عنه) أبو الدرداء، عويمر بن زيد (رضي الله عنه) معاذ بن جبل بن أوس (رضي الله عنه) أبو زيد بن ثابت بن الضحّاك^(١).
ولقد كانت مصاحفهم جامعة لجميع آيات القرآن وسُوره، ولكنها كانت تعاني من مشكلتين:

المشكلة الأولى: أنها لم تكن في هيئة كتاب وأوراق مرتبة، وصحائف منظمة، بل كانت في صورة ألواح متفرقة ومتعددة.
المشكلة الثانية: أنه كانت مختلفة من حيث ترتيب السور، والتقديم والتأخير فيها.

الصورة الثانية:

استظهار وحفظ القرآن: فقد كان أصحاب رسول الله يهتمون بحفظ القرآن الكريم إهتماماً كاملاً، وقد كان كثيرٌ منهم يحفظون القرآن، وكان فيهم من كان حافظاً للقرآن باجمعه، وكان حُفاظ القرآن يُعَدُّون بحفظهم للقرآن الكريم من وجوه الأمة الإسلامية آنذاك وخير سند للقرآن الكريم، فقد كان هؤلاء يقرأون القرآن الكريم من على ظهر القلب، ويعلمونه للآخرين أيضاً، وكان الصحابة

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٧.

يرجعون إليهم في مواضع الحاجة، وحتى الجامعون للقرآن كانوا يرجعون إليهم لتكميل مصاحفهم ونسخهم.

لقد جُمعت آيات القرآن الكريم في حياة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله، وحُوِّظَ عليها بهاتين الطريقتين ليبقى هذا الكتاب للمسلمين إلى الأبد.

المرحلة الثانية في عهد أبي بكر

إنَّ القرآن الكريم بآياته وسوره كلّها وإن كان قد كُتِبَ ودُوِّن في ألواح في عهد رسول الإسلام وتحت إشرافه المباشر، كما أن مجموع هذا الكتاب كان محفوظاً ومنقوشاً كله أو بعضه في صدور رجالٍ من الصحابة وأذهانهم وذاكراتهم القويّة، بحيث كان في مقدور المسلمين أن يستفيدوا من آيات ذلك الكتاب السماوي، ولكن لأجل الإطمئنان، والتأكد من بقاءه، وللمزيد من الحفاظ عليه وصيانته كان لا بدّ من خطوة جديدة لانه: أولاً: لم تكن مجموع الآيات والسور القرآنية مدوّنة ومضبوطة في كتاب واحد، بل كانت مفرّقة ومبعثرة في ألواح متعددة، ولهذا كان القرآن عرضة للزيادة والنقص. وثانياً: إن حفاظ القرآن الكريم الذين كانوا يشكّلون دعامة قوية لذلك الكتاب السماوي كانوا في معرض الموت والشهادة، وكان يخشى أن يُنسَى قسم من القرآن الكريم بموتهم وغياهم عن الساحة كما حدث ذلك في واقعة اليمامة مما حدّى بأبي بكر تحت وطأة الإحساس بالخطر إلى أن يأمر بجمع القرآن في نسخة واحدة وموضعٍ واحدٍ.

كتب السيوطي في هذا المجال يقول: زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فاذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إنَّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقرءاء في المواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف

نفعل شيئاً لم يفعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.
قال زيد: قال لي أبو بكر: إنك شابٌ عاقلٌ لا تنتهكُم وقد كنتَ تكتبُ الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآنَ فأجمعه فتتبع القرآنَ أجمعه من العُسب واللخاف وصدور الرجال^(١).

بهذه الطريقة كُلف زيد بن ثابت بأن يجمع الآيات والسور القرآنية بمنتهى الدقة والحيلة في سفر واحد، فطلب زيد من الصحابة أن يعينوه في جمع القرآن، وأن يعرضوا عليه الآيات والسور القرآنية، ففعل الأصحاب ذلك، ولكن زيداً لم يكتف بمجرد وجود مكتوب أو قراءة واحد بل كان يقبل ما يشهد شاهدان عادلان بأن هذه الآية من القرآن قد كتبت عند رسول الله أو سُمعت منه.

كتب السيوطي يقول: عن الليث بن سعد أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد وكان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل^(٢).
ويكتب السيوطي قائلاً أيضاً: قدم عمر فقال: مَنْ كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيذان^(٣).
والجدير بالذكر أن زيد بن ثابت الذي كُلف بهذه المهمة الخطيرة جداً كان من الصحابة المعروفين بالثقة الذين كانوا يصلحون لهذه المهمة الجسيمة من كل جهة، لأنه أولاً: كان معروفاً بالإيمان القوي وشدة التقوى، والأمانة، والعقل والدراية.
وثانياً كان نفسه حافظاً لكل آيات القرآن الكريم، وكان قد عرضها برمتها

(١) الإتيان ج ١ ص ٧٦.

(٢) الإتيان ج ١ ص ٧٨.

(٣) الإتيان ج ١ ص ٧٧.

على رسول الله (ص) مرتين، وكانت قرائته موضع تأييدٍ منه (ص).

وثالثاً: كان أحد كتّاب الوحي.

ورابعاً: كانت عنده نفسه أيضاً نسخة من القرآن الكريم، مؤيدة من جانب

النبي (ص).

لقد قام مثل هذا الشخص بجمع كل آيات القرآن في مصحف واحد بدقة

كاملة، وبمساعدة من سائر الصحابة، وسلّمه بعد الفراغ منه إلى أبي بكر، وانتقلت

هذه النسخة بعد أبي بكر إلى عمر، وانتقلت بعده إلى ابنته حفصة.

جَمَعَ القرآن بواسطة علي بن أبي طالب عليه السلام

يُستفاد من كلام بعض المؤرخين وكذا بعض الأحاديث المروية عن الأئمة

المعصومين من أهل البيت عليهم السلام أنّ أوّل من اشتغل بتأليف وجمع القرآن

الكريم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، كان هو الإمام أمير المؤمنين علي بن

أبي طالب عليه السلام، وقد قام بهذا العمل بناء على وصية رسول الله صلى الله عليه وآله

وآله وتنفيذاً لأمره.

روى أبو بكر الحضرمي عن أبي عبد الله (الامام الصادق) عليه السلام قال:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا عَلِيُّ؛ الْقُرْآنُ خَلْفَ فِرَاشِي

فِي الْمَصْحَفِ وَالْحَرِيرِ وَالْقَرَّاطِيسِ فَخُذْهُ وَاجْمَعْهُ وَلَا تَضَيِّعْهُ كَمَا ضَيَّعَتِ الْيَهُودُ

التَّوْرَةَ.

فَأَنْطَلَقَ عَلِيُّ (ع) فَجَمَعَهُ فِي ثَوْبٍ أَصْفَرٍ، ثُمَّ خَتَمَ عَلَيْهِ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: لَا أُرْتَدِي

حَتَّى أَجْمَعَهُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَأْتِيَهُ فَيُخْرِجُ إِلَيْهِ بَغِيرَ رِءَاءٍ حَتَّى جَمَعَهُ^(١).

وروى ابن شهر آشوب عن أبي رافع قال: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ لِعَلِّيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا عَلِيُّ هَذَا كِتَابُ اللَّهِ خُذْهُ إِلَيْكَ. فَجَمَعَهُ عَلِيُّ (ع) فِي ثَوْبٍ فَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ جَلَسَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَأَلْفَهُ كَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَكَانَ بِهِ عَالِماً^(١).

وروي عن عبد خير عن علي عليه السلام قال: لما قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ أَقْسَمْتُ، أَوْ حَلَفْتُ أَنْ لَا أَضَعَ رِدَائِي عَلَى ظَهْرِي حَتَّى أَجْمَعَ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ، فَمَا وَضَعْتُ رِدَائِي حَتَّى جَمَعْتُ الْقُرْآنَ^(٢).

وقال ابن سيرين: قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ آيَتُ أَنْ لَا أَخَذَ عَلَى رِدَائِي إِلَّا لِصَلَاةٍ مُجْمَعَةٍ حَتَّى أَجْمَعَ الْقُرْآنَ فَجَمَعْتُهُ^(٣).

وفي تاريخ يعقوبي قال: وَرَوَى بَعْضُهُمْ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ جَمَعَهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَأَتَى بِهِ عَلَى جَمَلٍ فَقَالَ: هَذَا الْقُرْآنُ قَدْ جَمَعْتُهُ^(٤).

ولكن من غير الواضح جيداً أن القرآن الذي جمعه الإمام علي عليه السلام كيف كان نمط جمعه وتأليفه، وبإذا كان يمتاز على المصاحف الأخرى بيد أنه يمكن القول إجمالاً بأن الفرق بينه وبين سائر المصاحف لم يكن قطعاً من جهة عدد الآيات والسور، ولا من جهة الزيادة والنقص، أو التغير والتبديل، لأنه ثبت بالأدلة القطعية عدم حدوث التحريف أو التغير أو الزيادة والنقصان في القرآن الكريم.

فاذن لو كان هناك تفاوت بين القرآن الذي جمعه الإمام علي عليه السلام وبين

(١) المناقب لابن شهر آشوب ج ٢ ص ٤١.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ج ٢ ص ٤١.

(٣) الإتيان في علوم القرآن ج ١ ص ٧٧.

(٤) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ١٣٥.

سائر المصاحف لوجِبَ أن يكون في إحدى الجهات والنواحي التالية:

١ - الآيات والسور في مصحف عليٍّ مُجمَعَت على حسب الترتيب في النزول، وربما كان بعضها حسب أمر رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢ - في الآيات التي وقع فيها النسخ والانتساخ أثبتَ الناسخُ منها عقيبَ المنسوخ.

٣ - الآيات أُثبتت حسب قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله.

٤ - التفاسير والمواضيع والتوضيحات التي سمعها من رسول الله (ص) في تفسير الآيات المحكمة أو المتشابهة، أو حول شأن نزولها، أثبتتها الأمام في هوامش مصحفه أو في ألواح مستقلة.

ولكن يجب التذكيرُ بأنه لا يُوجد عند الشيعة غير القرآن الموجود الآن في أيدي المسلمين .. فنحن لا نعترف بقرآن نزل على رسول الله (ص) غير هذا القرآن المتداول اليوم، من أقصى البلاد الإسلامية الى أقصاها ولا نتلوا في الصلاة غيره، وهو وحده الذي نستفيد من علومه، ونعمل وفقه، وندعوا اليه.

المرحلة الثالثة

والمرحلة الثالثة والأخيرة في عملية جمع وتأليف القرآن كانت في عهد خلافة عثمان بن عفان فقد كتبوا عن سبب هذا الإقدام: ان حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمنية وأذربيجان مع أهل العراق فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب إختلاف اليهود والنصارى^(١).

(١) جامع الأصول ج ٣ ص ٥٧.

لقد كانت الأمة الإسلامية في ذلك الزمان تعاني من اختلافٍ شديد بين المصاحف التي كانت بأيدي الناس وكان هذا الاختلاف في جهتين: إحداهما في تقديم وتأخير وتنظيم الآيات والسور، والأخرى في اللهجات وطرائق التلفظ للألفاظ، وكيفية كتابة الحروف، والقراءات.

لقد كان هذا الاختلاف ناشئاً من تعدّد نسخ القرآن الكريم واختلاف القراءات، وتنوّع اللهجات، لأنه وإن أُعدّت في عهد أبي بكر نسخة كاملة ومنظمة من القرآن الكريم، وكانت تلك النسخة موجودة عند أبي بكر ثم انتقلت إلى عمر ثم إلى حفصة لكنها لم تكن نسخة مهيأة للجميع بل كان القرآن المنتشر بين الناس هو المأخوذ من تلك النسخ التي كتبت في عهد رسول الله، والتي كانت يختلف بعضها عن بعض من حيث تقدّم وتأخر ونظام السور والآيات، ولهذا انتشرت بين الناس في البلاد الإسلامية مصاحف مختلفة، وكان كل جماعة يدافع عن مصحفه، ويفضّله على غيره من المصاحف الموجودة في أيدي الآخرين، هذا مضافاً إلى أنه حيث كان العرب ذوي لهجات مختلفة لهذا اختلفوا في القراءات وضبط الكلمات والحروف أيضاً.

لقد شاهد حذيفة مثل هذا الموضوع، وأحس بالخطر، وفاتح عثمان لدى رجوعه بهذا الموضوع وطلب منه أن يفكر في مخلص من هذه المشكلة، وأحس عثمان هو الآخر بالخطر وقرر أن يضع حداً لهذه الاختلافات، ولهذا دعى زيد بن ثابت الذي كان قد كُلف في عهد أبي بكر بمهمة جمع القرآن أيضاً، وكان أحد العارفين بشؤونه، وفاتحه بهذا الأمر وطلب منه أن يهيئ مصحفاً جامعاً وكاملاً .. وأخذ المصحف الذي أُعدّ في زمن أبي بكر من حفصة وأعطاه لزيد، وأمر عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث أيضاً بأن يساعدوا زيداً في هذه المهمة وقال لهم: أنظروا في هذا المصحف بدقة واضبطوا حروفه وكلماته، وتلفظ لغاته، وصحة كتابته بعناية، وأعدّوا نسخة صحيحة للقرآن وإذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من

القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم^(١).

فقامت اللجنة المذكورة في عام ٢٥ هجرية بهذه المهمة، فجعلت نسخة أبي بكر من القرآن هي الأصل وكانوا يقرأون عليها، ويستفيدون من بقية النسخ الأخرى أيضاً، فكان سعيد بن العاص الذي يشابه النبي (ص) لهجةً، يقرأ ويملي، ويكتب زيد المصحف طبقاً لهجته وتلفظه.

وبعد فترة أحسَّت هذه اللجنة بالحاجة إلى مساعدين أكثر فدعت ثمانية من كبار الصحابة فصار مجموعهم اثني عشر شخصاً^(٢)، وكان أبي بن كعب أحدهم وكان يملي أحياناً، وربما يستفيد أحياناً من نسخ المصاحف الأخرى أيضاً.

وكانوا يرجعون في مواضع الاختلاف إلى سائر الصحابة، ويكتبون وفق ما يشهده شاهدان ويقدمون لسان قريش، وربما استفادوا من آراء علي عليه السلام أيضاً^(٣).. وكان عثمان يشرف بنفسه على عملهم ويتعاهدهم..

وهذه الطريقة تمت عملية تحقيقية دقيقة وجماعية في صعيد إعداد مصحفٍ إمامٍ حتى نظمت نسخة كاملة ودقيقة من الكتاب العزيز (القرآن) ثم قوبلت هذه النسخة، وعُرضت عدّة مرات.

ثم أمرَ عثمان - بعد ذلك - بإعداد نسخٍ أخرى طبقاً لهذه النسخة المصحّحة المنظّمة وإرسالها إلى المدن والبلاد الإسلامية الكبرى كالكوكة والبصرة، والشام، والمدينة وأمر بأن تجمع النسخ الأخرى من أيدي الناس، وتعدّم حتى يقرأ الناس بوجه واحد .. وهكذا تحقّق وعدّ الله تعالى اذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

(١) جامع الاصول ج ٣ ص ٥٧.

(٢) الإتيقان ج ١ ص ٧٩.

(٣) الإتيقان ج ١ ص ٧٩.

لِحَافِظُونَ»^(١) ويقول: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»^(٢). وبقي القرآن الكريم بجميع آياته وسوره سليماً من كل تحريف وتغيير مصوناً من كل زيادة ونقصان، ليستفيد منه المسلمون في توفير سعادتهم الدنيوية والأخروية إلى يوم القيامة.

فَكَّرُوا وَأَجِيبُوا

- ١ - متى وفي عهد من تم جمع القرآن الكريم وكيف؟
- ٢ - من كان الجامعون للقرآن في عهد رسول الله؟
- ٣ - لماذا فكَّر أبو بكر في جمع القرآن؟
- ٤ - ماذا كانت طريقة زيد في جمع القرآن؟
- ٥ - لماذا فكَّر عثمان في جمع القرآن؟
- ٦ - لماذا كانت إعادة النظر في تنظيم المصحف بصورة جماعية أمراً ضرورياً؟
- ٧ - ماذا كانت طريقة زيد في جمع القرآن؟
- ٨ - إلى أين بعث عثمان النسخ المكتوبة وفق النسخة الجديدة للمصحف؟

* * *

(١) الحجر - ٩.

(٢) فصلت - ٤٢.

الدرس الحادي والثلاثون

لمحات من أخلاق رسول الإسلام

كان رسول الإسلام صلى الله عليه وآله في أعلى مرتبة من مراتب الإنسان الكامل من حيث الأخلاق .. لقد كان متصفاً بجميع الصفات الإنسانية الحميدة، ومنزهاً من جميع الصفات الذميمة القبيحة .. كان مظهراً كاملاً للأخلاق القرآنية، كما صرحت بذلك عائشة وغيرها مراراً.

قال أبو الدرداء: سألت عائشة عن خلق رسول الله. فقالت: كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه^(١).

لقد كانت أخلاقه رائعة وحسنة جداً إلى درجة أن القرآن الكريم قال في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) ونحن لا نستطيع أن نشرح في هذه الصفحات القلائل تلك الأخلاق العظيمة التي كان يتحلّى بها رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله، غير أننا نشير إلى جانب منها:

(١) البداية والنهاية.

(٢) القلم - ٤.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كان إذا وصّف رسول الله صلى الله عليه وآله قال: كان أجود الناس كفاً، وأجراً الناس صدراً، وأصدق الناس لهجةً، وأوفاهم ذمةً، وألينهم عريكةً وأكرمهم عشرةً، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبه، لم أر مثله قبله ولا بعده^(١).

وعن أنس قال: كان رسول الله أحسن الناس خلقاً وارجح الناس حلماً، وكان أسخى الناس كفاً ما سُئل شيئاً فقال: لا^(٢).

وعن عائشة قالت: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح^(٣).

وعن هند بن أبي هالة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائم البشر سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤس منه ولا يخيب فيه مؤملاً، قد ترك نفسه في ثلاث: المراء والإكثار ومما لا يعنيه، وترك الناس في ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه^(٤).

وعن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه بردٌ غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبداً شديداً حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله فإذا قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته. ثم قال: يا محمد؛ مر لي من مال الله الذي عندك. قال فالتفت إليه رسول الله (ص) فضحك ثم أمر له

(١) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢٦٣.

(٢) عيون الأثر ج ٢ ص ٣٢٩.

(٣) عيون الأثر ج ٢ ص ٣٣٨.

(٤) مكارم الاخلاق ج ١ ص ١٣.

بعضاء^(١).

الأخلاق الاجتماعية

كان رسول الاسلام صلى الله عليه وآله يراعي الأخلاق والآداب الاجتماعية رعايةً كاملةً، كان متواضعاً رحيماً لطيف المعشر .. كان يتعامل مع الناس على قدم المساواة، يحترم الجميع، ويمنحهم حبه ولطفه على السواء، يسأل عن الغائب منهم ويتفقد أحواله، ويعود مريضهم ويتعاهده بالزيارة .. يسلم عليهم ويصافحهم، ويخاطبهم بأحسن الأسماء، ويكنيهم بأفضل الكنى.

قالوا في حقه: كان أشد الناس تواضعاً على منصبه .. خرج على قومٍ من أصحابه فقأموه له فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً. وقال: إنما أنا عبدٌ أكلُ كما يأكلُ العبدُ وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ وكان يركبُ الحمار، ويردفُ خلفه، ويعودُ المساكينَ، ويجالسُ الفقراءَ ويُجيبُ دعوةَ العبدِ، ويجلسُ بين أصحابه حيثما انتهى به المجلسُ جلس^(٢).

ويكتبون عنه: وكان يازح أصحابه ويخالطهم، ويحدثهم ويداعبُ صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيبُ دعوةَ الحرِّ والعبدِ، والأمةِ والمسكينِ، ويعودُ المرضى في أقصى المدينةِ ويقبلُ عذرَ المعتذر^(٣).

ويكتبون: ولم يرَ مقدماً ركبتيه بين يدي جليسٍ له، وكان يبدأ من لقيه بالسَّلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم يرَ قط ماداً رجله بين أصحابه حتى يضيقَ بهما على أحدٍ، يُكرمُ مَنْ يدخلُ عليه، وربما بسطَ له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٤٣.

(٢) عيون الأثر ج ٢ ص ٣٣٣.

(٣) عيون الأثر ج ٢ ص ٣٣١.

لمحات من أخلاق رسول الإسلام ١٨١

الجلوس عَلَيْهَا إن أُنِي، وَيَكُنِّي أَصْحَابَهُ وَيَدْعُوهُمْ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِمْ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ^(١).

عن ابن مسعود قال: أتى النبي رَجُلٌ يَكَلِّمُهُ فَارْعَدَ فَقَالَ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَلَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدَّ^(٢).

عن أبي ذر قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَصْحَابِهِ فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ^(٣).

عن أنس قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صَبِيَّانِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ^(٤).

عن أنس قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا فَقَدَ الرَّجُلَ مِنْ إِخْوَانِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ سَأَلَ عَنْهُ فَإِنْ كَانَ غَائِبًا دَعَا لَهُ، وَإِنْ كَانَ شَاهِدًا زَارَهُ، وَإِنْ كَانَ مَرِيضًا عَادَهُ^(٥).

عن عائشة قالت: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(٦).

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُقَسِّمُ لِحَظَاتِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ يَنْظُرُ إِلَى ذَا وَيَنْظُرُ إِلَى ذَا بِالسُّوَيْتَةِ^(٧).

إن من أهمِّ عواملِ إنتصارِ رسولِ الله ونجاحِهِ في دعوته هو أخلاقُهُ الكريمةُ

(١) عيون الأثر ج ٢ ص ٣٣١.

(٢) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢٢٩.

(٣) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢٢٩.

(٤) عيون الأثر ج ٢ ص ٣٣٤.

(٥) مكارم الأخلاق ج ١ ص ١٩.

(٦) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٦٧.

(٧) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢٨.

هذه، كما يصرّح بذلك القرآن الكريم اذ يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١).

أخلاق النبي في بيته

كان رسول الله (ص) رحيماً بأهله واولاده، حسن الأخلاق معهم جداً .. كان يظهر محبته لهم ويلطفهم .. يتحدث إليهم، ويضحك .. يداعب الأطفال والصبيان ويلاعبهم ... يداريهم ويغفر لهم زلتهم، ويساعدهم في أعمالهم المنزلية .

عن أنس بن مالك قال: كان صلى الله عليه وسلم في بيته في مهنة أهله ... يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه، ويعلف ناضحه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق^(٢).

عن أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي شيء صنّعه: لم صنّعت هذا هكذا؟ ولا شيء لم أصنّعه لم تصنع هذا هكذا؟^(٣).

عن عمرة قالت قلت لعائشة: كيف كان رسول الله في أهله؟ قالت: كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان ضحاكاً بساماً^(٤).

عن جابر قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله والحسن والحسين على

(١) آل عمران - ١٥٩.

(٢) عيون الأثر ج ٢ ص ٣٣٤.

(٣) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٩.

(٤) البداية والنهاية ج ٦ ص ٤٦.

ظَهَرَهُ وَهُوَ يَجْتُو لَهَا وَيَقُولُ: نِعَمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمْا وَنِعَمَ الْعِدْلَانِ أَنْتُمَا^(١).

زهدُ النبي

لقد كانت حياة نبيِّ الإسلام حياةً بسيطةً خاليةً من التشريفات، كان يعيش في بيت متواضع من الطين، يجلس على الأرض، وكان فراشه عبارة عن قطعة من الحصير، كان طعامه وطعامُ أهله غالباً من خبز الشعير والتمر، كان لباسه عادياً وبسيطاً .. وكان يخطط بنفسه ثوبه ويخفف بنفسه نعلَه، ويرقعَه.

ما كان رسولُ الله يخالف العملَ والسعيَ، وتحصيلَ المال من حلال، والتوسعة على العيال في حياة المسلمين .. ولكن حيث أن أوضاع المسلمين الإقتصادية كانت يومذاك أوضاعاً صعبة، وكان الفقراء والمعدمين كثيرين، لهذا كان النبي الذي تولى زعامة الأمة يسعى بأن لا تتميز حياته وحياة أهله على حياة الفقراء والمحرومين ليسهل تحمل الصعاب والمشقات على الآخرين.

كان رسولُ الإسلام يقسّم أموال بيت المال بين المسلمين بالسوية، وعلى أساس من العدل الكامل، ولم يخص نفسه وأقرباءه كذلك بسهم أكثر من سهم الآخرين بل طالما كان يؤثر الآخرين على نفسه، وهب قسماً من نصيبه للفقراء.

ولقد جاء حول زهد النبي: عن ابن عباس قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل عليه عُمر وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال يا نبي الله! لو اتخذت فراشاً، فقال: مالي وللدنيا، وما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ سارٍ في يوم صائفٍ فاستظل تحت شجرة ساعة من نهارٍ ثم راح وتركها^(٢).

(١) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٢٨٥.

(٢) مكارم الأخلاق ج ١ ص ٢٥.

وعن عائشة قالت: كان يأتي على آل محمد الشهر ما يوقدون فيه ناراً ليس إلا التمر والماء إلا أن يُؤتى باللحم^(١).

وقال ابن عباس كان بيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاء^(٢).
وعن عائشة قالت: قد مضى رسول الله (ص) لسبيله وما شبع أهله ثلاثة أيام من طعام بُر^(٣).

وكتب في عيون الاثر: وقد توفي ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله^(٤).

عبادة النبي

كان رسول الله الذي يرغب الناس في العبادة والتوجه إلى الله أفضل الناس في هذا الجانب أيضاً. أي أنه كان يُصلي الفرائض اليومية في أوقات فضيلتها في إقبال وحضور قلب.. كما كان ملتزماً بإتيان النوافل من الصلاة أيضاً..

كان يقوم في الثلث الأخير من الليل من فراشه للتهجد والعبادة، فيقضي ما تبقى من الليل في الصلاة والدعاء، وتلاوة القرآن والمناجاة.. كان يذكر الله على كل حال، وكان يجتهد في العبادة في شهر رمضان، أكثر من أي وقت آخر. وإذا دخل العشر الأخير من هذا الشهر إعتكف في المسجد، واشتغل بالعبادة، وكان يصوم في أيام آخر غير شهر رمضان.. ولقد بالغ في الصلاة حتى تورمت قدماه الشريفتان فنزل قوله تعالى: ﴿طَهُ مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(٥).

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٥٣.

(٢) عيون الأثر ج ٢ ص ٣٣٥.

(٣) البداية والنهاية ج ٦ ص ٥٣.

(٤) البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٣٤.

(٥) طه - ٢/١.

ولقد كتبوا حول عبادته: عن المغيرة بن شعبه قال: إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله: قامَ حتى تَفَطَّرَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: أليسَ قد غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ؟ قال: أَفلا اكونُ عَبْدًا شَكُورًا^(١).

عن أنس قال: كان رسولُ الله (ص) يُكثِرُ الذِّكْرَ وَيُقِلُّ اللُّهُوَ^(٢).

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة فَفَقَدَتْهُ مِنَ الْفِرَاشِ فَدَخَلَهَا فِي ذَلِكَ ما يَدْخُلُ النِّسَاءُ فَقَامَتْ تَطْلُبُهُ فِي جَوَانِبِ الْبَيْتِ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي جَانِبٍ قائِمٌ رافعٌ يديه يبكي وهو يقول: اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعْ مِنِّي صالِحَ ما أعطَيْتَنِي أَبَدًا. الحديث^(٣).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله: إذا كانَ العَشْرُ الأَوَّلُ اعْتَكَفَ في المَسْجِدِ وَضَرَبَ لَهُ قَبَّةً من شَعَرٍ وشَمَرَ المِئْزَرَ وَطَوَى فِرَاشَهُ^(٤).

وعن الحسين بن علي عليهما السلام قال: كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله يرفعُ يَدَيْهِ إذا ابْتَهَلَ ودعا كما يَسْتَطْعِمُ المَسْكِينُ^(٥).

وقال أبو بكر: يا رسولَ الله! أراك شَبَتَ؟! فقال: شَبَّيْتَنِي هودُ والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت^(٦).

وعن عبد الله قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إقرأ عليّ، فقلت: أقرأ

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٦٠.

(٢) البداية والنهاية ج ٦ ص ٤٦.

(٣) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢١٧.

(٤) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢٧٣.

(٥) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢٨٧.

(٦) البداية والنهاية ج ٦ ص ٦١.

عليك وعليك أنزل. فقال: أحب أن أسمع من غيري. قال: فقرأت سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: حَسْبُكَ: فَالْتَفَتُ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ^(١).

وعن أبي ذر قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِلَّا تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

فكروا وأجيبوا

- ١ - أذكروا تفاصيل أخلاق النبي (ص).
- ٢ - أذكروا تفاصيل سيرة النبي مع أصحابه.
- ٣ - ماذا كان أهم عامل وراء نجاح النبي؟ ولماذا؟
- ٤ - كيف كانت سيرة النبي في بيته ومع أهله؟
- ٥ - لماذا حاول النبي أن تكون حياته حياة بسيطة؟
- ٦ - وضّحوا عبادات النبي (ص).

* * *

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٦٥.

(٢) البداية والنهاية ج ٦ ص ٦٥.

الفصل الثالث

من المعارف الإسلامية

الدرس الثاني والثلاثون

الإسلام والإيمان

الإسلام يعني في اللغة الانقياد والتسليم وقد أُطلق في الاصطلاح على الدين الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله .. وإنا يسمّى هذا الدين بالاسلام لأن أتباعه ومعتنقيه سلّموا أمرهم إلى الله، وقبلوا بالتعاليم والقوانين السماوية قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١).

ويُستفاد من القرآن الكريم أن النبي إبراهيم عليه السلام كان مُسلمًا هو ايضاً، وأنه سأل الله تعالى أن يهبه ذريةً مسلمةً وهو الذي سمّى أتباع النبي محمد (ص) بالمسلمين.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ

(١) النساء - ١٢٥.

(٢) آل عمران - ٦٧.

عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ أَلْتَوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية (٢).

ومع أن الدين الاسلامي يشبه - في أصول المعارف والعقائد وفي بعض الأحكام - دين النبي إبراهيم عليه السلام، إلا أنه مع ذلك دينٌ جديدٌ مستقلٌ ناسخٌ لما سبقه من الأديان والشرائع السماوية.

فهو في أصول العقائد والمعارف الصيغة المتكاملة من الأديان السماوية، كما أن أحكام هذه الشريعة وقوانينها هي أكمل وأشمل من قوانين واحكام جميع الشرائع الأخرى، وحسب نصوص القرآن لو أن الناس أرادوا السعادة الدنيوية والأخروية فإن عليهم أن يتخذوا الإسلام ديناً ومنهجاً لحياتهم.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣).

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤).

وكل من اعترف بوجود الله تعالى، وشهد بوحدانيته، وبالمعاد واليوم الآخر، وبرسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عدّ من جماعة المسلمين، وكان له بعض ما لهم من مزايا الاسلام كالطهارة وجواز النكاح، والتوارث، وحرمة النفس والمال والعرض. فعن القاسم الصيرفي عن شريك المفضل قال: سمعت أبا عبد الله عليه

(١) البقرة - ١٢٨.

(٢) الحج - ٧٨.

(٣) آل عمران - ١٩.

(٤) آل عمران - ٨٥.

السلام يقول: الإسلام يُحَقِّن به الدَّم وتُوَدَّى به الأمانة وتُسْتَحَلُّ به الفُروج، والثواب على الإيمان^(١).

ولكن هذه الشهادات ما لم تنبع من القلب بل كانت مجرد لقلقة لسان، دون أن تقتزن بالعمل، لم يكن إسلام صاحبها إسلاماً كاملاً ولم يسعد الإنسان بها، ولهذا جاء في الأحاديث أن العمل بالفرائض يعدّ من أركان الإسلام.

روى أبو حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: بُنِيَ الإسلام على خمسٍ: على الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ والصَّوْمِ والحَجِّ والوَلَايَةِ ولم يُنَادَ بشيءٍ كما نودي بالولاية^(٢).

الإيمان - الإيمان يعني في اللغة طمأنينة النفس وزوال الشك والخوف عنها. ويطلق في الاصطلاح على إذعان النفس ويقينها بوجود الله تعالى ووحدانيته واليقين بوجود العالم الآخر، والتصديق القلبي بحقانية نبوة رسول الله ورسالته، ويستلزم مثل هذا الإيمان التصديق باللسان، والعمل بالواجبات والوظائف الدينية.

كتب الراغب في معنى الإيمان يقول: يُراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالمجوارح^(٣).

إن أصل الإيمان وحقيقته هو الاعتقاد واليقين القلبي ولكن الشهادة القولية والإقرار باللسان كاشف عنه، والإتيان بالفرائض وترك المحرمات من لوازمه.

قال في القرآن الكريم: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٤.

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٢٦.

خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾.

روى محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن الإيـان؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله وما استقر في القلوب من التصديق بذلك. قال قلت: الشهادة أليست عملاً؟ قال: بلى قلت: العمل من الإيـان قال: نعم، الإيـان لا يكون إلا بعمل والعمل منه ولا يثبت الإيـان إلا بعمل^(١).

في الإيـان تتحقق ثلاثة أمور:

الأول: اليقين بالله والإطمئنان القلبـي بوجود الله ووحدانـيته وحقانـية المعاد وعالم الآخرة، وحقانـية الرسالة المحمدية.

الثاني: الشهادة القوليـة، والإقرار اللسانـي بهذه المعتقدات.

الثالث: العمل بالوظائف والتكاليف الشرعية الذي هو لازم الإعتقاد الوجداني والإيـان القلبـي.

وعلى هذا الأساس فإن الإيـان أعلى درجة من الإسلام، لأنه لا يشترط في تحقق الإسلام، اليقين والإذعان القلبـي، ولكن يشترط ذلك في تحقق الإيـان. كل مؤمن مسلم، ولكن ليس كل مسلم مؤمناً، وقد أشير إلى هذا الموضوع في الأحاديث الشريفة أيضاً:

قال سَمَاعَةَ: قُلْتُ لأبي عبد الله عليه السلام: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيْمَانِ أَهْمَا مُخْتَلِفَانِ؟ فَقَالَ: إِنَّ الْإِيْمَانَ يُشَارِكُ الْإِسْلَامَ وَالْإِسْلَامَ لَا يُشَارِكُ الْإِيْمَانَ، فَقُلْتُ:

(١) المجادلة - ٢٢.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٨.

فَصَفَّهَ لِي، فَقَالَ: الْإِسْلَامُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالتَّصْدِيقُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بِهِ حُقِنَتِ الدَّمَاءُ وَعَلَيْهِ جَرَتِ الْمَنَاحِكُ وَالْمَوَارِيثُ وَعَلَى ظَاهِرِهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ، وَالْإِيْمَانُ: الْهُدَى وَمَا يَثْبُتُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ صِفَةِ الْإِسْلَامِ وَمَا ظَهَرَ مِنَ الْعَمَلِ بِهِ، وَالْإِيْمَانُ أَرْفَعُ مِنَ الْإِسْلَامِ بَدَرَجَةٍ، إِنَّ الْإِيْمَانُ يُشَارِكُ الْإِسْلَامَ فِي الظَّاهِرِ وَالْإِسْلَامُ لَا يُشَارِكُ الْإِيْمَانُ فِي الْبَاطِنِ وَإِنْ اجْتَمَعَا فِي الْقَوْلِ وَالصِّفَةِ^(١).

وقد أُشير في القرآن الكريم إلى هذا الفرق والتفاوت بالذات إذ قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

قال جميل بن درّاج: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فَقَالَ لِي: أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِيْمَانُ غَيْرُ الْإِسْلَامِ^(٣).

وعن حُرَّانَ بْنِ أَعْيَنَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: الْإِيْمَانُ مَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ وَأَفْضَى بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ بِالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ وَالْإِسْلَامُ مَا ظَهَرَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ مِنَ الْفِرَقِ كُلِّهَا وَبِهِ حُقِنَتِ الدَّمَاءُ وَعَلَيْهِ جَرَتِ الْمَوَارِيثُ وَجَازَ النِّكَاحُ وَاجْتَمَعُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ، فَخَرَجُوا بِذَلِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَأَضِيفُوا إِلَى الْإِيْمَانِ؛ وَالْإِسْلَامُ لَا يَشْرِكُ الْإِيْمَانُ وَالْإِيْمَانُ يَشْرِكُ الْإِسْلَامَ وَهُمَا فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ يَجْتَمِعَانِ، كَمَا صَارَتِ الْكَعْبَةُ فِي الْمَسْجِدِ وَالْمَسْجِدُ لَيْسَ فِي الْكَعْبَةِ وَكَذَلِكَ الْإِيْمَانُ يَشْرِكُ الْإِسْلَامَ وَالْإِسْلَامُ لَا

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٥.

(٢) الحجرات - ١٤.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٢٤.

يَشْرِكُ الْإِيَّانَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيَّانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَصْدَقُ الْقَوْلِ ^(١).

إن أصل الإيمان ليس إلا حقيقة واحدة وهي التصديق القلبي المجازم الذي يعد واجده مؤمناً، وفاقده خارجاً من زمرة المؤمنين ولكنها حقيقة قابلة للزيادة والنقصان، وذات مراتب ودرجات متفاوتة. وقد أُشير إلى هذا في القرآن والاحاديث. فقد قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ^(٢).

قال عَبْدُ الْعَزِيزِ الْقَرَاتِي: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ إِنَّ الْإِيَّانَ عَشْرُ دَرَجَاتٍ بِمَنْزِلَةِ السَّلَامِ يُصْعَدُ مِنْهُ مَرَقَاةٌ بَعْدَ مَرَقَاةٍ فَلَا يَقُولَنَّ صَاحِبُ الْاِثْنَيْنِ لَصَاحِبِ الْوَاحِدِ: لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْعَاشِرِ، فَلَا تُسْقِطُ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيُسْقِطَكَ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكَ بِدَرَجَةٍ فَارْقَهُ إِلَيْكَ بِرَفْقٍ وَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَيْهِ مَا لَا يُطِيقُ فَتُكْسِرَهُ، فَإِنَّ مَنْ كَسَرَ مُؤْمِنًا فَعَلَيْهِ جَبَرُهُ ^(٣).

وعلى هذا الأساس فإن المؤمنين من حيث الإيمان على درجات ومراتب متفاوتة جداً وينبع مدى التزامهم بآتيان الفرائض والنوافل الدينية، واجتناب المحارم والمكروهات من مقدار إيمانهم.

ولقد كتب العلامة محمد باقر المجلسي في هذا الصدد يقول:

الحقُّ أنَّ الإيمان يقبل الزيادة والنقصان سواء كانت الأعمال أجزائه أو شرائطه أو آثاره الدالة عليه، فإنَّ التصديق القلبيَّ بأيِّ معنى فُسِّرَ لا ريب أنَّه يزيد وكلِّما زاد زادت آثاره على الأعضاء والجوارح، فهي كثرة وقلة تدلُّ على مراتب الإيمان

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٦.

(٢) الانفال - ٢.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٤٥.

زيادة ونقصاناً، وكلُّ منهما يتفرَّع على الآخر فإنَّ كلَّ مرتبة من مراتب الايمان تصير سبباً لقدر من الأعمال يناسبها، فاذا أتى بها قوي الايمان القلبيِّ وحصلت مرتبة أعلى تقتضي عملاً أكثر، وهكذا فاذا ارتكب المؤمن الكبائر نقص إيمانه وفارقه روح الايمان وحقيقته، وكيف يؤمن بالله وبالمعاد وبالجنة والنار ويرتكب ما أخبر الله بأنّه موجب لدخول النار، فلا يكون ذلك إلاّ لضعف في اليقين^(١).

فكّروا وأجيبوا

- ١ - كيف وبماذا يتحقق إسلام الشخص؟
- ٢ - ما هي الآثار المترتبة على الإسلام؟
- ٣ - ما هي أسس الاسلام وقواعده؟
- ٤ - كيف يتحقق الإيمان؟
- ٥ - ما هي الأشياء التي توجد في الايمان؟
- ٦ - ما هو الفرق بين الايمان والإسلام؟
- ٧ - هل الإيمان قابلٌ للزيادة والنقصان؟ وما الدليل على ذلك؟
- ٨ - ماذا ينبع الإتيان بالفرائض واجتناب المحارم؟

* * *

الدرس الثالث والثلاثون

الْكُفْرُ

الْكُفْرُ في اللغة سَتَر الشيء وإخفاؤه، وفي اصطلاح الشرع ما يقابل الإسلام .. ولقد قرأتم في الدرس السابق أَنَّ الذي يؤمن بوجود الله وتوحيده، وبنبوة رسول الإسلام، وشهد بحقانية المعاد عُدُّ مُسْلِمًا، والكافر ما يقابل ذلك .. وعلى هذا فإنَّ كُلَّ مَنْ ينكر هذه الأمور الأربعة أو أحدها يعدُّ كافرًا.
إن من ينكر وجودَ الله أو توحيده أو نبوة النبي مُحَمَّد، أو ينكر المعاد يصير كافرًا.

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾^(١).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٢).

(١) الفتح - ١٣.

(٢) النساء - ١٣٦.

ويقول: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(١).

ويقول: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

وهكذا الذين يشكون في أحد هذه الأمور يعدّون من الكفار ... يقول في القرآن الكريم:

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾^(٣).

عن عبدالله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مَنْ شَكَّ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ فَهُوَ كَافِرٌ^(٤).

وعن أبي اسحاق الخراساني قال: كَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: لَا تَرْتَابُوا فَتَشْكُوا وَلَا تَشْكُوا فَتَكْفُرُوا^(٥).

يُستفاد من الآية والأحاديث المذكورة أَنَّ الْإِنْسَانَ يَصِيرُ كَافِرًا بِمَجْرَدِ الشَّكِّ فِي اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَإِنْ لَمْ يَنْكَرْ بِلِسَانِهِ، وَلَكِنْ يَسْتَفَادُ مِنْ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الشَّكَّ إِنَّمَا يُوْجِبُ الْكُفْرَ إِذَا أَنْكَرَ بِلِسَانِهِ أَيْضًا.

قال محمد بن مسلم: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَالِسًا عَنْ يَسَارِهِ وَزُرَّارَةً عَنْ يَمِينِهِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو بَصِيرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِيمَنْ شَكَّ فِي

(١) الرعد - ٤٣.

(٢) المؤمنون - ١١٧.

(٣) الحج - ٥٥.

(٤) الكافي ج ٢ ص ٣٨٦.

(٥) الكافي ج ٢ ص ٣٩٩.

الله؟ فقال: كافر يا محمد! قال: فشك في رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: كافر. قال: ثم التفت إلى زارة فقال: إنها يكفر إذا جحد^(١).

زاررة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو أن العباد إذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا^(٢).

وعلى هذا الأساس لو شك الإنسان في وجود الله أو صفاته أو في رسالة رسول الإسلام أو حول المعاد أو حصلت في قلبه شبهة في هذه الأمور ولكنه لم يظهر شكه لأحد ولم يعمد إلى إنكارها بل سعى للتحقيق والبحث بغية إزالة شكه فيها لم يحسب من الكفار.

المنكر للضروري من الدين

لقد أعتبر إنكار أحد الضروريات من أمور الدين من أنواع الكفر .. فمن أنكر ضرورياً من ضروريات الإسلام كوجوب إتباع الشرع، أو وجوب الصلاة وهو يعلم أن هذه الأمور من أحكام الإسلام القطعية عد من الكفار أيضاً، لأن هذا الإنكار يستلزم إنكار وجود الله، أو إنكار رسالة رسول الإسلام وقد علمتم فيها مضى أن إنكار الله والنبي من مصاديق الكفر.

ولكن لو أن أحداً يعتقد بوجود الله والمعاد ونبوة رسول الإسلام ويؤمن بأصل وجوب إتباع الأحكام الإسلامية ولكنه لشبهة حصلت له في حكم من تلكم الأحكام أنكره، لا يمكن أن نعتبره خارجاً عن جماعة المسلمين لأنه يقبل أصول الإسلام مثل وجود الإسلام وتوحيده، والمعاد ونبوة رسول الإسلام ويعترف بها، ويصدقها ويشهد بها.

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٩٩.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٨٨.

والخلاصة؛ أنه يمكن تقسيم الكفار إلى عدة أنواع:

- ١ - الملحدون المنكرون لوجود الله.
- ٢ - المشركون والوثنيون الذين يسندون التأثير في الكون أو ادارة العالم وتديبره لغير الله تعالى من الموجودات، ويصلّون ويسجدون ويقربون القرابين لغير الله.
- ٣ - منكرو المعاد وحياة ما بعد الموت.
- ٤ - منكرو نبوة رسول الاسلام، ومن هذا الصنف اليهود والنصارى.
- ٥ - المنكر لضروريّ من ضروريّات الدين، بحيث يؤدي إلى إنكار الله أو النبي.

إن جميع هذه الطوائف كفرة، تترتب عليهم أحكام الكفر^(١).
 إن الشيعة الأثني عشرية ومذاهب أهل السنة الأربعة (الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي) مسلمون لأنهم يعتقدون ويعترفون بالأصول الأربعة (وجود الله، وتوحيده والمعاد والنبوة) ولكن سائر الفرق والمذاهب الإسلامية كالزيدية، والإسماعيلية والغلاة، والمجسّمة والجبرية والمفوضة. وغيرها من المذاهب إن كانوا ينكرون أحد أصول الاسلام الأربعة يعني وجود الله أو التوحيد أو المعاد أو نبوة رسول الإسلام ورسالته، عدّوا من الكفار وإلاّ فهم مسلمون، وتترتب عليهم أحكام الإسلام. كتب الفقيه الكبير آية الله العظمى الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه) في هذا الصدد يقول:

إن المتحصّل من جميع ما تقدّم أن المحكوم بالنجاسة هو الكافر المنكر للألوهية أو التوحيد أو النبوة. وخصوص النواصب والخوارج بالمعنى المذكور. وسائر الطوائف من المنتحلين للإسلام أو التشيع كالزيدية والواقفة والغلاة والمجسّمة والمجبرة والمفوضة

(١) عد علماء الاسلام وفقهاؤه للكفار طوائف أخرى اعرضنا عن ذكرها رعاية للإختصار.

وغيرهم إن اندرجوا في منكري الأصول أو في إحدى الطائفتين فلا إشكال في نجاستهم كما يقال: أن الواقعة من النُصَاب لِسائر الأئمة بعد الصادق عليه السلام، ومع عدم الإندراج فلا دليل على نجاستهم، فإن بعض الأخبار الواردة في كفر بعضهم كقول علي بن موسى الرضا عليه السلام «من شبه الله بخلقه فهو مشرك ومن نسب إليه ما نهى عنه فهو كافر»^(١) وقوله عليه السلام: «مَنْ قَالَ بِالتَّشْبِيهِ وَالْجَبْرُ فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ»^(٢) وقوله عليه السلام: «وَالْقَائِلُ بِالْجَبْرِ كَافِرٌ وَالْقَائِلُ بِالتَّفْوِيزِ مُشْرِكٌ»^(٣) وغير ذلك فسبيله سبيلُ الأخبار الكثيرة المتقدمة وغيرها مما لا يحصى مما أُطلق فيها الكافر والمشرك على كثيرٍ مما يُعلم عدم كفرهم وشركهم في ظاهر الاسلام وقد حملناها على مراتب الشرك والكفر كما قامت الشواهد في نفس الروايات عليه^(٤).

فَكَّرُوا وَأَجَبُوا

- ١ - من هو الكافر؟
- ٢ - هل الشك في الأمور الأربعة مطلقاً يوجب الكفر؟
- ٣ - في أية صورة يوجب الشك الكفر، وما هو الدليل؟
- ٤ - في أية صورة يوجب إنكار أحد ضروريات الدين الكفر؟
- ٥ - ما هي أصناف الكفار؟ عدوهم رجاء.
- ٦ - في أية صورة تعد بقية المذاهب الإسلامية من الكفار؟
- ٧ - إحفظوا الآيات في هذا الدرس.

(١) بحار الأنوار ج ٣ ص ٢٩٤.

(٢) بحار الأنوار ج ٥ ص ٥٣.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٥٧.

(٤) كتاب الطهارة ج ١ ص ٢٥٧.

الدرس الرابع والثلاثون

المُرتدّ - المنافق

المرتدّ هُوَ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْإِسْلَامِ واعتنق الكفر .. والمرتدّ على قسمين: المرتدّ الفطري والمرتد الملبّي.

القسم الأول - المرتدّ الفطري: من كان أحد أبويه مسلماً حال إنعقاد نطفته، ثم أظهر الاسلام بعد بلوغه ثم خرج من الإسلام يسمّى مرتدّاً فطرياً. والمرتدّ الفطري إن كان رجلاً تبين منه زوجته وتنفصل من دون طلاق، وتقسّم أمواله بين ورثته، بعد أداء ديونه، ويُقتل ولا تفيد توبته ورجوعه الى الاسلام في رجوع زوجته وماله اليه. نعم تقبل توبته ظاهراً وباطناً بالنسبة إلى بعض الاحكام فيطهر بدنه وتنصح عباداته ويملك الاموال الجديدة ويجوز له التزويج بالمسلمة. وأما إذا كانت امرأة بقيت أموالها على ملكها، ولكنها تبين من زوجها المسلم، ولا تُقتل، ولكنها تحبس أبداً ويضيق عليها في السجن، ولو تابت قبلت توبتها، وأُطلق سراحها.

ولقد جاء هذا في الأحاديث الشريفة وإليك بعضها:

عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن المرتدّ فقال: من

رَغِبَ عن الإسلام وكفر بها أنزل على محمد صلى الله عليه وآله، بعد إسلامه فلا توبة له وقد وَجَبَ قَتْلُهُ وبانت منه امرأته ويقسّم ما ترك على ولده^(١).

وعن عمار الساباطي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كل مسلم بين مسلمين إرتد عن الإسلام وجحد محمداً صلى الله عليه وآله نبوته وكذّبه فإن دمه مباح لمن سمع ذلك منه وامرأته بائنة يوم ارتد، ويقسّم ماله على ورثته وتعتد امرأته عدة المتوفى عنها زوجها وعلى الإمام أن يقتله ولا يستتبه^(٢).

وعن حسين بن سعيد قال قرأت بخط رجل إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام: رجل ولد على الإسلام ثم كفر وأشرك وخرج عن الإسلام هل يستتاب أو يقتل ولا يستتاب، فكتب عليه السلام: يقتل^(٣).

وعن علي عليه السلام قال: إذا ارتدت المرأة عن الإسلام لم تقتل لكن تحبس أبداً^(٤).

القسم الثاني - المرتد الملى: من كان أبواه كافرين حال إنعقاد نطفته ثم اظهر الكفر بعد البلوغ ثم أسلم ثم ترك الإسلام وعاد إلى الكفر سمي هذا الشخص مرتداً ملياً. يطلب من المرتد الملى أن يتوب، فإذا تاب قبلت توبته وإلا كررت عليه الاستتابة ثلاثة أيام، فإذا لم يتب قتل في اليوم الرابع.

وسواء كان المرتد امرأة أو رجلاً لا تنتقل أمواله إلى ورثته قبل الموت، ولكن بمجرد الارتداد يفسخ النكاح بينها.

جاء في الاحاديث ما يلي:

(١) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٤٤.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٤٥.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٤٥.

(٤) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٤٩.

عن مسمع بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: المرتد عن الإسلام تُعزَل امرأته لا تُؤكل ذبيحته ويُستتاب ثلاثة أيام فإن تاب وإلا قُتل يوم الرابع^(١).

وعن علي بن جعفر عن أخيه (في حديث) قال قلت: فنصراني أسلم ثم إرتد قال يُستتاب فان رجع وإلا قُتل^(٢).

المنافق

المنافق هو الذي يَعْتَرِف وَيَشْهَد ظاهراً بوجود الله وتوحيده والمعاد ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله - كما يشهد المسلمون، ولكنه لا يعتقد في باطنه بهذه الشهادات إنه كافر باطناً ولكنه لا يظهر كفره بل يدعي الإسلام ظاهراً.

إن مثل هذا الشخص يُعدّ من جماعة المسلمين وتجري عليه أحكام الإسلام مادام لا يُظهر كفره الباطني، ويتمتع بمزايا الاسلام الظاهرية، ولكن هذا الشخص كافر باطناً، ولا يورثه إسلامه الظاهري الصوري السعادة والنجاة الأخرويتين بل يعامل في الآخرة معاملة الكفار، بل يعذب بأشدّ من عذاب الكفار.

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).
﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيًّا﴾^(٤).

(١) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٤٨.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٥٤٧.

(٣) المنافقون - ١ - ٢.

(٤) النساء - ١٣٨.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١).

فكروا وأجيبوا

- ١ - مَنْ هو المرتد؟
- ٢ - مَنْ هو المرتد الفطري وما هي آثاره؟
- ٣ - مَنْ هو المرتد الملي وما هي آثاره؟
- ٤ - مَنْ هو المنافق؟
- ٥ - ما هي الحقوق التي يتمتع بها؟
- ٦ - هل الشهادة الظاهرية توجب للمنافق السعادة الآخروية؟
- ٧ - إحتفظوا الآيات المذكورة في الدرس الحاضر.

* * *

الدرس الخامس والثلاثون

وَحْدَةُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

يعتبر الإسلام المسلمين أُمَّةً واحدةً. يقول في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١).

والأمة - في اللغة - كلُّ جماعةٍ يجمعُهُم في حياتهم هدفٌ واحدٌ، ويتعاونون فيما بينهم لتحقيق ذلك الهدف.

إنَّ الإسلام كما يعتبر الفردَ مصدرَ أثرٍ في الحياة البشرية، فيعتني بتزكيته وتهذيبه، ويهتم بتربيته وتكميله، كذلك يعتبرُ المجتمعَ مصدرَ أثرٍ في هذه الحياة، ولهذا يعتني الإسلامُ بسلامة المجتمع عنايةً كاملةً، ويمنعُ من تفرقه وتشتته منعاً شديداً، وكأنَّ أفرادَ المجتمع الإسلامي بمنزلة أعضاء الجسد الواحد، أو بمثابة أجزاءِ البناية الواحدة.

وقد أشير إلى هذه الناحية في أحاديث كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

عن أبي موسى قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ

يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا^(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا والله لا يكون المؤمن مؤمناً أبداً حتى يكون لأخيه مثل الجسد إذا ضرب عليه عرق واحد تداعت له سائر عروقه^(٢).

وعن لقمان بن بشير قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى^(٣).

إن الوحدة والارتباط بين المؤمنين يحظيان في نظر الاسلام بأهمية قصوى إلى درجة أنه يعتبر المؤمنين جميعاً إخوة، وفي هذا الصعيد آيات وروايات.

فقد قال في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٤).

وعن حارث بن المغيرة قال قال أبو عبد الله عليه السلام: المسلم أخو المسلم هو عينه ومراته ودليله لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يقتابه^(٥).

ولقد حذر الاسلام المسلمين - ضمن الآيات والأحاديث العديدة - من النزاع والاختلاف اللذين هما من عوامل التفرقة، والضعف في المجتمع الاسلامي.

يقول في القرآن الكريم: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٦).

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩٩.

(٢) بحار الأنوار ج ٧٤ ص ٢٣٣.

(٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩٩.

(٤) الحجرات - ١٠.

(٥) الكافي ج ٢ ص ١٦٦.

(٦) الأنفال - ٤٦.

ولقد استفاد الاسلام لدعم وترسيخ الوحدة بين المسلمين من كل وسيلة مفيدة حتى تشريع العبادات الجماعية مثل: صلاة الجماعة، وصلاة الجمعة، وصلاة العيد، والاشتراك في مراسم الحج، وللإسلام في هذا المجال تأكيدات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام (في حديث) قال: مَنْ تَرَكَ الْجَمَاعَةَ رَغْبَةً عَنْهَا وَعَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ فَلَا صَلَاةَ لَهُ^(١).

وعن محمد بن علي الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مَنْ خَلَعَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ قَدَرٌ شَبْرٌ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِيمَانِ مِنْ عُنُقِهِ^(٢).

لقد اعتنى رسول الإسلام بوحدة الأمة الإسلامية عناية بالغة إلى درجة أنه منذ أن حطَّ في المدينة - بعد هجرته من مكة - كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وبهذه الطريقة عقد بينهم ميثاق الوحدة.

ولقد روى ابن هشام نصَّ هذا الميثاق التاريخي الهام جداً على النحو التالي:
بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم^(٣) يتعاقلون بينهم وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم^(٤) الأولى كل طائفة تفدي عانيها^(٥)

(١) وسائل الشيعة ج ٥ ص ٣٧٦.

(٢) وسائل الشيعة ج ٥ ص ٣٧٧.

(٣) الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.

(٤) المعاقل: الديات.

(٥) العاني: الأسير.

بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

وإن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين يد على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة^(٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن وإن

(١) المفرح: المثقل بالدين والكثير العيال.

(٢) الدسيعة، وهي في الأصل ما يخرج من حلق البعير إذا رغا، وأراد بها هنا: ما ينال عنهم من ظلم.

ذمة الله واحدة، يجير عليهم ادناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس^(١).
 بل إن النبي (ص) لم يكتفِ بالميثاق المذكور بل آخى بين أصحابه في المدينة .. يكتب ابن هشام في هذا الصدد قائلاً: وآخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال - فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل - تأخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير^(٢) ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين (إلى آخره)^(٣).

من مجموع هذه النصوص والشواهد يُستفاد أن رسول الاسلام (ص) حيث كان عارفاً بأهمية وحدة المسلمين وضرورتها القصوى عمَدَ من البداية إلى ترسيخ أسس الوحدة وتوثيق عُراها والاستفادة من كل وسيلة مشروعة ممكنة في هذا السبيل.

إن الأحكام والقوانين العبادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية الإسلامية قد نُظِّمَتْ بشكلٍ يحقق هذا الهدف الحيوي العظيم، وعلى هذا فإن جميع المسلمين - كما في الآية - أمة واحدة ولا تستطيع الفوارق العرقية، والقطرية، والبلدية، والقروية، والقبلية، والصنافية، والحرفية، وحتى العقيدية والمذهبية، أن تقوّض هذه الوحدة.

إن منشأ هذه الوحدة هو الاعتقاد بالقرآن والاسلام يعني الشهادة بوجود الله ووحدانيته والشهادة بحقانية المعاد، والشهادة برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله التي يشترك فيها جميع المسلمين.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٤٧، البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٧٣.

(٢) الخطير: النظير والمثيل.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٥٠.

إن جميع الفرق والمذاهب الإسلامية تعتقد بوجود الله والمعاد ونبوة النبي محمد (ص)، يعتبرون القرآن الكريم كتابهم السماوي الديني، وهم يتجهون بأجمعهم في الصلاة نحو القبلة، ويعتبرون الصلاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحكام الإسلامية، بل يتفقون في مئات وآلاف المسائل، نعم يختلفون فيما بينهم في بعض الموارد، ولكن هذه الاختلافات لا تخرجهم عن دائرة الإسلام، ولهذا يعدّون جزءاً من الأمة الإسلامية الواحدة، فيجب أن يتمسك الجميع بحبل الله يعني القرآن والإسلام، الذي قال عنه القرآن الكريم:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١).

إن المقصود من الوحدة الإسلامية ليس هو أن يتخلى أصحاب المذاهب المختلفة عن عقائدهم الكلامية ومواقفهم الفقهية، ويتبعوا الآخرين، فإن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق بهذه السهولة، بل المقصود هو أن ينظروا إلى أصل إسلامهم (أي أصل كونهم مسلمين) وإلى المئات والآلاف من أوجه الاشتراك فيما بينهم، ويتغافلوا عن الاختلافات والفوارق الجزئية ويتحدوا، ويتعاونوا فيما بينهم للوصول إلى الأهداف المشتركة وهي:

١ - التعاون فيما بينهم لتبليغ الإسلام والترويج لعقائده وقوانينه، والعمل على نشره في العالم كله. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٢).

(١) آل عمران - ١٠٣.

(٢) التوبة - ٣٣.

٢ - السعي والجهد في سبيل تحقيق عظمة البلاد الإسلامية والمسلمين واستقلالهم.

٣ - الدفاع عن القرآن والاسلام وردّ عادية الكفر والاستكبار العالميين الساعين إلى إطفاء جذوة الاسلام، وطمس معالمه، وإخماد نور الله وإخفائه.

٤ - الدفاع عن كيان البلاد الإسلامية، وإخراجها وإنقاذها من براثن أعداء الإسلام.

٥ - مقارعة الاستغلال، والبشع لثروات المسلمين، والسيطرة على مصادره الاقتصادية بواسطة قوى الكفر والاستكبار العالميين.

٦ - الوقوف في وجه تصدير الثقافة المادية، والمفاسد الأخلاقية إلى البلاد الإسلامية على أيدي الكفار وأعداء الاسلام.

إنَّ الهدف من الوحدة، ومن التقريب بين المذاهب الإسلامية يجب أن يكون التعاون والتعاقد بين المسلمين أجمعهم في طريق الوصول إلى مثل هذه الأهداف المشتركة المهمة والحيوية للعالم الإسلامي.

إن الاسلام والقرآن يريدان مثل هذه الوحدة القابلة للتحقيق، وعلى العلماء والمصلحين أن يجتهدوا غاية الجهد في سبيل وصول الامة الإسلامية إليها.

إن التفرق والتشتت الذي ابتلي به المسلمون، وإن الأوضاع المؤسفة والمؤلمة الراهنة تنافي صريح الآيات والاحاديث، وهي تخالف مطلب ورغبة رسول الاسلام محمد صلى الله عليه وآله، وإن من واجب العلماء والمصلحين أن يعبئوا كل المسلمين بلا إستثناء لتحقيق هذه الوحدة المهمة القيمة.

فكروا وأجيبوا

- ١ - ما هو الدليل على وحدة المسلمين وكونهم أمةً واحدةً؟
- ٢ - ما هي العبادات التي توصل بها الإسلام لدعم الوحدة.
- ٣ - كيف استفاد الإسلام من الأمور الأخلاقية.
- ٤ - ما هي أبرز المقاطع من الميثاق الذي عقده النبي بين الأنصار، والمهاجرين التي تدلّ على الوحدة؟
- ٥ - فيما ذا يشترك المسلمون ويتفقون؟
- ٦ - كيف يجب أن تنظر المذاهب الإسلامية بعضها إلى بعض؟
- ٧ - لتحقيق أية أهداف يجب أن يتحد المسلمون؟
- ٨ - هل أوضاع المسلمين الراهنة توافق رغبة النبي الأكرم (ص) ومطلبه.



الدرس السادس والثلاثون

الوظائف والحقوق المتبادلة بين آحاد المسلمين

في الدرس المتقدم قرأتم أن الاسلام يعتبر المسلمين جميعاً أمة واحدة ووحدة إجتماعية يجب أن تترتب عليها أثر خاصة.

إن المجتمع الاسلامي بمنزلة بناءة كبيرة بل بمنزلة جسد بشري واحد. إن الانسان ذو أعضاء وجوارح مختلفة مثل: العين، الأذن، اللسان، الأنف، اليد، القلب، الرئة، الكلية، الكبد، المعدة، المعى، الأعصاب، العروق، الغدد، العقل، الذاكرة، الفهم، وغير ذلك من الأعضاء والجوارح، وكل واحدة من هذه الأعضاء والجوارح مركبة من آلاف بل ملايين الخلايا الحية.

ولكل من هذه الأعضاء والجوارح في الجسم البشري وظيفة خاصة ومسؤولية معينة وبين كل هذه الأعضاء نوع خاص من الارتباط والتعاون، وهي تقوم بهذه الوظائف ليبقى الإنسان سالمًا ويواصل حياته في راحة ودعة.

ولو أن بعض هذه الجوارح والأعضاء عجزت عن اداء وظيفتها سرى ذلك إلى سائر الأعضاء أيضاً، وسلبها راحتها وسلامتها.

لقد اعتبرَ الاسلامُ جميعَ مُسلمي العالم وجماعتهم بمنزلة انسان حي يشكل

أفرادهم أعضاء تلك الأمة الواحدة وأجزاءها وجوارحها وعلى أفراد المسلمين أن لا يعتبروا أنفسهم أشخاصاً منفردين ولا يلاحظوها بمنأى ومعزلٍ عن بقية المسلمين بل على كل فرد منهم أن يعتبر نفسه جزءاً في هيكلية الأمة الإسلامية الواحدة، جزءٌ يشارك سائر المسلمين في السلامة والسعادة والدعة.

يجب على كل فرد من أفراد المسلمين أن يعلموا أن عظمتهم وسعادتهم الإسلامية مرهونة بسعادة الأمة الإسلامية الكبرى وعظمتها، وللوصول إلى هذا الهدف الكبير يجب أن يقوم ارتباط وثيق وتعاون صادق وعميق بين أفراد هذه الأمة الكريمة.

ولهذا قرر الشرع الإسلامي الشريف لكل من المسلمين وظائف وحقوقاً متبادلة ومتقابلة ذكرت في الكتاب والسنة تحت عناوين مختلفة.

وحيث لا يمكننا هنا أن ندرج جميع تلك الآيات والأحاديث لذلك نكتفي بالإشارة إلى بعض عناوينها ونذكر حديثاً واحداً من كل باب.

١ - باب الإهتمام بأُمور المسلمين: عن أبي عبد الله عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ سَمِعَ رَجُلًا ينادي ياللمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم^(١).

٢ - باب أخوة المؤمنين بعضهم لبعض - علي بن عتبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المؤمنُ أخو المؤمن، عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعدّه عدّةً فيخلفه^(٢).

٣ - باب حقّ المؤمن على أخيه وأداء حقه - معلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت: ما حقّ المسلم؟ قال: سبْعُ حقوقٍ واجباتٍ ما منهنَّ حقٌّ إلا

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٤.

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٦٦.

وَهُوَ عَلَيْهِ وَاجِبٌ، إِنْ ضَيَّعَ مِنْهَا شَيْئاً خَرَجَ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ فِيهِ مِنْ نَصِيبٍ.

قُلْتُ لَهُ: جَعَلْتُ فِدَاكَ وَمَا هِيَ؟
قَالَ: يَا مَعْلى: أَيْسَرُ حَقِّ مِنْهَا أَنْ تُحِبَّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتُكْرَهُ لَهُ مَا تُكْرَهُ لِنَفْسِكَ.

والحقُّ الثاني: أَنْ تَحْتَنِبَ سَخَطَهُ وَتَتَّبِعَ مَرْضَاتِهِ وَتَطِيعَ أَمْرِهِ.
والحقُّ الثالثُ: أَنْ تَعِينَهُ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ وَلِسَانِكَ وَيَدِكَ وَرَجْلِكَ.
والحقُّ الرابع: أَنْ تَكُونَ عَيْنَهُ وَدَلِيلَهُ وَمَرَاتِهِ.
والحقُّ الخامس: أَنْ لَا تَشْبَعَ وَبَجُوعَ، وَلَا تَرُوى وَيَظْمَأَ، وَلَا تَلْبَسَ وَيَعْرِى.
والحقُّ السادس: أَنْ يَكُونَ لَكَ خَادِمٌ وَلَيْسَ لِأَخِيكَ خَادِمٌ فَوَاجِبٌ أَنْ تَبْعَثَ خَادِمَكَ فَيَغْسِلَ ثِيَابَهُ وَيَصْنَعَ طَعَامَهُ وَيَمَهِّدَ فِرَاشَهُ.
والحقُّ السابع: أَنْ تَبَرَّ قَسَمَهُ، وَتُجِيبَ دَعْوَتَهُ، وَتَعُودَ مَرِيضَهُ، وَتَشْهَدَ جَنَازَتَهُ، وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ لَهُ حَاجَةً تُبَادِرُ إِلَى قَضَائِهَا، وَلَا تُلَجِّئُهُ أَنْ يَسْأَلَكَهَا، وَلَكِنْ تَبَادِرْهُ مِبَادِرَةً، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَصَلْتَ وَلَا يَتَكَ بِوِلَايَتِهِ، وَوِلَايَتُهُ بِوِلَايَتِكَ^(١).

٤ - باب التراحم والتعاطف - أبو المغرئ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يَحِقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْاجْتِهَادُ فِي التَّوَاصُلِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى التَّعَاطُفِ وَالْمُوَاسَاةِ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ، وَتَعَاطُفَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ حَتَّى تَكُونُوا كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ مَتَرَاهِمِينَ مَغْتَمِينَ لِمَا غَابَ عَنْكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ مَعِشَرُ الْأَنْصَارِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ^(٢).

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٩.

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٧٥.

٥ - باب المصافحة - جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِذَا التَّقِيْتُمْ فَتَلَقَوْا بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّصَافُحِ ، وَإِذَا تَفَرَّقْتُمْ فَتَفَرَّقُوا بِالِاسْتِغْفَارِ ^(١).

٦ - باب ادخال السرور على المؤمن قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: مَنْ سَرَّ مُؤْمِنًا فَقَدْ سَرَّنِي وَمَنْ سَرَّنِي فَقَدْ سَرَّ اللَّهَ ^(٢).

٧ - باب قضاء حاجة المؤمن - بكر بن محمد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مَا قَضَى مُسْلِمٌ لِمُسْلِمٍ حَاجَةً إِلَّا نَادَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَلَيَّ ثَوَابُكَ وَلَا أَرْضَى لَكَ بِدُونِ الْجَنَّةِ ^(٣).

٨ - باب السعي في حاجة المؤمن - ابن سنان قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْخَلْقُ عِيَالِي فَأَحْبِبُّهُمْ إِلَيَّ الْطُفْهُمَ بِهِمْ، وَأَسْعَاهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ ^(٤).

٩ - باب نصيحة المؤمن - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لِيَنْصَحَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ كَنْصِيحَتِهِ لِنَفْسِهِ ^(٥).

١٠ - باب من طَلَبَ عَثَرَاتِ الْمُؤْمِنِينَ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَسْلَمْ بِقَلْبِهِ لَا تَتَّبِعُوا عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ تَتَّبَعَ اللَّهَ عَثَرَتَهُ. وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهَ عَثَرَتَهُ يَفْضَحْهُ ^(٦).

(١) الكافي ج ٢ ص ١٨١.

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٨٨.

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٩٤.

(٤) الكافي ج ٢ ص ١٩٩.

(٥) الكافي ج ٢ ص ٢٠٨.

(٦) الكافي ج ٢ ص ٣٥٥.

- ١١ - باب من لم ينصح أخاه المؤمن - قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ سَعَى فِي حَاجَةِ لِأَخِيهِ فَلَمْ يَنْصَحْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ^(١).
- ١٢ - باب من أخاف مؤمناً - قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ نَظَرَ إِلَى مُؤْمِنٍ لِيُخَيِّفَهُ بِهَا أَخَاكَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ^(٢).

يستفاد من هذه الاحاديث ونظائرها التي تُعَدُّ بالمثلث المنقولة في الأبواب المختلفة أن الشارع الاسلامي المقدس أعتنى بوحدة المسلمين وترابطهم عنايةً كاملة، ولهذا أوصى بأمرٍ توجب تقوية دعائم هذه الوحدة ونهى عن أمور توجب الفرقة والاختلاف.

فكروا وأجيبوا

- ١ - أكتبوا الوظائف والحقوق المتقابلة بين المسلمين التي جاءت في هذا الدرس.
- ٢ - أكتبوا أربعة أحاديث من هذا الدرس.
- ٣ - ماذا يُستفاد من هذه الأحاديث؟

* * *

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٦٢.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٣٦٨.

الدرس السابع والثلاثون

بعض خصائص الأمة الإسلامية ومسؤولياتها

يعتبر القرآن الأمة الإسلامية أمة متميزة اختارها الله تعالى، وجعل على عاتقها مسؤولياتٍ جساماً .. إنها الأمة التي سأل إبراهيم الخليل (ع) ربه أن تكون من ذريته ونسله، وأن تكون أمة مسلمة للأوامر الإلهية، بل وسأهم ذلك النبي العظيم بالمسلمين. يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(١).

في هاتين الآيتين يوصي سبحانه بعدة أمور:

١ - إركعوا واسجدوا لله.

٢ - إعبُدوا ربكم.

٣ - إفعِلوا الخير.

٤ - جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ.

ثم يقول بعد ذلك: إِنَّ اللَّهَ (اجتباكم) اختاركم وأنَّ امتكم هذه هي أمة إبراهيم، وهو الذي سمّاكم المسلمين، ولهذا قومُوا بوظائفكم، وواجباتكم ليكون الرسولُ شاهداً عليكم، وتكونوا شهداء على الأمم.

ثم يوصيهم بعد هذا بوظائف ثلاث أُخر:

١ - أَقِيمُوا الصَّلَاةَ.

٢ - آتُوا الزَّكَاةَ.

٣ - اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ نِعْمُ الْمَوْلَى وَنِعْمُ النَّصِيرُ.

ويقول في القرآن الكريم أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).
في هذه الآية يطلبُ الخليلُ عليه السلام من الله تعالى أن يجعله وولده مسلمين، كما يجعل من ذريته أمة مسلمة.

لقد ذكر في القرآن الكريم للأمة الإسلامية خصائص وجعل على عاتقها مسؤوليات ووظائف نشير إلى طائفة منها هنا:

١ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢).

في هذه الآية وُصِفَتِ الأمة الإسلامية بخصيصة الوسطية .. وقد فسّر أكثر المفسرين الوسط بالمعتدل، وقالوا إن الأمة الإسلامية إنما وصفت بأنها أمة وسط

(١) البقرة - ١٢٨.

(٢) البقرة - ١٤٣.

لكونها - بالتزامها احكامَ الإسلام وقوانينه - بعيدة عن الإفراط والتفريط .. إنها مزجت بين الأمور المادية والمعنوية، وجمعت بين السعادة والكمال النفسيين والسعادة والكمال الجسديين فهي كما تستقيح الإستغراق في الماديات واللذائذ الجسدية وتذمه، لا تجيز الرهبانية والإعتزال وترك الدنيا ولا تُسوِّغه أيضاً.

ولهذا يكون معنى الآية هكذا: إن الله جعلكم أمة معتدلة لتكونوا شهداء على سائر الأمم وتراقبوها حتى لا تقع في الإفراط والتفريط بل يبقوا على حد الاعتدال والتوسط في المسلك والمنهج.

وعلى هذا فقد طُلب من الأمة الإسلامية أن تقوم - مضافاً إلى احتفاظها باعتدالها - بمهمة النظارة والرقابة على سائر الأمم أيضاً كيما تخرج تلك الأمم من حالة الإفراط والتفريط، وتلتزم جانب الاعتدال.

ولا شك أن القيام بمثل هذه المسؤولية الثقيلة عملٌ صعبٌ جداً وهو يحتاج إلى تهيؤ وتهيئة مقدمات.

إن لفظة «الوسط» يمكن تفسيرها كذلك بالواسطة والمتوسط بين أمرين، وعلى هذا فإن الأمة الإسلامية إنما سميت بالامة الوسط لكونها واسطة بين رسول الاسلام وسائر الامم والاقوام التي توجد إلى يوم القيامة. يعني ان نفس المسؤولية التي وضعت من جانب الله تعالى على عاتق رسول الاسلام وهي أن يجتهد في سبيل تبليغ الإسلام ونشره وهداية الناس وإرشادهم، فهي ملقاة أيضاً على عاتق الامة الإسلامية، فإن عليها ان تواصل العمل لتحقيق أهداف النبي، وتجتهد في هذا السبيل.

وعلى هذا يمكن تفسير الآية على النحو التالي: إن الله جعلكم أمة وسطاً لتواصلوا العمل لتحقيق أهداف النبي، وتكونوا شهداء ومراقبين على سائر الأمم والأقوام، وتجتهدوا في إصلاحهم وإرشادهم وهدايتهم، ويكون رسول الله شاهداً - بدوره - على عملكم، واجتهادكم، ومراقباً لسعيكم وجهادكم.

٢ - يقول في القرآن الكريم: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).
ويقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٢).

في الآية الأولى طُلب من الامة الإسلامية ان تجعل من نفسها أمة قوية:

١ - تدعو البشرية في العالم إلى الخير.

٢ - تأمر بالمعروف.

٣ - تنهى عن المنكر.

وفي الآية الثانية قيل: إنكم خير الامم لأنكم تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.

بناءً على هذا فإن من الخصائص المهمة للأمة الإسلامية هو أن هذه الأمة تدعو الناس في العالم إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وهذه هي المسؤولية الثقيلة جداً التي أُلقيت على كاهل الأمة الإسلامية. ولا ريب في أن القيام بمثل هذه المسؤولية الثمينة الثقيلة تحتاج إلى التهيؤ والاستعداد وتهيئة المقدمات والأدوات، مثل تأليف الكتب المفيدة، ونشر المجلات والجرائد المناسبة على المستوى العالمي، وبث البرامج المفيدة من الإذاعة والتلفزيون والمحاضرات النافعة، وكل وسيلة ممكنة أخرى.

إن على الامة الاسلامية - لكي ترهبَ الاعداء المستكبرين وتحول دون الظلم والعدوان، ولأجل النهي عن المنكر - أن تجهز نفسها بالسلاح والجيش القويين اللذين يرهبان الأعداء بحيث لا يعودون يفكرون في العدوان والظلم قط.

(١) آل عمران - ١٠٤.

(٢) آل عمران - ١١٠.

٣ - إن الخصيصة الثالثة والرابعة للأمة الإسلامية هما أن الأمة الإسلامية أمة متشددة مع أعداء الاسلام، رحيمة مع المسلمين.
يقول في القرآن: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾^(١).
في هذه الآية إشارة إلى خصيصتين من خصائص النبي وأصحابه (وهي بالتالي من خصائص الأمة الإسلامية كذلك):

- ١ - إنهم أشدء في مقابل الكفار والمشركين لا يلينون مع المستكبرين المستعمرين. ويجهزون أنفسهم تجهيزاً قوياً لا يحتاجون معه إلى التسليم والمداينة.
- ٢ - وأما بالنسبة إلى المسلمين فرُحَمَاءُ سُمَحَاءُ انهم يعتبرون المسلمين جزءاً من هيكل الأمة الإسلامية الواحد، فيعتبرون راحتهم وسلامتهم من راحتهم وسلامتهم، وألمهم وعذابهم من ألمهم وعذابهم، ولهذا لا يألون جهداً في إصلاح أوضاع المسلمين العامة وحل مشكلاتهم، ويهتمون بها اهتماماً بالغاً ومستمراً.

فكروا وأجيبوا

- ١ - لماذا الأمة الإسلامية أمة مختارة؟
- ٢ - ما هي الأمة الوسط؟ وما هي المسألة الملقة على كاهلها؟
- ٣ - ما هي الخصيصة الثانية للأمة الإسلامية؟
- ٤ - للقيام بهذه المسؤولية ماذا يجب أن يُصنع؟
- ٥ - كيف يجب أن يكون المسلمون تجاه الأعداء الكفار؟
- ٦ - كيف يجب أن يكونوا تجاه المسلمين؟
- ٧ - إحتفظوا الآيات في هذا الدرس، وتفسيرها جيداً؟

الدرس الثامن والثلاثون

الإنسان من منظور الإسلام

يَعْتَبَرُ الإسلامُ «الإنسان» كائناً متعدّد الأبعاد بدأت خلقته من عنصرٍ ترابيٍّ عديم الإدراك والشعور ويتحوّل - بعد طيّ مراحل التكامل - إلى ضورة كائنٍ أسمى من المادة.

ولقد وُصِفَت خلقَةُ الإنسان في القرآن الكريم على النحو الآتي:
﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾^(١).

في هذه الآية - بعد استعراض مراحل التكامل المادّي، وبلوغ مرحلة الإستعداد لقبول الروح المجرّدة - جاءت العبارة التالية: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ حيث وصف الخلق الجديد بأنه خلق آخر، وهذا يغيّر السياق ويدلّ كلمة (خلقناه)

(١) المؤمنون - ١٤/١٧.

يستعمل لفظة و«انشأناه»، وهذا الطريق يشير إلى أن آخر مرحلة في خلقه الانسان تختلف عن المراحل السابقة.

من هذا يستفاد أن آخر مرحلة من مراحل وجود الإنسان أي الصورة والنفس الانسانية هي أسمى وأكمل من مراحل الوجود الإنساني السابقة، وهذا هو الموضوع الذي تم إثباته في الفلسفة، إذ ثبت فيها أن النفس والروح الإنسانية كائنٌ مجرد عن المادة وآثارها.

إن هذا الأمر مهمٌ وعجيبٌ جداً أن تتحوّل الصورة المادية - على أثر الحركة الجوهرية - إلى أمر مجردٍ ملكوتيٍّ، ولهذا امتدح الله سبحانه فعله المهم هذا إذ قال في ذيل الآية: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وفي آية أخرى أيضاً يشرح قصة خلق الانسان على النحو التالي:
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(١).

في الآيات المذكورة أشار سبحانه إلى ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: أنه لا بدّ - لنفخ الروح الإنسانية - من حصول القابلية والإستعداد في المادة، ولهذا جاء في الآية: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾.

النقطة الثانية: أن الله تعالى نسب الروح الإنسانية إلى نفسه، وقال: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾، وذلك لأجل أن يثبت قيمته العليا، يعني أن الله سبحانه بعد أن هبأ مادة البدن الإنساني أفاض عليه الروح التي نسبها إلى نفسه والتي كانت من سنخ العالم الربوبي.

النقطة الثالثة: أن من إمتيازات هذا الكائن الجديد هو أنه يمتلك السمع والبصر والقلب يعني اسباب تحصيل العلم، وبذلك يختلف عن المراحل السابقة. وفي آية أخرى أيضاً يشير إلى النقطتين الأولى والثانية ويقول للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١). هذا مضافاً إلى أنه فرّع الأمر للملائكة بالسجود على تسوية عنصر البدن الإنساني ونفخ الروح المنسوبة إلى الله فيه، وهو شاهد على إمتياز الوجود الإنساني، لأنه كان بحيث صار مؤهلاً ولائقاً لأن يصير مسجوداً للملائكة، وخليفة لله في الأرض، له فطرة تنجذب إلى الله وإلى الكمال وتحبها.

يقول في القرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(٢).
ويقول:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٣).
ويقول:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا

(١) الحجر - ٢٩.

(٢) الاسراء - ٧٠.

(٣) البقرة - ٣١ - ٣٣.

لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

ويقول:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

ومن جانب آخر ذم هذا الإنسان نفسه .. هذا الإنسان الضعيف، والبخيل، الظالم، الجاهل، والكفور، المشدود إلى متاع الدنيا، الطاعني، العجول، المغرور .. و.. و.
يقول في القرآن:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (٣).

ويقول:

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ (٤).

ويقول:

﴿كَأَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى . أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾ (٥).

ويقول:

﴿وَيَذْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (٦).

ويقول:

(١) البقرة - ٣٠.

(٢) الروم - ٣٠.

(٣) المعارج - ١٩.

(٤) النساء - ٢٨.

(٥) العلق - ٦.

(٦) الاسراء - ١١.

﴿وَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(١).

ويقول:

﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهُ رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾^(٢).

ويقول:

﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنْ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾^(٣).

ويقول:

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾^(٤).

لقد وُصفَ الإنسان في القرآن الكريم - كما تلاحظون بنحويين متضادين ..
والآن ينطرح هذا السؤال وهو:

ما هي حقيقة الإنسان؟ وكيف يمكن أن نجمع بين هذين الصنفين من
الآيات؟.

إذا كانت فطرة الانسان مبنية على التوحيد والانجذاب إلى الله، وكان طالباً
للخير، والبر والاحسان، وباحثاً عن مكارم الأخلاق وراغباً فيها ذاتياً، فلماذا وُصف
بانه كفور وظلوم وفخور، ويئوس وجهول، وحريص ومنوع وجزوع، وعجول، وطاغ.
وإذا كان يميل إلى الشرور والقبائح ذاتاً فلماذا وُصف بانه مكرم، وانه محب

(١) ابراهيم - ٣٤.

(٢) هود - ١٠.

(٣) هود - ٩.

(٤) الاسراء - ١٠٠.

للمعرفة الدينية ومنجذبٌ إلى الله، والكمال، وأنه بالتالي خليفة الله؟.
في الجمع بين هذه الآيات والأحاديث يمكن أن يقال: بأن الانسان كائنٌ ذو فطرتين بمرتبتين وجوديتين. نصفُ تلك الفطرة من النور ونصفُها الآخر من الظلمة، ومع أنه ليس سوى حقيقة واحدة ولكنه من ناحية حيوان، أُودِعَت الميول والنزعات الحيوانية في كيانه ووجوده، وتنبع الشرور والآثام من جانبه الحيواني هذا ولهذا يتعرض للذم ويوصف بتلك الصفات الذميمة.

ومن ناحية أخرى هو إنسان ذو نفس مجردة ملكوتية، وهو نفحةٌ إلهيةٌ مسانخةٌ لعالم القدس ومناسبة لمنبع الخيرات، ومن هذا الجانب يميل إلى الكمال ويرغب في الفضائل والمكارم، والخيرات، ومن هذه الجهة كُرم وتأهل ليكون خليفة الله، ومسجود الملائكة.

وعلى هذا الأساس لا يكونُ بين هذا القبيل من الآيات والأحاديث أي تناقض، وتضارب.

فَكَّرُوا وَأَجَبُوا

- ١ - من أين بدأ خلق الإنسان وما هي آخر مراحل الوجودية؟
- ٢ - لماذا قيل في خلق الانسان: ثم أنشأناه خلقاً آخر؟
- ٣ - لماذا قيل في شأن الإنسان: ونفخ فيه من روحه؟
- ٤ - بماذا تأهل الانسان ليكون مسجوداً للملائكة؟
- ٥ - كيف وُصف الإنسان في الآيات القرآنية؟
- ٦ - كيف يمكن الجمع بين الآيات المذكورة؟

الدرسُ التاسعُ والثلاثون

الإنسانُ كائنٌ مُخيّرٌ

خُلِقَ الإنسانُ مخيّرًا، حُرَّ الإرادة، قد وُهِبَ العقل والتفكير، والإرادة والاختيار. إنَّ الإنسانَ ليس في أفعاله مثل قطعة من الصخر تُلقى إلى الأعلى من دون اختيار، وتهبط منجذبةً نحو الأرض من دون ارادة.

كما أنه ليس كشجرة تجذب العناصر الكيماوية من الأرض وتكبر وتثمر. وهكذا ليس الإنسان كحيوان يعمل بحكم الغريزة، من دون أن يمتلك القدرة على مقاومة الميول والرغبات الباطنية، والنوازع النفسية.

إن حركات الإنسان الاختيارية ليست - كذلك - مثل حركة قلبه، ونبضه الذي يتم من دون إرادة واختيار، بل يقوم الإنسان بجميع أفعاله عن علم وقصد، وعن اختيار وإرادة، فهو إذا تصوّر فعلاً فكّر فيه أولاً، وقيّم مصلحه ومفاسده، ثم يتخذ قراره باتيان ذلك الفعل أو تركه، ويختار ثم يريد ذلك العمل، ويحرّك عضلاته نحوه من أجل إيقاعه، وإيجاده.

إنَّ أعمال الإنسان تنبع من رضاه ومن تصديق قوة تشخيصه وتقييمه. إنَّ البَشَرَ يرى نفسه دائماً أمام مفترق طريقين أو عدّة طرق يتوقف سلوك

كلَّ واحدَةٍ منها على نظره ورأيه، وإرادته الشخصية، يعني أن كيفية فكره وانتخابه هي التي تعيّن طريقه الخاص، ومسلكه المعين.

إذا كان الإنسان لا يتصف بالحرية، ولا ينطوي على الاختيار، إذن لكان تفكيره، وتقييمه للعاقبة أمراً لا معنى له.

إنه يستحسن بعض الأفعال عقلاً، ويحسن فاعلها ويمدحه عليها، ويستقبح بعض الأفعال - كذلك - ويقبح فاعلها، ويذمه عليها، ومن الواضح أنه إذا لم يعتبر فاعلها حراً مختاراً لم يكن للتحسين والتقبيح مبرر ووجه.

وعلى العموم إذا لم يكن البشر أحراراً في أعمالهم لم يكن معنى لا للتحسين والتقبيح، ولا للقيم الأخلاقية وما يضادها.

إن الاسلام - أيضاً - يعتبر الإنسان حراً مختاراً قد أشار إلى هذا المطلب في آيات وأحاديث كثيرة..

ومن باب النموذج:

يقول في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾^(١).

ويقول: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾^(٢).

ويقول: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٣).

ويقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ

(١) الدهر - ٣/٢.

(٢) آل عمران - ١٤٥.

(٣) الكهف - ٢٩.

كَثِيرٌ^(١).

ويقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢).

ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
أَكْتَسَبَتْ﴾^(٣).

ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ
أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٤).

وقد وردت في هذا المجال أحاديث أيضاً نشير إلى نموذج واحد منها:

ابراهيم بن أبي محمود (في حديث إلى أن قال): وسألتُه (أبا الحسن) عن الله
عَزَّوَجَلَّ هل يُجِبُّ عِبَادَهُ عَلَى الْمَعَاصِي؟

فقال: بل يُخَيِّرُهُمْ وَيُمَهِّلُهُمْ حَتَّى يَتُوبُوا.

قلت: فهل يَكَلِّفُ عِبَادَهُ مَا لَا يَطِيقُونَ؟

فقال: كيف يفعل ذلك وهو يقول: وما ربك بظلامٍ للعبيد.

ثم قال: حَدَّثَنِي أَبِي مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ (ع)
أَنَّهُ قَالَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يُجِبُّ عِبَادَهُ عَلَى الْمَعَاصِي أَوْ يَكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ فَلَا تَأْكُلُوا
ذَبِيحَتَهُ وَلَا تَقْبَلُوا شَهَادَتَهُ وَلَا تُصَلُّوا وَرَاءَهُ وَلَا تَعْطُوهُ مِنَ الزَّكَاةِ^(٥).

يستفاد من هذه الآيات والأحاديث والعشرات والمئات من نظائرها أن أعمال

(١) الشورى - ٣٠.

(٢) الروم - ٤١.

(٣) البقرة - ٢٨٦.

(٤) فصلت - ٤٠.

(٥) بحار الأنوار ج ٥ ص ١١.

الانسان وتصرفاته الحسنة أو السيئة تستند إليه نفسه، وأن فاعلها الحقيقي هو ذاته لا غير.

إن الإنسان - بالعلم والتفكير، والتدبر في العواقب - يختار الإتيان بالفعل أو تركه، ويتحمل مسؤوليته أيضاً، وعلى هذا الأساس يتمتع الانسان - في أفعاله - بالحرية الكاملة والاختيار الكامل من دون جبر أو تسيير.

وهنا يلزم أن نشير الى نقطتين مهمتين:

النقطة الأولى: أن معنى كون الانسان فاعلاً مخيراً حرّ الإرادة، لا يعني أن علمه وانتخابه مستثنيان عن قوانين العلة والمعلول الكلية الشاملة وأن افعال الإنسان وتصرفاته مَفُوضَة إليه تفويضاً، بل إن لها هي أيضاً عللاً خاصة من دون وجود تلك العلل لا تتحقق معلولاتها.

صحيح أن الإنسان يتوجّه إلى فعلٍ خاص ويدرك بواسطة تفكره وتدبره، تناسبه، ثم يختاره ويأتي به، ولكن التفاته وتفكيره، وتشخيصه للتناسب وإرادته وإختياره كذلك لا تكون من دون علة.

إن شخصية كل إنسان، والتركيب الخاص لبدنه وأعصابه ودماغه، وأحاسيسه وعواطفه، وميوله الباطنية، وعاداته وأفكاره، وتربيته العائلية ووضاعه وشرائطه الاجتماعية وبيئته الحياتية مؤثرة برمتها في تفكره واختياره تأثيراً كاملاً.

إن كل واحد من هذه الأمور هو بدوره أيضاً معلولٌ لعلة خاصة، وهذه السلسلة من العلل والمعلولات، والتأثيرات والتأثرات مستمرة مادامت المشيئة الإلهية.

إن الله هو الذي خَلَقَ عالم المادة على هذا النمط وأقام فيها هذه القوانين الخاصة .. لقد أراد الله تعالى أن تقوم العلل الطبيعية بأفعالها من دون علم وقصد، ومن دون تفكير واختيار، وأراد الله أن تتحقق أعمال الانسان وتصرفاته عن علم وتفكر، واختيار وإرادة، ولقد أعطى الله مثل هذه القدرة والميزة للانسان.

وعلى هذا الأساس يكون معنى كون الإنسان فاعلاً مخيراً حرّاً الإرادة بمعنى أن اختياره وإنتخابه هو الجزء الأخير من العلة التامة للفعل.

النقطة الثانية: يجب أن لا يُستنتَج من قولنا: أن أفعال الإنسان ترتبط به نفسه، وأنه يتمتع بالحرية الكاملة في الإختيار والإنتخاب .. أن الإنسان مستقل في أفعاله، استقلالاً كاملاً، وأنه غير محتاج إلى الله في هذا المجال.

يجب أن لا يُتصوّر أنّ أفعال الانسان وتصرفاته مفوّضة إليه، وانه لا دخالة لله تعالى فيها ابداً، كلّاً نحن لا نقول هذا الكلام مطلقاً، بل الانسان كما يحتاج في أصل وجوده وبقائه إلى إيجاد الله وإفاضته فانه يحتاج كذلك في أفعاله وآثاره الوجودية إلى الله تعالى وإلى إفاضته، لأنّ سلسلة العلل والمعاليل تنتهي اليه، وعلى أثر مشيئته سبحانه اتخذ عالم الخلق مثل هذا النظم، ويدار على هذا النمط، ولكن عليّته وفاعليّته تكون في طول عليّة الانسان وفاعليته لا في عرضها.

وقد جاء هذا الموضوع في بعض الآيات القرآنية أيضاً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾^(٣).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ

(١) ابراهيم - ٤.

(٢) آل عمران - ٢٦.

(٣) الشعراء - ٧٨ - ٨١.

الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
 ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾
 ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
 وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣﴾.

وعدة آيات أخر من هذا القبيل مما ينسب إضلال البشر وهدايتهم إلى الله سبحانه.

إن هذه الآيات - كما تلاحظون - يمكن أن تُقسَّم إلى ثلاثة أصناف:
 الصنف الأول: ما ينسب الإيمان والكفر والهداية والضلالة وسائر أفعال الإنسان إلى البشر أنفسهم.

الصنف الثاني: الآيات التي تنسب إضلال البشر وهدايتهم إلى الله سبحانه.
 الصنف الثالث: الآيات التي تنسب أفعال البشر إلى الله تعالى وإلى البشر معاً مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

من مجموعة هذه الآيات نستفيد أن أفعال الإنسان إنما تُنسب إليه لأنه العلة المباشرة للفعل، أي أن أثر اختياره وانتخابه هو تحقق الفعل، ولكنها تنسب إلى الله أيضاً لأنه تعالى علة العلل، ولأنه هو الذي خلق النظام الكوني على هذا النمط، وهو يديره ويدبره، وجميع العلل والمعلولات مقهورة لقدرته ومشيئته.

وهذا يبطل الجبر، لأنَّ الفاعل المباشر للأفعال هو الإنسان، وهو الذي يختار إتيان الفعل أو تركه، كما أنَّ التفويض هو الآخر باطل لأنَّ فعل الإنسان لم يفوض

(١) الانفال - ١٧.

(٢) التكوين - ٢٩.

(٣) النحل - ٩٣.

إلى نفسه، ولا يتصف بالاستقلال الكامل، وكما أنه مرتبط بالله تعالى في أصل وجوده، مرتبطٌ كذلك في قدرته وعلمه وإرادته واختياره وفعله إلى الإفاضة والمشيئة الإلهية، وما يبقى هو أن فاعل الأفعال والمختار لها هم البشر أنفسهم، ولكن وجود الإنسان وفعله ودوافعها وعللها ومعلولاتها هي برمتها تعمل وتؤثر تحت قدرة الله ومشيئته.

ولقد جاءت الإشارة إلى هذا المطلب في بعض الأحاديث: فعن الجعفري عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: ذُكرَ عنده الجبر والتفويض فقال: ألا أُعطيكم في هذا أصلاً لا تختلِفون فيه ولا يخاصمكم عليه أحدٌ إلّا كَسَرْتُمُوهُ؟ قلنا: إن رأيتَ ذلك.

فقال: ان الله عزوجل لم يُطعْ بأكرهٍ ولم يُعصَ بغلبةٍ، ولم يُهمَلْ العباد في مُلكِهِ، هُوَ المَالِكُ لِمَا مَلَكَهُمْ وَالْقَادِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَتَمَرَتِ الْعِبَادُ بِطَاعَتِهِ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ عَنْهَا صَادِقاً، وَلَا مِنْهَا مَانِعاً، وَإِنْ أَتَمَرُوا بِمَعْصِيَةٍ فِشَاءٍ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ فَعَلَّ وَإِنْ لَمْ يَحُلْ وَفَعَلُوهُ فَلَيْسَ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَهُمْ فِيهِ^(١).

فكروا ثم أجيبوا

- ١ - ما هو الفرق بين أفعال الإنسان وأفعال الجمادات والنباتات والحيوانات؟
- ٢ - ما هو رأي الاسلام حول حرية الإنسان وإختياره؟ وما هو الدليل؟
- ٣ - ماذا يعني كون الإنسان فاعلاً مختاراً؟
- ٤ - هل علم الإنسان وإرادته وإختياره خارجة عن نطاق قوانين العلة والمعلول الكلية؟ فكيف إذن؟
- ٥ - هل الإنسان يتمتع بالاستقلالية في إيجاد أفعاله؟

٢٣٨ دروس من الثقافة الإسلامية

٦ - وضحوا مسألة حرية الإرادة الإنسانية جيداً؟

٧ - إ حفظوا الآيات واستظهِروها.

* * *

الدرسُ الأربعون

الإنسانُ وقبولُ المسؤولية

إنَّ الجهادات والنباتات حيث أنَّها لا تمتلك العلمَ والشعورَ، والإرادة والاختيار لذلك ليست صالحةً للتكليف ..

وأما الحيوانات فهي وإن كانت تتمتع بشيء من الشعور والاحساس والأرادة، إلَّا أنَّها لا تصلح مع ذلك للتكليف، ولا تتحمل مسؤوليةً، وذلك لأنها تفتقر إلى العقل والتفكر، ولهذا لا تستطيع بواسطة التعقل والتفكر، وتقييم المصلحة، أن تقاوم ميولها النفسية، وتسيطر عليها.

إن الحيوانات مقهورة لغرائزها، وليس لديها القدرة على كبح جماح ميولها ورغباتها، وإخضاعها للضوابط والقوانين والمقررات ولهذا فهي ليست مكلفة. إن الملائكة هي الأخرى ليست بحاجة إلى التشريع والتكليف بالأحكام لأنها موجودات أعلى وأسمى من المادة والماديات، ولأنها لا تنطوي على قوى الشهوة والغضب حتى تحتاج إلى السيطرة عليها والتحكم فيها .. ليس لديها حركة ولا تكامل ولا تنزّل ولا تسافل .. بل وظيفة كل واحد منها واضحة، وهو يؤدي الوظيفة المرسومة له، دون تخلف أو عصيان. بل لا يتصور التخلف فيها قط، ولهذا فهي لا تحتاج إلى

التشريع والتكليف.

يقول القرآن الكريم حول الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

ويقول: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^(٢).

أما الانسان فهو بحكم خلقته الخاصة قابل لتحمل المسؤولية، وهو بحاجة الى التكليف، لأنه كائن ذو بعدين، فهو من جانب جسم نامٍ ومحطى ويتصف بخصائص التغذية والنمو، والتوليد للمثل، ومن جانب آخر هو حيوان يتصف بالخصائص الحيوانية مثل الإحساس والشعور والارادة والحركة والشهوة والغضب، وما شاكل ذلك من الخصائص المودوعة في كيانه، ومن جانب آخر هو روح مجردة ملكوتية وهو بالتالي انسان يمتلك العقل والتفكير ويمكنه أن يفكر في عواقب الأمور، ويقىم المصالح والمفاسد فيها، وهذه الطريقة يسيطر على رغباته وميوله النفسية ويلجمها، هذا مضافاً إلى أنه يتمتع بالحرية والإختيار الكامل في إتيان أفعاله أو تركها، ويمكنه أن يختار طريقه بنفسه، ويواصل السير فيها بمحض إرادته.

ولقد أشير إلى هذا الموضوع في الأحاديث.

عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟

فقال: قال: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إن الله عز وجل ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليتهما، فمَنْ غلبَ عقله شهوته فهو خيرٌ مِنَ الملائكة، وَمَنْ غلبَتْ شهوته عقله فهو شرٌّ مِنْ

(١) التحريم - ٦.

(٢) الصافات - ١٦٤/١٦٦.

البَهَائِمِ^(١).

إنَّ الإنسان على أثر هذه الخَلقة وبحكم هذه التركيبة قابل لتحمل المسؤولية، ويمكنه أن يكون مكلفاً.

يقول في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢).

ولقد فسّر بعض المفسرين الأمانة في الآية المذكورة بالتكليف، وقال: إنَّ الله تعالى عَرَضَ التكليف على السماوات والأرض ولكن حيث أن السماوات والأرض لم تكن صالحة ولا مؤهلة لقبول الأمانة، امتنعت عن تحمّل المسؤولية الصعبة.

إنَّ وجودها لم يكن بحيث تستطيع أن تقيّد نفسها في إطار القوانين وحدود التشريعات.

ولكن الإنسان حيث انه يمتلك العقل والفكر والإرادة والإختيار يمكنه أن يقيّد حياته في إطار القوانين والمقررات.

وحيث أنه ظلوم جهول أي يمكن ان يظلم أو يكون جاهلاً، يمكنه أن يحمل أمانة التكاليف الإلهية الثقيلة، وقد حملها فعلاً.

ان الله الحكيم إذ كان عارفاً بخلقة الإنسان الخاصّة، وتركيبه الخاص وكان يعلم أنه يحتاج لضمان سعادته الدنيوية والأخروية إلى برامج وقوانين، ومقررات وتشريعات، وكان يعلم أنَّ تنظيم مثل هذه البرامج الكاملة الشاملة لا يهتدي إليها الإنسان بذاته، لذلك اختار الانبياء من بين الناس، وزوّدهم بالقوانين والتعاليم الدينية لإبلاغها إلى الناس:

إنَّ الإنسان وإن خُلِقَ حرّاً الإرادة مخيراً ولكنه لا يمكن أن يعيش متحرراً

(١) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢٩٩.

(٢) الاحزاب - ٧٢.

بصورة مطلقة بل ليس من مصلحته الواقعية أن يعيش كذلك أيضاً.
حيث أنه يعيش في المجتمع، لا بد له أن يتبع المقررات الاجتماعية، ويقيّد حياته
بحدودها وحيث أنه عبد الله تعالى، ويحتاج - لضمان سعادته الدنيوية والأخروية - إلى
أحكام الدين وقوانين الشريعة، ولا مناص له من إتباعها، لهذا يجب أن يجعل جميع
أعماله وحركاته في إطار القوانين والضوابط الشرعية.
بناء على هذا فإن الإنسان وإن كان كائنًا مخيراً حرّ الإرادة لكنّه يجب أن يعتبر
نفسه مسؤولاً تجاه الله، والنبي، وأن يلتزم بالضوابط والمقررات الدينية ومسؤولاً عنها.
أنظروا إلى الحديث الآتي وإلى الآية التالية:

جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه قال سألت الصادق جعفر بن محمد عليه
السلام فقلت له: لِمَ خَلَقَ اللهُ الخلق؟

فقال: إِنَّ الله تبارَكَ وتعالى لم يَخْلُقْ خَلْقَهُ عَبَثاً وَلَمْ يتركهُ سُدىً، بل خَلَقَهُمْ
لإظهارِ قُدْرَتِهِ، وَلِيُكَلِّفَهُمْ طَاعَتَهُ فَيَسْتَوْجِبُوا بِذلكِ رضوانه، وما خَلَقَهُمْ ليجلبَ مِنْهم
مَنْفَعَةٌ، ولا ليدفعَ بِهِمْ مَضَرَّةً بَلْ خَلَقَهُمْ لِيَنْفَعَهُمْ، وَيُوصِلَهُمْ إلى نعيمِ الأبد^(١).

يقول في القرآن: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اختلفوا فِيهِ وَمَا
اختلف فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أوتوه مِنْ بَعْدِ ما جاتَتْهُمْ الْبَيِّناتُ بَغياً بَيْنَهُمْ فَهَدى اللهُ الَّذِينَ
آمَنُوا لما اختلفوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

لقد جاء الأنبياء ليثبتوا للإنسان مسؤوليته ويوضحوا له تكاليفه، وواجباته،
ومسؤولياته.

(١) بحار الأنوار ج ٥ ص ٣١٣.

(٢) البقرة - ٢١٣.

فكروا واجيبوا

- ١ - لماذا الحيوانات غير مسؤولة؟
- ٢ - لماذا الملائكة لا تحتاج إلى النبي؟
- ٣ - لماذا يمكن للإنسان أن يتحمل مسؤولية؟
- ٤ - لماذا يحتاج الإنسان إلى النبي؟
- ٥ - احفظو الآيات.

* * *

الدرس الحادي والأربعون

مسؤوليات الإنسان

إنَّ الانسان كائنٌ مسؤول ومكلف، أي إنه مسؤول تجاه تكاليف ووظائف ومسؤوليات واسعة ومتنوعة، وهي تتلخص في ثلاثة أقسام:

- ١ - مسؤولية الإنسان أمام الله والنبى.
- ٢ - مسؤولية الإنسان تجاه نفسه.
- ٣ - مسؤولية الإنسان تجاه الانسان الآخر.

الأول: المسؤولية تجاه الله

إنَّ الانسان مكلف عقلاً وشرعاً بأن يجتهد في طريق معرفة الخالق الذي أوجده وأوجد كل ما هو موجود في عالم الكون فهو المالك الحقيقي له ولها جميعاً، وهو الذي منحه كل تلك الأنعم .. وعليه أن يطيع كل أوامره، وأوامر أنبيائه. عليه أن يعبد الله خالق العالم، ويخضع أمامه. يقول في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(١).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١).

ويقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

ويقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤).

الثاني: مسؤولية الإنسان عن نفسه

إن لكل نوعٍ من الأنواع في عالم الطبيعة كمالاً مقررًا مرسومًا لا بد أن يجتهد لبلوغه .. وقد هيئت - في نظام التكوين - الوسيلة اللازمة من أجل الحركة باتجاه تلك الغاية وبلوغها.

إن كل كائنٍ من الكائنات الطبيعية يقطع طريقه - تكوينياً - نحو الكمال المطلوب من دون إرادة وإختيار. بل إن خالق الكون نظم نظام الوجود بحيث يتحرك فيه كل كائن إلى كماله المنشود وغايته المرسومة بصورة تكوينية.

إن للنوع الانساني - هو الآخر - غايةً مقررّةً يمكنه التحرك نحوها، وبلوغها،

(١) النساء - ٥٩.

(٢) الحشر - ٧.

(٣) النحل - ٩٣.

(٤) البقرة - ٢١.

ولكن وسيلة البلوغ إلى الكمال المطلوب للإنسان ليست تكوينية، بل التحرك نحو تلك الغاية إرادي اختياري.

إن الله الحكيم أنزل برنامج سعادة البشر وتكاملهم على أنبيائه المصطفين ليقوموا بتبليغه إلى البشرية، ولكنهم مخيرون - مع ذلك - في اختيار طريق السعادة، أو طريق الشقاء. وقد جعلت مسؤولية تربية النفس وتكملتها على عاتق البشر أنفسهم .. فإذا لم يجتهد الإنسان هو في هذا السبيل يكون قد ظلم نفسه، ولن ينال شيئاً سوى الخسران والشقاء.

يقول في القرآن الكريم: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١).

ويقول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٣).

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «وَأَمَّا حَقُّ نَفْسِكَ عَلَيْكَ فَإِنَّ تَسْتَوْفِيَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَتُؤَدِّي إِلَى لِسَانِكَ حَقَّهُ، وإلى سَمْعِكَ حَقَّهُ، وإلى بَصْرِكَ حَقَّهُ، وإلى يَدِكَ حَقَّهُ، وإلى بَطْنِكَ حَقَّهُ، وإلى فَرْجِكَ حَقَّهُ، وتستعين بالله على ذلك»^(٤).

(١) البقرة - ٢٨٦.

(٢) البقرة - ٢٨١.

(٣) التحريم - ٦.

(٤) تحف العقول ص ٢٦٢.

الثالث: مسؤولية الإنسان تجاه الآخرين

إن الإنسان كائنٌ إجتماعي يعيش في المجتمع، ويميل إلى النمط الإجتماعي للحياة .. إن الحياة الإجتماعية لا يمكن أن تتحقق للبشر من دون التعاون والتعاؤد ومن دون رعاية الحقوق المتقابلة.

إن أفراد المجتمع لا بدّ لهم من تقسيم الأعمال الاجتماعية وتوزيعها فيما بينهم حتى ينفع كل شخص الآخرين بجهوده وينتفع من ثمره جهودهم .. وفي هذا السبيل لا بدّ من أن يلتزموا بسلسلة من القوانين والضوابط والآداب الإجتماعية، لأن التخلف عنها ينسف النظام والأمن، ويسلب من الأفراد الراحة والدعة.

إن الرشد والعظمة، والسقوط والشقاء في كل أمة تتوقف - إلى درجة كبيرة - على مراعاة هذه القوانين .. وبناء على هذا فإنّ على الأفراد في المجتمع، وكذا على المجتمعات الانسانية مسؤوليات متقابلة، ولا يمكنهم، بل ولا يجوز لهم عدم الإكتراث بالأمور الاجتماعية.

إن الإسلام يهتم - هو الآخر - إهتماماً بالغاً وكبيراً بهذا الأمر، وله تأكيدات كثيرة في هذا الصعيد.

وفي رؤية واسعة؛ إنّ جميع الناس عيالٌ الله، وأفضل الناس عند الله هو من يخدم عيال الله، وعباده. وعلى سبيل المثال لا الحصر:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الخلق عيالٌ الله فأحبّ الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيتٍ سروراً^(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: خيرُ الناس من انتفع به الناس^(٢).

(١) الكافي ج ٢ ص ١٦٤.

(٢) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٣.

ويقول في القرآن: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).
ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢).

وفي المرحلة الثانية يعتبر الإسلام جميع المسلمين أمة واحدة، لكل واحد منهم وظيفة تجاه شؤون العالم الإسلامي، ولو أنه قصر أحدهم في هذا المجال لم يكن مسلماً حقيقياً.

عن أبي عبد الله عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: مَنْ أَصْبَحَ وَلَمْ يَهْتَمْ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ وَمَنْ يَسْمَعُ رَجُلًا يُنَادِي يَا لِلْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يَجِبْهُ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ^(٣).

عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا^(٤).

ويقول في القرآن: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥).

وفي المرتبة الثالثة: سعى إلى أن يثير في المجتمعات والجماعات الصغرى روح التعاون ورعاية الحقوق المتقابلة.

(١) المائدة - ٢.

(٢) الحجرات - ١٣.

(٣) بحار الأنوار ج ٧٤ ص ٣٣٩.

(٤) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩٩.

(٥) التوبة - ٧١.

إن مسؤوليات البشر الاجتماعية جاءت في الإسلام في صورة آداب العشرة والأخلاق الاجتماعية، والحقوق الفردية المتقابلة وقد ذكرت في القرآن الكريم وكتب الحديث، ولكنها واسعة ومتنوعة جداً بحيث لا يمكن ذكرها في هذا المكان بل نشير إلى بعض عناوينها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - الحقوق المتقابلة بين الزوج والزوجة.

٢ - الحقوق المتقابلة بين الوالدين والاولاد.

٣ - الحقوق المتقابلة بين الإخوان والأخوات.

٤ - حقوق الأقرباء.

٥ - الحقوق المتقابلة بين أهل الدين.

٦ - حقوق الجيران.

٧ - الحقوق المتقابلة بين الأستاذ والتلميذ.

٨ - حق المحسن.

٩ - حق الراعي على الرعية وبالعكس.

١٠ - حق العلماء.

١١ - حق إمام الجماعة.

١٢ - حق المجلس والصاحب.

١٣ - حق الشريك.

١٤ - حق المستشار.

١٥ - حق الناصح.

١٦ - حق المشير.

١٧ - حق العدو.

١٨ - حق الشيوخ وذوي السن.

١٩ - حق الاطفال والصبيان.

وعشرات الحقوق الأخرى.

فكروا وأجيبوا

- ١ - اشرحوا مسؤولية الإنسان تجاه الله؟
- ٢ - ما هي مسؤولية الإنسان تجاه نفسه؟
- ٣ - ما هي مسؤولية الإنسان تجاه المجتمع الانساني؟
- ٤ - ما هي مسؤولية الإنسان تجاه المجتمع الاسلامي؟
- ٥ - ماذا قال نبي الاسلام في هذا المجال؟
- ٦ - احفظوا الآيات واستظهِروها.

* * *

الدرس الثاني والأربعون

التكاليف والأحكام الإسلامية

في الدروس السابقة قرأتم أن الإنسان كائنٌ مُخَيَّرٌ ومسؤول، وأن برنامج التكامل البشري والإنساني وسبيل سعادته الدنيوية والأخروية قد رُسم من جانب الله الحكيم، وزُود به الانبياء والرسل لإبلاغه إلى الإنسان، وقد تركت مسؤولية إختيار هذا السبيل وسلوكه على عاتق الإنسان نفسه.

إن برنامج السعادة الحقيقية للإنسان قد عُرض في قالب الأوامر والنواهي، وفي صورة التكاليف والأحكام .. وإن الإنسان الذي يفكر في سعادته الواقعية ويتوخاها يجب أن يأخذ بهذه التعاليم، ويعمل وفقها.

نعم إن الإنسان كائنٌ مختارٌ وموجودٌ حرٌّ الإرادة ولكن حرية الإنسان بصورة مطلقة ليست - في نظر الاسلام - من مصلحته الواقعية بل من مصلحته أن تكون مقيّدةً في إطار القوانين والأحكام الدينية والدساتير الشرعية.

إن الأحكام والمقررات التي وَضَعَهَا الاسلام كثيرةٌ جداً، وقد بُحثت وعولجت باسهاب وتفصيل في كتب الفقه والحديث، وهذه الدراسة لا تسع لتلك التفصيلات، ولكن بغية التعرف الإجمالي نشير إلى جانب منها:

الأحكام التكليفية والوضعية

تنقسم الأحكام الإسلامية إلى صنفين: الأحكام التكليفية، والأحكام الوضعية. والأحكام التكليفية عبارة عن الوجوب والحرمة والإستحباب والكراهة، والإباحة وهي التي تسمى بالأحكام الخمسة التكليفية. وفي نظر الإسلام لا يخلو أي عمل من أحد الأحكام المذكورة، فهو إما واجب بمعنى أنه يجب الإتيان به، ولا يجوز تركه. وإما حرام بمعنى أنه يجب تركه ويعاقب الإنسان إذا فعله. وإما مستحب بمعنى أنه مرغوب فيه ومحبوب ولكن تركه لا يستوجب عقاباً. أو مكروه بمعنى أن فعله مبغوض في نظر الشرع ولكن لا يستوجب الإتيان به عقاباً.

أو مباح بمعنى أن فعله وتركه سواء في نظر الشرع. إن الأحكام التكليفية جعلت لتكون الوظيفة والتكليف، وأبلغت إلى الناس في صورة الأوامر والنواهي.

وأما الأحكام الوضعية فقد جعلت بنحو آخر فهي لم تجعل في صورة التكليف بل إن جعل الشارع المقدس تعلق بها مباشرة طبعاً بهدف ترتب آثار خاصة مثل: الزوجية بين الرجل والمرأة (أي الزوج والزوجة) الملكية، المالكية، الشرطية، السببية، المانعة الجزئية، القاطعية، الحجية، الولاية، النيابة، الصحة، البطان، وغير ذلك من الأحكام المشابهة لما ذكر.

الواجبات

إن الواجبات هي الأخرى تتنوع إلى أصناف من التقسيم، أحدها تقسيم

الواجبات إلى التَّعَبُّدِي والتَّوَصُّلِي.

إن الواجب التَّعَبُّدِي هو العمل الذي يُؤْتَى به بعنوان الخضوع لله، ويهدف عبادته ويجب أن يؤتى بقصد القربة والتَّقَرُّب إلى الله تعالى، ويستوجب الرياء بطلانه وفساده وذلك مثل الصلوات الواجبة، الصوم الواجب، الغسل والوضوء، والتميم للصلاة، والحج، والزكاة، والخمس. وباختصار: لا بد فيها من نية.

وإن الواجب التَّوَصُّلِي عبارة عن العمل الذي يجب أن يقوم به المكلفُ حتماً، ولو تركه بدون عذر شرعي عوقب، ولكن لا يُشترط في صحته قصدُ القربة، وذلك مثل الجهاد في سبيل إعلاء كلمة التوحيد، والدفاع عن الإسلام والقرآن، والبلاد الإسلامية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوفاء بالعهد وكفن الميت ودفنه، والدفاع عن المظلوم، وأداء الدين، والإنفاق على الزوجة وغير الزوجة من واجبي النفقة.

إنَّ هذه الأعمال إذا أُتِيَ بها بقصدِ القربة أثيب عليها فاعلُها، وإذا أُتِيَ بها من دون قصدِ القربة لم يستحق فاعلُها ثواباً، ولكن يسقط التكليف باتيانها، ولا عقاب.

العيني والكفائي

إن الواجبات تنقسم بَتَقْسِيمٍ آخر أيضاً وهو العيني والكفائي.

وفي الواجب العيني يجب عَمَلٌ واحدٌ على آحاد المسلمين المكلفين، مثل الصلاة، والصيام والحج، والزكاة، والخمس، ولكن في الواجب الكفائي يوضع عَمَلٌ مَّا على عاتق عدة أفراد بحيث إذا أُتِيَ به شخصٌ أو عدة أشخاص منهم سقط عن الباقيين، ولكن إذا لم يأت به أحدهم أثم الجميع، وذلك مثل تكفين الميت والصلاة ودفنه، والجهاد، والدفاع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدّي للأشغال والمِهَن الاجتماعية الضرورية كالطبابة، والقضاء والعلوم والصناعات، والزراعة، والتجارة

والمشاغل الإدارية في الحكومة الإسلامية.

التعيني والتخييري

إن الواجبات تنقسم أيضاً إلى الواجب التعيني والتخييري .. في الواجب التعيني يجب على المكلف فعل معين وخاص مثل: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والخمس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن في الواجب التخييري يُطلب من المكلف أن يأتي بأحد عملين أو أكثر على نحو التخيير مثلها إذا أفطر يوماً من شهر رمضان من دون عذر شرعي فإن عليه - مضافاً إلى قضاء ذلك اليوم - أن يُعطي كفارة، وهي مُحيرة بين عتق رقبة، أو إطعام ستين مسكيناً أو صيام ستين يوماً بالشكل المذكور في كتب الفقه.

المستحبات

إن المستحبات تنقسم هي الأخرى إلى صنفين: تعبدية، وتوصلية، والمستحب التعبدية عبارة عن العبادة المندوبة التي إذا أتى بها بقصد القربة إستوجبت ثواباً، وإذا أتى بها من دون قصد القربة لا يستحق فاعلها ثواباً، وذلك مثل: الصلوات المندوبة والصوم المندوب، وقراءة القرآن، والدعاء والذكر، وغُسل الجمعة، وغير ذلك من الأغسال المندوبة، والحج والعمرة المستحبتين والتوسل، وزيارة مراقد النبي والأئمة من أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، والأضحية.

والمستحب التوصلي عبارة عن الأعمال المطلوبة لدى الشرع الاسلامي المقدس مثل: التعاون في أعمال الخير، والإحسان إلى الوالدين، وإحترام المعلم، والرحمة بالصغار، وتوقير الكبار وصلة الرحم، والضيافة، وإطعام المؤمنين وخدمة الناس، والسعي في حل مشاكل الناس، وحسن الجوار، وعيادة المرضى، وإدخال السرور إلى

قلوب المؤمنين وزيارة الأخوة المسلمين وتعليم العلوم وتعلمها، والرفق باليتامى ورعايتهم، وإرضائهم، وحسن المعاشرة مع الأهل، والعشرات من هذا القبيل مما لو أتى به بقصد القربة استوجب الثواب ولكن إذا أتى به من دون قصد القربة كان مطلوباً للشرع المقدس ولكن لا ثواب عليه، وإن كان يمكن أن يقال أن هذا النمط من الأعمال حيث أنها من فضائل الأخلاق ومكارمها، ومن القيم الانسانية السامية، لذلك فهي تتمتع بالمطلوبية الذاتية ولن تكون من دون أثر في تكميل النفس وتربيتها.

المحرّمات

لقد نهى - في الاسلام - عن بعض الأفعال نهياً جازماً وقطعياً، وتوعد عليها بالعذاب والعقاب، وهذا النمط من الأفعال تسمى بالأُمور المحرّمة مثل: قتل النفس بغير مسوّغ شرعي، والزنا، واللواط، وخلف الوعد، وظلم الآخرين، وغصب أموال الناس وسرقتها، والتصرف في أموال الآخرين من دون إذنهم، والتهمة، وعيب الناس، والكذب وشرب الخمر، والربا، أخذاً وإعطاءً، والنظر إلى النساء الأجنبية، وأكل لحوم الحيوانات المحرمة اللحم، وأكل الميتة يعني الحيوان غير المذبوح على الطريقة الشرعية. الاسلامية وترك كل واحد من الواجبات الدينية من دون عذر شرعي، وأكل الدم، وأكل الطعام النجس (المتنجس) والرشوة أخذاً وإعطاءً.

سائر الأحكام

إنّ أحكام الاسلام لا تتلخص في العبادات والمحرّمات بل هي أوسع من ذلك بكثير .. إن الإسلام يتدخل في جميع مجالات الحياة الفردية والإجتماعية للبشر، وله في كل واقعة وقضية حكم وقانون.

إنّ موضوعات الإسلام ومسائله المتنوّعة ذكرت وعولجت في كتب الفقه على

نحو التفصيل ولكن المقام هنا لا يسع لجميع تلك التفاصيل ولكننا نشير إلى بعض تلك العناوين الكلية في شكل جدول.

إننا يمكن ان نقسم سائر الأحكام بصورة عامة إلى عدة أصناف:

الأول: الأحكام المرتبطة بالنجاسات والمطهرات ففي الاسلام اعتبرت بعض الأشياء نجسة يجب الاجتناب عنها وهي أحد عشر شيئاً:

١ و٢ - بول الانسان وكل حيوان حرام اللحم له دم دافق عند الذبح وغائظه.

٣ - مني الانسان ومني كل حيوان له دم دافق.

٤ - الميتة من الإنسان ومن كل حيوان له دم دافق.

٥ - الدم من الإنسان ومن كل حيوان له دم دافق.

٦ و٧ - الكلب والخنزير البريان.

٨ - المسكر المائع بالأصالة.

٩ - الفقاع وهو الشراب المسكر المتخذ من الشعير.

١٠ - الكافر وهو الذي لا يعتنق الاسلام.

١١ - عَرَق الأبل الذي اعتاد على أكل النجاسة.

والمطهرات هي أيضاً أحد عشر وأهمها الماء لمعرفة كيفية تنجس الأشياء وعدد

المطهرات وكيفية التطهير بها، وأحكام النجاسات يجب مراجعة الكتب الفقهية.

الثاني: المعاملات والأحكام المرتبطة بالأموال مثل الأحكام المرتبطة

بالمكاسب، والبيع والشراء، والربا، وأنواع الخيارات، وحق الشفعة، والاجارة، والجعالة،

والعارية، والوديعة، والرهن، والضمان، والحوالة، والقرض، والمضاربة، والمزارعة،

والمساقاة، والشركة، والصلح، والوكالة، والوقف، والهبة، والوصية، والإرث، وإحياء

الموات، والملكية، والحجر، واللقطة، والغصب، وغير ذلك من الأمور المشابهة.

الثالث: الأحكام المرتبطة بالعائلة وذلك مثل: النكاح، والمهر، والحقوق

المتقابلة بين الزوج والزوجة، والرضاع، وأحكام الأولاد، والنفقة، والنشوز، والطلاق، وغير ذلك من الأمور التي توجب إنقطاع العلاقة الزوجية بين الزوج والزوجة، وعدة الطلاق وعدة الوفاة، وغير ذلك من الأمور المشابهة.

الرابع: الأحكام المرتبطة بالحكومة مثل الولاية والحكومة، وشرائط الوالي، وحدود صلاحيات الحاكم، ووظائف الحاكم، والأموال العامة وميزانية الحكومة، والجهاد، والقضاء، والشهادات والإقرار والقصاص، والحدود والديات، والزكاة، والخمس وغير ذلك مما شابه.

الخامس: الأحكام المرتبطة بالأطعمة والاشربة والصيد، والذباحة، والملابس والمسكن وغير ذلك مما شابه.

وفي الختام لا بدّ أن نذكّر بهذه النقطة وهي أن الأحكام المذكورة قد بُوِّت وصُنِّفَت في كتب الفقه بصورةٍ أخرى، واختص كلُّ صنفٍ بعنوانٍ خاصٍ.

فكروا وأجيبوا

١ - بيّنوا الأحكام الخمسة؟

٢ - كيف تكون الأحكام الوضعية.

٣ - ما هو الواجب التعبدى؟ عدّدوا نماذج منه.

٤ - ما هو الواجب التوصلي؟

٥ - ما هو الواجب الكفائي؟

٦ - ما هو الواجب التخييري؟

٧ - كيف تكون المحرمات؟

٨ - كيف تكون المكروهات؟

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والأَرْبَعُونَ

المصادر الأساسية للمعارف والأحكام الإسلامية ١ - القرآن

الأول - القرآن الكريم

القرآن الكريم أهمُّ وأوثق المصادر للمعارف والأحكام الإسلامية .. فهو من حيث السَّنَد والألفاظ والعبارات، وكذا من حيث المعاني والمفاهيم يتميز على المصادر الإسلامية الأخرى لأنكم قرأتم في الدروس السابقة أنَّ القرآن الكريم الموجود في أيدي المسلمين الآن هو نفس السور والآيات التي نزلت - عن طريق الوحي - على قلب رسول الله الطاهر، واعتنى بها (ص) غاية الاعتناء، وحفظها أصحابه وحافظوا عليها حتى وصلت إلينا من دون زيادة أو نقصان.

إنَّ هذه الميزة ميزةٌ كبرى حُرِّمَتْ منها سائر الكتب السماوية، كما أنه يتميز من جهة العبارة على سائر الكتب لأن معاني القرآن نزلت على قلب رسول الله (ص) باللغة العربية الفصحى البليغة وب نفس هذه الألفاظ والعبارات والتراكيب، وعباراتها هي أيضاً من جانب الله، وهو (أي القرآن) بذلك معجزة لا يستطيع أحد الإنيان بمثله

قط.

إن حجية ظواهر القرآن أمرٌ واضحٌ لا يحتاج إلى إقامة البرهان، لأن القرآن كتاب عمل، وبرنامج حياة أنزل بعبارات مُيسّرة وفصيحة ليستفيد منها البشر جميعاً، وهو قابل للفهم من قبل عامة الناس.

لقد كان الناس - في صدر الإسلام - يعتنقون الدين الاسلامي بمجرد سماعهم لآيات القرآن، وكان المسلمون يفهمون وظائفهم وواجباتهم من الآيات القرآنية ويعملون وفقها.

والقرآن اليوم كذلك في متناول أيدي المسلمين، ويمكن لمن له إلمام باللغة العربية أن يفهمه كاملاً، وحيث أنه يمكن فهمه لذلك أوصي بالتدبر في آياته واتباعها.

فاذا ما أوصي بقراءة القرآن الكريم، وتقررت ثوبات لذلك، كان ذلك لأجل أن يستفيدوا من مفاهيمه الرفيعة، ويستفيدوا منها في مجال العمل.

وعلى هذا الأساس يجب أن لا نتردد في حجية ظواهر القرآن الكريم واعتبارها، وهذا الموضوع لا يحتاج - لوضوحه - إلى إقامة البرهان ولكننا نشير في هذا الصدد إلى موضوعين من باب الشاهد:

الموضوع الأول - الآيات: فإنّ عدداً هائلاً من آيات القرآن تؤيد الموضوع المذكور، وتصرّح بان القرآن نزل كحجة معتبرة، ويجب أن تُستلهم منه الدروس، وتتبع تعاليمه ويؤخذ بارشاداته .. ونذكر من باب المثال ما يأتي:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا يُقَوْمُ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

(١) الاسراء - ٩.

(٢) فصلت - ٣.

﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١).
 ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ
 السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).
 ﴿الرَّ - تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾^(٣).
 ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
 لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٥).
 ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٦).
 ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٧).

لقد وُصفَ القرآن بالنور، والكتاب المبين، والبيّنة، والهدى، والرحمة، وبانه تبيان
 لكل شيء، وبشرى للمحسنين، والهادي إلى الصراط المستقيم والقرآن العربي، وكُلِّفَ
 الناس بأن يتدبروا في معاني آياته، واتباعه.

إن كتاباً كهذا من دون ريب نزل كدستور معتبر للعمل ومصدر وثيق جعل في
 متناول الناس، للإستلهام والعمل.

الموضوع الثاني - الأحاديث: لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة

(١) إبراهيم - ١.

(٢) المائدة - ١٦/١٤.

(٣) يوسف - ١.

(٤) النحل - ٦٤.

(٥) ص - ٢٩.

(٦) الأنعام - ١٥٥.

(٧) الأنعام - ١٩.

المعصومون عليهم السلام - مضافاً إلى تمسُّكهم بالآيات يُرجعون الناس إلى القرآن في مواضع عديدة وقد وصفوه بالحجة المعتبرة والمصدر الخالد. وفي هذا المجال ثمة أحاديث كثيرة نشير إلى بعضها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله (في حديث إلى أن قال): إذا التبتست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافعٌ مشفعٌ، وما حلُّ مُصدقٌ، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلُّ على خير سبيل، وهو كتابٌ فيه تفصيلٌ، وبيانٌ وتحصيلٌ، وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهْرٌ وبطنٌ، فظاهره حُكمٌ وباطنه عِلْمٌ، ظاهره أُنْقُ وباطنه عميقٌ، له نجومٌ وعلى نجومه نجومٌ، لا تُحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبُه، فيه مصابيح الهدى ومنارُ الحكمة، ودليلٌ على المعرفة لمن عرَفَ الصِّفة، فليجلَّ جالٍ بصره، وليبلغ الصِّفة نظره، ينبُج من عطبٍ، ويتخلَّص من نشبٍ، فإن التفكيرَ حياةٌ قلب البصير كما يمشي في الظلمات بالنور فعليكم بحسن التخلُّص وقلة التربُّص^(١).

وهكذا حديث الثقلين المتواتر، القطعي الصدور:

زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فينا خطيباً، بهاءٌ يدعى حمّاً، بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر، ثم قال: أما بعدُ ألا أيها الناس فإننا أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربِّي فاجيبُ وأنا تاركٌ فيكم ثقلين: أولهما كتابُ الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورَغَّبَ فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي^(٢).

(١) الكافي ج ٢ ص ٥٩٩.

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٣.

إن القرآن الكريم يتميز - كذلك - على سائر الكتب من ناحية المواضيع والمعاني، فإن معارف هذا الكتاب السماوي ومواضيعه عميقة ومحكمة جداً إلى درجة أنه لا سبيل للباطل والبلوى إليه .. فهو يمكن أن يكون هادياً ومرشداً للبشرية في جميع الأزمنة والامكنة.

إن معارف القرآن الكريم ومواضيعه وأحكامه نابعة من صميم الحقيقة، وقد بُنيت مواضيعه وقضاياه على أساس الفطرة، ولهذا فإن التقدم العلمي والصناعي والحضاري الذي تحقّقه البشرية لا يوجب بطلان هذا الكتاب وبلاه.

يقول في القرآن: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١).

إن القرآن الكريم مُيسّر للذكر ومفهومٌ لعامة الناس، ولكن المعارف والمعلومات المستفادة ليست سواء بالنسبة إلى جميع الأشخاص، فكلما ازدادت معلومات الانسان واتسعت دائرة معارفه، من ناحية، وازداد إمعاناً في معاني القرآن ومعارفه من ناحية أخرى، أدرك معارف القرآن بشكل أدق وأعلى، وأعمق وأوسع.

وليس هناك كتابٌ حظي بدراسة واسعة لمواضيعه بقدر ما حظي به القرآن، ومع ذلك فالقرآن الكريم مؤهل للدراسة والتحقيق الأكثر، ولإستخراج مواضيع أكمل وأحدث.

لقد ألف العلماء والمؤلفون كتباً كثيرة تفوق العدّ في مجال تفسير القرآن وبيان مقاصده ومراميه ومع ذلك فإن القرآن قابلٌ لتأليف المزيد من التفاسير والمؤلفات وبصورة أدق وأكمل حوله.

ولقد ألف فقهاء الاسلام حول الأحكام والقوانين الموجودة في القرآن الكريم

مؤلفات كبيرة وكثيرة واستنبطوا منه مسائل كثيرة ولكن باب الإجتهد، واستنباط أحكام ومسائل جديدة منه - مع ذلك - لا يزال مفتوحاً وممكناً.

كما أن علماء الأخلاق والفلسفة والكلام والعلوم الطبيعية والانسانية قد إستخرج كل في مجال علمه واختصاصه أموراً من القرآن الكريم ولكن الطريق لتحقيقات وكشوف واستنباطات جديدة وأكمل لا يزال - مع ذلك - مفتوحاً.

نحن هنا لا يمكننا أن نبين ونستعرض جميع المواضيع التي يتضمنها هذا الكتاب السماوي الخالد غير أننا نشير - هنا - إلى بعض تلك الموضوعات والقضايا بصورة كلية.

إن المواضيع والقضايا المطروحة في ثنايا القرآن الكريم يمكن تقسيمها إلى أصناف عديدة هي:

١ - المعارف الإلهية وأصول العقيدة مثل: معرفة الله سبحانه، وأسمائه الحسنی وصفاته الثبوتية والسلبية، والمعاد وحشر الموتى، والأمور المرتبطة بعالم البرزخ والقيامة، وتسجيل الأعمال وصحيفة عمل الإنسان، والحساب، وميزان الأعمال، والجنة ونعيمها، والجحيم وعذابه وضرورة إرسال الأنبياء، وصفاتهم وخصوصياتهم وكيفية دعوتهم وإجتهدهم في تبليغ رسالات الله، والمشاق والمتاعب التي واجهوها وتحملوها في هذا السبيل، والإمامة والقيادة وشروطها وخصوصيات الإمام.

٢ - قصص طائفة من الأنبياء والرسل.

٣ - حث الناس على الإيمان بالله واليوم الآخر والأنبياء.

٤ - تبشير المؤمنين والمحسنين بالمشوبات الأخروية وبنعم الجنة، الخالدة، وتحذير الكفار والعصاة من العقوبات الأخروية.

٥ - الدعوة إلى التوحيد ومكافحة كل ألوان الشرك.

٦ - الدعوة إلى التفكير في خلق السماء والارض والكواكب والنجوم، والشمس

والقمر والشهب والجبال والبحار والنباتات والأشجار والبشر والحيوانات والرياح والأمطار.

- ٧ - التذكير بنعم الله في هذا العالم.
 - ٨ - وصف المؤمنين والكفار والمنافقين.
 - ٩ - ذكر أحوال بعض الأقوام والأمم الماضية وعواقبهم السيئة أو الحسنة.
 - ١٠ - محاورات الأنبياء مع أممهم فيما يتعلق بإثبات وجود الله والمعاد والنبوة.
 - ١١ - الأخلاق الحسنة والدعوة إليها.
 - ١٢ - التذكير بالأخلاق السيئة والتحذير منها.
 - ١٣ - معجزات الأنبياء وأعمالهم الخارقة للعادة.
 - ١٤ - تأييد الأنبياء السابقين وكتبهم.
 - ١٥ - الدعوة إلى عبادة الله الواحد والترغيب في العبادات مثل: الصلاة، الصوم، الحج، الزكاة، والخمس.
 - ١٦ - الدعوة إلى التفكير والتعقل والتفقه.
 - ١٧ - بعض الأحكام والقوانين السياسية.
 - ١٨ - أحكام المعاملات.
 - ١٩ - بعض أحكام الإرث والوصية.
 - ٢٠ - بعض أحكام العائلة وحقوقها.
 - ٢١ - بعض أحكام القضاء، الشهادة، القصاص، الحدود، الديات.
 - ٢٢ - الدعوة إلى التقوى وتركية النفس.
 - ٢٣ - إلفات النظر إلى النفس، وإلى خطر الوسواس الشيطانية.
- إن ما ذكرَ ما هو إلّا مجرد نظرة إجمالية إلى بعض المواضيع التي أشار إليها القرآن الكريم.

وعلى هذا يمكن أن نصف القرآن الكريم بأنه أهم وأوثق مصادر الثقافة والشرعة الاسلاميتين..

إن العلماء من ذوي الاختصاصات المختلفة يمكنهم أن يستفيدوا من القرآن الكريم في مختلف اختصاصاتهم.

وفي الختام لا بد من التذكير بنقطتين:

النقطة الأولى: إن المواضيع التي طرحها القرآن هي غالباً كليّة، ولم يتعرض إلى المسائل الفرعية ولهذا فانه لا يغنينا عن الرجوع إلى السّنة والسيرة المحمديّة، وأحاديث وسيرة الأئمة المعصومين عليهم السلام والعقل.

النقطة الثانية: إن ظواهر القرآن وإن كانت حجة، وقابلة للإستفادة بالنسبة إلى الجميع ولكن في إستنباط حكم ما لا يمكن أن نكتفي بمطالعة آية من آيات القرآن، بل نحن بحاجة إلى الإلتفات إلى الآيات والأحاديث المرتبطة بها، والاجتهاد فيها لأن في الآيات ناسخاً ومنسوخاً، ومُحكماً ومتشابهاً، وعاماً وخاصاً، ومطلقاً ومقيّداً، وبعض الآيات تفسّر الآيات الأخر أو تخصّصها فلا بد من ملاحظة ذلك.

إن كثيراً من الآيات تتجلّى معانيها ومقاصدُها أو تتخصّص أو تتقيّد بأحاديث أهل البيت عليهم السلام التي يجب على المجتهد الإلتفات إليها عند الإستنباط. وفي فهم المعارف - كذلك - لا يُمكن الجمود على ظاهر آية من الآيات، لأنّ العقل له دور أيضاً في الإدراك الصحيح للموضوع، كما وأن الآيات والأحاديث الأخرى يمكنها أن تعين على الفهم السليم للموضوع.

فكروا واجيبوا

١ - لماذا لا تحتاج حجّة ظواهر القرآن إلى اقامة البرهان؟

٢ - كيف وُصف القرآن في الآيات؟

- ٣ - وضحوا حديث الثقلين.
- ٤ - بماذا وفي اي مجال يمتاز القرآن على الكتب الأخرى؟
- ٥ - لماذا لا تبلى مواضع القرآن الكريم؟
- ٦ - هل العلوم المستفادة من القرآن الكريم قابلة للتكامل؟ أم لا؟
- ٧ - هل يمكن الاكتفاء بظاهر آية معينة في إستنباط حكمٍ ما؟ ... ولماذا؟
- ٨ - هل القرآن يكفينا لوحده في علوم الدين؟ ... ولماذا؟

* * *

الدرس الرابع والأربعون

٢ - سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

بعد القرآن الكريم تُعْتَبَرُ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَهَمُّ مَصْدَرٍ للمعارف والأحكام الإسلامية.

وتطلق السُّنَّةُ - حسب الإِصْطِلَاحِ الديني - على ثلاثة أنواع من الكلام:
الأول والثاني: القول والفعل الذي نُسِبَ إلى رَسُولِ اللَّهِ (ص) على أَنَّهُ أَمْرٌ دينيٌّ.

الثالث: الكلامُ الَّذِي يحكي عن تقرير رسولِ اللَّهِ لفعلٍ، وإمضائه المُتَّبِىءُ عَنْ مَشْرُوعِيَّتِهِ.

وتسمى السُّنَّةُ - في الإِصْطِلَاحِ - الْحَدِيثَ والخبر أيضاً.
إنَّ لأَحَادِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دوراً كبيراً في توضيح وبيان الأحكام والمعارف الدينية، ومن دون الاستناد إليها لا يمكن معرفة الدين الإسلامي، لأنه وإن كان القرآن أوثق وأغنى المصادر للعلوم الإسلامية، ولكنه في كثير من الموارد يحتاج إلى شارحٍ ومُفَسِّرٍ، ولهذا فإنه لا يُغْنِينَا عَنْ الأحَادِيثِ لأنَّ بَعْضَ الآيَاتِ عَامَّةٌ لم يَرُدْ مُخَصَّصُهَا في القرآن الكريم، أو مطلقة لا نجد مقيدَها في ذلك الكتاب، أو منسوخة ولا

يوجد ناسخها في القرآن وحتى لو كان ذلك في القرآن، لم يمكن للأشخاص العاديين أن يميزوا بين النسخ والمنسوخ .. أو أن بعض الآيات مجملة، وتحتاج إلى مفسر ومبين، أو أن هناك فعلاً عبادياً لم ترد شرائطه ومقدماته وكيفيته ومسائله وفروعه، فيه. وأساساً هناك بعض الأحكام لم يرد ذكرها في القرآن أبداً وفي هذه الموارد نحن بحاجة إلى شخص عالمٍ معصومٍ لبيانها، وإن شخصاً كهذا لا يكون إلا النبي صلى الله عليه وآله، والأئمة المعصومون سلام الله عليهم اجمعين.

إن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي حظي بالعلوم الإلهية كُلف بأن يضع معارف الاسلام وأحكامه في متناول أيدي المسلمين وقد فعل رسول الله (ص) ما أمر به بدقة، وبذل في هذا السبيل من الجهد الأقصى، والعناية البالغ ما لم يقم به أحد. ومن جانب آخر كان المسلمون يتوقعون مثل هذا الصنيع من جانب رسول الله (ص) تماماً، وكانوا يتلقون واجباتهم الدينية بشوق وحرص بالعين، وكانوا يعتبرون النبي (ص) شخصية إلهية عظيمة، ويعُدونه لأنفسهم مربياً ومعلماً ومرشداً وهادياً، له إتصال بعالم الغيب وتنشأ أقواله وأفعاله وسيرته من ذلك العالم، ولها مثل إعتبار القرآن الكريم .. ولهذا عمَدوا إلى ضبطها وتسجيلها بدقة واشتياق ونقلوها إلى الأجيال اللاحقة بأمانة وعناية.

لقد إعتاد جماعة من الصحابة - كلما تلقوا من رسول الله صلى الله عليه وآله آية أو عدة آيات - أن يجتهدوا في أخذ ما يتعلق بها من علم وعمل منه صلى الله عليه وآله، ثم يعمدون - بعدئذ - إلى تعلم آيات أخرى، فكانوا - لهذا الغرض - يَغْتَنمون كل فرصة سانحة للتشرف بالحضور عنده، وملاحظة أقواله وأفعاله، وكلما حُرُموا من الخطوة ببلقائه بسبب السفر أو الاشتغال بشؤون المعيشة، أو صَوَّأ أحد زملائهم وإخوانهم بالحضور عند رسول الله (ص) وضبط أقواله وأفعاله ونقلها إليه كيلا يفوتهم شيء منها قدر الإمكان.

إنَّ الذين كانوا يعيشون خارج المدينة كانوا يسافرون إليها بُغية تعلُّم العلوم الدينية وأخذها من رسول الله (ص) فيمكثون فيها بعض الوقت ثم بعد التفقه يرجعون إلى مواطنهم وديارهم.

جاء في صحيح البخاري: عن أبي سليمان مالك بن حويرث قال: أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أننا إشتقنا أهلنا وسألنا عمن تركنا في أهلنا، فاخبرناه وكان رفيقاً رحيماً، فقال: ارجعوا إلى أهليكم فَعَلِّمُوهُمْ ومُرُوهُمْ وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي وإذا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فليؤذِّنْ لكم أحدكم ثم ليؤمِّكم أكبركم^(١).

إن رسول الله (ص) لم يكن لِيَتَعَبَ من هذا الأمر مطلقاً بل كان يجتهد في بث أحكام الدين وتعليم المسلمين وتربيتهم مثل معلمٍ رؤوفٍ ووالدٍ رحيم، ولم يقصِّر في القيام بهذه المسؤولية الكبرى قط.

لقد كان (ص) يَغْتَنِمُ كُلَّ فُرْصَةٍ لِنَشْرِ مَعَارِفِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ فِي الْمَسْجِدِ وَالْمَنْزِلِ، وَفِي الْأَزْقَةِ وَالْأَسْوَاقِ، وَفِي الْمَجَالِسِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَةِ، وَفِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَفِي الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ وَفِي كُلِّ حَالٍ .. وَفِي كُلِّ مَكَانٍ ..

كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - ضَمِنَ تَعْلِيمَ الْآيَاتِ لِلْمُسْلِمِينَ - يشرح لهم كذلك ما يرتبط بها من العلم والعمل، وربما قام بعملٍ إذا وَجَدَ ذَلِكَ ضَرْوَرِيّاً لِيَتَعَلَّمَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَإِذَا شَاهَدَ شَخْصاً يَأْتِي بِعَمَلٍ بِصُورَةٍ خَاطِئَةٍ، ذَكَرَهُ، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُ كَيْفِيَّتَهُ الصَّحِيحَةَ، وَلَوْ أَنَّهُ أَتَى بِهِ بِصُورَةٍ صَحِيحَةٍ أَيْدَهُ.

كما أنه كان يذكّر المسلمين ضَمْنَ تَعْلِيمِهِمُ الْآيَاتِ - بِالْمَخْصَصِ، أَوِ النَّاسِخِ لَوْ كَانَ.

وأساساً كان رسول الله صلى الله عليه وآله يوصي أصحابه بأن يأخذوا عنه مناسك الحج.

يقول جابر: رأيت النبي (ص) يرمي براحلته يوم النحر ويقول: لتأخذوا مناسككم، فاني لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجّي هذه^(١).

وهذا الشكل ضبّط وحفظت أحاديث رسول الله (ص) بواسطة أصحابه وبقية المسلمين.

أدلة حجّة السنّة

في نظري لا تحتاج حجّة السنّة الشريفة إلى إقامة البرهان لأنه كان منذ عهد رسول الله (ص) ولا يزال أمراً مسلماً به ومقبولاً عند الصحابة والمسلمين .. ولو شكك في حجّة الأحاديث لما وصل الإسلام إلينا في صورته الحاضرة.

وأساساً فإن حجّة الأخبار الصحيحة أمر عقلائي عليه مدار حياة الناس اليومية، فانهم يعتمدونها ويرتبون عليها الآثار .. وان الشرع الإسلامي هو الآخر أقدم - من هذا الطريق - على نشر أحكام الدين، ولكننا مع ذلك نشير إلى بعض الآيات لتأييد هذا المطلب:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ﴾^(٢).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي

أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾^(٣).

(١) صحيح مسلم ج ٣ ص ٩٤٣.

(٢) الحشر - ٧.

(٣) النساء - ٦٥.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾^(١).
 ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
 التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
 عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
 وَعَزَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).
 ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
 وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(٤).

أقسام الحديث

لابد من التذكير بهذه النقطة وهي أنَّ حجية السنة الشريفة لا تعني أنَّ كلَّ
 حديثٍ جاء في الكتب حجة معتبرة، بل أن بعض الأحاديث غير معتبر ونذكر
 القارئ الكريم - لتوضيح هذا المطلب - بأن الأحاديث بصورة عامة تنقسم إلى
 صنفين:

الخبر المتواتر، والخبر الواحد.

إذا كان الرواة لحديث عن معصوم والرواة عنهم لتلك الرواية من الكثرة
 بحيث يستحيل عادةً تواطؤهم واتفاقهم على الكذب، وكانت بحيث توجب اليقين.
 إن حديثاً كهذا يسمى الحديث المتواتر، وإذا لم يكن الرواة بذلك القدر سُمِّيَ

(١) النساء - ٨٠.

(٢) الاعراف - ١٥٧.

(٣) الاحزاب - ٢١.

(٤) محمد - ٣٣.

خبراً واحداً، ولا شك أن الخبر المتواتر حجة، لأن العقلاء يعتبرون مثل هذا الخبر، ويعملون وفقه، لكونه يوجب اليقين. ويورث الاطمئنان.
ثم إن الخبر الواحد هو الآخر ينقسم إلى عدة أصناف: الخبر الصحيح، الخبر الحسن، الخبر الموثق، الخبر الضعيف، الخبر المرسل.
إن كل خبر يكون جميع رواته إلى المعصوم إماميين اثني عشرين عدولاً سمي «صحيحاً».

وكل خبر يكون جميع رواته إماميين موثقين سمي «حسناً».
وكل حديث كان بعض رواته غير إماميين ولكنهم كانوا موثقين سمي «موثقاً».
وكل حديث كان على غير هذه المواصفات سمي «ضعيفاً».
وإذا كان بين رواة الحديث وضاع سمي «مجهولاً» و «موضوعاً».
وإذا كان مجهول الحال سمي الحديث «مجهولاً».
والحديث المرسل هو أن ينقل أحد رواته ذلك الحديث ممن لم يكن في عصره.
ثم إن هناك أقساماً من الحديث مذكورة ومبحوثة في كتب «الدراية»، وهو علم يهتم بتصنيف الحديث من هذه الناحية.
والأحاديث الصحيحة، والحسنة حجة ومعتبرة عندهم .. وأما الحديث الموثق فالأغلب إعتباره - أيضاً.

وأما الأحاديث الضعيفة فلا إعتبار لها، ولا عبرة بها.
بل هي مرفوضة إلا إذا احتفت بها قرينة، أو كانت هناك ناحية جبرت ضعفها.
وهناك خلاف بين العلماء في حجية الخبر المرسل.
ثم إن ما قيل حول حجية الأخبار الآحاد إنما يرد في الأحاديث التي تتضمن بيان الوظائف العملية، وتكاليف الانسان، دون الأحاديث المرتبطة بالعقائد، والتاريخ، والإنسان والطبيعات، وفوائد بعض الأطعمة والأشربة أو مضارها، والأمور المتعلقة

(٢) سُنة رسول الله (ص) ٢٧٣

بالصحة والطب والمرض والعلاج، وغير ذلك من الأمور المشابهة فلا يمكن تسمية هذا النمط من الأحاديث والأخبار بالحجة الشرعية.

وفي هذا المجال يمكن القول بأنّ الخبر الواحد لو كان يدور حول الأمور التي يجب فيها الإيمان واليقين مثل: وجود الله، ووجود المعاد، وحشر الموتى، ولزوم بعث الأنبياء، ففي هذه الموارد لا يجوز التمسك والاكتفاء بخبر الواحد، لان الخبر الواحد لا يفيد شيئاً أكثر من الظن على حين لا بدّ في مجال الإيمان من اليقين والقطع. وعلى هذا الأساس لا بدّ في هذه الأمور من مواصلة البحث والتحقيق حتى يحصل اليقين.

ولكنّ إذا كان الخبر الواحد يدور حول الأمور التي لا يشترط فيها اليقين والإيمان القطعي مثل بعض خصوصيات النبي صلى الله عليه وآله وصفاته، وخصوصيات وتفصيل عالم البرزخ والقيامة، وصحيفة العمل، والميزان، ونعم الجنة، وعذاب النار، ففي مثل هذه الموارد يمكن القول بأنه يجوز التمسك بالأخبار الآحاد، ولكنها لا تُعتبر إلا في مستوى الدليل الظني، أي إن لها من الاعتبار ما للدليل الظني. ولا توجب يقيناً وقطعاً، ويمكن نسبة مفادها ومدلولها إلى الاسلام في هذا الحدّ، اللهم إلّا أن توجب يقيناً وتورث قطعاً بسبب ما يحتفّ بها من قرائن صادقة، إذ في هذه الحالة يمكن أن تعدّ من الأدلة القطعية.

والأخبار الآحاد المرتبطة بالتاريخ، والطبيعات والصحة والطب، والمرض والعلاج هي من هذا النوع.

فكّروا وأجيبوا

- ١ - هل يمكن الاكتفاء بالقرآن وحده لبيان معالم الاسلام وقوانينه؟
- ٢ - ماذا كانت رؤية المسلمين حول رسول الاسلام؟ وكيف كان إستعدادهم

لأخذ أحكام الدين منه (ص)؟

- ٣ - كيف كان رسول الله (ص) يعلم المسلمين أحكام الإسلام؟
- ٤ - لماذا لا تحتاج حجة الأحاديث إلى الاستدلال والبرهنة؟
- ٥ - عرفوا الخبر المتواتر.
- ٦ - ما هو الخبر الصحيح، وبماذا يفترق عن الخبر الحسن؟
- ٧ - هل يمكن الاكتفاء بالخبر الواحد في أصول العقائد، ولماذا؟
- ٨ - في أي مستوى تُعتبر الأخبار الآحاد في غير التكاليف الشرعية؟

* * *

الدرس الخامس والأربعون

٣ - سُنَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَسِيرَتُهُمْ

المصدرُ الثالث للمعارف والأحكام الإسلامية هو سُنَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ، عِترَةُ رسول الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسِيرَتُهُمْ ..
لقد عَلِمَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ مَيِّتٌ وَرَاحِلٌ إِلَى رَبِّهِ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ الأُمَّةَ الإسلاميةَ الْفَتِيَّةَ تَحْتَاجُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى مَرْجَعٍ عِلْمِيٍّ مَعْتَبَرٍ مَعْصُومٍ عَنِ الْأَسْتِبَاهِ وَالزَّلَلِ، وَالذَّنْبِ وَالْمَعْصِيَةِ لِكَيْ يَجْتَهِدَ فِي نَشْرِ مَعَارِفِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَحِفْظِهَا، وَيَقُودَ الأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ. وَلِهَذَا نَصَّبَ أَهْلَ الْبَيْتِ مَرْجَعاً عِلْمِيّاً غَنِيّاً وَمَوْثِقاً بِهِ، وَعَرَّفَهُمْ بِأَشْخَاصِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، لِيَبْقُوا أَبَداً إِلَى جَانِبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَيَتَكَفَّلُوا رَفَعَ إِحْتِيَاجَاتِ الْمُسْلِمِينَ الْعِلْمِيَّةَ.

ولقد بالغَ رسولُ الله (ص) فِي الْإِيصَاءِ بِهِمْ، فَهُوَ لَمْ يُوَصِّ الْمُسْلِمِينَ بِهِمْ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فَقَطْ بَلْ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ ضَمَّنَ أَحَادِيثَ وَرَدَّتْ فِي كُتُبِ الشَّيْعَةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ، وَمِنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ حَدِيثُ الثَّقَلَيْنِ الْمَعْرُوفِ الْوَاردِ بِعِبَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَطَرَقَ (وَأَسْنَدَ) مُتَعَدِّدَةً، وَنَحْنُ نَشِيرُ فِيهَا يَأْتِي إِلَى ذَلِكَ الْحَدِيثِ بِنَصِّهِ:

زيد بن أرقم (في حديث إلى أن قال:) قَامَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمًا

فِينَا خَطِيبًا بِهَاءٍ يُدْعَى خَمًّا، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَرَ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوْشَكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبْ، وَأَنَا تَارِكُ فَيْكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلَ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي^(١).

زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ قَالَ: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حُجَّةِ الْوَدَاعِ وَنَزَلَ غَدِيرَ خُمٍّ، أَمَرَ بِدَوْحَاتٍ فَقِمِمْنَ فَقَالَ: كَأَنِّي قَدْ دُعِيتُ فَأَجَبْتُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فَيْكُمْ الثَّقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَعِزَّتِي، فَانْظَرُوا كَيْفَ تَخْلِفُونِي فِيهَا، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ . (ثُمَّ قَالَ:) إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَوْلَايَ وَأَنَا مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ .

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، أَللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ^(٢).

وَقَدْ نَقَلَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْبَلَاذَرِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ أَنَّهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حُجَّةِ الْوَدَاعِ، فَلَمَّا كُنَّا بِغَدِيرِ خُمٍّ أَمَرَ بِدَوْحَاتٍ فَقِمِمْنَ، ثُمَّ قَالَ: كَأَنِّي دُعِيتُ فَأَجَبْتُ، وَإِنَّ اللَّهَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَأَنَا تَارِكُ فَيْكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ .

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ وَلِيًّا، فَهَذَا وَلِيُّهُ أَللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ. قَالَ أَبُو الطَّفِيلِ: قُلْتُ لِزَيْدٍ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، قَالَ: مَا كَانَ فِي الدَّوْحَاتِ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ رَأَى بَعْثَهُ وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ^(٣).

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٣.

(٢) المستدرک علی الصحیحین ج ٣ ص ١٠٩.

(٣) أنساب الاشراف ج ٢ ص ١١٠.

ونقل علي بن أبي بكر الهيثمي عن زيد بن ثابت أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني تارك فيكم الثقلين خليفتي كتاب الله عز وجل حبل ممدود ما بين السماء والأرض، أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض^(١).

وقد نقل هذا الحديث بعينه في هذا الكتاب ذاته بعبارات أخرى عن أبي هريرة وعلي بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد كذلك. ونقل أحمد بن علي الخطيب البغدادي عن حذيفة بن أسيد أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس إني فرط لكم وأنتم واردون علي الحوض، وإني سألتكم حين تردون علي عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيها: الثقل الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به ولا تفلتوا ولا تبدلوا^(٢).

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي سعيد أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي: الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض^(٣).

وبالجملة قد روي حديث الثقلين بعبارات متنوعة واسناد عديدة عن جمع من صحابة النبي الكبار مثل زيد بن أرقم، أبي ذر الغفاري، أبي سعيد الخدري، علي بن أبي طالب، زيد بن ثابت، حذيفة بن اليمان، ابن عباس، سلمان الفارسي، أبو هريرة، جابر بن عبد الله الأنصاري، حذيفة بن أسيد الغفاري، جبير بن مطعم، الحسن بن

(١) مجمع الزوائد ج ٩ ص ٦٢.

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٤٢.

(٣) ينابيع المودة ص ٤١.

علي، فاطمة الزهراء، أم هاني بنت أبي طالب، أم سلمة، أبو رافع مولى رسول الله، وغيرهم.

ولقد قام علي بن أبي طالب بين الأصحاب - في عهد خلافته - وقال: أنشد الله من شهد يوم غدیر خم .. وسمع حديث الثقلين من رسول الله (ص) إلا قام وشهد فقام جماعة وهم سبعة عشر شخصاً وشهدوا بذلك قائلين: نحن حضرنا وسمعنا ونشهد، منهم خزيمه بن ثابت، وسهل بن سعد، وعدي بن حاتم وعقبة بن عامر وأبو أيوب الأنصاري، وأبو سعيد الخدري، وأبو شريح الخزاعي، وأبو قدامة الأنصاري وأبو يعلى الأنصاري، وأبو الهيثم بن التيهان^(١).

ولقد كتب أحمد بن حجر الهيثمي يقول: إن لحديث التمسك بذلك (أي التمسك بالثقلين) طرقات كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً^(٢). ويستفاد من حديث الثقلين ثلاثة أمور ومطالب هي:

المطلب الأول: أن عترة النبي (ص) وأهل بيته الكرام وُصفوا في هذا الحديث بأنهم المرجع العلمي المعتبر، والحجة الشرعية واجبة الاتباع، وأن سنتهم وسيرتهم تعد من مصادر المعارف والأحكام الإسلامية، وأن المسلمين مكلفون بالرجوع إليهم لتحصيل علوم الدين، وأن هذا الموضوع غير مسألة إمامتهم.

المطلب الثاني: كما أن القرآن باقٍ بين الناس إلى يوم القيامة، فإن أهل البيت

(١) ينابيع المودة ص ٤١.

(٢) الصواعق المحرقة ص ١٥٠.

لقد ورد حديث الثقلين - مضافاً إلى كتب الشيعة - في مصادر وكتب كثيرة من مؤلفات أهل السنة أيضاً مثل: صحيح مسلم، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المستدرک علی الصحیحین، أسد الغابة، مجمع الزوائد، تاريخ بغداد، السيرة النبوية لأبي الفداء، أنساب الأشراف، التفسير الكبير، الفصول المهمة، المناقب للخوارزمي، ينابيع المودة، إسعاف الراغبين، تذكرة الخواص، ذخائر العقبى، السيرة الحلبية، منتخب كنز العمال، نسيم الرياض، وكتب أخرى.

هم أيضاً باقون إلى يوم القيامة.

المطلب الثالث: أنَّ القرآن وأهل البيت حجتان شرعيتان، ومصدران علميان واجباً الاتباع لا يفترقان أبداً.. وإن المسلم لا يمكن (ولا يجوز له) أن يدَّعِ أهل البيت جانباً ويقولَ حُسْبُنَا كتاب الله، وحتى لو لم يقبل بإمامتهم فإنه يجب عليه أن يقبل بمرجعيتهم العلمية الدينية.

إنَّ هناك أحاديث أخرى أيضاً بهذا المضمون والمحتوى تعتبر إتباع أهل البيت موجباً للفلاح والاعراض عنهم موجباً للضلال والخسران. ومن ذلك حديث السفينة:

قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق^(١).

وقد روي هذا الحديث بأسناد أخرى عن أبي سعيد الخدري وعبدالله بن الزبير وأبي ذر الغفاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً.

أهل البيت

ليس المراد من أهل البيت كل من انتسب إلى رسول الله (ص) أو الذين كانوا يعيشون تحت كفالته، بل هم أفراد مخصوصون، لأنَّ أهل البيت وُصفوا - في الأحاديث المذكورة - بأنهم المراجع الشرعيون في العلم والدين، وأنهم موضع ثقة مائة بالمائة، وأن إتباعهم لا يستتبع ضلالة ولا انحرافاً.

وعلى هذا يجب أولاً: أن يكونوا علماء بمعارف الدين وأحكامه عارفين بها كمال المعرفة والعلم، وثانياً: أن يكونوا معصومين مضمونين من كل نوع من أنواع الزلل.

(١) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٦٨.

والمعصية، ولهذا جاء في ذيل حديث الثقلين: فَقُلْنَا: مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ نِسَاؤُهُ؟ قَالَ: لَا وَأَيْمُ اللَّهِ، إِنَّ الْمَرْأَةَ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ الْعَصْرُ مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ يُطَلَّقُهَا فَتَرْجِعُ إِلَى أَبِيهَا وَقَوْمِهَا، أَهْلُ بَيْتِهِ أَصْلُهُ وَعُصْبَتُهُ الَّذِينَ حُرِّمُوا الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ^(١).

يجب علينا الرجوع إلى أحاديث رسول الله (ص) نفسه لمعرفة المراد من أهل البيت. وها نحن نشير إلى طائفة من هذه الأحاديث على سبيل النموذج:
عن أم سلمة قالت: في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: فإرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي وفاطمة والحسين والحسين، فقال: هؤلاء أهل بيتي^(٢).

وقال عمر بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم نزلت هذه الآية على النبي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ في بيت أم سلمة، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟
قال: أنت على مكانك. أنت على خير^(٣).

وقالت عائشة: خرج النبي صلى الله عليه وسلم غداً وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٤).

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٤.

(٢) المستدرک علی الصحيحین ج ٣ ص ١٤٦.

(٣) أسد الغابة ج ٢ ص ١٢.

(٤) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٨٣.

وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: أَنَا وَعَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَتِسْعَةُ مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ مُطَهَّرُونَ مَعْصُومُونَ. (١).

من هذه الأحاديث ونظائرها يستفاد أن المراد من أهل البيت الذي ذكر في حديث الثقلين وغيره إنما هم أفرادٌ مخصوصون إهتم رسولُ الله (ص) نفسه بتعريفهم بأعيانهم وأشخاصهم وفي طليعتهم عليُّ بن أبي طالب وفاطمة والامامُ الحسنُ والامامُ الحسينُ عليهم السلام، وهم وصَفُوا تِسْعَةَ أولادِ الامام الحسين بهذا الوصف: أئى بأنهم أئمة مَعْصُومُونَ مِنَ الخطأ والمعصية، وقد جاءت أساميهم في الكُتُبِ المذكورة وغيرها.

فَكَّرُوا وَاجِيبُوا

- ١ - إَحْفَظُوا حَدِيثَ الثَّقَلَيْنِ.
- ٢ - مَا هُوَ حَدِيثُ الثَّقَلَيْنِ؟
- ٣ - بَيِّنُوا الْمَطَالِبَ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنْ حَدِيثِ الثَّقَلَيْنِ؟
- ٤ - إَحْفَظُوا حَدِيثَ السَّفِينَةِ.
- ٥ - مَنْ هُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ؟
- ٦ - إَحْفَظُوا وَاحِدًا مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُعَرَّفُ أَهْلَ الْبَيْتِ.



الدرس السادس والاربعون

حَمَلَةُ عُلُومِ النَّبِيِّ

رَغِمَ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي تَبْلِيغِ الدِّينِ، وَنَشْرِ مَعَارِفِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَرَصَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى ضَبْطِهَا وَحِفْظِهَا، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمْ يَكْتَفِ بِهَذِهِ الدُّرُوسِ الْعَامَّةِ، وَهَذِهِ الْإِرْشَادَاتِ الْعُمُومِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ ظُرُوفَ وَأَوَاضَاعَ صَدْرِ الْإِسْلَامِ الصَّعْبَةُ الْمُتَازِمَةُ لَا تَسْمَحُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يَضْبُطُوا وَيَحْفَظُوا جَمِيعَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِشَكْلِ كَامِلٍ، هَذَا مِضَافًا إِلَى أَنَّهُمْ لَنْ يَكُونُوا مَصُونِينَ عَنِ الْخَطَا وَالْإِشْتِبَاهِ .. فَتَكُونُ النَتِيجَةُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَنْسُوا قِسْمًا مِنْ مَعَارِفِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، أَوْ يَصِيرَ مَوْضِعَ خِلَافٍ بَيْنَهُمْ، وَهَذَا صَمٌّ عَلَى أَنْ يَسْتَوْدِعَ مَعَارِفَ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامَهُ عِنْدَ أَشْخَاصٍ أَمْنَاءٍ ثِقَاتٍ، مَصُونِينَ عَنِ الْخَطَا وَالزَّلَلِ، مَعْصُومِينَ عَنِ الْإِشْتِبَاهِ وَالنَّسْيَانِ، حَتَّى يُمْكِنَ رَجُوعُ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ.

وَلَقَدْ اخْتَارَ هَذِهِ الْمَهْمَّةَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَوْدَعَ عِنْدَهُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِاسْتِدَاعِهِ عِنْدَهُ.

أَنْظُرْ إِلَى الْحَدِيثِ الْآتِي:

قال علي بن أبي طالب: ضَمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَقَالَ لِي: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُذْنِكَ وَلَا أُقْصِيكَ وَأَنْ تَسْمَعَ وَتَعِي، وَحَقَّ عَلَى اللَّهِ أَنْ تَسْمَعَ وَتَعِي، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَأَعِيَّةٌ﴾^(١).

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لما نَزَلَتْ: ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَأَعِيَّةٌ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَ عَلِيٍّ. قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) شَيْئاً إِلَّا حَفِظْتُهُ وَوَعَيْتُهُ وَلَمْ أَنْسَهُ مَدَى الدَّهْرِ^(٢).

وعن ابن عباس أيضاً قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لَمَّا صَرْتُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي كَلَّمَنِي وَنَاجَانِي، فَمَا عَلِمْتُ شَيْئاً إِلَّا عَلَّمْتُهُ عَلِيّاً فَهُوَ بَابُ عِلْمِي^(٣).

وقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنِفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ، وَيَشْمَنِي عَرَفَهُ، وَكَانَ يَمَضُغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمْنِيهِ وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتْبِعُهُ إِتْبَاعَ الْفَصِيلِ إِثْرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمِئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهَا، أَرَى نَوْرَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟

(١) المناقب للخوارزمي ص ١٩٩.

(٢) المناقب للخوارزمي ص ١٩٩.

(٣) ينابيع المودة ص ٧٩.

فقال: هذا شيطانٌ أيسَ من عبادتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وترى ما أرى إِلَّا أَنَّكَ لستَ بنبيٍّ لَكَنَّكَ وَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ^(١).

وقيلَ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلامُ: مَا لَكَ أَكْثَرُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ حَدِيثًا؟
فقال: إني كنتُ إذا سألته أنبأني وإذا سَكَتُ إبتدأني^(٢).

وقال عليُّ عليه السلام (في حديث) وَقَدْ كُنْتُ أَدْخُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كُلَّ يَوْمٍ دَخَلَةً فَيُخَلِّينِي فِيهَا، أَدُورُ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ، وَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِي، فَرُبَّمَا كَانَ فِي بَيْتِي يَأْتِينِي رَسُولُ اللَّهِ، أَكْثَرَ ذَلِكَ فِي بَيْتِي، وَكُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ مَنَازِلِهِ، أَخْلَانِي وَأَقَامَ عَنِّي نِسَاءَهُ فَلَا يَبْقَى عِنْدَهُ غَيْرِي، وَإِذَا أَتَانِي لِلْخُلُوةِ مَعِي فِي مَنْزِلِي لَمْ تَقَمْ عَنِّي فَاطِمَةُ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِييَ، وَكُنْتُ إِذَا سَأَلْتُهُ أَجَابَنِي وَإِذَا سَكَتُ عَنْهُ وَفَنَيْتُ مَسَائِلِي إِبْتَدَأَنِي، فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأْنِيهَا وَأَمْلَاهَا عَلَيَّ، فَكُتِبَتْهَا بِخَطِّي، وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا وَتَفْسِيرَهَا وَنَاسَخَهَا وَمَنْسُوخَهَا، وَمُحْكَمَهَا وَمُتَشَابِهَهَا، وَخَاصَهَا وَعَامَّهَا، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَعْطِيَنِي فَهَمَّهَا وَحَفِظَهَا، فَمَا نَسِيتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَعِلْمًا أَمْلَاهُ عَلَيَّ وَكُتِبَتْهُ مِنْدُ دَعَا اللَّهِ لِي بِهَا دَعَا وَمَا تَرَكَ شَيْئًا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَلَا أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ كَانَ أَوْ يَكُونُ وَلَا كِتَابٍ مُنْزَلٍ عَلَى أَحَدٍ قَبْلَهُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا عَلَّمَنِيهِ وَحَفِظْتُهُ فَلَمْ أَنْسَ حَرْفًا وَاحِدًا، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي وَدَعَا اللَّهَ لِي أَنْ يَمْلَأَ قَلْبِي عِلْمًا وَفَهْمًا وَحُكْمًا وَنُورًا. فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مِنْذُ دَعَوْتَ اللَّهَ بِمَا دَعَوْتَ لَمْ أَنْسَ شَيْئًا وَلَمْ يَفْتِنْنِي شَيْءٌ لَمْ أَكْتُبْهُ، أَفْتَخَوْفُ عَلَيَّ النِّسْيَانُ فِيهَا بَعْدُ؟

فقال: لا، لَسْتُ أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ النِّسْيَانُ وَالْجَهْلُ^(٣).

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٨٧.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٣٣٨ وانساب الاشراف ج ٢ ص ٩٨.

(٣) الكافي ج ١ ص ٦٤.

وَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاللَّهِ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ عَلِمْتُ فِيهَا نَزَلْتُ، وَأَيْنَ نَزَلْتُ وَعَلَى مَنْ نَزَلْتُ إِنَّ رَبِّي وَهَبَ لِي قَلْبًا عَقُولًا وَلِسَانًا نَاطِقًا^(١).

يُستفاد من الأحاديث المذكورة أن رسول الله صلى الله عليه وآله بذل عناية خاصة في تربية علي بن أبي طالب عليه السلام وتعليمه، ولهذا وفر له إمكانات خاصة، وأوقفه على كل ما كان يتلقاه من جانب الله عن طريق الوحي، ويدعو الله تعالى بان يحفظه من الزلل والخطأ، ويصونه من الإشتباه والنسيان وقد استجاب الله لدُعائه ..

الجامع للعلوم

لقد استوعب الإمام علي عليه السلام بفضل قابلياته الذاتية، وعناية رسول الله صلى الله عليه وآله الخاصة به، وتوفيقات الله وتأيداته له وبصورة تدريجية استغرقت ثلاثاً وعشرين عاماً هي مدة الرسالة المحمدية، كل معارف الاسلام وأحكامه وأصبح جامعاً لعلوم الدين ..

إن هذا أمر شهد به رسول الله صلى الله عليه وآله مراتٍ عديدةٍ وفي مواضع مختلفة واليك على سبيل المثال:

قال النبي صلى الله عليه وآله: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا أَبَا الْحَسَنِ، لَقَدْ شَرِبْتَ الْعِلْمَ شُرْبًا، وَنَهَكَتَهُ نَهْلًا^(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأُيُهَا، فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ^(٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك: يَا عَلِيُّ أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَأَنْتَ بِأُيُهَا،

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٣٨.

(٢) ذخائر العقبى ص ٧٨.

(٣) ينابيع المودة ص ٨٢، وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٢.

كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَصِلُ إِلَى الْمَدِينَةِ إِلَّا مِنْ قَبْلِ بَابِهَا ^(١).
وعن سلمان الفارسي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَنَّهُ قَالَ أَعْلَمُ أُمَّتِي مِنْ
بَعْدِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ^(٢).
وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَلِيٍّ: «أَنْتَ تُبَيِّنُ
لِأُمَّتِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ بَعْدِي» ^(٣).
وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَقْضَى
أُمَّتِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ^(٤).

كتابة الأحاديث

لقد كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مَعْصُومًا مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ وَالِإِشْتِبَاهِ وَالنِّسْيَانِ وَلَمْ
يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَى الْكِتَابَةِ وَالتَّدْوِينِ لَضَبْطِ الْأَحَادِيثِ وَحِفْظِهَا، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمَرَهُ - مَعَ ذَلِكَ - بِأَنْ يَكْتُبَ الْأَحَادِيثَ الَّتِي يَسْمَعُهَا مِنْهُ فِي كِتَابٍ لَتَبْقَى
لِلْآخِرِينَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا
عَلِيُّ أَكْتُبْ مَا أُمْلِي عَلَيْكَ.
قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَخَافُ عَلِيَّ النَّسْيَانَ؟
قَالَ: لَا، وَقَدْ دَعَوْتَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَكَ حَافِظًا وَلَكِنْ أَكْتُبْ لِشُرَكَائِكَ
الْأُتَمَّةِ مِنْ وَلَدِكَ ^(٥).

(١) ينابيع المودة ص ٨٢.

(٢) فرائد السمطين ج ١ ص ٩٧.

(٣) المستدرک علی الصحیحین ج ٣ ص ١٢٢.

(٤) المناقب للخوارزمي ص ٣٩.

(٥) ينابيع المودة ص ٢٢.

ولقد كتب علي عليه السلام إطاعةً لأمر رسول الله كل ما سمعه من رسول الله (ص) في كتاب وحافظ عليه، وقد توارث الأئمة من ذريته هذا الكتاب أو الكتب واحداً بعد واحد وانتقل إلى إمام بعد إمام .. وهو أحد مصادر أهل البيت العلمية، وهم يستندون - في نقل المواضيع - إليها ويقولون كتب في كتاب علي، أو في صحيفة علي، أو في الجامعة .. وثمة أحاديث عديدة من هذا النمط نشير إلى طائفة منها:

قال بكر بن كرب الصيرفي: سمعت أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام يقول: إن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإن الناس ليحتاجون إلينا وإن عندنا كتاباً إمام رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام، صحيفة فيها كل حلال وحرام، وإنكم لتأتونا بالأمر فنعرف إذا أخذتم به ونعرف إذا تركتموه^(١).

عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إن عندنا جلدًا سبعون ذراعاً أملى رسول الله صلى الله عليه وآله وخطه علي عليه السلام بيده وإن فيه جميع ما يحتاجون إليه حتى أرش الخدش^(٢).

لقد استودع رسول الله صلى الله عليه وآله معارف الإسلام وأحكامه في مواضع أمينة وموثوق بها بطريقتين:

الأولى: بينها جميعاً لعلي بن أبي طالب الذي كان مصوناً من الخطأ والزلل والإشتباه والنسيان.

الثانية: أمر علياً بكتابة الأحاديث في كتاب أو كتب لتبقى للأئمة من بعده .. وعندما توفرت مثل هذه الأرضية نصب أهل البيت في حديث الثقلين وغيره من الاحاديث مراجع معتبرة وموثوقاً بها للمسلمين في العلم والدين.

ولقد استفاد الإمام علي عليه السلام في حياته من كلا هذين الطريقتين، ونقل

(١) الكافي ج ١ ص ٢٤١.

(٢) جامع احاديث الشيعة ج ١ ص ١٠.

أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإمام الحسن عليه السلام ونقلها الإمام الحسن - بدوره - إلى الإمام الحسين، وهكذا نقل كل إمام ما سمعه من الإمام السابق والكتب التي ورثها منه إلى الإمام اللاحق الذي يخلفه.

ولقد أشار أئمة أهل البيت عليهم السلام أنفسهم إلى هذا المطلب، وإليك على سبيل المثال ما يأتي:

عن جابر (ابن عبد الله الانصاري) عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام قال: يا جابر إنا لو كنا نُحَدِّثُكُمْ بِرَأْيِنَا لَكُنَّا مِنَ الْهَالِكِينَ وَلَكِنَّا نُحَدِّثُكُمْ بِأَحَادِيثَ نَكْنِزُهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا يَكْنِزُ هَؤُلَاءِ ذَهَبَهُمْ وَفُضَّتَهُمْ^(١).

وعن هشام بن سالم وحماد بن عثمان وغيره قالوا: سَمِعْنَا أبا عبد الله عليه السلام يقول: حَدِيثِي حَدِيثُ أَبِي، وَحَدِيثُ أَبِي حَدِيثُ جَدِّي، وَحَدِيثُ جَدِّي حَدِيثُ الْحُسَيْنِ، وَحَدِيثُ الْحُسَيْنِ حَدِيثُ الْحَسَنِ، وَحَدِيثُ الْحَسَنِ حَدِيثُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَدِيثُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَحَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢).

إن النبي صلى الله عليه وآله - كما تلاحظون - إختار الطريق المذكور الموثوق به بهدف حفظ معارف الإسلام وأحكامه وصيانتها، ونشرها وإبلاغها بصورة صحيحة، ولأجل أن يُبْقِيَهَا لِلْمُسْلِمِينَ دَائِبًا وَأَبَدًا.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نعتبر أهل البيت النبوي الأئمة المعصومين أوثق السبل وأفضل الطرق لنقل أحاديث النبي، وعلى المسلمين أن يرجعوا إليهم في أخذ المعارف والأحكام الإسلامية الصحيحة وحتى أولئك الذين لا يقبلون بإمامتهم فإنهم

(١) جامع احاديث الشيعة ج ١ ص ١٣.

(٢) الكافي ج ١ ص ٥٣.

مكلفون - حسب وصية رسول الله صلى الله عليه وآله - بأن يرجعوا إليهم لتعلم معارف الإسلام وأحكامه النقية.

وفي الختام ينبغي أن نذكر بهذا الموضوع وهو: أن علوم الأئمة المعصومين لا تنحصر في ما يتلقونه من هذين الطريقين بل هم يستفيدون من طرق أخرى لا يسع المقام لذكرها.

فكروا وأجيبوا

- ١ - لماذا إختار النبي الإمام علياً لتعليمه أحكام الدين؟
- ٢ - ماذا سأل النبي (ص) ربه لعلّي؟
- ٣ - لماذا كان الإمام علي يعلم أحاديث أكثر؟
- ٤ - ماذا قال رسول الله (ص) حول علم الإمام علي؟
- ٥ - لماذا قال النبي للإمام علي: أكتب ما أُملي عليك؟
- ٦ - من أي طرق يحصل الأئمة على علومهم؟
- ٧ - ممن يجب أن يتلقى المسلمون معارف الدين وأحكامه؟



الدرس السابع والاربعون

العقل

يُعدُّ العقل - هو الآخر - من منابع المعارف و الإحكام الاسلامية، وأدلتها ..
ان للعقل - من دون ريب - إستقلالاً في ادراك بعض القضايا والأمور، فهو يُصدر
فيها حُكماً قطعياً مثل: إمتناع اجتماع النقيضين، وارتفاع النقيضين، وامتناع اجتماع
الضدين في موضوع واحد وزمان واحد .. وغير ذلك من القضايا العقلية البديهية التي
تسمى بـ «الأوليات».

وكذا مثل الحكم بأن كل ممكن مرتبطٌ بعلّة..

إن العقل ربّما يتوصّل - من خلال عملية التفكير والاستدلال والبرهنة اى
ترتيب الصغرى والكبرى، وتشكيل قياس منطقيٍ - إلى نتيجة قطعية لا يُشكّ في
حجيتها واعتبارها.

إنّ الحياة الإنسانية اليومية تقومُ أساساً على هذه المدركات والقضايا العقلية،
التي من دون القبول بها لا يمكن القيام بأي عمل، حتى استخدام الحواس والتجربة
- لأنّ الإنسان بعد أن يعترف بمبدأ «العلية» يعمد إلى التجربة، ويواصلها، فهو حينما
يعترف مثلاً - بتأثير الماء في رفع العطش يعمد إلى تحصيل الماء عندما يتعرض للعطش.

وهذا ينطلق من قانون العلية الذي يقضي به العقل نفسه.
ومن هنا فان حجّة الدليل العقلي أمرٌ مسلّم ومسألةٌ بديهية، لا تحتاج إلى الاستدلال والبرهنه.

ولقد اعترف القرآن الكريم أيضاً بكون العقل كاشفاً قطعياً عن الحقائق والواقعات.

إن القرآن لا يقول: إقبلوا بالعقائد والمعارف الدينية من دون دليل قطّ، بل يطلب من الناس أن يستخدموا عقولهم، ويتوصلوا إلى الحقيقة والواقع بالتفكير والاستدلال، ويؤمنوا عن يقين.

إنّ القرآن الكريم يدعو الناس - في آيات عديدة - إلى التعقل، والتدبر، والتفكير، والتفقه. ونشير إلى طائفة من هذه الآيات على سبيل المثال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

وعشرات الأخرى مثل هذه الآيات.

وفي أحاديث عديدة وُصِفَ العقل بالحجّة ايضاً، وأوصي بالتعقل والتفكير.

(١) البقرة - ١٦٤.

(٢) المؤمنون: ٧٨ - ٨٠.

ومن باب المثال:

عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: حُجّة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل^(١).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: العقل دليل المؤمن^(٢).

ولا نظن أن ديناً من الأديان أوصى بالتعقل والتفكير وحث عليهما بقدر ما صنّع

الاسلام..

لقد استدل القرآن الكريم لإثبات بعض حقائقه ومواضعه وأتى بالبراهين والحجج لكي يحرك عقولنا، ويدفعنا إلى التفكير، ويحملنا على التدبر والنظر.

ولقد جرت سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين عليهم

السلام على البرهنة والاستدلال كذلك ..

ولهذا يجب ان لا نتردد أو نشك في حجية الأدلة العقلية.

ولكننا - مع ذلك - لا ندعي قط أن الأدلة العقلية لا تخطئ أبداً .. بل كما أن

الحواس يجوز عليها الخطأ، والاشتباه، كذلك قد يخطئ الانسان في استدلالاته العقلية أيضاً.

ولكن يجب ان لا نتخذ موارد الخطأ دليلاً على عدم حجية الأدلة العقلية

وكاشفيتها، بل يجب أن نفتش عن علل الخطأ ونتجنبها وعلم «المنطق» هو الذي يتكفل هذا الأمر، وقد دُوّن لهذا الغرض.

وعلى هذا الأساس يمكن إثبات بعض الحقائق عن طريق العقل والتفكير،

واقامة البراهين العقلية، والإيمان بها عن يقين: مثل أصل وجود الله، وصفاته الثبوتية

والسلبية وأصل المعاد، وحشر الأموات والعقوبات والمثوبات الأخروية، ومثل أصل

ضرورة بعث النبي، وبعض صفاته، وكذا القضايا العامة في مجال الإمامة. ففي هذه الموارد يمكن الاستفادة من العقل والادلة العقلية والايان بها عن يقين.

ولكن لا يمكن الاستفادة من الأدلة العقلية في جميع المعارف، فمثلاً لا يمكن اكتشاف خصوصيات وتفاصيل القيامة، وعالم البرزخ، وصحيفة الأعمال، والحساب، والميزان، والصراط، ونعم الجنة، وعذاب الجحيم، عن طريق العقل، بل لابد في مثل هذه الموارد من الرجوع إلى ما ورد لها في القرآن والاحاديث من وصف، ولا يُطَلَب في الايان بها أكثر من هذا القدر.

إستنباط الأحكام التكليفية

يمكن الاستفادة من العقل في استنباط بعض الأحكام التكليفية واكتشافها .. وهذه الأحكام والمسائل تتنوع إلى عدة أنواع: النوع الأول: هي الأحكام التي يستطيع العقل تحصيلها عن طريق اكتشاف ملاك الأحكام وفلسفتها. ومنشأ هذا النوع من الأحكام مسألة كلامية يعتقدها أكثر المسلمين وبخاصة الشيعة الإمامية.

فإن الشيعة الإمامية تعتقد أن أحكام الشرع تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية فيقولون: إذا حرم الشرع شيئاً أو أوجبه فانما هو لأجل وجود مصلحة لازمة الاستيفاء أو مفسدة لازمة الاجتناب. فالأحكام الشرعية إذن تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية الكامنة في الأفعال، سواء أكانت مرتبطة بجسم الانسان او بروحه، مرتبطة بحياته الدنيوية أو الآخروية، مرتبطة بالفرد او بالمجتمع. وعلى هذا إذا لم تكن هناك مصلحة أو مفسدة لم يكن هناك حكم.

وعلى فرض القبول بهذه العقيدة يقولون: لو أن الشارع المقدس جعل حُكماً لموضوع، وبين إلى جانب ذلك علته، ثم وجد العقل مثل هذه العلة في موضوع آخر، حَكَمَ بشمول هذا الحكم للموضوع الثاني أيضاً.

مثلاً؛ إذا قال الشارع: لا تشرب الخمرَ لأنَّه مسكر، ووَجَدَ العقلُ خاصية الإسكار في مشروب آخر كالنبيذ مثلاً، حكم بحرمة هذا المشروب، ووجوب الاجتناب عنه أيضاً، وتبعاً لقاعدة (التلازم) العقلية التي تقول: كل ما حكم به العقل حكم به الشرع، حكم بأن الشرع لابد أن له مثل هذا الحكم وإن لم يبلغنا، ولم يصل إلينا.. مسألة أخرى: إذا وَجَدَ العقلُ فعلاً معيناً ينطوي على مفسدة لازمة للإجتناب ولكن لم يرد في الشرع حكمٌ بحرمة، حكم العقل بحرمة ووجوب الاجتناب عنه، وهو يرى - بواسطة قاعدة الملازمة - انه لابد أن يكون للشرع حكم بحرمة لان لطف الله يقتضي أن يهدي عباده بواسطة جعل الأحكام - إلى استيفاء المصالح الواقعية واجتناب المفساد.

فمثلاً: لم يكن لمادة الأفيون وجودٌ في عهد رسول الله (ص) والأئمة المعصومين (ع) حتى يصدر حكم من الشرع في شأنه، ولهذا لا نرى للأفيون حكماً في الأدلة الشرعية (الكتاب والاحاديث).

ولكن إذا بلغت مفسادُ الإعتياد على استعمال هذه المادة الخطيرة حداً يرى العقل وجوب الإجتناب عنه بادر إلى الحكم بحرمة استعمالها، وأثبت من طريق قاعدة الملازمة حرمة الشرعية أيضاً.

وهنا لابد من التذكير بهذه النقطة الهامة وهي: أن استنباط حكم شرعي من حكم عقلي إنما يصح إذا كان ملاك الحكم، والمصلحة أو المفسدة الكامنة في الفعل، قد ثبت بالأدلة القطعية وأما بمجرد الظن والحدس والإستحسان فلا يمكن إثبات الحكم الشرعي.

وعلى كل حال فإن هذا العمل لا يتيسر إلا للمجتهدين العارفين بأوضاع الزمان والمكان، وبالمصالح والمفاسد الواقعية .. دون غيرهم.

النوع الثاني: ما يرتبط بلوازم الأحكام: فإن لكل حكمٍ من أحكام الشرع بطبيعة الحال آثاراً ولوازم يجب على العقل الحكم فيها، وذلك مثل وجوب تهيئة مقدمات العمل الذي أوجبه الشرع.

فمثلاً إذا وجب الحج على أحدٍ فإن العقل يحكم بأنه مكلف بتهيئة مقدمات السفر، وإن لم يوجب الشرع هذه المقدمات بحكمٍ خاصٍ.

مسألة أخرى: وجوب تقديم الواجب الأهم على الواجب المهم عندما لا يمكن الجمع بينهما.

فمثلاً عندما يضيق وقت أداء الصلاة الواجبة، ولم يبق منه إلا بمقدار أداء واجباته لا أكثر، ومن جانب آخر كان هناك مؤمنٌ في حال الغرق والهلاك، ولم يكن المكلف بكلا الواجبين (الصلاة، وإنقاذ الغريق) قادراً على الإتيان بهما معاً في وقت واحد، بل لابد أن يختار أحدهما، حكم العقل بأن انقاذ الغريق وحفظ النفس المؤمنة أهم، وعلى هذا يجب أن يقدم انقاذ الغريق على أداء الصلاة.

مسألة أخرى: إجتماع الأمر والنهي والوجوب والحرمة، فهل يمكن إن يكون عملٌ واحدٌ حراماً من جهة وواجباً من جهة أخرى؟

مثلاً هل يمكن القول: أن الصلاة في المكان الغصبي من جهة الصلابة صحيحة وواجبة، ولكن من جهة التصرف في مال الغير حرام، أو أن هذا الأمر غير ممكن أساساً؟

في هذه المسألة يمكن الاستفادة من حكم العقل.

إن هذه المسائل وما يشابهها من المسائل والفروع المستخرجة منها قد تم بحثها في كتب الأصول، وقد وضحت الوظيفة فيها بالاستدلالات العقلية الدقيقة.

فكّروا واجيبوا:

- ١ - ما هو «الدليلُ العقلي»؟
- ٢ - ما هو الدليل على حجّة «البرهان العقلي»؟
- ٣ - ماذا يقول القرآن في هذا المجال؟
- ٤ - ماذا نفعل لمنع من وقوع الخطأ للدلة العقلية؟
- ٥ - ما هي المجالات الاعتقادية التي يمكننا الاستفادة من البراهين العقلية

فيها؟

- ٦ - كيف نستفيد من الأدلة العقلية في الأحكام الشرعية؟
- ٧ - كيف نستفيد من الأدلة العقلية في لوازم الأحكام؟

* * *

الدرس الثامن والأربعون

الإجتهد والتقليد

الإجتهد من حيث اللغة بمعنى السعي والجهد، وفي مصطلح فقهاء الإمامية عبارة عن: استفراغ الوسع في استنباط وفهم الوظائف والموضوعات والأحكام الشرعية من المصادر والأدلة الشرعية المعتبرة، كالقرآن الكريم وأحاديث النبي أي المنقول من أقواله وأفعاله وتقاريره، وأحاديث وسيرة الأئمة المعصومين عليهم السلام، والعقل، والقواعد الكلية والاصول العملية التي ثبتت حجيتها بالأدلة الشرعية. وعلى هذا الاساس يجب أن لا نعدَّ «الإجتهد» أحد المصادر للأحكام الشرعية، بل هو وسيلة للإستفادة الصحيحة والكاملة من مصادر الفقه الاسلامي لا غير.

ونحن هنا نبحث في ثلاثة مواضيع باختصار:

(المطلب الأول): ضرورة الإجتهد - إن المسلمين مكلفون بأن يتعلّموا الوظائف والأحكام الدينية ويعملوا وفقها .. ولقد كان المسلمون في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يسألون عن وظائفهم إما بصورة مباشرة من النبي (ص) وإما أنهم كانوا يسألون عنها الذين سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله، ولهذا لم يكونوا

يواجهون مشكلة في هذا المجال غالباً.

وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كان في مقدور المسلمين أيضاً أن يسألوا مسائلهم من أهل البيت المعصومين عليهم السلام الذين اختيروا وعُينوا لهذا الغرض من قبل النبي صلى الله عليه وآله.

وكان أول هؤلاء الأئمة هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وآخرهم هو الامام الثاني عشر الحجة بن الحسن عجل الله فرجه الشريف.

ولقد ظل الشيعة الإمامية والتابعون لأهل البيت عليهم السلام يتلقون مسائلهم الشرعية وحتى عام ٢٥٥ هجرية، وبعده إلى نهاية عصر الغيبة الصغرى من هذا الطريق .. ثم بعد ذلك انقطع هذا الارتباط المباشر .. ولكن المسلمين بقوا محتاجين إلى تعلّم مسائلهم الشرعية، وكانوا مضطرين في هذا المجال إلى أن يرجعوا إلى رواة الأحاديث ونقلة الأخبار، غير أنه كان هناك ثلاث مشاكل:

المشكلة الأولى: أنّ المسائل المستحدثة واحتياجات المسلمين الفقهية المتجددة كانت في توسع مستمر، ولم يكن من الممكن أخذ جزئيات المسائل الفقهية والوظائف الدينية من الأحاديث والروايات بصورة مباشرة، لأنّ الأحاديث الماثورة كلبية غالباً، وقلما تتضمن التفاصيل والجزئيات.

المشكلة الثانية: هي أنّ جميع تلك الأحاديث لم تكن معتبرة، كما أن جميع رواتها لم يكونوا ثقة يعتمد عليهم، لأنه كان فيهم الكذاب والوضّاع، والمجهول الحال، كذلك.

المشكلة الثالثة: أنّ بين الآيات القرآنية والأحاديث ناسخاً ومنسوخاً، عاماً وخاصاً، مطلقاً ومقيداً، وربما كان هناك المتعارضان، ولهذا لم يكن جميع الأفراد قادرين على إستنباط الأحكام الشرعية منها. بناءً على هذا يجب أن يكون بين المسلمين من يتصدى لمسؤولية إستنباط

الاحكام الشرعية ويتخصص في هذا المجال عن طريق اكتساب العلوم والمعارف اللازمة، لينهضوا باحتياجات المسلمين الفقهية.

وهؤلاء يُدعون: الفقهاء المجتهدون .. ولقد أراد القرآن هو الآخر هذا الأمر من المسلمين إذ قال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً . فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

ان التفقه أعلى من التعلم وهو بمعنى التخصص في أحكام الشريعة. قال الراغب: وتفقه إذا طلبه فتخصص به، قال: ليتفقهوا في الدين^(٢).

(المطلب الثاني): شرائط الاجتهاد - إن الاجتهاد عمل صعب وشاق، وإن المجتهد ذو مسؤولية ثقيلة، ولهذا فإن الاجتهاد لا يتيسر لكل أحد.

إن الذين تتوفر فيهم الشروط التالية هم الذين يصلحون للتصدي لهذه المهمة الخطيرة وبحق لهم القيام بهذه المسؤولية:

١ - أن يكون متخصصاً في العلوم التي تتوقف عليها عملية استنباط أحكام الشريعة مثل: اللغة، وآداب اللغة العربية، وعلم الدراية والرواية، وعلم الرجال والمعرفة الكاملة برواة الاحاديث، وبعلم التفسير والإطلاع على الآيات القرآنية وفهم معانيها الصحيحة، والمعرفة الكاملة باحاديث النبي والائمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، والمعرفة بالفقه وبالكتب الفقهية لدى سائر المذاهب الاسلامية، وعلى الخصوص المذاهب السنية الأربعة، والتخصص في علم الأصول، والإحاطة بالمباني المحكّمة في شتى مسائل علم الأصول، والمعدودة من أسس وقواعد الإجتهد، والاستنباط.

(١) التوبة - ١٢٢.

(٢) المفردات ص ٣٨٤.

٢ - الإطلاع على تقدّم العلوم والصناعات وتكاملها المستمر والصاعد، والمعرفة بمدى أثرها في تغيير ظروف الحياة الفردية والبشرية، والإلمام بالأوضاع والظروف السياسية والاجتماعية المتطورة في المجتمعات، والإطلاع على العلوم التي يمكن أن تكون مؤثرة في تشخيص الموضوعات الشرعية وتحديد الأحكام المترتبة عليها، والعلم بمقتضيات الزمان والمكان، وبالمطلّبات الفقهية الجديدة.

إن مثل هؤلاء الأشخاص هم الذين لا يعجزون عن تلبية الاحتياجات، وحلّ مشاكل المسلمين مطلقاً.

قال الإمام الصادق عليه السلام: **والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوايس** ^(١). وعلى هذا الاساس إننا يكون الشخص مجتهداً وفقهاً واقعياً إذا تخصص في جميع العلوم التي تتوقف عليها عملية الاستنباط ويكون عارفاً بالحوادث الواقعة والوقائع العامة الجارية في العالم وبخاصة العالم الإسلامي، ويعرف بالأخص مدى تأثيرها في الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية والعلمية للأمة الإسلامية معرفة كاملة، ويجتهد إلى جانب ذلك وبرؤية فقهية واسعة في تشخيص وتحديد الموضوعات الشرعية واستنباط أحكام الشريعة، واستخراج وعرض الحلول المشروعة والمناسبة، وأن يقود المجتمع الاسلامي جنباً إلى جنب مع تقدم العلوم والصناعات ومع رقي الحياة الانسانية.

إن مثل هذا الشخص هو الذي يمكن تسميته بالمختص الاسلامي وبالمجتهد الواقعي، وإلا فان مواصلة البحث في المسائل المطروحة بواسطة القدماء، أو تبديلها بـ «الأقوى» و«الأحوط» أو بالعكس على الأكثر ليس عملاً مهماً.

إن إجتهداً كهذا هو الذي يمكنه أن يقوم مقام الأمامة، وأن يبعث في الأمة

الاسلامية الحركة المستمرة، ويضمن لها الإستقلال والعظمة.
 إن الفقيه يمنع من الإنحراف والزَّيغ، ومن الإفراط والتفريط، ومن المداهنة والتطرف، كما يمنع من التأويلات المغلوطة، والتفسيرات الخاطئة التي يرتكبها المنتحلون والمبتدعون، و العابثون والمبطلون، ويحافظ على الإسلام من مؤامرات أعدائه وخصومه، ويهدي الأمة الإسلامية الكبرى إلى صراط الاسلام المستقيم.
 إن المجتهد لا يتجاوز - في اجتهداه - أبداً حدود المصادر والأدلة الاسلامية المعتبرة وليس أهل القياس والإستحسان والإفتاء بالرأي، بل هو يتعمق في مصادر الفقه الإسلامي بما له من الرؤية الفقهية العميقة وبما عنده من سعة النظر فيستخرج منها الأجوبة المشروعة للمسائل المتجددة في المجتمع الإسلامي باطراد، ويعرض الحلول الإسلامية لمشكلات الأمة. وهذه الطريقة تثبت خلود الاسلام وتمشي قوانينه واحكامه مع التقدم والتطور عملياً.
 إن مثل هؤلاء الفقهاء يمكن اعتبارهم من المصاديق الواقعية لحصون الاسلام التي جاء ذكرها في الاحاديث.

قال علي بن أبي حمزة: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ بَكَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، وَبَقَاعُ الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَيْهَا وَأَبْوَابُ السَّمَاءِ الَّتِي كَانَ يَصْعَدُ فِيهَا بِأَعْمَالِهِ، وَثَلَمَ فِي الْإِسْلَامِ ثَلَمَةٌ لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْفُقَهَاءَ حُصُونُ الْإِسْلَامِ كَحَصْنِ سُورِ الْمَدِينَةِ هَا^(١).

(المطلب الثالث) - جواز التقليد: حيث أن المجتهد يستنبط المسائل والأحكام من المصادر الشرعية المعتبرة، ويبذل في هذا السبيل غاية الجهد، لهذا فان ما يستنبطه من الأحكام حجة معتبرة لنفسه، ويجب ان يعمل وفقها، كما أن على غيره

(١) الكافي ج ١ ص ٣٨.

من المسلمين ان يأخذوا ما يحتاجون إليه من الأحكام منه، ويعملوا وفقها، لأنه خير متخصص في إستنباط احكام الشرع، والرجوع إلى الخبير المتخصص أمر عقلائي. فكما أن الناس يرجعون للحصول على معلومات خاصة إلى المتخصص في ذلك القسم، عليهم إن يرجعوا لتعلم أحكام الدين إلى المجتهد الخبير بأحكام الدين ايضاً. إن رجوعَ الجاهل إلى العالم والمتخصص أمرٌ عقلائي، وقضيةٌ إرتكازية جُبلت عليها النفوسُ ولا تحتاج إلى الاستدلال والبرهنة والى دليل غير هذا. ولقد أُشير في آية النَّفَر إلى هذا الموضوع بالذات .. فان المجتهد تفقّه في الدين وتخصص في معرفة المسائل والقضايا الإسلامية حتى إذا رجع إلى قومه، أو راجعه الناس بينَ لهم أحكامَ الدين ومعارفه، وقوانين الاسلام ومسائله، وبذلك ينذرهم ويبشرهم.

فكّروا وأجيبوا

- ١ - عرّفوا الاجتهاد الاصطلاحي.
- ٢ - لماذا يحتاج المسلمون إلى الاجتهاد؟
- ٣ - بيّنوا شرائط الاجتهاد.
- ٤ - من هو المجتهد الواقعي؟
- ٥ - كيف يستخرج المجتهد الاجوبة المناسبة للمسائل الجديدة؟
- ٦ - كيف يثبت المجتهد عملياً خلود الاحكام الاسلامية ودوامها؟
- ٧ - ما هو الدليل على جواز التقليد؟

* * *

الدرس التاسع والأربعون

العقائد في الإسلام

تتنوع التعاليم الإسلامية إلى نوعين: العقائد، والوظائف .. وتسمى العقائد «أصول الدين» بينما تسمى الوظائف «فروع الدين».

وفروع الدين هي تلك الأوامر والنواهي، وهي المسؤوليات التي أُلقيت على عاتق الإنسان من جانب الشرع .. وهي تنقسم بدورها إلى ثلاثة أصناف: الأخلاق، العبادات، الأحكام والقوانين غير العبادية التي تسمى بالمعاملات .. ونحن لا يمكننا في هذا الكتاب أن نبحث فيه بشكل مفصل، ولكن يمكننا أن نشير إلى بعضها بصورة مغلطة.

القسم الأول: أصول الدين وهي عقائد خاصة يكون الإيمان بها ضرورياً وواجباً، وتعد من قواعد الإسلام، وتسمى «أصول الدين» مثل الاعتقاد بوجود الله، والإعتقاد بالمعاد والحياة الآخروية، والاعتقاد بالنبوة وبرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وتعتبر الشيعة أصل الإمامة أيضاً من العقائد ويُعد اصطلاحاً من أصول المذهب.

إن العقائد المذكورة تُعتبر من أسس الإسلام وقواعده، وهي بالتالي تشكّل

النظرة الإسلامية العامة إلى الحياة.

إن الوظائف والتكاليف قائمة على هذه الأسس والمسماة بأصول الدين، وتنشأ من هذه الرؤية والنظرة.

في مثل هذه الرؤية يشعر المرء بالمسؤولية تجاه رب العالمين، ويقبل برامج الشريعة وتكاليفها التي زود بها الأنبياء والرسل بهدف ضمان السعادة الدنيوية والأخروية.

ويمكن تقسيم المسائل الاعتقادية هي الأخرى إلى صنفين: أصول العقائد. فروع العقائد.

وأصول العقائد هي تلك الأمور التي يتوقف تحقق الإيمان والاسلام على اليقين بها، وذلك مثل الاعتقاد بوجود الله، والاعتقاد بالمعاد والحياة الأخروية، والاعتقاد بنبوة رسول الاسلام محمد صلى الله عليه وآله.

وفروع العقائد عبارة عن المسائل الفرعية التي تتفرع من أصول العقائد مثل تفاصيل وخصوصيات المسائل المرتبطة بأسماء الله وصفاته، الثبوتية والسلبية، وخصوصيات الأوصاف والقضايا المتعلقة بالقيامة، من قبيل الحياة في عالم البرزخ، السؤال والجواب في القبر، كيفية إحياء الموتى للقيامة، صحيفة الأعمال، الحساب، الميزان، الصراط، نعم الجنة، عذاب جهنم، ومثل صفات النبي، والشروط المتعلقة به، كالعلم، والعصمة، والاعجاز ومثل مسألة الجبر والإختيار، والقضاء والقدر، والبداء، والشفاعة وغير ذلك من المسائل المشابهة.

إن القضايا والمواضيع الاعتقادية تحظى في نظر الإسلام بأهمية خاصة، كما أن لها أثراً كبيراً وهاماً في نوعية الحياة، وكيفيةها.

وهنا لابد من الإشارة إلى عدة مسائل على نحو الاختصار والإيجاز:

المسألة الأولى: ان الوظائف والتكاليف الشرعية والأوامر والنواهي التي لها

دور كبير في ضمان سعادة البشر الدنيوية والأخروية تقوم - كما أسلفنا - على أساس العقائد، وتنشأ منها، ومن هنا يمكن ان نعتبر العقائد مؤثرة في مصير الانسان. هذا ويستفاد من الآيات والأحاديث أن الايمان والعقيدة يمكن أن يكونا مؤثرين في ضمان سعادة الانسان من جهتين أخريين.

الجهة الاولى: ان تحصيل العلم والمعرفة والايمان يعد من الأعمال الباطنية النفسية، كما وتعدّ من أفضل العبادات، وليست العبادة منحصرّة في الأعمال والحركات الظاهرية بل ان التعقل والتفكر، واكتساب العلم عدّت في الاسلام أيضاً من العبادات، والعوامل الموجبة للتقرب.

إن العلوم والمعارف الحقيقية تترك أثراً مباشراً في النفس، وتعمل على ترقيتها في مدارج الكمال تدريجاً حتى تصل بها إلى مقام القرب الآلهي. بل حتى في العبادات يمكن أن يُقال أن ما يوجب منها التكامل والتقرب، ويبقى خالداً هو تلك الآثار التي تبقى في النفس.

وفي الآيات والأحاديث عدّ العلم والايمان أيضاً ضرباً من الكمال والعبادة كذلك وها نحن ندرج هنا بعض النماذج في هذا المجال:

قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١).

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

(١) الطلاق: ١٢.

(٢) الرعد: ١٩.

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١).

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

وعن ابن نباتة قال قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ حَسَنَةٌ، وَمُدَارَسَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَهُوَ أَنْيْسُ فِي الْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي الْوَحْدَةِ، وَسِلَاحٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَزِينُ الْأَخِلَاءِ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا يَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ أُمَّةً يُقْتَدَى بِهِمْ، تُرْمَقُ أَعْمَالُهُمْ، وَتُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خَلَّتِهِمْ، يَمْسَحُونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ فِي صَلَاتِهِمْ، لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَنُورُ الْأَبْصَارِ مِنَ الْعَمَى، وَقُوَّةُ الْأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، وَيَنْزِلُ اللَّهُ حَامِلَهُ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ، وَيَمْنَحُهُ مُجَالَسَةَ الْأَخْيَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

بالعلم يُطَاعُ اللَّهُ وَيُعْبَدُ، وَبِالْعِلْمِ يُعْرَفُ اللَّهُ وَيُوحَدُ، وَبِالْعِلْمِ تُوَصَّلُ الْأَرْحَامُ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَالْعِلْمُ أَمَامُ الْعَقْلِ وَالْعَقْلُ تَابِعُهُ يُلْهِمُهُ اللَّهُ السُّعْدَاءُ وَيُحْرِمُهُ الْأَشْقِيَاءُ^(٣).

قال أمير المؤمنين عليه السلام: يَا مُؤْمِنُ إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ ثَمَنُ نَفْسِكَ فَأَجْتَهِدْ فِي تَعَلُّمِهَا فَمَا يَزِيدُ فِي عِلْمِكَ وَأَدَبِكَ يَزِيدُ فِي ثَمَنِكَ وَقَدْرِكَ، فَإِنَّ بِالْعِلْمِ تَهْتَدِي إِلَى رَبِّكَ وَبِالْأَدَبِ تُحْسِنُ خِدْمَةَ رَبِّكَ، وَبِأَدَبِ الْخِدْمَةِ يَسْتَوْجِبُ الْعَبْدُ وَلَايَتَهُ فَاقْبَلِ النَّصِيحَةَ كَيْ تَنْجُو مِنَ الْعَذَابِ^(٤).

(١) المجادلة ١١.

(٢) الحج ٥٤.

(٣) بحار الأنوار ج ١ ص ١٦٦.

(٤) بحار الأنوار ج ١ ص ١٨٠.

وقال الامام الصادق عليه السلام: أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَالتَّوَاضُّعُ لَهُ ^(١).
هشام بن الحكم عن ابي الحسن بن موسى بن جعفر عليه السلام (في حديث
إلى إن) قال: يَا هِشَامُ مَا بَعَثَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ إِلَى عِبَادِهِ إِلَّا لِيَعْقِلُوا عَنْ اللَّهِ،
فَأَحْسَنُهُمْ إِسْتِجَابَةً أَحْسَنُهُمْ مَعْرِفَةً، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ أَحْسَنُهُمْ عَقْلاً، وَأَكْمَلُهُمْ عَقْلاً
أَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ^(٢).

الجهة الثانية: إن وجود الإيـان والعقيدة لازم وضروري لتحقيق قصد
الإخلاص، وقصد الإخلاص هو الآخر من الشروط الحتمية لصحة العبادة والمقربـية
.. ولهذا إذا لم يكن الإيـان لم تتحقق العبادة والثواب أيضاً.

المسألة الثانية: وسائل المعرفة - يرى الإسلام والقرآن إمكان معرفة الحقائق،
يعني تحصيل العلم القطعي للإنسان، ولكن لا بصورة مطلقة، وشاملة لجميع الأشياء،
بل بصورة محدودة مقتصرة على طائفة من الأشياء.
إن القرآن يرى أن في مقدور الإنسان أن يحصل علماً قطعياً ببعض الحقائق،
ولهذا يدعو الناس في آيات عديدة إلى المطالعة والنظر في الأرض والسماء والجبال
والبحار والأشجار والنباتات والحيوان والإنسان، والتفكير والتأمل فيها ليصلوا عن
هذا الطريق إلى وجود خالق الكون، ومعرفة أسمائه وصفاته .. فإذا لم تكن معرفة الله
ممكنة لم يدع الإنسان إلى هذا الأمر.

والآن يجب أن نرى ما هي أدوات المعرفة؟.

يمكن تحصيل العلم والمعرفة من عدة طرق هي:

الوسيلة الأولى: الحواس يعني حاسة البصر، والسمع، والذوق، والشم،
واللمس، فهذه الوسائل والحواس يمكن الارتباط بالعالم الخارجي وإدراك الأشياء.

(١) تحف العقول ص ٣٨٣.

(٢) الكافي ج ١ ص ١٦.

نعم يمكن إدراك الأشياء المادية فقط بواسطة الحواس، بينما لا تقدر الحواس على إدراك المجردات .. ولذا لا يمكن معرفة الله تعالى عن طريق الحواس بصورة مستقيمة .. ولكن يمكن أن تفيد في مطالعة الآفاق والأنفس.

الوسيلة الثانية - القلب والعقل: يريد القرآن من الإنسان في آيات عديدة أن ينظر في الأرض والسماء ويستخدم عقله في التعرف على الحقائق حتى يتوصل من هذا الطريق إلى خالقها.

يقول في القرآن الكريم: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢).

ان القرآن ليس فقط يعتبر العقل، ويدعو الإنسان إلى التعقل والتدبر، بل يقوم هو أحياناً بالبرهنة والاستدلال العقلي.

ونذكر على سبيل المثال ما يلي:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٣).

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٤).

الوسيلة الثالثة - تصفية النفس وتركيتها: إن من الوسائل التي يمكن عن

(١) يونس ١٠١.

(٢) الحج ٤٦.

(٣) الأنبياء ٢٢.

(٤) المؤمنون ٩١.

طريقها تهينة النفس وتأهيلها لتصير قابلةً ومستعدةً لإلقاء بعض الحقائق إليها من عالم الغيب هي تزكية النفس وتهذيبها وتصفيتها.

إذا تزود الإنسان بالتقوى .. واجتنب المعاصي ثم ربي نفسه بالإجتهاد في العبادة وذكر الله سبحانه أمكن أن يصير محلاً للألطف الإلهية وقابلاً لإلقاء بعض الحقائق إليه.

وبهذه الطريقة يمكن أيضاً رؤية بعض الحقائق بوضوح، ولكن سلوك هذا الطريق صعب جداً، وغير متيسر للجميع، ولا يتسنى لكل أحد. ولكنه ممكن لأهله، كما انه يفيد اليقين.

يقول في القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

الوسيلة الرابعة - إخبار الأنبياء والمعصومين وأولياء الله: إن الإسلام وإن كان يؤكد على تحصيل الإيمان عن طريق النظر والتدبر في الآفاق والأنفس، والتعقل والتفكير، واستخدمت الاستدلالات العقلية في القرآن والأحاديث أيضاً ولكن طريقة الأنبياء جرت في كثير من الأحيان على دعوة الناس إلى الإيمان من دون إقامة البرهان لهم.

الوسيلة الخامسة - إحياءات الوالدين والمعلم: إن الإيمان لدى الكثير من الأشخاص نابع من إحياءات الوالدين والمعلمين والمربين.

فالأولياء والمربون يُعرِّفون الأطفال بلفظة الجلالة: «الله» منذ عهد الطفولة

(١) الشمس ٩ - ١١.

(٢) الانفال ٢٩.

وَالصَّبَا، ثم يلقنونهمْ أُصُولَ الدِّينِ بِلُغَةٍ بَسِيطَةٍ، تَنَاسَبَ مَدَارِكَهُمْ وَعُقُولُهُمْ، أَوْ يَعْلَمُونَهُمْ قِصَاصَ طُفُولِيَّةٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ. ثم يَعْلَمُونَهُمْ قِرَاءَةَ سُورَةِ الْحَمْدِ وَبَعْضِ السُّورِ الْقَصَارِ، ثُمَّ يَعْلَمُونَهُمُ الصَّلَاةَ.

إنَّ الطِّفْلَ يَتَعَوَّدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ وَالْبِرَامِجِ تَدْرِيجًا وَيُؤْمِنُ بِوُجُودِ اللَّهِ وَبِالنَّبِيِّ وَالْمَعَادِ وَالْإِمَامَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبَيْئَةِ.

إنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَشْخَاصِ يَحْصُلُ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ، وَحَيْثُ أَنَّهُ يَطَابِقُ الْحَقَّ وَيَقْتَرِنُ بِالْيَقِينِ فَهُوَ صَحِيحٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَيُعَدُّ صَاحِبَهُ مُؤْمِنًا بِلَا رَيْبٍ، لِأَنَّهُ لَا يَشْتَرِطُ فِي تَحَقُّقِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ إِيمَانُ الشَّخْصِ عَنْ جِزْمٍ وَيَقِينٍ، وَهُوَ حَاصِلٌ فِي هَؤُلَاءِ.

(المسألة الثالثة): مقدار ما يُعْتَبَرُ فِي حُصُولِ الْإِيمَانِ: هل يُشْتَرِطُ فِي تَحَقُّقِ الْإِيمَانِ أَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ بِجَمِيعِ الْعَقَائِدِ عَنْ جِزْمٍ وَيَقِينٍ، وَأَنْ يَكُونَ إِيمَانُهُ عَنْ طَرِيقِ الْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الْفَلَسَفِيَّةِ؟ أَمْ لَا يَعتَبَرُ هَذَا، بَلْ لَا بَدَّ مِنَ التَّفْصِيلِ، وَالْفَرْقِ. لَقَدْ عَلِمْتُمْ - قَبْلَ هَذَا - أَنَّ الْعَقَائِدَ عَلَى صَنَفَيْنِ: أُصُولُ الْعَقَائِدِ، وَالْعَقَائِدُ الْفُرْعِيَّةِ.

فَبِالنِّسْبَةِ إِلَى أُصُولِ الْعَقَائِدِ لَا بَدَّ مِنَ الْجِزْمِ وَالْيَقِينِ، وَلَا يَحْصُلُ الْإِيمَانُ بِهَا وَلَا يَتَحَقَّقُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ الْيَقِينِ وَالْجِزْمِ، مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ حَصَلَ هَذَا الْيَقِينُ، وَتَحَقَّقَ هَذَا الْجِزْمُ، سَوَاءً حَصَلَ عَلَى أَثَرِ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ إِجْهَادَاتِ الْأَبْوِينَ وَالْمُعَلِّمِ وَتَلْقِينَاتِهِمْ. وَلَقَدْ طَرَحَ رَسُولُ الْإِسْلَامِ فِي بَدْءِ دَعْوَتِهِ، صَدَقَهُ وَامَانَتُهُ وَذَكَرَ بِهَا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ^(١).

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ نَبِيَّ الْإِسْلَامِ وَغَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ غَالِبًا مَا كَانُوا يَبْتَئِنُونَ

(١) بحار الأنوار ج ١٨ ص ١٩٧. قال النبي (ص): «أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ وَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا لَمَا كَذَبْتُكُمْ».

العقائد الحقّة للناس، ويدعونهم إلى الإيمان بها .. وكان الناس يقبلون دعوتهم، ويعتقون تلك العقائد ثقةً بصدقهم وامانتهم..

ولقد اتبع أكثر الناس، الرسل والأنبياء من هذا الطريق .. ولقد كان إيمان هذه الطائفة من الناس عن علمٍ و يقينٍ، ولكن منشأ هذا اليقين كان هو دعوة الأنبياء الجازمة وبيانهم القاطع، ولم يكن إيمان هؤلاء الأتباع إيماناً ناقصاً، بل هو إيمان - في الأغلب - يفوق في العمق والقوة إيمان من يعتمد على الاستدلال الفلسفيّ ولهذا لا يوجب مثل هذا الايمان أيّ نقصٍ في كمالاتهم، وسعادتهم الأخروية.

بناءً على هذا يمكن اعتبار دعوة الأنبياء القاطعة الجازمة إحدى الطرق والسبل المورثة لتحصيل العلم والإيمان.

نعم لا يساوي إيمان هذه الطائفة إيمان المقلّدين لآبائهم وأجدادهم الذي ذمّه القرآن وشجبه مراراً وتكراراً .. لأنّ هؤلاء يقبلون دعوة الأنبياء الحقّة، وهذا يحصل عندهم يقينٌ لا يحتملون معه الخلاف ايضاً.

ولكن الذي يقلّدون ليسوا هكذا، بل هم يقبلون مجموعة من العقائد الباطلة من آبائهم بمجرد الحدس والظن، ومع انهم يحتملون خلافها، لا يفكرون في تمحيصها والتحقيق فيها.

على أنّ هذه الحقيقة لا تقبل الإنكار وهي: أنّ الإيمان النابع عن الأدلّة العقلية يتمتع بقوة وقمّاسك، وبقيمة اكبر، ولكن لا يشترط أن يكون حاصلًا من هذا الطريق حتّى، بل يمكن الاكتفاء في هذا المجال بالرجوع إلى سائر الأمور المفيدة، واستخدام سائر الأدوات التي تورث الايمان الصحيح.

ولكن إذا كان شكّ أحدٍ في شيء من أصول العقائد وجب عليه أن يزيل شكّه وتردّده بالفحص والتحقيق، وبالإستفادة من البراهين العقلية.

وأما بالنسبة إلى العقائد الفرعية فليس هناك دليلٌ على وجوب تحقيق القطع

بها وتحصيله، بل يمكن الإكتفاء فيها بالأدلة الظنية مثل أخبار الآحاد.
نعم تُعدّ هذه العقائد من معارف الإسلام أيضاً، ويكون تحقيق اليقين والقطع فيها مفيداً، وهي تُعدّ من الكمالات النفسية وينبغي للمؤمنين أن يجتهدوا في هذا السبيل أيضاً، ولكنه على كل حال لا يُعتبر من الشرائط الضرورية للإيمان.

فكّروا وأجيبوا

- ١ - على أيّ أساس تقوم التكاليف الشرعية؟
- ٢ - وضحوا أصول العقائد وفروعها.
- ٣ - ما هي ثمار أصول العقائد وآثارها ما عدا كونها وسيلة للشعور بالمسؤولية؟
- ٤ - عرفوا أدوات المعرفة ووضحوها.
- ٥ - ما هو رأي القرآن في اعتبار الأدلة العقلية؟
- ٦ - في أي موضع من القرآن أُشير إلى الدليل العقلي؟ وضحوا ذلك.
- ٧ - ما قيمة إيمان من قبل دعوة النبي في بعض أصول العقيدة؟
- ٨ - هل يُشترط اليقين والجزم في العقائد الفرعية أيضاً؟ ولماذا؟
- ٩ - ماذا يجب على من شك في بعض أصول العقائد؟ ولماذا؟

* * *

الدّرس الحَمَسون

الأخلاقُ في الإسلام (١)

تحتلّ الأخلاقُ بمكانةٍ رفيعةٍ، وأهميّةٍ كبرى في الإسلام .. فقد عُدَّ التخلّق بالأخلاق الحسنة واجتناب الرذائل من علائم كمال الإيمان. ولقد اعتُبر حُسن الخلق من أفضل الأعمال، كما وُصِفَ بأنه أثقل عملٍ يوضع في الميزان. ولقد بلغت تنمية الأخلاق الحسنة من حيث الأهميّة أن جُعِلَت من أهداف الأنبياء.

يقول في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١). وقال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله: عَلَيْكُمْ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ بِهَا^(٢).

(١) آل عمران - ١٦٤.

(٢) بحار الانوار ج ٦٩ ص ٣٧٥.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أيضاً قال: **إِنَّا بُعِثْتُ لِأَتَمِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ** ^(١).
وعن أبي جعفر عليه السلام قال: **أَنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقاً** ^(٢).
وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **مَا يَوْضَعُ فِي مِيزَانِ إِمْرٍءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ مِنْ حُسْنِ الْخَلْقِ** ^(٣).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **أَكْثَرُ مَا يُلْجُ بِهِ أُمَّتِي الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ** ^(٤).

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ كَمَا يُعْطِي الْمَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَغْدُو عَلَيْهِ وَيروح** ^(٥).
لقد اعتنى الاسلام بتزكية النفس وتهذيبها، وتقوية الاخلاق الحسنة وتنميتها، عناية خاصة وبالغة.

فقد نزلت طائفة كبيرة من آيات القرآن الكريم حول الأخلاق .. حتى أن أكثر القصص القرآنية تهدف إلى الأخلاق ..

كما قد صدرت آلاف الأحاديث حول الأخلاق من النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، وهي مدونة ومحفوظة في كتب الحديث.
إن المشوبات والنوعود الطيبة التي ذُكرت لمن يتخلق بالأخلاق الحسنة، والعقوبات المذكورة لمن يتصف برذائل الأخلاق ليست أقل من ما ذكر لغيرها من الأعمال.

(١) مستدرک الوسائل ج ٢ ص ٢٨٢.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٩٩.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٩٩.

(٤) الكافي ج ٢ ص ١٠٠.

(٥) الكافي ج ٢ ص ١٠١.

وعلى هذا فإنَّ الأخلاقَ تشكّل - في الحقيقة - أساس الإسلام وقاعدته، ولا يمكن عدّها في الدرجة الثانية من أحكام الدين، ولا يجوز الإهتمام بها أقلّ من الإهتمام بالأحكام، والتساهل فيها، بحجة أنّها واجباتٌ ومحرماتٌ أخلاقيةٌ .. بل إنّ رعاية الأخلاق الحسنة - على غرار سائر الواجبات الدينية - موجبة لتكامل النفس، والتقرب إلى الله تعالى، كما أن الإتصاف بالأخلاق السيئة على غرار سائر المحرمات - موجبة لانحطاط النفس، والابتعاد عن الله .. ومن خلال الأخلاق الحسنة لدى البعض، يمكن الوقوف على درجة إيمانهم ومبلغه.

تعريف الأخلاق

قالوا في تعريف الأخلاق: إنَّ الخُلُقَ عبارة عن هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى رويّةٍ وفكرٍ فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سُميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كانت الصادرة منها أفعالاً قبيحة سُميت خلقاً سيئاً^(١).

إنَّ الأخلاق كما تُطلق على الصفات النفسانية كذلك تُطلق على الأفعال والآثار الناشئة من تلك الصفات أيضاً، فمثلاً نفس فعل الصدق والكذب يسمى أخلاقاً أيضاً.

إنَّ الفعلَ الأخلاقيّ قيمة عملية يتفق على حسنها أو قبحها كلُّ البشر في جميع الأمكنة والأزمنة ... كما أن العقلَ البشريّ السليم يدركُ حسنَه أو قبحَه بنفسه، ويرى كل إنسانٍ أن من واجبه الإنساني أن يأتي بالفعل الحسن ويتجنب الفعل القبيح. ونذكر - توضيحاً للمطلب - بأنه قد ثبّت في العلوم العقلية أن الإنسان حقيقة

واحدة لكن ذات جهات ومراتب وجودية متعددة.

فهو من جهة جسمٌ طبيعيٌّ وله آثاره الخاصة، ومن جهة أخرى جسمٌ نامٍ وله آثاره الخاصة أيضاً، ومن جهة ثالثة هو حيوان تترتب عليه آثار الحيوانية .. وفي النهاية. هو إنسان له خصائص الانسان وآثاره التي ليس للحيوانات. هكذا مراتب وجهات.

فهو عند ما يقول: وَزني وَصورتي فهو يتحدّث عن المرتبة الجسدية.

وعندما يقول: غذائي ونموي فهو يتحدّث عن مرتبة الجسم النامي.

وعند ما يقول: حركتي وشهوتي وغضبي فهو يتحدّث عن المرتبة الحيوانية.

وعند ما يقول: فكري وتعقلي فهو يتحدّث عن مرتبته العالية، الإنسانية.

إنّ للإنسان مراتب وجودية مختلفة، ولكن الذي يميزه عن سائر الحيوانات هو جانب الروح المجردة، الملكوتية، والنفحة الالهية فيه .. وبين المرتبة الحيوانية وبين الجانب الانساني ، في الانسان صراع دائم وجدل مستمر.

إنّ المرتبة الحيوانية في الكيان البشري تلح على الإنسان أن يحقق مطالبها بكل وسيلة ممكنة، وأن يسخر عقله لبلوغ الأهداف الحيوانية.

بينما - على العكس من ذلك - تطلب المرتبة العالية، الإنسانية وروحه الملكوتية، منه أن يلجم غرائزه، ويعدّل ميوله الحيوانية، ويسعى إلى تقوية الكمال والانسانية في كيانه.

لقد بُعث الأنبياء لكي ينصروا الإنسان في معركته الصعبة هذه، وليساعدوه ويعينوه في طريق بناء ذاته، وتربية الجوانب الإنسانية وتقوية روحه الملكوتية في كيانه. كان الأنبياء يقولون: أنت إنسان، فلا تنسى إنسانيتك .. ولا تترك نفسك أسيرة بأيدي المطالبات الحيوانية، فتتضرر وتختسر.

يقول في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١﴾.

وقال علي عليه السلام: عَجِبْتُ لِمَنْ يَنْشُدُ ضَالَّتَهُ وَقَدْ أَضَلَّ نَفْسَهُ فَلَا يَطْلُبُهَا ^(٢).

إنَّ للإنسان - في كل جانبٍ من جانبيه الحيواني والإنساني - احتياجات توجد مبادؤها في وجوده، وكيانه.

فمن جهة كونه حيواناً نامياً، يحتاج إلى الماء والغذاء والمسكن واللباس، والهواء، وهذه الجهة ذاتها أودع في كيانه الاحساس بالجوع والعطش والميل واللذة في وجوده كيما يواصل حياته، ويجتهد ويجهد ولقد رُكِبَتْ فيه الغريزة الجنسية لغرض الإبقاء على نوعه، ولضمان استمرار نسله.

إنَّ على الإنسان أن يعمل ويجتهد، ليضمن استمرار حياته، وسلامته، وعليه أن يتقيّد بكل لوازم حياته الحيوانية، ومتطلباتها، ومقتضياتها. ولم يرد نهْيٌ في الاسلام عن هذه البرامج فحسب، بل تكرّرت التوصية بها، ودعي إلى الاهتمام بها، ولكن على الانسان أن يلتفت إلى نقطة هامة هنا، وهي أن حياته وسعادته لا تتلخص في المرتبة الحيوانية، بل عليه أن يأخذ بنظر الاعتبار الجانب الإنساني ويلتفت إلى روحه المجردة، والملكوية، واحتياجاتها ومتطلباتها أيضاً .. وعليه أن يعطي الأصلة لهذا الجانب من الحياة، فاذا كان في جانبه الدنيوي والجسماني يحتاج إلى الماء والغذاء والمسكن وما شابه، فإن لجانبه الباطني والروحاني والإنساني كذلك احتياجات من سنخه.

إنَّ الروح الإنسانية جوهرٌ مجردةٌ ملكوتيةٌ هَبَطَتْ من عالم القدس، وهي

(١) الزمر- ١٥.

(٢) غرر الحكم - ص ٤٩٥.

تَتَطَلَّبُ قِيَمًا إِنْسَانِيَّةً عَلِيًّا .. فإذا عرف الإنسان نفسه، والتفت إلى روحه الملكوتية فإنه سيرى أنها جاءت من عالم القدرة والكرامة، والعلم والرحمة، والنور والإفاضة، والإحسان والخير، والطهر والعدل، وبكلمة واحدة: جاءت من عالم الكمال، وهي تناسب ذلك العالم وتسانخه.

في ضوء هذه النظرة وفي ظل هذه الرؤية يجدُ القيم الأخلاقية، ويرغب في أن يهاجر بواسطتها من مرتبة الحيوانية الدنيا، ويرتقي في مدارج الكمال الانساني إلى أن ينال مقام القرب والزلقى الى الله، ويحظى بتلك المنزلة الرفيعة .. وهنا تتضح مكانة القيم الأخلاقية.

إن مكارم الأخلاق وما يسمّى بالقيم الأخلاقية عبارة عن سلسلة من الكمالات الروحانية والمعنوية التي تدركُ روح الإنسان الملكوتية مناسبتها لاحتياجاتها الاستكمالية، وتحكم بأن عليّ أن أقوم بها، لأنها تناسب مقاميّ الانساني الرفيع.

إن الإنسان إذا راجع فطرته الطاهرة النقية، المُحِبَّة للكمال، وفكر جيداً، بعيداً عن الهوى، والهوس، لاستطاع أن يدرك الفضائل، والقيم الأخلاقية، وكذا رذائل الأخلاق وما يضاف للقيم الخيرة.

ولقد كان البشر كلُّ البشر وسيكونون في جميع الأزمنة والأمكنة هكذا .. ولو وجدنا بعض الناس قد حُرِّمُوا من هذا الإحساس والادراك المقدس فإنها هو لاجل أن الهوى والهوس والميول الحيوانية الشديدة قد أطفأت نور عقولهم.

ولقد بُعِثَ الأنبياء والرسل لهذه الغاية أي ليوقظوا فطر البشر النقية، ويغيروا الإحساس الأخلاقي الغافل في الكيان البشري إلى شعورٍ يقظٍ مدركٍ، ليعرفوا مكارم الأخلاق، ويربّوا أنفسهم - بواسطة ذلك - ويجتنبوا عن رذائل الأخلاق.

يقول في القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ

أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١﴾ .

فَكِّرُوا وَأَجِيبُوا

- ١ - ما هي المنزلة التي تحظى بها الأخلاق في الإسلام؟ ولماذا؟
- ٢ - عرّفوا الأخلاق.
- ٣ - عدّدوا الجهات الوجودية في الإنسان ووضحوا آثار المرتبة الإنسانية.
- ٤ - عدّد الاحتياجات الروحانية الإنسانية.
- ٥ - كيف يقف الإنسان على القيم الأخلاقية؟
- ٦ - ما هو نوع المعونة التي يقدمها الأنبياء للبشر في هذا المجال؟

* * *

الدَّرْسُ الْوَاحِدُ وَالْخَمْسُونَ

الأخلاق في الإسلام (٢)

يمكن تقسيم المسائل الأخلاقية بصورة غامّة إلى صنفين:

الصنف الأوّل - الأخلاق الفردية مثل : التوجّه إلى الله، وذكره، حبّ الله، التوكّل على الله، الرضا برضاء الله، إخلاص العمل لله، الأمل، الصبر، غنى النفس، الشجاعة، الإستقامة والثبات، العزم، طمأنينة النفس، التي هي من الأخلاق الحميدة. ومثل: الرياء، العُجب، الحسد، الغضب، الإضطراب الباطني، اليأس، الجزع، حبّ الدنيا، والجاه والشهرة، والخوف، الحرص، الطمع، وحشة النفس، عدم الرضا بالرضا الالهي وضعف الإرادة، التي هي من الأخلاق الرذيلة.

الصنف الثاني - الأخلاق الإجتماعية مثل: حسن الخلق، طيب الكلام، حسن العشرة، التواضع، إحترام الناس، حب العدالة، الإيثار، الدفاع عن المظلومين والمحرومين، حب الخير، الإحسان إلى الناس، الأمانة، الوفاء بالعهد، الصدق، حفظ الأسرار، الرفق، المداراة، اللين، العفو، الاغماض عن عيوب الآخرين، الإحسان إلى الوالدين، الإحسان إلى الولد، صلة الرحم، رعاية الحقوق المتقابلة بين الزوجين، السعي في قضاء حوائج المؤمنين، الإهتمام بأمور المسلمين، خدمة الناس، إحترام

الواجب، والعمل به، حسن الجوار، رعاية حقوق الآخرين وإنفاع الآخرين، التي هي من آداب الحياة الاجتماعية، وأخلاقها الحسنة.

ومثل: سوء الخلق، البذاءة، سوء العشرة، التكبر، إحتقار الآخرين، الظلم، عدم الدفاع عن حقوق المحرومين والمظلومين، الإضرار بالآخرين، إيذاء الآخرين، الخيانة، نقض العهد، الكذب، إفشاء أسرار الآخرين، الخشونة والعنف، تتبع عورات الآخرين، سوء معاملة الأبوين، سوء معاملة الولد، قطع الرحم، إيذاء الجيران، عدم رعاية الحقوق المتقابلة بين الزوجين، عدم الإهتمام بأمور المسلمين، الإخلال بالواجب، عدم العمل بالوظيفة، البخل، السعي لدى الظالم والوشاية عنده، النميعة، ابتغاء الفتنة، المكر والغدر، التهمة، الغيبة، مساعدة الظالم، الإسراف والتبذير، وخُذاع الآخرين.

إنَّ العناوين الأخلاقية المذكورة والعشرات من العناوين الأخر المشابهة نلاحظها ونشاهدها في القرآن الكريم وكتب الحديث، وقد تناولها علماء الاسلام - في كتب التفسير والحديث والأخلاق بالبحث والشرح بصورة دقيقة، وعميقة. وقد تَضَمَّنَتْ هذه الأبحاث والدراسات بيان فوائد الأخلاق الحسنة، وتأثير كلِّ واحد منها في ضمان سعادة الحياة الدنيوية، واستقامتها. وفي تكميل النفس وضمان سعادة الإنسان في الحياة الأخرية .. وكذا الآثار والتبعات السيئة المترتبة على كلِّ واحد من الأخلاق الرذيلة في الحياة الدنيوية والأخرية.

كما قَامَتْ تلك الأبحاث بدراسة علل وأسباب ظهور هذه الأخلاق ونشأتها وطرق معالجة المصابين بها، وسبيل الوقاية منها.

ومع الأسف لا يَسَعُ هذا المجال لتلك البحوث والدارسات، ولكننا نرى أن من اللازم أن نشير إلى عدة مطالب:

المطلب الأول: أنَّ للأخلاق الحسنة أو السيئة - كما أسلفنا - دوراً جوهرياً

٣٢٢ دروس من الثقافة الإسلامية

وتأثيراً هاماً في السعادة أو الشقاوة الدنيوية والأخروية، بحيث لا يمكن تجاهله أو التهوين من قيمته وأهميته.

المطلب الثاني: أنّ تهذيب النفس من الأخلاق الرذيلة، وحملها على مراعاة الأخلاق الحسنة لا شك عملية صعبة وشاقة، ولكنها ضرورية على كل حال.

إنّ النجاح والتوفيق في مثل هذا العمل المهم يحتاج إلى:

١ - معرفة الأخلاق الحسنة والسيئة.

٢ - معرفة النفس وأمراضها الأخلاقية وطرق معالجتها، معرفة كاملة.

٣ - العزم الجدي على إصلاح النفس.

٤ - الصمود أمام الميول الحيوانية الشديدة ومقاومة الوسوس والحيل النفسانية.

٥ - مجاهدة النفس الأمّارة ومكافحتها.

٦ - المراقبة الدائمة والإستمرار في المجاهدة.

إنّ الذين يفكرون في سعادتهم الواقعية، عليهم أن يبدأوا عملهم في مرحلتين متزامنتين:

المرحلة الأولى: عبارة عن تطهير النفس وتخليصها من الذنوب والأخلاق الرذيلة وهذا العمل يدعى اصطلاحاً بالتخلية.

المرحلة الثانية: عبارة عن العبادة، وعن ذكر الله تعالى، وتنمية الأخلاق الحسنة وهذا يدعى اصطلاحاً بالتحلية.

إن هذين العملين ضروريان لضمان سعادة الانسان، لأنّ النفس إذا لم تتطهر من الأخلاق الرذيلة كيف يمكن أن تصير محلاً للإفاضات الإلهية وتصل إلى الكمال المنشود.

ومن جانب آخر إذا لم تحصل النفس على تربيتها عن طريق الإيمان والعمل

الصالح والأخلاق الحسنة، فبماذا وبأية وسيلة تتحرك وتتكامل وتبلغ درجة القرب إلى الله.

قال علي عليه السلام: أكرم نفسك من كل دنية، وإن ساقطت إلى الرغائب، فإنك لن تعترض بما تبذل من نفسك عوضاً، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً، وما خير خير لا يُنال إلا بشرٍّ، ويُسرٍ لا يُنال إلا بعُسْرٍ^(١).
وقال علي عليه السلام: إن النفس جوهرة ثمينة من صانها رفَعها، ومن ابتذلها وَضَعها^(٢).

وقال عليه السلام: ألا وإن الجهاد ثمن الجنة فمن جاهد نفسه ملكها، وهي أكرم ثواب الله لمن عرفها^(٣).
وقال علي عليه السلام: من عرف شرف معناه صانه عن دنائة شهوته وزورمناه^(٤).

فكروا وأجيبوا

- ١ - اكتبوا الأخلاق الفردية الحسنة.
- ٢ - اكتبوا الأخلاق الفردية السيئة.
- ٣ - اذكروا عشرة من الأخلاق الاجتماعية الحسنة.
- ٤ - اذكروا عشرة من الأخلاق الاجتماعية السيئة.
- ٥ - ماذا يجب لتهديب النفس وتنمية الأخلاق الحسنة.

(١) نهج البلاغة الكتاب ٣١، صبحي الصالح.

(٢) غرر الحكم ص ٢٢٦.

(٣) غرر الحكم ص ١٦٥.

(٤) غرر الحكم ص ٧١٠.

الدّرس الثّاني والخمسون

العِبادة في الإسلام

في الدين الإسلامي مجموعة من الأعمال التي تسمى العبادات كالصلاة والصيام والحج، والجهاد وغير ذلك من الأعمال التي تُعدّ من العبادات .. ويكون القيام بها عبادة أيضاً.

إن العبادة في اللغة تعني غاية التذلل والخضوع، وإظهار التسليم للغير. يقول الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا مَنْ له غاية الافضال وهو الله تعالى^(١). والعبدُ الذي هو أيضاً مشتقٌّ من هذه المادّة يطلق على من يكون مملوكاً للغير، ينفذُ أوامره ويبيدي له غاية التسليم، ويعطيه الحق في أن يتدخل في جميع شؤونه، ويخضع أمامه غاية الخضوع، ويتذلل له نهاية التذلل. ولهذا المناسبة يُطلق وصفُ العبد على الإنسان، ويُعتبر الجميع عبيداً لله تعالى لأنهم جميعاً مملوكون لله تعالى.

(١) المفردات ص ٣١٩.

ولكن مالكيّة الله للناس تختلف اختلافاً عن مالكيّة سائر الموالى .. لأنّ مالكيّة الموالى البشرية مالكيّة إعتباريّة، على العكس من مالكيّة الله سبحانه لعباده التي هي أمر حقيقي وتكويني.

إنّ الإنسان وجميع الموجودات الأخرى لكونها معلولة لله تعالى في أصل وجودها وفي بقائها واستمرارها، بل وجميع شؤون وجودها، لهذا فهي ملكه، وتحت تصرفه تكويناً، بل هي عين الارتباط والاحتياج والمملوكية، وهي مرتبطة به في جميع شؤونها الوجودية.

يقول في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

وهذا المعنى يكون الإنسان، بل وجميع الموجودات في عالم الخلق وحتى الكفار والمشركون عبيداً لله واقعاً وحقيقة، وهي مسلمة وخاضعة أمام إرادة الله التكوينية وقوانينه الحاكمة على الكون.

يقول في القرآن الكريم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٢).

إن ما قيل إلى الآن يرتبط بتوضيح عبودية الإنسان التكوينية، ومن هذا الطريق يمكننا الوصول إلى معنى العبادة التشريعية.

إنّ الإنسان الذي هو كائن عاقل ومختار ومريد، مكلف بان يقبل بمملوكيته وعبوديته التكوينية لله عملياً .. وأن يظهر أمام خالقه ومالكه الحقيقي غاية الخضوع، ونهاية التذلل والعبودية .. وأن يسلم لأوامره وديساتيره تسليماً محضاً وخالصاً.

(١) فاطر: ١٥.

(٢) مريم: ١ - ٢.

وهنا عدة أمور يجب الإشارة إليها:

١ - إنَّ العبادة - كما علمتم - عبارة عن إظهار العبد الواقعي للعبودية أمام مالكه الحقيقي والتكويني، وليس لمثل هذا المالك من مصداق سوى الذات الإلهية المقدسة.

وبناءً على هذا لا يليق غير الله للعبادة والمعبودية، ولا يستحقها سواه. إن العبادة والخضوع والتذلل الخاص وإن إظهار العبودية لغير الله لا يجوز مطلقاً كان من كان ذلك الغير وكان ما كان الشيء المعبود. ولهذا كان جميع الأنبياء يدعون الناس إلى عبادة الله الواحد، وينهون عن عبادة غيره.

يقول في القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾^(١). اذن فالعبادة، والنذر، والصلاة خاصة بالله، ولو أتى بها لغيره كان شركاً، وحراماً.

٢ - إن من شرائط صحة العبادة الاتيان بها خالصة لوجه الله، وبقصد التقرب اليه لا غير.

إن العمل العبادي إنها يكون سبباً لتكامل النفس، وموجبا للتقرب إلى الله، وضامناً للسعادة الأخروية، إذا أتى به عن إخلاص، ومن دون رياء أو سمعة. أما إذا أتى بالعمل العبادي بقصد الرياء أو توصلاً إلى الأهداف الدنيوية لم يكن ذلك فقط غير موجب للكمال الروحي والسعادة الأخروية بل يكون سبباً للانحطاط النفسي والنقصان الروحي، والعذاب الأخروي، ولهذا وصف الرياء - في

الأحاديث - بالشرك ونهي عنه بشدة.

قال أبو عبد الله عليه السلام : كلُّ رياءٍ شركٌ ، إنَّه من عَمِلَ للناس كان ثوابه على الناس ، ومن عَمِلَ لله كان ثوابه على الله ^(١).

علي بن سالم قال : سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول : قال الله عز وجل : أنا خيرُ شريكٍ ، من أشركَ معي غيري في عَمَلٍ عَمِلَهُ لم أقبَلْهُ إلَّا ما كان لي خالصاً ^(٢).

٣ - إنَّ مصاديق العبادة، وكيفيتها لا يعينها إلا الله والنبى، ولا يحقُّ لأحد أن يشرِّع أو يخترع - من لدن نفسه - عبادة.. فكيف ومن أين يستطيع الانسان أن يعرف أيَّ عمل يوجب التقرب إلى الله، و يورث كمال النفس، ويستوجب السعادة الأخروية؟

انه لا طريق الى مثل هذا الأمر إلا الاستفادة من هدايات الله، وإرشادات النبى، وهذه الجهة يُعتبر تشريع العبادة من غير هذا الطريق بدعة وحرماً. إنَّ البدعة في الدين، بمعنى جعل عبادةٍ أو حكمٍ من دون الإِستناد إلى القرآن والحديث، ونسبته إلى الاسلام، من المحرمات، والمعاصي الكبيرة التي نهى عنها في الأحاديث نهياً شديداً وقاطعاً.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ وكلُّ ضلالةٍ في النار ^(٣).

وعن يونس بن عبد الرحمن قال قلت لأبي الحسن الأول: بما أوحدُ الله؟ فقال: يا يونس لا تكوننَّ مُبتدِعاً، مَنْ نَظَرَ برأيه هلك، ومَنْ تركَ أهلَ بيت

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٣.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٢٩٥.

(٣) الكافي ج ١ ص ٥٧.

نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ تَرَكَ كِتَابَ اللَّهِ وَقَوْلَ نَبِيِّهِ كَفَرَ^(١).

وعن زُرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلال والحرام. فقال: حلالٌ مُحَمَّدٌ حلالٌ أبداً إلى يوم القيامة، وحرامُهُ حرامٌ أبداً إلى يوم القيامة، لا يكونُ غيرُهُ ولا يجيء غيرُهُ وقال: قال عليُّ عليه السلام: ما أحدٌ ابتدَعَ بدعةً إلا تركَ بها سنةً^(٢).

قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله: إذا ظَهَرَتِ البدعةُ في أُمَّتي فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ^(٣).

٤ - ان العبادات الإسلامية بصورة عامة تنقسم إلى:

١ - الواجبات.

٢ - المستحبات.

والواجبات العبادية عبارة عن الأعمال التي أوجبها الشارع الإسلامي المقدس على المكلفين فهم مأمورون بأن يأتوا بها بقصد القربة، ويكون تركها موجبا للعذاب الأخرى مثل الصلاة والصوم والحج والواجب، والجهد في سبيل الله.

والمستحبات هي الأعمال التي أمر بالإتيان بها، وهي توجب التقرب إلى الله، ونيل الثواب الأخرى، ولكن تركها لا يكون معصية مثل: النوافل اليومية، والصلوات المستحبة والحج والعمرة المستحبة، وقراءة القرآن، وذكر الله، وأنواع الأدعية والتوسلات التي وصلت إلينا من النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام، والصدقات المستحبة، وأنواع الصوم المندوب، والإحسان إلى الناس وخدمتهم، والإحسان إلى الوالدين، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

(١) الكافي ج ١ ص ٥٦.

(٢) الكافي ج ١ ص ٥٨.

(٣) الكافي ج ١ ص ٥٤.

ويشترط في صحة العبادات المستحبة واستيجابها الثواب أيضاً قصد القرية.

فكروا وأجيبوا

- ١ - عرفوا العبادة؟
- ٢ - وضحوا عبودية الناس التكوينية لله؟
- ٣ - وضحوا العبادة التشريعية؟
- ٤ - لماذا لا تجوز عبادة غير الله؟
- ٥ - ما هو أكبر شرط لصحة العبادة؟
- ٦ - من أي طريق يمكن معرفة العبادة؟
- ٧ - ما هي البدعة وما هي أدلة حرمتها؟

* * *

الدرس الثالث والخمسون

الصلاة

الصلاة من أفضل العبادات، وهي عمود الدين. إن المسلم يُفرِّغ نفسه كل يوم عدة مرات من الأعمال الدنيوية اليومية، ويتوجه إلى ربه الكريم، ويستمد منه العون والمدد، فيتوضأ، ويشغل بالصلاة، ويقيم إتصلاً مباشراً مع خالق الأرض والسماء، ويكلّمه ويتحدث إليه .. ويقف في كمال الخضوع والتواضع بين يدي رب العالمين، ويتوجه إليه بقلبه، ويظهر له العبودية. وينير فؤاده بذكر الله، ويجلّيه من صدى الغفلة والغفوة. إنه بالصلاة يصعد إلى عالم الصفاء والمعنوية، والكمال، ويرقى في مدارج التكامل النفسي، ويتحرك في مراتب التقرب إلى الله. ولقد ركزت آيات وأحاديث كثيرة على أهمية وقيمة هذه العبادة الكبرى، وإليك نماذج منها:

يقول في القرآن الكريم: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(١).

(١) البقرة: ٤٣.

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

ويقول: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾^(٢).

ويقول: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^(٣).

عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الصَّلَاةُ وَهِيَ آخِرُ وَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ، فَمَا أَحْسَنَ الرَّجُلُ يَغْتَسِلُ أَوْ يَتَوَضَّأُ فَيُسَبِّحُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَتَنَحَّى حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَنْيْسُ فَيُشْرِفُ عَلَيْهِ، وَهُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ.

إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَجَدَ فَأُطَالَ السُّجُودَ نَادَى إبليس: يَا وَيْلَاهُ أَطَاعَ وَعَصَيْتُ وَسَجَدَ وَأَبَيْتُ^(٤).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إِذَا قَامَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ فِي صَلَاتِهِ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ - أَوْ قَالَ - أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْصَرِفَ، أَظْلَتُهُ الرَّحْمَةُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ إِلَى أَفْقِ السَّمَاءِ وَالْمَلَائِكَةُ تَحْفُهُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَى أَفْقِ السَّمَاءِ وَوَكَّلَ اللَّهُ بِهِ مَلَكَاً قَائِماً عَلَى رَأْسِهِ يَقُولُ لَهُ: أَيُّهَا الْمُصَلِّي لَوْ تَعْلَمُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ وَمَنْ تَنْجِي مَا التَفَتَ وَلَا زَلَّتْ مِنْ مَوْضِعِكَ أَبَداً^(٥).

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) إبراهيم: ٣١.

(٣) العنكبوت: ٤٥.

(٤) الكافي ج ٣ ص ٢٦٤.

(٥) الكافي ج ٣ ص ٢٦٥.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس مني من استخف بصلاته. لا يرد علي الحوض لا والله. (١)
قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة يدعى بالعبد فأول شيء يُسأل عنه: الصلاة فإذا جاء بها تامة وإلا زُخ في النار. (٢)

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال (في كلام يوصي أصحابه): تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقربوا بها، فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً. (٣)

لقد اعتنى الاسلام بإقامة الصلاة والإلتزام بإيقاعها في أوقاتها المعينة، وبخاصة مع جماعة المسلمين في المساجد، والحضور في الجماعات والجمعات عناية بالغة، وأكد على كل ذلك تأكيداً شديداً.

إن إقامة الصلاة تعد من علائم الاسلام ولا يجوز الشارع الاسلامي المقدس تركها أبداً..

إن المسلمين مكلفون بإقامة الصلاة الواجبة في كل حال، في السفر والحضر، في حال السلامة وحال المرض، في حال الفراغ وعند شدة الإشتغال، بل حتى في ميادين القتال وفي حال الغرق في البحر.

على أن لكل حالة من هذه الحالات وظيفة خاصة عيّن الشارع الاسلامي المقدس.

إن ترك الصلاة الواجبة عمداً يعد من أكبر الذنوب .. بل ربما عدّ كفراً.
عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله

(١) وسائل الشريعة ج ٣ ص ١٦.

(٢) وسائل الشريعة ج ٣ ص ١٩.

(٣) وسائل الشريعة ج ٣ ص ١٩.

فقال: يا رسول الله أوصني.

فقال: لا تدع الصلاة مُتَعَمِّدًا، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَ مِنْهُ مِلَّةُ الإسلام^(١).

عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما بين الكُفْرِ والإِيْمَانِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ^(٢).

إِنَّ الصَّلَوَاتِ تَنْقَسِمُ إِلَى نَوْعَيْنِ:

الصَّلَوَاتِ الْوَاجِبَةِ.

الصلوات المستحبة.

النوع الأول - وهي الصلوات الواجبة على أربعة أنواع:

١ - الفرائض اليومية، وتعدّ منها صلاة الجمعة أيضاً.

والفرائض اليومية عبارة عن ١٧ ركعة تؤدّى في كل يوم: أربع ركعات هي صلاة الظهر، وأربع ركعات هي صلاة العصر، وثلاث ركعات هي صلاة المغرب، وأربع ركعات هي صلاة العشاء وركعتان هي صلاة الصبح.

٢ - صلاة الآيات، وهي ركعتان ولها كيفية خاصة.

إن صلاة الآيات تجب عند كسوف الشمس أو خسوف القمر أو الزلزلة أو وقوع آية حادثة سماوية هائلة يخاف بسببها أكثر الناس.

٣ - صلاة الطواف الواجب وهي ركعتان ويؤتى بها بعد طواف العمرة والحج.

٤ - قضاء فوائت الوالد الذي يجب على الولد الأكبر.

٥ - صلاة الميت التي تقام على الميت المسلم ولها كيفية خاصة.

(١) وسائل الشيعة ج ٣ ص ٢٩.

(٢) وسائل الشيعة ج ٣ ص ٢٩.

إن كَيْفِيَّةَ الصَّلَواتِ المذكورة مفصَّلة ومساثلها كثيرة جداً، ولا يسع لذكرها مجالُ هذه الصحائف، وللتعرف الكامل عليها يجب الرجوع إلى الكتب الفقهيَّة والرسائل العمليَّة.

النوع الثاني - الصَّلَوات المستحبة:

إن الصَّلَوات المستحبة هي أيضاً كثيرة جداً وهي تؤدِّي بكيفياتٍ خاصَّة في مناسباتٍ وأوقاتٍ خاصَّة، يمكن للراغبين في معرفتها مراجعة الرسائل العمليَّة وكتب الأدعية.

وفي الختام يجب أن أُشير إلى نقطة مهمَّة وهي حضور القلب في حال الصلاة. إن على المصلي أن يعرف أنه يقف بين يدي ربِّ العالمين، ويناجيه ويدعوه، فيجب أن يُخْرِجَ جميع الأغيار من فؤاده، ويُخَلِّيه من جميع الشواغل الصارفة، ويُقْبِلَ على صَلَّاته بكلِّ قلبه، ويقف بين يدي الله بتوجَّه كامل ويتحدث إليه ويدعوه بكمال الأدب والخضوع.

إنَّ الصَّلَاة من دون حضور القلب أشبه ما يكون بجسم من دون روح.

إن الأذكار والقراءات والركوع والسجود والتشهد والسلام هي الصورة الظاهرية للصلاة، ولكنَّ حضور القلب والإقبال على الله فيها هو روح الصلاة. إنَّ الصلاة من دون حضور القلب وإن كانت مسقطاً للتكليف الشرعي ولكنها لا تصعد ولا ترقى بالمصلي إلى مقام القرب الإلهي الرفيع.

إن قبول الصلاة يتوقف على مدى حضور القلب في المصلي، ولأجل هذا وَرَدَتْ أحاديث كثيرة تؤكد على تحصيل حضور القلب، ونذكر على سبيل المثال ما يلي:
قال النبي صلى الله عليه وآله: إنَّ من الصَّلَاة لما يُقْبَلُ نصفُها وتُلتُها ورُبُّعُها وخُمُسُها إلى العُشر، وإنَّ منها لما يُلْفَ كما يُلْفُ الثوبُ الخلقُ فيُضْرَبُ بها وجه صاحبها،

وإنَّها لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك ^(١).

قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله: أَيُّمَا عَبْدٍ إلتفت في صَلَاتِهِ قَالَ الله: يا عبدي! من تقصّد ومن تطلّب؟ أربّاً غيّرِي تريْدُ؟ أو رَقِيّاً سِوَاي تطلّب؟ أو جِوَاداً خِلَاي تَبغي؟ وأنا أكرّم الأكرَمين، وأجودُ الأجودين وأفضلُ المعطين، أُثيبُكَ ثِوَاباً لا يُحصَى قَدْرُهُ. أقبل إليّ فإني عليك مُقبل، وملائكتي عليك مُقبلون. فإنْ أقبلَ زالَ عنه ما كان. فإن التفتَ ثَانِيَةً أعادَ الله مَقَالَته، فإنْ أقبلَ على صَلَاتِهِ غفرَ الله له وتجاوزَ عنه ما كان. فإن التفتَ ثَالِثَةً أعادَ الله مَقَالَته، فإنْ أقبلَ على صَلَاتِهِ غفرَ الله ما تقدّم من ذنبه. فإن التفتَ رَابِعَةً أعرَضَ الله عنه واعرَضَتِ الملائكةُ ويقول: ولَيْتَكَ يا عبدي إلى ما تولَّيتَ ^(٢).

فكّروا وأجيبوا

- ١ - ماذا يفعلُ المصلّي في الصلاة؟
- ٢ - إحتفظوا إحدى الآيات المذكورة في الدرس.
- ٣ - كيف يحصلُ الإهتمامُ بالصلاة؟
- ٤ - هل السلامُ ييجوزُ تركُ الصلاةِ في حالٍ من الأحوال؟
- ٥ - عَدّدوا الصلوات الواجبة.
- ٦ - ما هو شرط قبولِ الصّلاة؟
- ٧ - اكتبوا حديثاً حول حُضور القلب في الصلاة.

* * *

(١) بحار الأنوار ج ٨٤ ص ٢٦٠.

(٢) بحار الأنوار ج ٨٤ ص ٢٤٤.

الدرس الرابع والخمسون

الصَّوْم

الصَّوْمُ من العبادات الإسلامية الكبرى .. إن هذه العبادة تتحقق بأن يمسك الإنسان عن الأكل والشرب ويتجنب الجماع وإنزال المني والكذب على الله والنبي والإرتماس في الماء والبقاء على الجنبابة إلى الفجر وتعمد القيء والاحتقان العمدي، من طلوع الفجر إلى المغرب بقصد الصوم..

إنَّ الصَّوْم يحظى من بين العبادات الإسلامية بمكانة متميزة جداً، وقد وَرَدَتْ حوله روايات عديدة نذكر منها ما يلي:

قالَ رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله: الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ^(١).
عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي عَلَيْهِ^(٢).

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نَوْمُ الصَّائِمِ عِبَادَةٌ وَصَمْتُهُ تَسْبِيحٌ، وَعَمَلُهُ

(١) الكافي ج ٤ ص ٦٢.

(٢) الكافي ج ٤ ص ٦٣.

مقبَّل، ودعاؤه مستجاب^(١).

قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: كل أعمال ابن آدم بعشرة أضعايفها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فإنه لي، وأنا أجزي به، فتواب الصبر مخزونٌ في علم الله، والصبر الصوم^(٢).

عن أبي جعفر عليه السلام قال: بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية^(٣).

إن وقت الصوم الواجب في الإسلام هو شهر رمضان فيجب على كل فرد مسلم وصل إلى سن البلوغ ولم يكن له عذر شرعي، أن يصوم شهر رمضان من أوله إلى آخره .. ولو أفطر من دون عذر شرعي ارتكب معصية كبيرة ووجب عليه القضاء والكفارة معاً.

ثم إنه يجوز لعدة طوائف أن يفطروا ولا يصوموا شهر رمضان بعهه أو كله وهم كالتالي:

- ١ - المريض الذي يضرّ به المرض.
 - ٢ - المسافر الذي يقطع على الأقلّ ثمانية فراسخ ذهاباً وإياباً، أو ذهاباً فقط.
 - ٣ - الحائض والنفساء.
 - ٤ - المرأة الحامل المقرب، أو التي يضرّ الصوم بحملها.
 - ٥ - المرأة المرضعة، ويقلّ لبنها على أثر الصوم، أو يضرّ الصوم بها أو بطفلها.
- هذه الأصناف يجوز لها الإفطار ولكن يجب عليها القضاء، فيما بعد.
- ٦ - الشيخ والشيخة اللذان لا يستطيعان الصوم أبداً أو يشقّ عليهما ذلك، ولا

(١) وسائل الشيعة ج ٧ ص ٢٩٤.

(٢) وسائل الشيعة ج ٧ ص ٢٩٥.

(٣) الكافي ج ٤ ص ٦٢.

يجب على هؤلاء القضاء أيضاً^(١).

إن ما ذكرناه في تعريف الصوم يطابق فتوى فقهاء الإسلام، ولكن للإمساك في الصوم في نظر علماء الأخلاق معنى أوسع .. فهم يقولون: إن صوم المرء إنما يكون كاملاً ومقبولاً إذا صامت جوارحه عن الذنوب، مضافاً إلى الإمساك عما ذكر من المفطرات، يعني أن يُجَنَّبَ بصره المعصية المرتبطة بها، وأذنه ولسانه ويده ورجله الإثم المرتبط بها.

إن مثل هذا الصوم يسمى بصوم الخواص ..

والأعلى من هذا الصوم هو صوم أولئك الذين يمنعون قلوبهم عن كل ما سوى الله، مضافاً إلى الإمساك عن الأكل والشرب، وتجنب المعاصي والذنوب .. ويرون الله حاضراً ناظراً أبداً، ويشاهدون مجلس ضيافته ..

إن مثل هذا الصوم يسمى بصوم خواص الخواص.

ولم يذهب علماء الأخلاق إلى هذا التقسيم إعتباطاً، بل استفادوه من أحاديث وردت في هذا المجال، ونذكر على سبيل المثال ما يأتي:

محمد بن عجلان قال: سَمِعْتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: ليس الصيام من الطعام والشراب، أن لا يأكل الإنسان ولا يشرب فقط، ولكن إذا صمتَ فليصم سمعك وبصرك ولسانك وبطنك وفرجك واحفظ يدك وفرجك وأكثر السكوت إلا من خير، وارفق بخادمك^(٢).

قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا صمتَ فليصم سمعك وبصرك من الحرام والقبیح، ودع المرء وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصائم، ولا تجعل يومَ صومك

(١) للوقوف على تفاصيل هذه المسائل يجب الرجوع إلى كتب الفقه والرسائل العملية.

(٢) وسائل الشيعة ج ٧ ص ١١٨.

كَيْومِ فِطْرِكَ^(١).

قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله في خُطبة له: وَمَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي إِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ وَكَفٍّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهُ وَفَرْجَهُ وَجَوَارِحَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالْحَرَامِ وَالْغَيْبَةِ تَقَرُّبًا، قَرَّبَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى تَمْسَ رُكْبَتَاهُ رُكْبَتَيِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، إنما للصوم شرط يحتاج أن يُحفظ حتى يتم الصوم، وهو الصمتُ الداخل أما تسمع قول مريم بنت عمران: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا، يعني صمتًا، فإذا صُمْتُمْ فَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ عَنِ الْكَذِبِ، وَغَضُوا أَبْصَارَكُمْ وَلَا تَنَازَعُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَغْتَابُوا وَلَا تَمَارُوا وَلَا تَكْذِبُوا وَلَا تَبَاشِرُوا وَلَا تُخَالِفُوا وَلَا تَغَاضِبُوا وَلَا تَسَابُّوا وَلَا تَشَاتَمُوا وَلَا تَنَابَزُوا وَلَا تَجَادِلُوا وَلَا تَبَادُوا وَلَا تَظْلِمُوا وَلَا تَسَافَهُوا، وَلَا تَرَاوَعُوا وَلَا تَغْفَلُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَالزُّمُوا الصَّمْتَ وَالسُّكُوتَ وَالْحِلْمَ وَالصَّبْرَ وَالصِّدْقَ وَمَجَانِبَةَ أَهْلِ الشَّرِّ، وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ وَالْكَذِبِ وَالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَةِ، وَظَنَ السُّوءِ وَالْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَكُونُوا مُشْرِفِينَ عَلَى الْآخِرَةِ مُنْتَظَرِينَ لِأَيَّامِكُمْ، مُنْتَظَرِينَ لِمَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ مُتَزَوِّدِينَ لِلِقَاءِ اللَّهِ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَالْخُشُوعُ وَالْخُضُوعُ وَذَلَّ الْعَبْدُ الْخَائِفُ مِنْ مَوْلَاهُ رَاجِي خَائِفِينَ رَاجِينَ رَاهِبِينَ قَدْ طَهَّرْتُمُ الْقُلُوبَ مِنَ الْعُيُوبِ وَتَقَدَّسَتْ سِرَائِرُكُمْ مِنَ الْخُبِّ، وَنَظَّفْتُ الْجِسْمَ مِنَ الْقَاذُورَاتِ، تَبَرَّأْتُ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَدَائِهِ، وَوَالَيْتُ اللَّهَ فِي صَوْمِكَ بِالصَّمْتِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ مِمَّا قَدْ نَهَاكَ اللَّهُ عَنْهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَخَشِيتُ اللَّهَ حَقَّ خَشْيَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَوَهَبْتُ نَفْسَكَ لِلَّهِ فِي أَيَّامِ صَوْمِكَ، وَفَرَّغْتَ قَلْبَكَ لَهُ فَبِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ وَدَعَاكَ إِلَيْهِ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَانْتَ صَائِمٌ لِلَّهِ بِحَقِيقَةِ صَوْمِهِ

(١) وسائل الشيعة ج ٧ ص ١١٧.

(٢) وسائل الشيعة ج ٧ ص ١١٧.

صانع لما أمرك، وكلما نقصت منها شيئاً مما بينت لك فقد نقص من صومك بمقدار ذلك (إلى أن قال:). إن الصوم ليس من الطعام والشراب إنما جعل الله ذلك حجاباً مما سواها من الفواحش من الفعل والقول يفطر الصوم، ما أقل الصوم وأكثر الجوع^(١).
إن الصوم ليست عبادة بسيطة وعادية بل هي أكبر عبادة ذات مصالح وحكم متعددة أشارت إليها الأحاديث، ونحن ندرج هنا بعضها للاطلاع:

الأول: المعنوية، والافاضات الربانية التي يحظى بها الصائم من جانب الله.
عن أبي حمزة الثمالي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الصائم ليرتفع في رياض الجنة، وتدعو له الملائكة حتى يفطر^(٢).

أمير المؤمنين عليه السلام صلى الله عليه وآله قال في ليلة المعراج: يا رب ما أول العبادة قال: أول العبادة الصمت والصوم.

قال: وما ميراث الصوم؟ قال: يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر^(٣).
حسن بن صدقة قال قال أبو الحسن عليه السلام: قيلوا، فإن الله يطعم الصائم ويسقيه في منامه^(٤).

وعن علي عليه السلام قال: ان رسول الله خطبنا ذات يوم فقال: أيها الناس إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دعيت فيه إلى ضيافة الله وجعلتم فيه من أهل كرامة الله أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه

(١) وسائل الشيعة ج ٧ ص ١١٩.

(٢) مستدرک الوسائل ج ١ ص ٥٩٠.

(٣) الكافي ج ٤ ص ٦٥.

(٤) وسائل الشيعة ج ٧ ص ٢٢٧.

عبادةً وعملكم فيه مقبولٌ، ودعاؤكم فيه مستجابٌ^(١).

الثاني: الفلسفة الثانية للصوم التي اشير اليها في الاحاديث هي أنّ الأغنياء يذوقون على أثر الصوم ألم الجوع، وهذا يتذكّرون حالة الفقراء والمحرومين وما يلاقونه من ضيق ومشقة في مآكلهم ومطعمهم فيفكرون في مدّ العون إليهم.

سأل هشام بن الحكم أبا عبدالله عليه السلام عن علة الصيام؟

فقال: إنها فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير، وذلك ان الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه، فاراد الله أن يسوي بين خلقه، وان يذوق الغني مسّ الجوع وإلا لم يرقّ على الضعيف ويرحم الجائع^(٢).

كتب أبو الحسن علي بن موسى عليهما السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله: علة الصّوم لعرفان مسّ الجوع والعطش ليكون ذليلاً مستكيناً مأجوراً صابراً، ويكون ذلك دليلاً على شدائد الآخرة مع ما فيه من الإنكسار له عن الشهوات، واعظاً له في العاجل دليلاً له على الآجل ليعلم شدة مبلغ ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدنيا والآخرة^(٣).

مع مراعاة هذه الفلسفة للصوم يمكن المساعدة بشكلٍ فعّالٍ وإلى درجةٍ كبيرةٍ على حلّ مشكلة الجوع في العالم.

فكروا أنتم لو ادّخر جميع الأثرياء الصائمين وجبة واحدة من طعامهم، ثم قدّموا كل ذلك في نهاية شهر رمضان إلى فقراء بلادهم أو البلاد الأخرى في صورة مؤن، أو مساعدات نقدية، فكم ياترى يمكنهم معالجة الفقر والجوع؟ وبملاحظة زكاة

(١) وسائل الشيعة ج ٧ ص ٢٢٧.

(٢) الوافي ج ١١ ص ٣٣.

(٣) الوافي ج ١١ ص ٣٤.

الفطرة التي يؤديها كل مسلم، والصدقات وأعمال البر التي ندب إليها الإسلام وأكد عليها في هذا الشهر، تهيأت للفقراء والمحرومين مبالغ هائلة.

الثالث: الفلسفة الثالثة والأهم للصوم هي ترويض النفس وتمريها على ترك المعصية وتحصيل صفة التقوى.

إن الصائم الواقعي يتجنب - طوال شهر رمضان - كل نوع من أنواع المعصية باجتهاد كامل، بل يغمض - لأجل الصوم - حتى عن اللذائذ المشروعة كالأكل والشرب كذلك.. ويواصل هذا العمل الذي هو رياضة روحية كبرى لمدة شهر واحد. إن شخصا كهذا يسيطر على نفسه، ويمكنه أن يواصل مثل هذه السيطرة على نفسه بعد شهر رمضان أيضاً، وفي مقدوره أن يبقى تقياً دائماً.

إن الفلسفة المذكورة يمكن اعتبارها من أهم أهداف الصوم، وقد أشار إليه القرآن الكريم أيضاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

فكروا وأجيبوا

- ١ - ما هي الأعمال التي يجب أن يتجنبها الصائم؟
- ٢ - ما هي الأصناف التي يجوز لها الإفطار في شهر رمضان؟
- ٣ - في أية صورة يكون الصوم صوماً كاملاً ومقبولاً؟
- ٤ - وضّحوا حكم الصوم، وجوانب من فلسفتها؟

الدرس الخامس والخمسون

الحجّ

الحجّ من الفرائض والواجبات الالهية الكبرى التي عُدت في الأحاديث من أركان الإسلام، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية^(١).
ينقسم الحجّ إلى ثلاثة أنواع: حجّ التمتع، حجّ القران، حجّ الأفراد.. ونشير هنا إلى أعمال حج التمتع فقط:

إنّ أعمال حجّ التمتع تنقسم إلى قسمين: الأوّل: العمرة، الثاني: الحجّ.

الأوّل: العمرة؛ وتتألف من خمسة أعمال:

- ١ - الإحرام في أحد المواقيت الخاصة، وتجنّب أعمال معينة طوال مدة الإحرام.
- ٢ - الطواف حول الكعبة المعظمة سبعة أشواط.
- ٣ - الصلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم بنية صلاة الطواف.
- ٤ - السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط.

(١) الكافي ج ١ ص ٦٢.

- ٥ - التقصير أيّ قص شيء من شعر الرأس أو الوجه أو الأظافر.
- كل هذه الأعمال عباداتٌ يجب الإتيان بها بنية القربة، وبالصورة والكيفية والشرائط المعتبرة وتسمى العمرة.
- الثاني: الحجّ، وفي الحج أيضاً يجب القيام بـ (١٣) عمل هي:
- ١ - الإحرام في الحرم المكيّ.
- ٢ - الوقوف في عرفات من الظهر إلى الغروب من يوم عرفة. (أي اليوم التاسع من شهر ذي الحجة).
- ٣ - الإفاضة إلى المشعر الحرام، والوقوف هناك من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس من صبيحة عيد الأضحى.
- ٤ - الإفاضة إلى منى يوم العيد، ورمي جمرة العقبة.
- ٥ - الأضحية يعني ذبح بقرة أو شاة أو بعير بمنى.
- ٦ - حلق شعر الرأس أو تقصيره بمنى.
- ٧ - الوقوف في منى من أول الليل إلى نصفه من ليلتي الحادي عشر والثاني عشر من شهر ذي الحجة.
- ٨ - رمي الجمرة الأولى والوسطى والعقبة في اليوم الحادي عشر والثاني عشر.
- ٩ - العودة إلى مكة والطواف حول الكعبة سبعة أشواط، بنية طواف الحج.
- ١٠ - الصلاة ركعتين بنية صلاة الطواف خلف مقام إبراهيم.
- ١١ - السعي سبعة أشواط بين الصفا والمروة وبهذه الأعمال الثلاثة (الأخيرة) تنتهي أعمال طواف الحج.
- ١٢ - وبعد ذلك يقوم الحاج بالطواف سبعة أشواط حول الكعبة بنية طواف النساء.
- ١٣ - وبعد الطواف يأتي بركعتين من الصلاة خلف مقام إبراهيم.

ويبدأ وقت الإتيان بأعمال مكة من يوم العيد، بعد الإتيان من المناسك، ويستمر إلى آخر شهر ذي الحجة.. ويمكن للحاج أن يذهب إلى مكة يوم العيد للقيام بأعمال مكة، ثم يعود إلى منى. أو يؤخر ذلك إلى اليوم الثاني عشر وبعده. إن مجموع هذه الأعمال التي تشكل مناسك الحج عبادات يجب الإتيان بها بقصد القرية، وبالكيفية والصورة المخصوصة والشرائط المعتبرة فيها. ثم ان هناك عدة أعمال تحرم على المحرم^(١).

إن الحج عبادة كبرى ذات مراسم متنوعة تؤدي طوال عدة أيام.. ولو أنها أتت بها على الوجه الصحيح لكان لها تأثير بالغ وعظيم في تزكية النفس، وتهذيبها، وتكميلها وفي تقربها إلى الله تعالى.

وإن أكبر أهداف هذه العبادة العظيمة هو تمرين المرء نفسه على مواصلة التوجه إلى الله، وإدامة ذكره، والاعتقاد بأنه في محضره سبحانه، وعلى مرأى منه ومسمع. يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(٢).

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الحج والعمرة سوقان من أسواق الآخرة والعامل بهما في جوار الله، إن أدرك ما يأمل غفر الله له، وإن قصر به أجله وقع أجره على الله^(٣).

وعن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: إذا أخذ الناس منازلهم بمنى نادى نادى:

(١) للوقوف على هذه المحرمات في حال الإحرام وبقية مسائل الحج والعمرة يجب الرجوع الى كتب الفقه والرسائل العملية.

(٢) الحج: ٢٧ - ٢٨.

(٣) الكافي ج ٤ ص ٢٦٠.

لو تعلمون بفناء مَنْ حَلَلْتُمْ لَا يَفْتَنْتُمْ بِالْخَلْفِ بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ ^(١).

عن الرضا عليه السلام (في حديث) قال: إِنَّمَا أُمِرُوا بِالْحَجِّ لَعَلَّ الْوَفَادَةَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَطَلَبَ الزِّيَادَةَ وَالْخُرُوجَ مِنْ كُلِّ مَا اقْتَرَفَ الْعَبْدُ، تَائِباً مِمَّا مَضَى، مُسْتَأْنِفاً لِمَا يَسْتَقْبِلُ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ، وَتَعَبِ الْأَبْدَانِ وَالِاشْتِغَالِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَحَظَرِ النَّفْسِ عَنِ اللَّذَاتِ، شَاخِصاً فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، ثَابِتاً عَلَى ذَلِكَ دَائِماً، مَعَ الْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَالتَّذَلُّلِ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْمَنَافِعِ، مَنْ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا، وَمَنْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، مَنْ يَحْجُّ وَمَنْ لَمْ يَحْجَّ، مِنْ بَيْنِ تَاجِرٍ وَجَالِبٍ وَبَايِعٍ وَمَشْتَرٍ وَكَاسِبٍ وَمُسْكِينٍ وَمَكَارِيٍّ وَفَقِيرٍ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِ أَهْلِ الْأَطْرَافِ فِي الْمَوَاضِعِ الْمُمْكِنِ لَهُمُ الْاجْتِمَاعُ فِيهِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّفَقُّهِ، وَنَقْلِ أَخْبَارِ الْأُئِمَّةِ إِلَى كُلِّ صَقْعٍ وَنَاحِيَةٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ ^(٢).

إِنَّ السَّفَرَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ لِلْحَجِّ سَفَرٌ رُوحَانِيٌّ وَرَحْلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، وَحَرَكَةٌ مُبَارَكَةٌ نَحْوَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِنَّ الْحَاجَّ يَهْبِئُ نَفْسَهُ لِهَذَا السَّفَرِ الْهَامِّ قَبْلَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ .. يَتَوَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَيُفَرِّغُ نَفْسَهُ مِنْ جَمِيعِ الشَّوَاعِلِ، وَالتَّعَلُّقَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِنْ أَجْلِ لِقَاءِ اللَّهِ .. يَر_اقِبُ اللَّهَ فِي كُلِّ حَالٍ .. وَيَذْكُرُهُ عَلَى الدَّوَامِ، وَيَرَى نَفْسَهُ فِي مُحَضْرَةٍ أَبَدًا وَدَائِمًا.

إِنَّهُ يُؤَدِّي مَر_اسِمَ الْعِمْرَةِ وَالْحَجِّ وَمُنَاسِكِمَهِمَا عَنْ بَصِيرَةٍ وَوَعْيٍ، وَمَعَ الْعِلْمِ بِحِكْمِمَهِمَا وَأَهْدَافِمَهِمَا، وَعِنْدَ الْإِحْرَامِ كَمَا يَنْزِعُ عَنْ جِسْمِهِ الثِّيَابَ وَيَلْبِسُ قِطْعَتَيْنِ مِنْ

(١) الكافي ج ٤ ص ٢٦٣.

(٢) وسائل الشيعة ج ٨ ص ٧. التوبة: ١٢٢. الحج: ٢٨.

القماش الأبيض العادي كذلك يطهر ذاته من التعلقات الدنيوية، ويأتي بالتلبية استجابةً لنداء الله ودعوته وكلما ازداد اقتراباً إلى الكعبة المعظمة ازداد قلبه اقتراباً إلى الله .. وفي الطواف والصلاة والسعي بين الصفا والمروة يبقى ذاكراً لله دائماً .. ويرى نفسه في محضره وعلى مرأى ومسمعٍ منه سبحانه وتعالى.

عند الوقوف في عرفات يتذكر وقوفه يوم القيامة بين يدي الله تعالى ... وعند رمي الجمرات يرمي في باطنه نفسه الامارة بالسوء .. والشيطان الموسوس في الصدور .. وعند الأضحية يتذكر تضحيات النبي ابراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهم السلام ويحلمها ويكرمها.

وفي نهاية مناسك الحج يعزم على أن يترك إرتكاب الذنوب، والمعاصي، كما يعزم على أن يبقى ذاكراً لله، مراقباً إياه، مسلماً لأوامره.

ان الحاج الواقعي يعود إلى وطنه بمثل هذه الفوائد، وعلى مثل هذه الحالة.

المؤتمر الإسلامي العالمي

ولكن منافع الحج لا تنحصر في الأصعدة العبادية والمعنوية، بل ينطوي الحج على منافع أخرى قد أُشير إليها على سبيل الإجمال في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

ولفظ «المنافع» كلي ومطلق يشمل كل منفعة وفائدة.

كما أن «لهم» يستفاد منه أن المراد من المنافع هي المنافع التي ترتبط بالمسلمين من حيث كونهم مسلمين..

إن هذه المنافع يمكن - بطبيعة الحال - أن تتفاوت بتفاوت الأزممة والأمكنة .. يمكن أن تكون منافع سياسية، واجتماعية، وثقافية وإقتصادية، وعسكرية. إن الإسلام يعتبر جميع المسلمين - أينما كانوا، وأي مذهب اختاروا - أمة واحدة

ذات مصالح مشتركة ومسؤوليات مشتركة واعداء مشتركين في العداء لها.

إن المسؤوليات المشتركة بين المسلمين عبارة عن:

١ - تبليغ الثقافة الإسلامية الأصلية ونشرها وبثها بين المسلمين أنفسهم وبين غيرهم من الأمم.

٢ - مكافحة الثقافة المتخلفة والمفاسد الأخلاقية الآتية من ناحية أعداء الإسلام.

٣ - مكافحة الكفر والشرك والوثنية سواء كان الوثن من خشب أو حجر أو ذهب أو فضة أو كان بشراً طغى فصار طاغوتاً يعتدي على حريم التوحيد الإلهي، ويعطي لنفسه حق التقنين والتشريع للآخرين ويفرض طاعته عليهم.

٤ - إختيار سياسة واحدة في كيفية العلاقات بينها وبين البلاد غير الإسلامية.

٥ - السعي لدعم أو اصرار الوحدة بين البلاد الإسلامية، وتقوية العلاقات المتقابلة.

٦ - التعاون الاقتصادي، والثقافي، والعلمي بين البلاد الإسلامية.

٧ - الدفاع عن الأراضي الإسلامية.

٨ - مكافحة محاولات أعداء الإسلام التسلطية على البلاد الإسلامية.

٩ - المنع من أيّ عدوانٍ احتماليٍّ من قِبَلِ دولةٍ إسلاميةٍ على دولةٍ إسلاميةٍ أخرى.

١٠ - النظر في شكوى الدولة المعتدى عليها.

١١ - الدفاع عن الإسلام ومواجهة مؤامرات أعداء الإسلام.

١٢ - الدفاع عن حقوق المسلمين الإسلامية وكذا عن حقوق غير المسلمين الذين يعيشون في البلاد الإسلامية.

وغير ذلك من الأمور المشتركة التي ترتبط بجميع المسلمين، وبالعالم الإسلامي

جميعاً.

إن الأمور المذكورة يمكن أن تكون من مصاديق «المنافع» التي جاء ذكرها في الآية .. من المعلوم أن الأمة الإسلامية لا يمكنها أن تعيش كأمة مستقلة قوية، عظيمة في عيون العالم إلا إذا اجتهدت في القيام بهذه المسؤوليات الإسلامية المشتركة، وبقيت وفيّة لها. ولا بد للقيام بهذه المسؤوليات الكبرى من تشكيل مجمع إسلامي عالمي .. يجمع يمثل فيه عن جميع المذاهب والبلدان الإسلامية ممثل أو ممثلون متعدّدون يتدارسون قضايا العالم الإسلامي، ويتخذون القرارات اللازمة ويبلغون نتائجها إلى البلاد الإسلامية.

إن المجمع المذكور يمكن أن يكون له أعضاء دائميون، ولجان مختلفة تراقب أمور المسلمين طوال السنة ثم يكون لها عند مواسم الحج مؤتمر عالمي أوسع. إن الإسلام يعتبر الحرم الألهي الآمن وجوار الكعبة المعظمة أفضل مكان لمركز هذا المجمع الإسلامي العالمي.

يقول في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٢).

قال الراغب في شرح لفظة «مثابة»: وسَمِيَ مكان المستسقي على فم البئر

(١) آل عمران: ٩٦ - ٩٧.

(٢) البقرة: ١٢٥.

مثابة^(١).

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

كتب الراغب في تفسير «قياماً»: والقيام والقوام إسم لما يقوم به الشيء، أي يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به كقوله ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي جعلها مما يمسككم وقوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ أي قواماً لهم يقوم به معاشهم ومعادهم^(٣).

وقد وُصفت الكعبة في الآيات المذكورة بأنها: «مبارك» و «هدى للعالمين» و «مثابة للناس» و «أمن» و «قياماً للناس».

ومن المعلوم أن الحرم الإلهي الآمن والكعبة المعظمة أفضل وأنسب مركز يمكن أن يقود العالم الإسلامي ويقوم بهدايته، وفي مثل هذه الصورة يمكن أن يقال أن قوام الأمة الإسلامية يرتبط بوجود الكعبة.

وقد أُشير إلى هذا الموضوع في بعض الأحاديث أيضاً واليك بعضها:
أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة^(٤).

لقد اعتبر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله أيضاً الحرم محلاً مناسباً لظهور البرائة من المشركين إذ أمر علياً عليه السلام بأن يتلو آيات البرائة على مسامع

(١) المفردات: ص ٨٣.

(٢) المائدة: ٩٧.

(٣) المفردات ص ٤١٧.

(٤) الكافي ج ٤ ص ٤٧١.

المشركين يوم الحج: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾^(١).

وعلى هذا الأساس فإن تأسيس مثل هذه المنظمة الإسلامية العالمية في جوار الكعبة المعظمة يعتبر أفضل وألزم نفع يمكن أن يصل إلى العالم الإسلامي، ولو أن العالم الإسلامي سعى إلى تأسيس مثل هذه المنظمة لتغيير وضع المسلمين في العالم حتماً، وكان على غير ما هو عليه الآن.

ومن الواضح أن الوصول إلى مثل هذا الهدف العظيم ليس عملاً سهلاً بل يحتاج إلى جهاد كبير وتضحية هائلة.

فاولاً: على السلطة الحاكمة على الحرمين الشريفين أن تراعي مصالح المسلمين العليا بعيداً عن العصبية الطائفية والمذهبية، وحب الجاه والمنصب، وأن يهيئوا الإمكانيات اللازمة لتأسيس مثل هذه المنظمة وأن يطلبوا من البلاد والفرق الإسلامية ليعتوا بممثلهم للإشتراك في تلك المنظمة.

وثانياً: على حكام البلاد الإسلامية جميعاً أن يطالبوا حكام الحرمين بأن يهيئوا مستلزمات تأسيس مثل هذه المنظمة.

وثالثاً: على علماء الدين والمصلحين الخيِّرين أن يبدأوا الترويج لهذه الفكرة، ولتحقيق هذا الهدف الكبير، ويهيئوا أذهان المسلمين له حتى يضغطوا على دولهم وحكوماتهم ليسعوا إلى تأسيس وإقامة مثل هذه المنظمة.

وفي الخاتمة لا بد من التذكير بهذا الموضوع وهو أن وحدة البلاد الإسلامية وتضامنها وتأسيس مثل هذه المنظمة العالمية الإسلامية ومعالجتها لقضايا البلاد ذات المصالح المشتركة في الحرم الطاهر الآمن، هو الهدف النهائي الذي يجب السعي

الدَّوْبُ للوصول إلى تحقيقه، ولكن لا بدّ قبل ذلك وفي الظروف الحاضرة أن يستفاد أيضاً من مراسم الحج، وإقامة المؤتمرات تحت عناوين مختلفة في الحرمين الشريفين والسعي - قدر المستطاع - في تقوية الاواصر السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والعلمية، بين البلاد الإسلامية، وإظهار البرائة من المشركين، وفضح مخططات أعداء الاسلام التقليديين والجُدد ومؤامرات الإستكبار العالميّ البغيض.

فَكَّرُوا وَأَجَبُوا

- ١ - ماذا يمكن استفادته معنوياً من الحج؟
- ٢ - كيف يعود الحاجُّ الواقعيُّ إلى وطنه من الحج؟
- ٣ - ما هي المسؤوليات المشتركة بين المسلمين؟
- ٤ - ماذا يلزم للوصول إلى الأهداف المذكورة؟
- ٥ - ما هو المكان الأنسب والأفضل لإقامة مجمع إسلامي عالمي؟
- ٦ - ما هو أفضل منفعة يمكن أن تعود على المسلمين من الحج؟
- ٧ - مَنْ الذي يجب أن يعمل ويسعى لتحقيق هذا الهدف؟
- ٨ - ما الذي يمكن أن يستفاد من موسم الحج في الظروف الراهنة؟



الدّرس السادس والخمسون

الدُّعاء

الدعاء يعني الإستعانة والإستغاثة بأحد أو شيء أو طلب شيء منه .. والدعاء إنما يكون صحيحاً إذا توفّر في المدعوّ شرطان:

أحدهما: أن يكون ذا شعور وعاقلاً، يسمع نداء الداعي، ويفهم طلبه.

الآخر: أن يكون قادراً على تنفيذ مطلب الداعي، وقضاء حاجته.

وعلى هذا فليس من الصحيح أن يدعو الإنسان الجمادات، وكذا لا يصح أن يدعو من لا يقدر على قضاء حاجته، وتنفيذ مطلبه، إلّا أن يكون الداعي يتخيّل أن المدعوّ قادر على ذلك.

ولهذا فإنّ على العباد - بغية قضاء حوائجهم وحلّ مشكلاتهم - أن يمدّوا يد الاستغاثة والاستعانة إلى الله تعالى، ويطلبوا منه سبحانه حوائجهم، لأنّه أقرب الأشياء إلى العباد ولأنّه حاضر أينما كانوا، يسمع دعاءهم ونداءهم ويقدر كذلك على تلبية مطالبهم وحوائجهم.

إنّ الإنسان وجميع الكائنات مخلوقون لله تعالى، ومرتبطون به ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وآثاراً ارتباط المعلول بعلة، بل هم عين الفقر والربط. فكل ما عندهم، هو

من الله تعالى، بحيث لو انقطع فيضه عنهم لحظة واحدة لفنوا جميعاً، وتبدل وجودهم إلى عَدَم.

وعلى هذا فإن الله تعالى عالم بجميع عبادِه محيطٌ بهم إحاطةً قِيوميةً وعِلْمٌ، وهو قريبٌ إليهم .. يسمعُ إستغاثاتهم، ويقدرُ على قضاءِ حوائجهم. إنَّ على الإنسان أن يتذكر فقره الذاتيَّ أبداً دائماً، ويطلبَ منه حاجاته، وهذا الطريق يكونُ قد عَمِلَ أمرين: من جانبٍ يكون قد لجأ إلى الله خالقِ الكونِ، في رفعِ إحتياجاتِه، فهو يستمدُّ منه، ويستغيث به.

ومن جانب آخر يكون قد خضع أمامه وأظهر العبودية له تعالى، وهو لا شك عبادةً موجبةً للتقرب إلى الله

وهنا يجب الإشارة إلى مطلبين:

المطلب الأول: أن الدعاء عبادةٌ واقعيةٌ بل هو من أفضل العبادات، لأنَّ العبادة تعني في الحقيقة أنَّ العبد يعتقد أن الله مالِكُه الحقيقي، وأنه مملوك له وعبدٌ من عبادِه، فيخضعُ له ويظهرُ العبودية بين يديه، ويرفعُ إليه فقره، وفاقته، وهذا المعنى نفسه موجودٌ في الدعاء أيضاً.

ولهذا وُصف الدعاء بالعبادة في القرآن والحديث أيضاً:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١).

لقد عدَّ ترك الدعاء في الآية المذكورة إستكباراً عن العبادة.

عن حنان بن سدير عن أبيه قال: قلتُ لأبي جعفر عليه السلام: أيُّ العبادة

(١) غافر: ٦٠ داخرين: أدلاء.

أفضل؟

فقال: ما من شيء أفضل عند الله عز وجل من أن يُسأل ويُطلب مما عنده، وما من أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عند الله ^(١). وعن سيف بن التمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عليكم بالدعاء فانكم لا تقرُّون بمثله، ولا تتركوا صغيرةً لصغرها أن تدعوا بها، إن صاحب الصغار هو صاحب الكبار ^(٢).

حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ادع ولا تقل: قد فرغ من الأمر، فإن الدعاء هو العبادة، إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وقال: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ^(٣).

وعلى هذا فإن الدعاء من أفضل العبادات، لو أتى به بقصد القرية استوجب تكامل النفس والتقرُّب إلى الله، والثواب الأخروي، وهذا أثر يترتب على الدعاء حتماً .. وإن لم تترتب عليه آثار دنيوية.

إن الذي يعتبر نفسه عبداً لله يجب أن لا يغفل عن هذه العبادة الكبرى أبداً وفي أي حالٍ من الأحوال.

المطلب الثاني: يُستفاد من الآيات أن الدعاء لو تحقق لاستتبع الإجابة حتماً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ^(٤).

(١) الكافي: ج ٢ ص ٤٦٦.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٤٦٧.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٤٦٧.

(٤) البقرة: ١٨٦.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِنَبِيِّهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي، فَقُلْ لَهُمْ إِنِّي قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ فَلْيَدْعُونِي مِنْ شَاءِ أُجِبُهُ .. ففِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ كَمَا تَلَا حُظُونٌ لَمْ يَشْتَرِطْ فِي الْإِجَابَةِ شَرْطًا، وَلَمْ يَعْطِفْهَا عَلَى شَيْءٍ، وَأَنَّمَا رَتَّبَ الْإِجَابَةَ عَلَى الدَّعَاءِ بِصُورَةٍ مُطْلَقَةٍ بَلْ بِعِبَارَةٍ «إِذَا دَعَا» أَشَارَ إِلَى نَكْتَةٍ مُهِمَّةٍ جَدًّا وَهِيَ أَنَّهُ يَقُولُ: إِنِّي إِنَّمَا أُجِيبُ الدَّعَاءَ، إِذَا كَانَ الْعَبْدُ يَدْعُوَنِي حَقِيقَةً، وَوَقَاعًا.

مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ يَسْتَفَادُ أَنَّ دَعَاءَ الْعَبْدِ إِنَّمَا يَحْطَى بِالْإِجَابَةِ إِذَا لَمْ يَأْمَلْ غَيْرَ اللَّهِ وَلَمْ يَرْجِ شَيْئًا أَوْ شَخْصًا سِوَاهُ، بَلْ دَعَاءُ اللَّهِ خَاصَّةٌ وَمِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ، وَصَمِيمٌ ضَمِيرِهِ. إِنْ طَلَبَ شَيْءٌ مِنَ اللَّهِ يَجِبُ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِي الْقَلْبِ أَوَّلًا؛ ثُمَّ يَجْرِي ذَلِكَ عَلَى لِسَانِهِ لَا أَنْ يَتَصَوَّرَ مَفْهُومًا مَا فِي ذَهْنِهِ، وَيُجْرِي أَلْفَافًا عَلَى لِسَانِهِ، بَيْنَمَا يَعْطِقُ أَمَالَهُ فِي بَاطِنِ كَيَانِهِ، عَلَى الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ وَيَعْتَبِرُهَا هِيَ الْمَوْثَرَةُ.

وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ الْإِنْقِطَاعَ عَمَّا سِوَى اللَّهِ، وَطَلَبَ شَيْءٍ مِنَ اللَّهِ بِجَدٍّ، شَرْطٌ فِي اسْتِجَابَةِ الدَّعَاءِ لِأَنَّهُ بَدُونِ ذَلِكَ لَا يَتَحَقَّقُ حَقِيقَةُ الطَّلَبِ مِنَ اللَّهِ، لَتَتَحَقَّقَ - بَعْدَ ذَلِكَ - الْإِجَابَةُ. وَلَكِنْ هَذَا الْكَلَامُ لَا يَعْنِي بِالْمَرَّةِ إِنْكَارَ تَأْثِيرِ الْعِلَلِ وَالْمَعْلُولَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَتَأْثِيرِهَا، بَلِ الْمُرَادُ هُوَ أَنَّ الدَّاعِيَ يَجِبُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى أَنَّ جَمِيعَ الْعِلَلِ وَالْمَعْلُولَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ مُحْتَاجَةٌ فِي وَجُودِهَا وَتَأْثِيرِهَا إِلَى اللَّهِ الْمُتَعَالَى، وَمُرْتَبِطَةٌ بِهِ، غَيْرُ مُسْتَقْلَةٍ عَنْهُ، لَا فِي ذَاتِهَا، وَلَا فِي آثَارِهَا.

إِنْ مَنَشَأَ جَمِيعُ هَذِهِ الْإِفَاضَاتِ هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ، وَلَكِنْ أَبِي اللَّهُ أَنْ يَجْرِيَ الْأُمُورَ إِلَّا بِأَسْبَابِهَا.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ فَإِنَّ مِنْ عِلَلِ عَدَمِ إِجَابَةِ بَعْضِ الْأَدْعِيَةِ هُوَ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ الدَّعَاءُ الْوَاقِعِيُّ حَتَّى يَسْتَتَبِعَ الْإِجَابَةَ.

وَلَقَدْ أُشِيرَ - فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ - إِلَى هَذَا الْمَوْضُوعِ أَيْضًا.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ

وجل لا يستجيبُ دعاءً بظهر قلبٍ ساهٍ، فاذا دعوتَ فأقبلُ بقلبك ثم استيقنْ بالإجابة^(١).

قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يقبلُ الله عز وجل دعاءَ قلبٍ لاهٍ^(٢).
موسى بن جعفر عليه السلام قال: قال قوم للصديق عليه السلام: ندعوا فلا يستجابُ لنا؟
قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه^(٣).

وعن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه جعفر بن محمد عن آبائه عن علي عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: يَقُولُ اللهُ عز وجل: ما مِنْ مَخْلُوقٍ يَعْتَصِمُ بِمَخْلُوقٍ دُونِي إِلَّا قَطَعْتُ بِهِ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ وَأَسْبَابَ الْأَرْضِ مِنْ دُونِهِ، فَإِنْ سَأَلَنِي لَمْ أُعْطِهِ وَإِنْ دَعَانِي لَمْ أُجِبْهُ، وَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ يَعْتَصِمُ بِي دُونَ خَلْقِي إِلَّا ضَمَنْتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ رِزْقَهُ، فَإِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَإِنْ اسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ^(٤).

العلة الثانية - قد لا يحظى الدعاء اللساني بالإجابة لأن الداعي يطلب في باطنه شيئاً آخر، لأن الإنسان يطلب مصالحه الواقعية دائماً، وإذا ما نجده يطلب شيئاً من الله بلسانه فلأنه يتصور أن ذلك الشيء من مصاديق مصلحته الحقيقية، ولو أنه عَلِمَ أن ذلك ليس من مصلحته لما سألَه من الله مطلقاً.
وعلى هذا فإن الإنسان ربما يطلب بلسانه شيئاً من الله لا يطابق مصالحه الواقعية، ويطلب في باطنه شيئاً آخر .. وفي هذه الصورة لا يُستجاب دعاءه أيضاً.

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٧٣.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٤٧٣.

(٣) البحار ج ٩٣ ص ٣٦٨.

(٤) البحار ج ١ ص ١٥٥.

وربما تقتضي مصالح الانسان الأخرى أن لا يحظى دعأؤه بالإجابة، حتى يَظَلَّ على ارتباطه بالله، ويديم حالة الدعاء والمناجاة، وهذه الطريقة يتقرب إلى الله، وينال المثوبات العظيمة في عالم الآخرة.

عن اسحاق بن عمار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إن المؤمن ليدعو الله عز وجل في حاجته فيقول الله عز وجل أخرُوا إجابته شوقاً إلى صوته ودُعائه، فإذا كان يوم القيامة قال الله عز وجل: عَبْدِي دَعَوْتَنِي فَأَخَّرْتُ إجابتك وثوابك كذا وكذا، ودَعَوْتَنِي فِي كَذَا وَكَذَا فَأَخَّرْتُ إجابتك وثوابك كذا وكذا. قال: فيتمنى المؤمن أنه لم يُسْتَجَبْ له دعوة في الدنيا مما يرى من حُسْنِ الثواب ^(١).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رَحِمَ الله عَبْدًا طَلَبَ من الله شيئاً عز وجل حاجةً فَالْحَ في الدعاء استجيب له أو لم يُسْتَجَبْ له، وتلا هذه الآية ﴿وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ^(٢).

وعلى هذا الأساس يكون هذا الدعاء أحد أكبر العبادات التي لو أُتي بها على وجه الإخلاص وبقصده لاستوجب التقرب إلى الله والزلزلة لديه. وليس للعبد الذي يقر بالعبودية لله أن يغفل عن هذه العبادة أبداً وفي آية حال من الأحوال، وإن لم تقترن - حسب الظاهر - بالإجابة، والتلبية.

إشكال - يمكن لأحد أن يعترض على أصل مسألة الدعاء ويقول: إن ما يطلبه الانسان من الله إما أن يكون من المقدرات الالهية، وموافقاً للعلل والأسباب الطبيعية فيتحقق ذلك المطلب في هذه الصورة ومن دون الدعاء أيضاً، وكان الدعاء حينئذ عبثاً وأمرأ غير مفيد.

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٩٠.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٤٧٥.

وإما أن لا يكون من المقدرات الإلهية، ولا تكون له علل طبيعية، لم يكن للدعاء في هذه الصورة، أثر كذلك، لعدم تحقق العلل الطبيعية، وقد أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها.

وعلى كل تقدير يكون الدعاء عملاً بلا أثر.

الجواب: في الإجابة على هذا السؤال يمكن أن يُقال: إنَّ الاسلام لا ينكر العلل والاسباب الطبيعية، بل يرى من اللازم وجود مجموعة العلل والمعلولات الطبيعية لتحقق شيء .. وقد خلق الله ذاته الظواهر الكونية عن طريق العلل والاسباب الطبيعية، ولكن بالنسبة إلى الدعاء الذي يتحقق ويستجاب فان الدعاء نفسه يكون جزءاً من علل الشيء الذي لا يتحقق إلا عندما تكتمل علته التامة، ويُفاض الوجود من جانب الله المتعال، وبمشيئته.

وبناء على هذا يمكن تغيير القضاء الإلهي بواسطة الدعاء.

ولقد أُشير إلى هذا المطلب في الأحاديث أيضاً .. وإليك من باب النموذج ما يأتي:

بسطام الزيات عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنَّ الدعاء يردُّ القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراهيم^(١).

عمر بن يزيد قال: سمعتُ أبا الحسن عليه السلام يقول: إنَّ الدعاء يردُّ ما قد قُدِّر وما لم يُقَدَّر، قلت: وما قد قُدِّر عَرَفْتُهُ فما لم يُقَدَّر؟ قال: حتَّى لا يكون^(٢).

عبدالله بن سنان قال: سمعتُ أبا عبدالله عليه السلام يقول: الدعاء يردُّ القضاء بعد ما أبرم إبراهيم، فأكثِر من الدعاء فإنه مفتاح كلِّ رحمة، ونجاح كلِّ حاجة

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٦٩.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٤٦٩.

٣٦٠ دروس من الثقافة الإسلامية

ولا يُنالُ ما عندَ الله عزَّ وجلَّ إلَّا بالدُّعاءِ وإنَّه ليس بابٌ يُكثَرُ قرعُهُ إلَّا يوشِكُ أنْ يُفَتَّحَ لِصَاحِبِهِ ^(١).

أبو ولاد قال قال أبو الحسن موسى عليه السلام: عَلَيكُمْ بالدُّعاءِ فإنَّ الدُّعاءَ لله والطلبُ إلى الله يردُّ البلاءَ، وقد قُدِّرَ وَقُضِيَ وَلَمْ يَبْقَ إلَّا إمضاءُهُ، فإذا دَعَى الله عزَّ وجلَّ وسُئِلَ صُرِفَ الْبَلَاءُ صَرْفَةً ^(٢).

فكُّروا وأجيبوا

- ١ - لماذا يجب أن يمدَّ الناس يدَ الحاجة إلى الله؟
- ٢ - كيف يمكن أن يُعتَبَر الدُّعاءُ عبادة؟
- ٣ - في أيه صورة يستجيب الله لعبده؟
- ٤ - ما هي العلة الأولى لعدم إجابة الدعاء؟
- ٥ - ما هي العلة الثانية لعدم إجابة الدعاء؟
- ٦ - ما هو الإشكال على أصل مسألة الدعاء وما هو الجواب؟

* * *

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٧٠.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٤٧٠.

الدرس السابع والخمسون

الجهاد والدفاع

الجهاد والدفاع من الأحكام الإسلامية والتكاليف الشرعية الهامة جداً. والجهاد يعني في اللغة بذل الجهد، وتحمل المشقة في طريق الوصول إلى الهدف .. وفي الاصطلاح الجهاد عبارة عن نهاية السعي في محاربة العدو بهدف نشر الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد أو الدفاع عن الإسلام والمسلمين. إنَّ الجهاد يحظى في الاسلام بأهمية كبرى لأنَّ بقاء الاسلام وانتشاره، واقتدار الإسلام، وتنفيذ قوانين الشريعة يقوم على هذه الفريضة وهذه الجهة وردت تأكيدات كثيرة في القرآن والأحاديث على هذه الفريضة ونذكر ما يأتي على سبيل المثال:

قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

(١) آل عمران: ١٤٢.

الْمَصِيرُ^(١)

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾^(٣)

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الْأَصْرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤)

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: أما بعد فإنَّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة فتَّحه الله لخاصَّة أوليائه، وسوَّغهم كرامةً منه لهم ونعمةً ذخَّرها، والجهاد هو لباسُ التقوى، ودرعُ الله الحصينة، وجنَّة الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلِّ وشملته البلاء، وفارق الرضا، وديث بالصغار والبقاء، وضربَ على قلبه بالأسداد، وأدب الحَقُّ منه بتضييع الجهادِ وسيم الحَسفِ ومنع النصف^(٥).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ: بَابُ الْمُجَاهِدِينَ يَمْضُونَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مَفْتُوحٌ وَهُمْ مَتَقَلِّدُونَ بِسُيُوفِهِمْ وَالْجَمْعُ فِي الْمَوْقِفِ وَالْمَلَائِكَةُ تَرْحَبُ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ ذُلًّا وَفَقْرًا فِي مَعِيشَتِهِ، وَمُحَقًّا فِي دِينِهِ، إِنَّ اللَّهَ اغْنَى أُمَّتِي بِسَنَابِكِ خَيْلِهَا وَمَرَائِزِ رُحْمِهَا^(٦).

(١) التوبة: ٧٣.

(٢) البقرة: ٢١٦.

(٣) الصف: ٤.

(٤) النساء: ٩٥.

(٥) الكافي ج ٥ ص ٤.

(٦) الكافي ج ٥ ص ٢.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ الْجِهَادَ وَعَظَّمَهُ وَجَعَلَهُ نَصْرَهُ وَنَاصِرَهُ، وَاللَّهِ مَا صَلَحَتْ دُنْيَا وَلَا دِينٌ إِلَّا بِهِ ^(١).

إن الجهاد على قسمين: الجهاد الابتدائي والجهاد الدفاعي.

الجهاد الابتدائي: لقد بعث رسول الله محمد صلى الله عليه وآله من جانب الله ليكافح الشرك والكفر، وينشر الدين الاسلامي في العالم .. فبدأ بالتبليغ والإرشاد وإقامة الدليل، ودعوة الناس إلى دين التوحيد، ولكن رؤوس الكفر وأقطاب الشرك لما رأوا مصالحهم في خطر، تصدّوا لمعارضته وعمدوا إلى إقامة العراقيل في وجه دعوته، واستخدموا كل وسيلة ممكنة لمنع إنتشار الإسلام ونفوذه.

في هذه الصورة لم يجد رسول الله والمسلمون بُدّاً من التوسل بالسلاح، والقتال والجهاد فكانوا يجاهدون ليتخلّصوا من رؤوس الكفار والمشركين، ويهيّئوا البيئة الإجتماعية المناسبة لتبليغ الإسلام، ونشر تعاليمه.

يقول في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ. أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ^(٣).

الجهاد الدفاعي: النوع الثاني هو الجهاد الذي يقوم به المسلمون دفاعاً عن الإسلام وعن الأمة الإسلامية ويكون أحد الواجبات الاسلامية وهو واجب في عدة

(١) الكافي ج ٥ ص ٢.

(٢) التوبة: ١٢ - ١٣.

(٣) الانفال: ٣٩.

موارد:

١ - إذا هاجم أعداء الاسلام البلاد الإسلامية بهدف القضاء على الاسلام، أو اقدموا على مؤامرات خطيرة لهذا الغرض.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

٢ - إذا هاجم أعداء الاسلام أحد البلاد الإسلامية بهدف السيطرة عليه، واستعماره.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^(٢).

٣ - إذا اعتدي على بلد من البلاد الإسلامية من قبل بلد إسلامي آخر، فإن على بقية المسلمين أن يبادروا إلى الإصلاح بينهما، وإذا امتنع المعتدي من قبول الحق، وجب الدفاع عن البلد المعتدى عليه:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٣).

٤ - إذا تعرضت أموال المسلمين العامة، وثروات البلاد الإسلامية الوطنية للاعتداء.

٥ - إذا تعرضت نفوس المسلمين وأعراضهم للعدوان.

٦ - إذا تعرضت عبادة الله، والمساجد وأماكن العبادة لعدوان الأعداء، بهدف

(١) البقرة: ١٩٠.

(٢) الحج: ٣٩ - ٤٠.

(٣) الحجرات: ٩.

القضاء على الاسلام.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

٧ - الجهاد بهدف الدفاع عن الثقافة والأخلاق الإسلامية، والحيلولة دون تعرض الأمة الإسلامية للحمولات الثقافية والأخلاقية المضادة للإسلام.

٨ - الجهاد بهدف الدفاع عن المستضعفين الذين تعرضوا لعدوان المستكبرين وظلمهم وجورهم ولم يكن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾^(٢).

٩ - الجهاد بهدف المنع من الترويج للمادية والالحاد.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

في هذه الموارد ونظائرها يحق للمسلمين بالحق الطبيعي أن يدافعوا عن دينهم وعزتهم، وشرفهم وثروتهم، بل إن الإسلام جعل هذه المسؤولية على عواتقهم، فاذا قصروا في القيام بهذه المسؤولية الحساسة تسلط عليهم أعداء الاسلام، وسيطروا على جميع مناحي حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والعلمية، والعسكرية، واستذلّوهم، واستعبدوهم، هذا مضافاً إلى أنهم سيؤاخذون في اليوم الآخر ويُعذبون

(١) الحج: ٤٠.

(٢) النساء: ٧٥.

(٣) النساء: ٧٤ للوقوف على تفصيل المسائل المتعلقة بالجهاد والدفاع راجعوا كتب الفقه والتفسير والحديث.

بالعذاب الشديد، لتركهم الجهاد.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
أَقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).
﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

منذ أن حُذِفَ منطق الجهاد والدفاع والشهادة من ثقافة المسلمين، أصبحوا
وكأنهم لا يؤدُّون شيئاً من فرائض الإسلام، وتسلَّط عليهم المستكبرون وأعداء
الاسلام تدريجاً وأمسكوا بكلِّ مقدرات المسلمين وشؤونهم عن طريق عملائهم الخوَّنة،
ووصلت أوضاع البلاد الاسلامية المؤسِّفة المزرية إلى ما عليه الآن ..

ولحل هذه المشكلة واستعادة المجد والعظمة والإستقلال المفقود لا مناص من
إعادة ثقافة الجهاد والدفاع والشهادة المنسيَّة إلى حياة المسلمين، وإحيائها في
نفوسهم، وتجاوز التخلف العسكري والتسليحيِّ بكل سعي وجِدِّ، والتهيؤ للدفاع عن
الإسلام والمسلمين.

فكروا وأجيبوا

١ - أكتبوا ثلاث آيات تدلُّ على وجوب الجهاد؟

٢ - متى يتمُّ الجهاد الابتدائي؟

٣ - بيِّنوا موارد الجهاد الدفاعي؟

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) التوبة: ٣٩.

- ٤ - لماذا أُصيبَت البلاد الإسلامية بالوضع المأساوي الراهن؟
٥ - ما هو أكبر حلٍّ لمشكلات البلاد الإسلامية؟

* * *

الدرس الثامن والخمسون

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المعروف في اللغة يعني العمل الحسن، والمنكر يعني العمل القبيح. يقول الراغب: المعروف اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو بالشرع حسنه، والمنكر ما يُنكر بهما^(١).

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات الإسلامية المهمة. بواسطة هذه الفريضة تؤدي سائر الواجبات حتى الجهاد في سبيل الله، وتترك المحرمات، ولهذا وردت تأكيدات كثيرة بشأن هاتين الفريضتين، وعلى سبيل المثال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).
﴿يَا بَنِي إِدْرِيسَ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢).

(١) المفردات ص ٣٣١.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) لقمان: ١٧.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)
﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٢)
محمد بن عمر بن عرفة قال: سمعتُ أبا الحسن عليه السلام يقول: لتَأْمُرَنَّ
بالمعروفِ وتَنْهَيَنَّ عن المنكرِ أو لِيُسْتَعْمَلَنَّ عَلَيْكُمْ شَرَارُكُمْ فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ
لَكُمْ^(٣).

محمد بن عمر بن عرفة قال: سمعتُ أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: كانَ
رسولُ الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا أُمِّتِي تَوَاكَلْتُ الأَمْرَ بالمعروفِ والنهي عنِ
المنكرِ فَلْيَأْذَنُوا بِوَقَاعِ مِنَ اللَّهِ^(٤).

جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: يَكُونُ في آخِرِ الزمانِ قومٌ يُتَّبَعُ فيهِم قومٌ
مراؤونَ يَتَقَرَّأُونَ وَيَتَنَسَّكُونَ، حَدَّثَاءُ سُفَهَاءَ، لَا يُوجِبُونَ أَمْرًا بالمعروفِ، وَلَا نَهْيًا عنِ
مُنْكَرٍ إِلَّا إِذَا أَمِنُوا الضَّرَرَ، يَطْلُبُونَ لأنفُسِهِم الرُّخْصَ والمُعَازِيرَ، يَتَّبِعُونَ زَلَّةَ العُلَمَاءِ،
وَفَسَادَ عَمَلِهِم، يَقْبَلُونَ على الصَّلَاةِ والصِّيَامِ وَمَا لَا يَكْلِمُهُمْ في نفسٍ وَلَا مالٍ، وَلَوْ
أَخَذَتِ الصَّلَاةُ بِسَائِرِ مَا يَعْمَلُونَ بِأَمْوَالِهِم وَأَبْدَانِهِمْ لَرَفَضُوهَا كَمَا رَفَضُوا أَسْمَى
الفرائضَ وأشرفها. إِنَّ الأَمْرَ بالمعروفِ والنهي عنِ المنكرِ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تَقَامُ
الفرائضُ، هُنَالِكَ يَتِمُّ غَضَبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ فَيَعْمَهُمْ بِعِقَابِهِ فِيهِلِكَ الأَبْرَارُ في دارِ
الفجَارِ، والصغارُ في دارِ الكِبَارِ.

(١) التوبة: ١١٢.

(٢) المائدة: ٧٩.

(٣) الكافي ج ٥ ص ٥٦.

(٤) الكافي ج ٥ ص ٥٩.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصالحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمين المذاهب وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض وتنتصف من الأعداء ويستقيم الأمر، فأنكروا بقلوبكم، والفظوا بالسنتكم، وسكوا بها جباههم ولا تخافوا في الله لومة لائم، فإن اتعظوا، وإلى الحق رجعوا، فلا سبيل عليهم، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس، ويغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم، هنالك فجاهدوهم بأبدانكم، وابغضوهم بقلوبكم غير طالبين سلطاناً، ولا باغين مالاً، ولا مريدن بظلم ظفرأ، حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويمضوا على طاعته^(١).

وعن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَيْنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ^(٢).

أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ^(٣).

يستفاد من هذه الآيات والأحاديث التي يكثر نظائرها أن على المسلمين أن يدعوا الناس إلى الأعمال الحسنة وينهوهم عن الأعمال السيئة .. ولقد وضع الاسلام هذه الوظيفة على عاتقهم، وأراد أن يكونوا أمة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، وتعتبر هذه الصفة من مميزات الأمة الإسلامية.

إن من واجب المسلمين أن يقوموا بهذه المسؤولية الكبرى في مجالين:
المجال الأول: فيما بينهم وبالنسبة إلى سائر المسلمين .. فإن على كل مسلم أن يراقب سائر المسلمين أيضاً .. يدعوهم إلى القيام بالأعمال الحسنة وينهاهم عن

(١) الكافي ج ٥ ص ٥٥.

(٢) سنن الترمذي ج ٤ ص ٤٦٨.

(٣) سنن الترمذي ج ٤ ص ٤٧١.

الأعمال القبيحة.

ولو تمت هذه الرقابة العامة والنظارة العمومية لسلك آحاد المسلمين طريق الخير والصلاح، وصين المجتمع الاسلامي من التلوث بأدران الظلم والجور، والمفاسد الأخلاقية والاجتماعية. وبهذه الطريقة يمكن الحفاظ على وحدة الأمة.

ولقد أثبت القرآن الكريم أيضاً ولاية المؤمنين بعضهم بالنسبة للبعض الآخر:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

إن المسلم كما يجب عليه أن يقوم بالأعمال الحسنة ويتجنب ارتكاب المحرمات والسيئات كذلك يجب عليه أن يدعو سائر المسلمين والمؤمنين إلى الأعمال الحسنة وينهاهم عن الأعمال القبيحة والآثام.

إن كل مسلم لا يقصر في القيام بهذه الرقابة والنظارة العامة يرى ثمار ذلك في الحياة الدنيوية، كما أنه لن يؤاخذ يوم القيامة.

المجال الثاني: بالنسبة إلى سائر سكان العالم فإن رسول الاسلام بعث لجميع البشر، وأرسل لكي يستأصل جذور الشرك والوثنية، وينشر تعاليم الاسلام في العالم كله، ويكون الدين كله لله.

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٢).

ومن المعلوم أن رسول الاسلام لا يمكنه بمفرده أن يقوم بمثل هذه المسؤولية

(١) التوبة: ٧١.

(٢) التوبة: ٣٣.

الكبرى بل إن من واجب المسلمين أن يواصلوا هدف النبي (ص)، ويسعوا إلى تحقيقه .. فيجب عليهم أن يكافحوا الشرك والكفر والإستكبار ويدعو سُكَّان العالم الى كلمة التوحيد، والإسلام وإلى تنفيذ العدالة الاجتماعية.

إن هذه المسؤولية العالمية الكبرى قد وُضعت على عاتق المسلمين.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١).

إن المسلمين أمة وسط يجب أن يكون لها حضور في كل مكان من العالم.

يقول في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢).

ومن الطبيعي أن القيام بمثل هذه المسؤولية الكبرى ليس عملاً سهلاً يمكن أن يتحقق من دون إستعداد ومقدمات .. ولهذا فإن على المسلمين أن يوفروا وتهيئوا الأسباب والمقدمات اللازمة، وهي على سبيل الإجمال:

- ١ - المعرفة الصحيحة بتعاليم الاسلام والمعرف والمنكر.
- ٢ - الإطلاع الكامل على الأوضاع السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية، والدينية، والأخلاقية لسائر البلاد.
- ٣ - المعلومات الكافية عن الأديان والمذاهب ورسومها وآدابها.
- ٤ - تربية الأفراد العارفين باللغات المختلفة حتى المحلية منها.
- ٥ - إرسال المبلّغين العارفين بالإسلام والملمين باللغات.
- ٦ - تهيئة أجهزة الارسال القويّة، واستخدامها في طريق تبليغ الإسلام والدعاء

(١) الحج: ٤١.

(٢) البقرة ١٤٣.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٧٣

إليه.

٧ - إصدار ونشر الصحف والمجلات الإسلامية باللغات المختلفة وإرسالها إلى البلاد غير الإسلامية.

٨ - تأليف وترجمة الكتب الإسلامية باللغات المختلفة ونشرها وتوزيعها في نطاقٍ واسعٍ .

وباختصار فإنَّ على المسلمين التهيؤ من خلال التعاون وبكل طريقةٍ ووسيلةٍ ممكنةٍ للقيام بهذه المسؤولية الإلهية .. وان هذا الموضوع نفسه يمكن ان يكون كهدفٍ مشتركٍ أهم عامل من عوامل وحدة الأمة الإسلامية.

الوجوب كفائي أو عيني

هناك خلاف بين الفقهاء: هل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب كفائي أو عيني.

والواجب الكفائي بأن يجب عَمَلٌ واحدٌ على أفراد متعددين بحيث إذا قام به شخص أو عدة أشخاص سقط التكليف عن الآخرين، ولكن إذا لم يقم به أحد أثم الجميع، وأخذوا.

وأما في الواجب العيني فيجب عَمَلٌ واحدٌ على أشخاصٍ متعددين بحيث يجب على الجميع إتيانه، والقيام به.

فاذا عرفتم معنى الوجوب العيني والكفائي أمكنكم - بقليل من التدبر - أن تصدقوا بأن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوب كفائي لا عيني، لأنه ليس للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنفسه، موضوعية في نظر الاسلام، بل هو وسيلة وطريق إلى الاتيان بالفعل الحسن، وترك العمل القبيح ... فاذا تحقق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على يد شخص او عدة اشخاص، وحصل في النتيجة أن

تَحَقَّقِ الْفِعْلُ الْحَسَنَ، أو تَرَكَ الْفِعْلَ الْقَبِيحَ خَارِجاً لَمْ يَبْقَ مَبْرُراً - بعد ذلك - ولا أرضية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعم إذا لم يؤثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شخص أو عدة أشخاص وجب على الآخرين أيضاً بأن يأمرُوا أو ينهَوْا، وأن يتوسَّلُوا بأيَّة وسيلة مؤثرة مشروعة إلى أن تتحقَّق النتيجة المطلوبة.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إنَّ الهدف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو فعلُ الواجب وتركُ الحرام. إن القيامَ بهذه المسؤولية يجب أن يتم في عدة مراحل، وعدة صور:

المرحلة الأولى: الإنكار القلبي .. فالمكَلَّف في هذه المرحلة ينزعجُ من فعلِ المنكر قلبياً، ويبيد نفوره، وإنكاره القلبيُّ بوسيلةٍ ما، فإذا كان النهيُّ عن المنكر بهذه الطريقة مؤثراً لا يجوز التمسك والتوسل بالوسائل الأخرى.

المرحلة الثانية: الأمر والنهي اللسانيان مع مراعاة المراتب المختلفة، نظير الوعظ برفق ولين، والعتاب، والخطاب، والتنديد، والتهديد.

المرحلة الثالثة: استخدام القوة للحيلولة دون وقوع المنكر، وذلك أيضاً مع مراعاة المراتب المختلفة.

جابر بن عبد الله عن أبي جعفر عليه السلام (في حديث) قال: فَأَنْكِرُوا بِقُلُوبِكُمْ، والفظوا بألسنتكم، وسَكُّوا بها جِبَاهَهُمْ، ولا تخافوا في الله لومة لائم، فإن اتَّعَظُوا وإلى الحق رَجَعُوا فلا سبيل عليهم إنما السبيل على الذين يَظْلُمُونَ الناس ويَبْغُونَ في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذابٌ أليم، هنالك فَجَاهِدُوهُمْ بأبدانكم وابعضوهم بقلوبكم غير طالِبِينَ سُلْطَاناً ولا باغِينَ مالاً، ولا مُرِيدِينَ بِالظُّلْمِ ظَفَراً حتى

يَفِيئُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَيَمْضُوا عَلَى طَاعَتِهِ ^(١).

فكّروا وأجيبوا

- ١ - ما هي وظيفة المسلمين بالنسبة إلى أنفسهم؟
- ٢ - ما هي وظيفة المسلمين تجاه سائر سُكّان الناس؟
- ٣ - ما هي المقدمات التي يجب أن يوفرها المسلمون للقيام بهذه المسؤولية؟
- ٤ - ما هو التفاوت والفرق بين الواجب الكفائي والعيني؟
- ٥ - هل الأمر بالمعروف وأجب كفائي أم واجب عيني؟ وما هو الدليل على ذلك؟
- ٦ - اشرحوا مراتب ومراحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟
- ٧ - إ حفظوا آيات الدرس الحاضر؟

* * *

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤١٤، للوقوف على تفاصيل مسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشروطها راجعوا كتب الفقه والحديث.

الدرس التاسع والخمسون

وجوب الدفاع عن الاسلام

لقد واجه الإسلام - منذ بدء بزوغه - أعداءً ألداء ، وخصوماً أشداء كانوا يحاولون منع إنتشار الإسلام ونفوذه، واتساع رقعته.

ولقد كان المشركون واليهود من أشد أعداء الاسلام .. وكانوا يجتهدون ويبدلون جهداً كبيراً لصرف رسول الله عن دعوته، ودفع الناس إلى إساءة الظن به، وكرهه .. فكانوا يهينونه، ويستهزؤون به في الإجتباعات العامة، ويتهمونه بالجنون والسحر والكهانة، وربما حاصروه. وأتباعه وأنصاره إقتصادياً، وهددوه بالإبعاد والقتل، وقد تأمروا عليه في النهاية وقصدوا قتله شخصياً.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

كانوا يعذبون المسلمين بشتى أنواع التعذيب القاسي، وقد قتلوا عدداً منهم عن طريق التعذيب.

ولقد آذوا المسلمين إلى درجة أن طائفة منهم غادروا الوطن وهاجروا إلى الحبشة حفاظاً على الدين والنفس.

وحتى بعد أن هاجر رسول الإسلام والمسلمون إلى المدينة لم يكف أعداء الإسلام عن أذاهم للنبي وأتباعه والتآمر عليهم ، ولكن بصورة أخرى .. فقد أعلنوا الحرب على الإسلام والمسلمين، وقتلوه .. وكان هدفهم من وراء كل ذلك هو المنع من إنتشار الإسلام وإتساع رقعته .. ولكن النبي وأتباعه الأوفياء قد عزموا وصمموا في المقابل - على إبطال مؤامرات الأعداء بسلاح الصبر والإستقامة، وإنجاح الإسلام، وكانوا مكلفين بهذا من قبل الله تعالى.

يقول في القرآن الكريم:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(١).

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا أَنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢).

لقد جاهد المسلمون في صدر الإسلام باستقامة وبكل ما استطاعوا دفاعاً عن الدين، وليدعموا أسس الإسلام، ويزرعوا اليأس في نفوس أعدائه.

قال في القرآن الكريم: ﴿الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣).

لقد أبطل المسلمون الأوائل باستقامتهم وجهادهم كل مؤامرات الأعداء، ونقلوا إسلاماً كاملاً إلى الأجيال القادمة، ولكن أعداء الإسلام لم يكفوا قط عن

(١) النحل : ١٢٧.

(٢) هود: ١١٢.

(٣) المائدة: ٣.

عدائهم وخصومتهم.

لقد كان المشركون واليهود والنصارى والملحدون ولا يزالون أعداء الاسلام .. وقد كانت لديهم ولا يزال مخططات شريرةٌ بهدف الحيلولة دون نفوذ الاسلام، وانتشاره بل لاستئصاله، واقتلاع جذوره، ولو أننا طالعنا التاريخ بدقة وإمعان لوقفنا على خياناتهم، ومؤامراتهم.

على أنه يكفى - في هذا المجال - أن نراجع تاريخ الحروب الصليبية الطويل، والجرائم الفضيعة التي ارتكبت فيها بحق المسلمين.

إن جناياتهم وجرائمهم المدونة سودت صفحات التاريخ البشري، واصابتها بالعار فكيف بالجرائم التي لم تدون.

إن الهدف من ذلك كان هو القضاء على الإسلام واستئصال المسلمين، وهو لم يلق توفيقاً لحسن الحظ.

يقول في القرآن الكريم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

والآن هل تتصورون أن معاداتهم للإسلام والمسلمين قد انتهت، وأنهم أصبحوا أصدقاء، ولا يفكرون في الخيانة؟ كلا .. أبداً .. بل إن معاداتهم أمر ذاتي، مستمر إلى الآن.

يقول في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(٢).
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٣).

(١) التوبة: ٣٢.

(٢) النساء: ١٠١.

(٣) الممتحنة: ١.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(١).
 ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ
 عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا
 عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
 إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

إن معاداة المشركين والكفار للإسلام وحقدهم عليه قضية واضحة، وإن نماذجها
 وشواهدنا معروفة لكم جميعاً، ولكنهم لما أيسوا من محو الإسلام والمسلمين بالكامل
 أخذوا يفكرون في تغييره .. وتتمثل خطتهم في حذف القيم الإسلامية الأصيلة الحيوية،
 وهذه الطريقة يمكنهم وصف الإسلام بأنه دين خرافي، رخيص، ومناقض للعلم، لكي
 لا يرغب غير المسلمين في اعتناقه، ولكي لا يتعارض تدين المسلمين مع مصالح
 الاستعمار وأغراضه ومقاصده في البلاد الإسلامية.

إنهم يزعزعون عقائد المسلمين، ويشوشون على الشباب والشابات ليضعف
 التزامهم بالإسلام.

إنهم يسلبون منهم روح العزة والشرف والغيرة والكرامة الإسلامية، ويفرغون
 صدورهم من الإسلام بحيث يعتبرون إرتباطهم بالأجانب من الفضائل، ومما يدعو
 إلى الفخر والاعتزاز.

وللوصول إلى هذا الهدف يستخدمون الطرق التالية:

١ - عن طريق تأليف الكتب ونشر المجلات والصحف التي تباع وتسوّق

(١) المائدة: ٨٢.

(٢) البقرة: ١٠٩.

(٣) آل عمران: ١١٨.

٣٨٠ دروس من الثقافة الإسلامية

بواسطة مباشرة أو بواسطة عملاتهم، وهي تتضمن نقداً للقضايا الإسلامية، واستهزاءً بها، أو تحتوي على إهانات وقحة للمقدسات الدينية.

٢ - بواسطة الأفلام والمسرحيات التي تسيء إلى رسول الله وإلى رجال الدين الإسلامي والمقدسات الإسلامية بالإهانة والاستهزاء والسخرية.

٣ - عن طريق السخرية بالثقافة الإسلامية، أو نقدها نقداً جارحاً هداماً وتصدير ثقافتهم الخاطئة والخليلة إلى البلاد الإسلامية، وتبييع الفتيان والفتيات أخلاقياً.

٤ - بثّ الفرقة والاختلاف بين المسلمين بحجج متنوعة وتحت عناوين مختلفة.

٥ - بث حالة من سوء الظن بين البلاد الإسلامية وتشجيعها على القتال وإراقة الدماء.

٦ - الترويج للثقافة المادية، وإشاعة روح الترف، والبطر.

٧ - نهب ثروات المسلمين الطبيعية بضمن بخس بواسطة عملاتهم الخونة المنصوبين على البلاد الإسلامية وإصدار البضائع الكهالية وغير الضرورية في المقابل، اليهم.

٨ - سلب المسلمين عزّتهم واستقلالهم الإسلامي وربطهم بعجلة التبعية لهم في جميع الأبعاد السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والعسكرية.

٩ - جذبهم إلى المسيحية عبر تأسيس المراكز والمؤسسات الثقافية والفنية والاقتصادية والصحية والتعاونية والخيرية، والإعلامية بين الإسلامية.

١٠ - نقد تنفيذ القوانين والاحكام الإسلامية ومهاجمتها والتشكيك في شرعيتها بحجة الدفاع عن حقوق الانسان وتحت غطاءه.

وعشرات بل ومئات المؤامرات الأخرى التي يحاولون بواسطةها بين المسلمين وبين حقائق الإسلام وقيمها الأصيلة، والوقوف دون إنتشارها ونفوذها في القلوب.

وجوب الدفاع عن الإسلام ٣٨١

ولا شك أنه بالنظر إلى عمق هذه المؤامرات الاستكبارية ضدّ الاسلام وسعتها وتنوعها يتهدّد هذا الدين المقدّس خطراً جدّياً.

والآن ينطرح هذا السؤال وهو: هل المسلمون لا يملكون آية مسؤولية ولا وظيفة في هذه الظروف الحساسة؟

هل يمكن السكوت على هذه المؤامرات، والوقوف منها موقف المتفرج؟
هل يكفي أن نُقنع أنفسنا بمجرد القيام ببعض المراسم الدينية ونصفها بأننا مسلمون كاملون؟

ألا يحتاج الاسلام إلى دفاعٍ ونصرةٍ؟ ومساعدة وحماية؟
وهل تعرفون غير المسلمين من ينصر الاسلام، ويبادر إلى تعطيل المؤامرات التي تحاك ضده من قبل أعدائه وخصومه؟
إنّ الجواب هو: أن وظيفة الدفاع عن الدين ملقاة على عاتق المسلمين ..
فيجب عليهم إحياء روح الجهاد والشهادة، ومنطق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
وجوب الدفاع عن الدين بين المسلمين، ومواجهة مؤامرات أعداء الإسلام..
ولو تساهلنا وتواكلنا في هذا المجال لفقدنا عزّتنا وشرّفنا الإسلامي أكثر مما
مضى، وأوخذنا وعوقبنا يوم القيامة أيضاً.

إنّ هذه المسؤولية الكبرى ألقاها الاسلام على عواتقنا.
عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام:
إذا حَضَرَتْ بليّةٌ فاجْعَلُوا أَمْوَالَكُمْ دُونَ أَنْفُسِكُمْ، وإذا نَزَلَتْ نازِلَةٌ فاجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ دُونَ
دِينِكُمْ، وأَعْلَمُوا أَنَّ هَالِكَ مَنْ هَلَكَ دِينُهُ والحَرِيبَ مِنْ حَرْبِ دِينِهِ، ألا وإنّهُ لا فَقْرَ بَعْدَ
الْجَنَّةِ، ألا وإنّهُ لا غِنَى بَعْدَ النَّارِ، لا يُفَكُّ أَسِيرُهَا ولا يَبْرَأُ ضَرِيرُهَا^(١).

قال النبي صلى الله عليه وآله: إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَيَبْغِضُ الْمُؤْمِنَ الضَّعِيفَ الَّذِي لَا دِينَ لَهُ، فَقِيلَ وَمَا الْمُؤْمِنُ الضَّعِيفُ الَّذِي لَا دِينَ لَهُ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟^(١)

قال النبي صلى الله عليه وآله: لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ نُزِعَتْ مِنْهُمْ الْبَرَكَاتُ وَسُلِطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَاصِرٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ^(٢).

عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: سَمِعْتُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: (يَوْمَ لَقِينَا أَهْلَ الشَّامِ): أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدُوَّنَا يُعْمَلُ بِهِ، وَمُنْكَرًا يُدْعَى إِلَيْهِ فَانْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرَى، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ السُّفْلَى فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينَ^(٣).

ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: . وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ لَهُم مِّنْ إِجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحًا لَكُمْ وَتَرَحًّا، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى، يَغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ، وَتَغْزُونَ وَلَا تُغْزُونَ، وَيَعْصِي اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ^(٤).

إن هذا الدفاع المقدس وإن كان وظيفة عامة ولكن على فقهاء الاسلام وعلمائه مسؤولية اكبر.

إن واجبهم هو بيان حقيقة الظرف الحساس للبلاد الاسلامية، وفضح

(١) الكافي ج ٥ ص ٥٩.

(٢) الوسائل ج ١١ ص ٣٩٨.

(٣) نهج البلاغة باب المختار من الحكم الرقم ٣٧٣.

(٤) نهج البلاغة الخطبة ٢٧.

المؤامرات والمخططات الخطيرة التي يحكيها أعداء الاسلام الألداء، وتعبئة المسلمين للدفاع عن القرآن، وإقامة الدين بواسطة إحياء القيم الاسلامية الاصيلة والباعثة على الحركة والعمل.

عليهم أن يتكفلوا القيادة الدينية لهذه الحركة المقدسة، ويحركوا معهم المسلمين. قال السبط الشهيد الامام الحسين عليه السلام: ذَلِكَ بَأْنِ مَجَارِي الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ، الْأَمْنَاءِ عَلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، فَانْتُمْ الْمَسْلُوبُونَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ وَمَا سُلِبْتُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِتَفَرُّقِكُمْ عَنِ الْحَقِّ وَاخْتِلَافِكُمْ فِي السَّنَةِ بَعْدَ الْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ .. وَلَوْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَذَى وَتَحَمَّلْتُمْ الْمُؤُونَةَ فِي ذَاتِ اللَّهِ كَانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرْدًا، وَعَنْكُمْ تَصُدُّرًا، وَإِلَيْكُمْ تَرْجَعُ، وَلَكِنَّكُمْ مَكَّنْتُمُ الظُّلْمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَاسْتَسَلَّمْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، سَلَّطَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَرَارُكُمْ مِنَ الْمَوْتِ، وَإِعْجَابُكُمْ بِالْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ مُفَارِقَتُكُمْ فَاسْلَمْتُمْ الضُّعْفَاءَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَمِنْ بَيْنِ مُسْتَعْبِدٍ مَقْهُورٍ وَبَيْنِ مُسْتَضْعَفٍ عَلَى مَعِيشَتِهِمْ مَغْلُوبٍ، يَتَقَلَّبُونَ فِي الْمُلْكِ بِأَرَائِهِمْ، وَيَسْتَشْعِرُونَ الْخِزْيَ بِأَهْوَانِهِمْ، اقْتَدَاءً بِالْأَشْرَارِ، وَجَرَأَةً عَلَى الْجَبَّارِ ^(١).

فَكَّرُوا وَأَجِيبُوا

١ - ماذا كان يهدفُ الأعداءُ في صدر الإسلام وكيف كان المسلمون يواجهون

ذلك؟

٢ - هل كفَّ أعداء الاسلام عن معاداتهم للإسلام بعد النبي؟

٣ - هل انتهت عداوة المشركين والكفار في هذا العصر؟

٤ - ما هي عقيدة القرآن الكريم في هذا المجال؟

٥ - كيف وبأية مخططات يحاربون الاسلام في هذا العصر؟

٦ - على عاتق مَنْ تقعُ مسؤولية الدفاع عن الإسلام؟

٧ - ماذا يحدث لو تساهلنا في الدفاع عن الاسلام؟

٨ - ما هي وظيفة الفقهاء وعلماء الدين؟

* * *

الدرس السِتُّونُ

الزكاة

الزكاة نوعٌ من الضرائب الإسلامية التي تؤخذ من بعض الأموال بشروط خاصة .. إنه حقٌ ماليٌّ وردت تأكيدات كثيرة - في القرآن والاحاديث - على وجوب أدائه.

لقدت وردت الزكاة - في الآيات القرآنية - عقب الصلاة مباشرة، وأمر بها الله سبحانه، وهو يشهد بأهميته، وإليك على سبيل المثال ما يأتي:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(١).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

(١) البقرة ٤٣.

(٢) البقرة ١١٠.

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٣).

ولقد وردت تأكيدات كثيرة في الأحاديث أيضاً على أداء الزكاة. ونذكر على سبيل المثال ما يأتي:

معروف بن خربوذ عن أبي جعفر عليه السلام قال: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَرَنَ الزَّكَاةَ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فَمَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَلَمْ يُؤْتَ الزَّكَاةَ فَكَأَنَّهُ لَمْ يُقِمِ الصَّلَاةَ^(٤).

رفاعة بن موسى انه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ شَيْئاً أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الزَّكَاةِ وَفِيهَا تَهْلُكُ عَامَّتُهُمْ^(٥).

أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مَنْ مَنَعَ قِيرَاطٍ مِنَ الزَّكَاةِ فَلَيْمَتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا^(٦).

محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: مَا مِنْ عَبْدٍ مَنَعَ مِنْ زَكَاةٍ مَالِهِ شَيْئاً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُعْبَاناً مِنْ نَارٍ مُطَوَّقاً فِي عُنُقِهِ يَنْهَشُ مِنْ لَحْمِهِ

(١) التوبة ٧١.

(٢) التوبة: ٣٥.

(٣) الحج: ٤١.

(٤) الوسائل ج ٦ ص ١١.

(٥) الوسائل ج ٦ ص ١٥.

(٦) الوسائل ج ٦ ص ١٨.

حتى يفرغ من الحساب وهو قول الله عز وجل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١) يعني ما بخلوا به من الزكاة.

وقد وردت كذلك أحاديث تشير إلى علة تشريع الزكاة، نذكر بعضها:
عن معتب مولى الصادق عليه السلام قال: قال الصادق عليه السلام: إنما وُضِعَتِ الزَّكَاةُ إِيْخْتِبَارًا لِلْأَغْنِيَاءِ، وَمَعُونَةً لِلْفُقَرَاءِ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ أَدَّوْا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ مَا بَقِيَ مُسْلِمٌ فَقِيرًا مُحْتَاجًا وَلَا سَتْنِي بِهَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ وَأَنَّ النَّاسَ مَا افْتَقَرُوا وَلَا احْتَاجُوا وَلَا جَاعُوا وَلَا عَرَوْا إِلَّا بِذُنُوبِ الْأَغْنِيَاءِ، وَحَقِيقٌ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَمْنَعَ رَحْمَتَهُ مِمَّنْ مَنَعَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ (الحديث)^(٢).

عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عز وجل فرض الزكاة كما فرض الصلاة، فلو أن رجلاً حمل الزكاة فأعطاه علانية لم يكن عليه في ذلك عيب، وذلك أن الله عز وجل فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يكتفون به، ولو علم أن الذي فرض لهم لا يكفيهم لزادهم، وإنما يؤتى الفقراء فيما أوتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة^(٣).

موسى بن بكر عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ^(٤).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام، فمن أعطاها طيب النفس بها فانها تجعل له كفارة، ومن النار حجازاً ووقاية، فلا يتبعها أحد نفسه، ولا يكثرن عليها هفوه، فإن من أعطاه

(١) الوسائل ج ٦ ص ١١.

(٢) الوسائل ج ٦ ص ٤.

(٣) الوسائل ج ٦ ص ٣.

(٤) الوسائل ج ٦ ص ٦.

غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسنة مغبون الأجر، ضال العمل، طويل الندم^(١).

وقال علي عليه السلام: فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكذب، والزكاة تسبيهاً للرزق^(٢).

ولقد أشير في الأحاديث المذكورة إلى عدة علل لتشريع الزكاة:

١ - إختبار الأغنياء وأنهم هل هم مُستعدون لإعطاء شيء من أموالهم التي أعطاهم الله، إلى الفقراء.

٢ - ضمان إحتياجات الفقراء بواسطة دفع الزكاة إليهم.

٣ - حفظ أموال المرء من خطر الحوادث بفضل أداء الزكاة.

٤ - أداء الزكاة إحدى أفضل العبادات التي لو أتي بها بقصد القربة لاستوجبَت التقرب إلى الله، وكانت كفارة للذنوب.

٥ - إنها سبب البركة في المال، والسعة في الرزق.

مصارف الزكاة:

تُصرفُ الزكاة في ثمانية مجالات تسمى مصارف الزكاة:

١ - الفقراء: والفقير هو الذي لا يملك مؤنة سنته لنفسه ولعِياله لا بالقوة ولا بالفعل .. وعلى هذا فإن الذي يمكنه أن يُحصل مؤنة سنته عن طريق العمل لا يجوز له أخذ الزكاة.

٢ - المساكين، والمساكين هو الأكثر فاقة من الفقير جداً.

٣ - العاملون على الزكاة، وهم المنصوبون من قبل الحاكم الشرعي

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٩.

(٢) نهج البلاغة باب المختار من الحكم الرقم ٢٥٢.

الإسلامي لجباية الزكوات.

٤ - المؤلفة قلوبهم، وهم الكفار الذين يساعدون الاسلام وينصرون المسلمين إذا ما تلقوا مساعدات مادية، وكذا المسلمون ضعفاء الإيمان الذين يمكن تقوية إيمانهم من خلال مساعدتهم إقتصادياً.

٥ - لعنق الرقاب وتحرير العبيد الأرقاء.

٦ - الغارمون، الذين لا يمكنهم أداء ديونهم.

٧ - في سبيل الله، يعني كل ما هو من مصالح المسلمين العامة مثل: إنشاء الطرق والجسور، وإجراء العيون والأنهار وإنشاء المدارس والمساجد والجامعات، والدعوة إلى الاسلام، وطبع ونشر الكتب والمجلات والصحف المفيدة إسلامياً، وفي طريق الجهاد والدفاع عن الإسلام والمسلمين وما شابه ذلك.

٨ - ابن السبيل، وهو الذي انقطع في بلاد الغربة وليس له من المال ما يعود به إلى وطنه .. فإنه يمكن إعطاؤه ما يوصله إلى وطنه من أموال الزكاة وإن كان ثرياً في بلده.

ولقد صرح القرآن الكريم بمصارف الزكاة الثمانية هذه اذ قال تعالى:
﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(١).

موارد الزكاة:

الزكاة ضريبة مالية إسلامية في أموال الأغنياء يأخذها الحاكم الشرعي

(١) التوبة: ٦٠.

الإسلامي ويصرفها في المجالات المذكورة.

لقد كلف رسول الله صلى الله عليه وآله من جانب الله أن يأخذ هذه الضريبة ويصرفها في مصارفها.

يقول في القرآن: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

ولقد استفاد النبي الكريم صلى الله عليه وآله من هذا الحكم الكلي وفرض الزكاة - طبقاً لظروف وأوضاع المسلمين يومذاك - على تسعة أشياء كانت مصدر ثروة الأغنياء في ذلك العصر، وعفى عن سائر الأمور الجزئية.

وتلك الأمور التسعة هي عبارة عن: الإبل والبقر والغنم، والذهب والفضة المسكوكين، يعني الدينار والدرهم الرائجين والحنطة والشعير وقد كانت غلات المسلمين يومذاك، والتمر والزبيب وقد كانتا تشكلان الفاكهتين المعروفتين عند المسلمين آنذاك. على أنه كان لدى المسلمين أموال أخرى أيضاً ولكن لم تكن بذات أهمية، ولهذا أغمض عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ... ولقد أُشيرَ إلى هذا الموضوع في الأحاديث.

عبدالله بن سنان قال قال أبو عبدالله عليه السلام: لما نزلت آية الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ في شهر رمضان فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله مناديه فنادى في الناس: إن الله تبارك وتعالى قد فرضَ عليكم الزكاة كما فرضَ عليكم الصلاة، ففرض الله عليكم من الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم ومن الحنطة والشعير والتمر والزبيب ونادى فيهم بذلك في شهر رمضان وعفى لهم عما سوى ذلك^(٢).

(١) التوبة: ١٠٣

(٢) الوسائل ج ٦ ص ٣٢.

عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال: فرض الله عز وجل الزكاة مع الصلاة في الأموال وسنّها رسول الله صلى الله عليه وآله في تسعة أشياء وعفى رسول الله صلى الله عليه وآله عما سواه: في الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم والحنطة والشعير والتمر والزبيب. وعفى رسول الله صلى الله عليه وآله عما سوى ذلك ^(١).
لقد عيّن رسول الله - مع مراعاة أوضاع ذلك العصر وظروفه أنصبة معينة في الأشياء التي تتعلق بها الزكاة، كما قرّر مقدار الزكاة الذي يجب أن يؤخذ، أيضاً.
ولقد لاحظ رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه المقررات أمرين:
أولاً: القدرة على الأداء ومصادر الثروة.
ثانياً: مقدار الإحتياجات في ذلك الزمان ^(٢).

فكروا وأجيبوا

- ١ - بينوا علل تشريع الزكاة.
- ٢ - بينوا مصارف الزكاة.
- ٣ - على ماذا وفي أي شيء فرض رسول الله الزكاة في ذلك العصر.
- ٤ - ما هي علّة الفقر والفاقة عند بعض المسلمين؟
- ٥ - إذا أخذت الزكاة ثم صرفت بصورة صحيحة وكاملة فكيف كانت أوضاع المسلمين في هذه الصورة؟
- ٦ - إحفظوا الآيات في الدرس الحاضر.

(١) الوسائل ج ٦ ص ٣٤.

(٢) أما البحث في أن الزكاة - في هذا العصر - تتعلق بماذا وكيف يجب جبايتها وصرفها، وبصورة عامة جميع مسائل الزكاة فحيث أنها خارجة عن نطاق هذه الصفحات لهذا يجب مراجعة كتب الفقه والحديث.

الدرس الواحد والستون

الخُمس في الإسلام

الخُمسُ حق مالي يؤخذ بشروط خاصة وهو عبارة عن قسم واحد من خمسة اقسام من المال.

إن أداء الخمس أمر واجب، وإن أصحاب الثروة مكلفون بإعطائه إلى الحاكم الشرعي الاسلامي ليُصرف في مصارف معيّنة.

إن الخمس يجب في سبعة أشياء:

الأول: غنائم الحرب.

الثاني: المعادن.

الثالث: الكنز.

الرابع: ما يحصل عليه الإنسان من المجوهرات بالغوص في البحار.

الخامس: أرباح المكاسب التي تفضل عن نفقة الإنسان وعائلته.

السادس: الأرض التي يشتريها الانسان من أهل الذمة.

السابع: المال المختلط بالحرام الذي لا يُعرف مالكة ولا مقدار المال الحرام.

* * *

الأدلة على وجوب الخمس:

استدلّ لوجوب الخمس بالآيات والأحاديث العديدة .. منها قوله تعالى:
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

والغنيمة - في اللغة - هي المال الذي يستفيده الإنسان من دون أن يكون قد
أنفق شيئاً في قبالة.

يقول في القاموس: الغنم والمغنم والغنيمة ما يصيبه الإنسان ويناله ويظفر به
من غير مشقة.

ويقول الراغب: المغنم ما يُغنم، وجمعه مغنم، قال: فعند الله مغنم^(٢).
يقول العلامة الطباطبائي: الغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة، أو
عمل أو حرب، وينطبق بحسب مورد نزول الآية على غنيمة الحرب^(٣).
وجاء في المنجد: الغنيمَةُ ما يُؤخذ من المحاربين عنوةً، المكسب عموماً.
بناء على هذا فإن هذه الآية وإن نزلت في شأن غنائم الحرب، ولكنها لا تختصّ
بذلك بل باطلاقتها تشمل كل ربح ومكسب، وخاصة لو لاحظنا عبارة «من شيء»
المفيدة للعموم.

ولقد أُشير إلى هذا الموضوع في بعض الأحاديث. فعن الصادق عن آبائه
عليهم السلام (في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام): قال: يا عليّ

(١) الانتقال: ٤٦.

(٢) المفردات: ٨٩.

(٣) الميزان ج ٩ ص ٨٩.

إِنْ عَبْدَ الْمُطَّلَبِ سَنَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَمْسَ سُنَنٍ أَجْرُهَا اللَّهُ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ (الِي أَنْ قَالَ):
وَوَجَدَ كَنْزًا فَخَرَجَ مِنْهُ الْخُمْسَ وَتَصَدَّقَ بِهِ فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الْآيَةُ (١).

علي بن مهزيار قال: كتب إليه أبو جعفر عليه السلام (في حديث إلى أن قال): فَأَمَّا الْغَنَائِمُ وَالْفَوَائِدُ فَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ عَامٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَالْغَنَائِمُ وَالْفَوَائِدُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَهِيَ الْغَنِيمَةُ يَغْنِمُهَا الْمَرْءُ وَالْفَائِدَةُ يَفِيدُهَا، وَالْجَائِزَةُ مِنَ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ الَّتِي هَا خَطَرٌ، وَالْمِيرَاثُ الَّذِي لَا يَحْتَسِبُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا ابْنٍ، وَمِثْلُ عَدُوٍّ يُصْطَلَمُ فَيُؤْخَذُ مَالُهُ، وَمِثْلُ مَالٍ يُؤْخَذُ وَلَا يُعْرِفُ لَهُ صَاحِبٌ. الْحَدِيثُ (٢).

سماعة قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن الخمس، فقال: في كلِّ ما أفادَ النَّاسُ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ (٣).

مصرفُ الخمس:

يُقَسَّمُ الْخُمْسُ إِلَى سِتَّةِ أَقْسَامٍ ثُمَّ تَصْرَفُ فِي الْمَوَارِدِ السَّيِّئَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ: وَهَذِهِ الْمَوَارِدُ السَّيِّئَةُ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ: اللَّهِ، رَسُولِ اللَّهِ، ذِي الْقُرْبَىٰ، الْيَتَامَى، الْمَسَاكِينِ، أَبْنَاءِ السَّبِيلِ مِنَ السَّادَةِ أَيْ مِنْ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وَسَهْمُ اللَّهِ يَوْضَعُ تَحْتَ تَصْرِفِ رَسُولِ اللَّهِ لِيَصْرِفَهُ فِي تَرْوِيجِ الدِّينِ، وَفِي مَصَالِحِ

(١) الوسائل ج ٦ ص ٣٤٥.

(٢) الوسائل ج ٦ ص ٣٥٠.

(٣) الوسائل ج ٦ ص ٣٥٠.

المسلمين العامة.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأخذ سهمه من الخمس وينفق منه على نفسه وعلى عياله، ثم يصرف ما زاد منه في المصارف العامة.

ولقد فُسر ذو القربى في الأحاديث بالإمام المعصوم وهو الحاكم الشرعي الاسلامي المنصوب من جانب رسول الله صلى الله عليه وآله الذي عُين له سهم في الخمس.

إن هذا السهم أيضاً كان يأخذه رسول الله بصفته الحاكم الشرعي الاسلامي ويصرفه في تلك المصارف.

والأسهم الثلاثة الاخرى من الخمس أيضاً كان يأخذها رسول الله بصفته الحاكم الشرعي للمسلمين وكان يصرفها في المصارف الثلاثة المذكورة، ثم يُصرف ما زاد عن ذلك في مصارف المسلمين العامة.

ويُستفاد من الأحاديث أن الأئمة المعصومين عليهم السلام يعني الإمام علي بن أبي طالب والأحد عشر من ولده، هم خلفاء الرسول والحكام الشرعيون الإسلاميون من بعده صلى الله عليه وآله. فكان الخمس يعطى لهم ليصرفوه - بدورهم - في ما كان يصرفه فيه رسول الله (ص).

أحمد بن محمد عن الرضا عليه السلام قال: سُئِلَ عن قول الله عز وجل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقل له: فما كان لله فلمن هو؟

فقال: لرسول الله صلى الله عليه وآله وما كان لرسول الله فهو للإمام. فقل له: أفرأيت إن كان صنف من الأصناف أكثر وصنف أقل ما يصنع به؟ قال: ذاك إلى الإمام، أرايت رسول الله صلى الله عليه وآله كيف يصنع؟ أليس

إنما كان يعطي على ما يرى؟ كذلك الإمام^(١).
يُستفاد من بعض الأحاديث أن الخمس فريضة أهلية وضريبة إسلامية جعلها
الله لنفسه ليُصرفَ في سبيل الترويح للدين، ولعامة المسلمين .. وعلى هذا فإن مجموع
الخمس يختص بالله، ولكنه جعل أمره إلى النبي ليصرفه وينفقه في ذلك الطريق.
وبعد رسول الله جعل أمره إلى الإمام المعصوم وهو خليفة رسول الله، والحاكم
الشرعي للمسلمين، ليصرفه - هو الآخر أيضاً - في نفس ذلك الطريق.
إن المراد من المصارف الثلاثة المذكورة في الآية هو الجهة التي تصرف فيها هذه
الأسهم لا أنهم المالكون الواقعيون لها.

محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ
مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ قال: هم قرابة رسول
الله والخمس لله وللرسول ولنا^(٢).

عمران بن موسى عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: قرأت عليه آية
الخمس، فقال: ما كان لله فهو لرسوله وما كان لرسوله فهو لنا^(٣).
ولقد بُحِثَ الموضوع التالي في كُتُب الفقه على نحو الإسهاب والتفصيل وهو
أنه ما هي وظيفة المسلمين في مجال أداء الخمس في عصر غيبة الإمام المعصوم مثل عصرنا
هذا، وأنه من الذي يجب عليه الخمس وفي أية مصارف يجب أن تصرف.
فقد تم في تلك الأبحاث إثبات أن الخمس يجب أن يعطى للفقير الجامع
للشرائط الذي يتكفل مسؤولية إدارة الشؤون الدينية ويقوم بقيادة الأمة ليصرفه في
نفس المصارف التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصرف الخمس فيها.

(١) الكافي ج ١ ص ٥٦٤.

(٢) الكافي ج ١ ص ٥٣٩.

(٣) الوسائل ج ٦ ص ٣٣٨.

إن الفقيه الجامع للشرائط يصرف أموال الخمس في طريق تربية وإعداد العلماء الدينيين والدعاة والمبلغين الإسلاميين، ونشر العلوم والثقافة الإسلامية، وإقامة الحكومة الإسلامية العادلة وتقوية دعائمه، وتطبيق أحكام الشريعة وقوانينها وسد حاجات السادة^(١) الفقراء العاجزين عن سدّ احتياجاتهم .. وهذه هي المصارف التي اختارها رسول الله والأئمة المعصومون عليهم السلام، ومن الحتمي أنها مرضية عندهم. يقول العلامة آية الله العظمى الإمام الخميني (قدس الله نفسه الشريفة):

النصف من الخمس الذي للإصناف الثلاثة المتقدمة أمره بيد الحاكم على الأقوى فلا بدّ إما من الإيصال إليه، أو الصرف باذنه وأمره كما أنّ النصف الذي للإمام عليه السلام أمره راجع إلى الحاكم فلا بدّ من الإيصال إليه حتى يصرفه فيما يكون مصرفه بحسب نظره وفتواه أو الصرف بإذنه فيما عيّن له من المصروف^(٢).

فكّروا وأجيبوا

- ١ - ما هي الأشياء التي يجب فيها الخمس؟
- ٢ - وضّحوا آية الغنيمة؟
- ٣ - هل الغنيمة تختصّ بغنائم الحرب؟ لماذا؟
- ٤ - كيف فسّرت الآية في الأحاديث؟
- ٥ - بينوا مصارف الخمس؟
- ٦ - من الذي يصرف الخمس؟
- ٧ - لمن يجب إعطاء الخمس في عصر غيبة إمام العصر؟

(١) المراد من السادة هم أبناء رسول الله (ص) وذريته على مدار العصور.

(٢) تحرير الوسيلة كتاب الخمس.

الدرس الثاني والستون

مكانة المرأة في الإسلام

مكانة المرأة في نظر الاسلام هي ذاتها المكانة الإنسانية الرفيعة، فاذا ما وُصف الإنسان في القرآن الكريم بأنه خليفة الله، وإذا ما كُرِّم، وأُحيط بالتبجيل والتكريم، وقيل في حقه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١).

وإذا ما جعل الله آدم مسجوداً للملائكة وقيل في شأنه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٢) فإن جميع ذلك إنما هو لأجل إنسانيته، والمرأة والرجل لا يختلفان ولا يتفاوتان في هذا الجانب. بل هما سواء في الإنسانية.

إنَّ الإنسان خليفة الله، ولقد خضع الملائكة للمقام الإنساني الشامخ .. وإنَّ آدم لكونه إنساناً استطاع أن يفهم الأسماء ويحجب عنها حيث يقول في القرآن في هذا الصدد: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

(١) الاسراء - ٧٠.

(٢) الحجر - ٢٩.

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ^(١).

وبصورة عامة إن أي تكريم وتبجيل للإنسان ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تشارك فيه المرأة أيضاً. وليست هناك ولا آية واحدة في القرآن الكريم تندد بالمرأة أو تقبحها، قط.

نعم إن في القرآن الكريم إشارات وإماعات إلى نقاط ضعف في الشخصية الانسانية، تشترك فيه المرأة أيضاً، وذلك مثل قوله:

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٢) و ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٣) و ﴿كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٤) و ﴿كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾^(٥) و ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٦) و ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(٧).

ولكننا لا نلاحظ في القرآن أي شيء يدل على نقطة ضعف خاصة في شخصية المرأة وكيانها، على وجه الخصوص.

وهنا نشير إلى النقاط المشتركة بين المرأة والرجل، وإلى مكانتها ومنزلتها:

الأولى: أن المرأة والرجل يتساويان في كونها منشأ لظهور النوع البشري وتكاثر أفراده وبالتالي استمرار النسل الإنساني، ودوامه.

يقول في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

(١) البقرة ٣١ - ٣٣.

(٢) النساء ٢٧.

(٣) إبراهيم ٣٤.

(٤) الإسراء ١١.

(٥) الإسراء ١٠٠.

(٦) الأحزاب ٧٢.

(٧) المعارج ١٩ - ٢١.

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ^(١).

في الآية المذكورة بالإضافة إلى الإشارة إلى كون المرأة والرجل معاً منشأين لظهور واستمرار النوع البشري، جُعِلَتْ صِفَةُ التَّقْوَى مِلَاكاً لِلأَفْضَلِيَّةِ وَالْأَكْرَمِيَّةِ دُونَ غيرها من المميّزات التي لم يعترف لها بأية قيمة إنسانية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا^(٢)﴾.

إنّ المرأة والرجل منشأان بصورةٍ متساويةٍ لظهور النوع الانساني، وتكاثر أفراده، ومنها معاً يتألف المجتمع، وهما معاً ركناً المجتمع، ولهما حقوق ومسؤوليات مشتركة أيضاً.

الثانية: إنّ القرآن الكريم وَصَفَ المعرفة بالله وعبادته وحده بأنها الهدف الأساسي لخلق الإنسان إذ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(٣)﴾. لقد خُلِقَ الإنسان لكي يربّي نفسه وَيُكَمِّلَهَا بالإيمان والعمل الصالح، ليرتقي إلى دَرَجَةِ القرب الإلهي الشائخة، وليس بين المرأة والرجل أيّ تفاوت في هذه الناحية .. فَلِكُلِيهِمَا أَنْ يَسْلُكَ هَذَا الطَّرِيقَ وَيَنَالَا هَذِهِ الدَّرَجَةَ السَّامِيَةَ، وَصِلَا إِلَى هَذَا الِهْدَفِ الْعَظِيمِ، بِالْجُهْدِ وَالْعَمَلِ. وإن الله لا يضع عَمَلِ أيّ عاملٍ منها، بل يشيبه ويجزيه أجره.

يقول في القرآن الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

(١) الحجرات ١٣.

(٢) النساء ١.

(٣) الذاريات ٥٦.

فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(١).
ويقول: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ^(٢)».

إن الهدف من خلق الانسان في نظر القرآن هو هذا، وهو يمتدح بصورة
متساوية جميع النساء والرجال الذين يجتهدون في هذا السبيل، ولتحقيق هذه الغاية.
يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^(٣)».
إن القرآن الكريم يشير إلى نماذج من النساء الصالحات الفضليات،
ويمتدحهن وإليك على سبيل المثال:

يقول عن مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا
زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا. قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا.
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(٤)».
﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ
الْعَالَمِينَ. يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ^(٥)».

وقال حول آسية امرأة فرعون: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ

(١) النحل ٩٧.

(٢) آل عمران ١٩٥.

(٣) الأحزاب ٣٥.

(٤) آل عمران ٣٧.

(٥) آل عمران ٤٢ - ٤٣.

إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

وإن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله هي إحدى تلك النساء الفضليات المتميزات وقد نزل في شأنها وشأن أبيها وبعلمها وابنيها الحسن والحسين عليهم السلام قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١) وهي الآية التي تصدق عصمتهم بصراحة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حقها: سَيِّدَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَرْبَعُ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَأَسِيَّةُ بِنْتُ مَزَاحِمَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ^(٢).

وكما أن النساء يستطعن مثل الرجال أن يرتقين - بالإيمان والعمل الصالح - سُلَّمِ الْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ، وَيَصْعَدْنَ إِلَى ذَلِكَ الْمَقَامِ الشَّامِخِ وَالدرَجَةِ الرَّفِيعَةِ، كَذَلِكَ يُمْكِنُ أَنْ يَسْلُكْنَ طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَيَسْقُطْنَ فِي وَدْيَانِ الْمَهَالِكِ بَارْتِكَابِ الذُّنُوبِ وَاقْتِرَافِ الْمَعَاصِي، وَسَيَنَلْنَ عِقَابَهُنَّ الصَّارِمَ عَلَى أَفْعَالِهِنَّ الْقَبِيحَةِ فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ.

يقول في القرآن الكريم: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣).

ولقد ذمَّ القرآن الكريم عدداً من النسوة وندد بمواقفهنَّ إذ قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾^(٤).

(١) التحريم ١١.

(٢) الأحزاب ٣٣.

(٣) كشف الغمة ج ٢ ص ٧٦.

(٤) الأحزاب ٧٣.

(٥) التحريم ١٠.

وقال عن أبي لهب وزوجته: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(١).

الثالثة: لقد اعتبر الاسلام المرأة والرجل معاً ركني المجتمع الذين لهما دور مشترك في تأليف الاجتماع، وإدارة شؤونه. فهما يعيشان معاً في المجتمع، وتعود النتائج الطيبة للاجتماع الصالح والآثار السيئة للاجتماع الفاسد إليهما معاً دون استثناء. وعلى هذا الأساس فان على المرأة كالرجل مسؤولية اجتماعية، ولا يمكن لها أن لا تكثر بالامور الاجتماعية.

يقول في القرآن: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

صحيح أن الحضور في ساحات المعارك وميادين الجهاد لا يجب على النساء، ولكن الأدلة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدفاع عن الاسلام وعن مقدسات الدين، والدعوة إلى الاسلام والعمل على نشره، ومكافحة الظلم والعدوان، والدفاع عن المحرومين والمظلومين، والتعاون في أعمال البر والخير، ومساعدة الضعفاء والمعوزين ومكافحة الفساد الأخلاقي، والدفاع عن القيم الإسلامية، وتقوية ودعم الحكومة الإسلامية العادلة، تشمل النساء أيضاً.

وعلى هذا الأساس فان على النساء - مضافاً إلى المسؤوليات الملقاة على عواتقهن تجاه أزواجهن وأولادهن، مسؤوليات اجتماعية أيضاً.

الرابعة إن تحصيل العلم، واكتشاف أسرار الكون ورموز الحياة للاستفادة منها

(١) سورة المسد.

(٢) التوبة ٧١.

في تأمين السعادة الدنيوية ، واختراع وإعداد وسائل الرفاه في الحياة الدنيوية هو من مميزات الانسان .. والمرأة والرجل متساويان في هذا الجانب، فكلاهما بلا تفریق مهنيّان ذاتياً لهذا الأمر، بل ومسؤولان عنه بصورة متساوية.

لقد أكّد الإسلام كثيراً على تحصيل العلم واكتساب المعرفة، وهذه التأكيدات تشمل المرأة والرجل معاً.

إنّ الاسلام يعتبر تحصيل العلم، واكتساب المعرفة فريضة من الفرائض، وواجباً من الواجبات المؤكّدة .. وإليك على سبيل المثال:

عن أبي عبدالله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله : طَلَبَ الْعِلْمُ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ بُغَاةَ الْعِلْمِ^(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام : عَالِمٌ يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ عَابِدٍ^(٢).
إنّ على النساء أيضاً أن يجتهدن في طلب العلم ويدأبن في هذا السبيل إلى أن يصلن إلى مرحلة الإكتفاء الذاتي، وبخاصّة تلك العلوم التي محتجن إليها مباشرة مثل علم الطب، وطبّ الأسنان، والطب النفسي والصيدلة، والتوليد، والعلوم المخبرية والتمريض، والتربية والتعليم، وعلم النفس، وعلم الاحياء، والإدارة، والمحاسبة، والكيمياء وما شابه ذلك من العلوم التي تحتاج إليها النساء للاكتفاء الذاتي.

إنّ النساء يُشكّلن ما يقرب من نصف المجتمع ويجب أن يبلغ عدد العالمات والمتخصّصات في المجالات المرتبطة بهن إلى عدد العلماء والمتخصّصين من الرجال، ليصلن إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي فيما يخصهنّ.

يجب أن يختصّ نصف المستشفيات والمستوصفات والجامعات والثانويات والمدارس المتوسطة والإبتدائية والمعاهد وكلّيات الصيدلة والمخبرات، وجميع مراكز

(١) الكافي ج ١ ص ٣٠.

(٢) الكافي ج ١ ص ٣٣.

مكانة المرأة في الإسلام ٤٠٥

التوليد، ونصف مدارس العلوم الدينية، وتربية الدعاة والمبلغين، ونصف مراكز الدعوة والتبليغ الاسلامي، بالنساء .. ويجب أن يصلن في هذه المراكز بصورة عامة إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي، ويستغنين عن الرجال، ولكن الأمر ليس كذلك مع الأسف.
إنَّ للتقصان المذكور عِلَّتَيْنِ:

إحداهما: ظلم الرجال، واستثناؤهم، واستبدادهم على مر التاريخ.
والأخرى: قصور النساء أنفسهنَّ في استيفاء حقوقهنَّ.
إنَّ على النساء أن يجتهدنَّ في هذا السبيل ليصلن إلى حقوقهنَّ المشروعة.

فكروا وأجيبوا

- ١ - ما هي مكانة المرأة في الإسلام؟
- ٢ - ما هو دور المرأة في ظهور النسل البشري واستمراره؟
- ٣ - ما هو الهدف من خلق الانسان؟
- ٤ - هل بين المرأة والرجل فرق في هذا الجانب؟
- ٥ - ماذا قال القرآن الكريم حول النساء الصالحات؟
- ٦ - ماذا قال القرآن الكريم حول النساء الفاسدات؟
- ٧ - هل على النساء مسؤوليات إجتماعية، ما هي تلكم المسؤوليات؟
- ٨ - ماذا يجب على النساء في صعيد تحصيل العلم والوصول إلى مرحلة الاكتفاء

الذاتي؟

- ٩ - ما هو الوضع المطلوب للعلوم المرتبطة بالنساء؟



الدرس الثالث والستون

المرأة والحرية

إن المرأة - مثل الرجل - خُلقت حرة، وهي ترغب في أن تعيش حرة، لا يتدخل الآخرون في حياتها، ولا فيما تتخذه من قرارات.

إن الرغبة في الحرية رغبة طبيعية وحق مشروع من حقوق الإنسان، ولكن الحرية المطلقة لا يمكن أن تقع لأحد، لأن الإنسان يعيش في المجتمع، ويحتاج إلى الآخرين، ولهذا فهو مضطر إلى أن يراعي المقررات الإجتماعية ويلاحظ حقوق سائر الأفراد.. ولهذا فهو مضطر إلى أن يقيّد رغباته وميوله في حدود المقررات الإجتماعية.

هذا مضافاً إلى أن على الإنسان أن يراعي عند اختياره عملاً، أو اتخاذ قراراً، مصالح نفسه أيضاً، لأن بعض رغباته وميوله لا تلائم حتى مع مصالحه هو أيضاً.

إن الاسلام يحترم حق الناس في الحرية والعيش حراً، ولكن لا يرى الحرية المطلقة في مصلحتهم، ولهذا فهو يحدّد حرياتهم بجعل وتشريع التكاليف الفردية والاجتماعية.

ويمكن أن لا يستسيغ طائفة من الناس بعض الواجبات والوظائف، ويعتبرها معارضة ومزاومة لحرياتهم، غير أن هذا الحكم ناشيء من عدم معرفة الانسان

الصحيحة بمصالحه الحقيقية. ولهذا السبب يحتاج البشر إلى الأنبياء والشرائع السبوية.

إنَّ الاسلام احترام حقَّ المرأة في الحرية وراعاها في جميع تشريعاته مراعاةً كاملةً، ولكن لا الحرية المطلقة، وغير المقيدة، بل سنَّ تلك التشريعات مراعيًا تركيب المرأة الخاص، ومصالحها الحقيقية، إلى جانب مراعاة سائر أفراد المجتمع. ونحن هنا لا يمكننا أن نأتي بتفصيل هذه الأمور كلها، ولكننا نشير باختصار إلى طائفة منها:

١ - الحرية في العمل: إنَّ المرأة - كما أسلفنا - أحد ركني الاجتماع وهي لذلك تتحمل طائفة من المسؤوليات.

إن المرأة لا تستطيع، بل ولا ينبغي أن تكون عضواً مشلولاً، وعنصراً عاطلاً، فارغاً في المجتمع.

إنَّ الاسلام يعتبر العمل واجباً من الواجبات ووظيفة من الوظائف، بل أفضل العبادات ويحذر أتباعه من البطالة، والفراغ، ولنا في هذا المجال احاديث كثيرة نشير إلى بعضها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: العِبَادَةُ سَبْعُونَ جزءاً أفضلها طلبُ الحلال^(١). وعن بشير الدهان قال: سمعتُ أبا الحسن موسى عليه السلام يقول: إنَّ الله جَلَّ وعزَّ يُبْغِضُ العبدَ النَوَامَ الفَارِغَ^(٢).

إن العمل حقٌّ من حقوقِ الانسانِ بل ووظيفة من وظائفه، وإن المرأة والرجل متساويان في هذا المجال.

إن المرأة - كذلك - يجب أن تقوم بهذه الوظيفة، وهي حرة في إختيار نوع

(١) الكافي ج ٥ ص ٧٨.

(٢) الكافي ج ٥ ص ٨٤.

العمل، ولكن الاشتغال بأي عملٍ منها كان لا يناسب شأن المرأة، ولا يوافق مصالحها الواقعية ومصالح سائر أفراد الاجتماع.

إن المرأة وإن كانت تشارك الرجل في الإنسانية ولكنها ذات خصائص من جهة تركيبها الجسدي والنفسيّ توجب بعض التفاوت في المصالح والواجبات المرتبطة بها.

فهي من جانبٍ كائنٌ لطيفٌ وجميلٌ يجتذب الرجل بشكل خاص ... إن لللطافة والجمال رأس مال المرأة، وهما أفضل وسيلة لاجتذاب الرجل وإن من مصلحتها أن تحسن حفظَ جمالها ولطافتها ..

إن من مصلحة المرأة أن تراعى هذا الأمر عند اختيار شغلٍ من الأشغال، فعليها أن تختار أشغالاً لا تعرض لطافتها، وجمالها للخطر.

إن الاشتغال بالأعمال الثقيلة والشاقة والمضنية ليس من مصلحة النساء.

ولقد جاءت الإشارة في بعض الأحاديث الإسلامية إلى هذه النقطة:

في رسالة أمير المؤمنين إلى الحسن عليها السلام قال: لا تملك المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لحالها، وأرخص لبها وأدوم لجمالها، فإن المرأة ربحانة وليست بقهرمانة^(١).

وعلى أثر هذه الجاذبية التي تتمتع بها المرأة، ومنعاً من وقوع الشباب في المفاسد الاجتماعية، وبغية حفظ السلامة والأمن الاجتماعي أوصى الاسلام النساء بأن يراعين الحجاب عند حضورهن في المجتمع، وأن يقللن من معاشره الرجال الأجانب والتحدث معهم.

وعلى هذا الأساس يتوجب على النساء أن يراعين عند اختيار الشغل، هذه

(١) وسائل الشيعة ج ١٤ ص ١٢٠.

الناحية، فيقبلن بالأعمال التي يقمن بها في بيئتهن الخاصة، أو في الأماكن الخاصة بالنساء، أو يقلن فيها إرتباطهن ومعاشرتهن للرجال الأجانب، ومحادثتهن معهم. من جانب آخر، المرأة كائن عاطفي، وهي تتأثر عاطفياً أسرع من الرجال، ولهذا فلا تناسب الأشغال العسكرية والنظامية والجراحية والقضائية. إذا تزوجت المرأة، ورزقت أولاداً وجب أن تلتفت إلى هذا المطلب أيضاً وهو أنها تحمل في وضعها الجديد هذا مسؤولية أكبر واثقل، وهي عبارة عن حفظ وصيانة البيت الزوجي، وحسن البعولة، وتربية الأولاد.

وعلى هذا الأساس يجب عليها أن تراعي هذا الجانب في إختيار الشغل أيضاً فتقبل بالأعمال التي لا تضر بالنظام العائلي، ولا تعارض مهمة تربية الأولاد. إن عليها أن تفاهم مع زوجها فيما تنوي القيام به من الاشغال خارج البيت، ومن المسلم أن الزوجين لو تجردا من الانانيات والعصبيات غير السليمة، وتفاهما، لتوصلا الى اتفاق ولم تبق هناك مشكلة قط، في الأغلب.

٢ - الحرية في التملك إن المرأة مثل الرجل تماماً تملك أموالاً عن طريق العمل، والتجارة، والإرث، والمهر، والهبة، وغير ذلك من الطرق المشروعة للملكية. إنها مالكة لأموالها، ولها أن تتصرف فيها كيف ما تريد، ولا يحق لأحد أن يتصرف في أموالها بدون إذنها .. قال في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَمْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١).

٣ - الحرية في الزواج واختيار الزوج: إن المرأة حرة في اختيار الزوج حرية

٤١٠ دروس من الثقافة الإسلامية

كاملة. إن تزويج الفتاة البالغة بدون رضاها لا يصح، ولا يحق لأحد أن يجبرها على الزواج حتى الأب والأم والجد والأخ .. وهذا من ضروريات الفقه وأحكامه المسلمة .. وقد صرّحت به أحاديث منها:

عن منصور بن حازم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: تُستأمر البكر وغيرها ولا تُنكح إلا بأمرها^(١).

وعن داود بن سرحان عن أبي عبدالله عليه السلام في رجل يريد أن يُزوّج أخته، قال: يؤامرُها فإن سكّنت فهو إقرارُها ولا تُنكح إلا بأمرها^(٢).

وعلى هذا الأساس يشترط رضا المرأة بالزواج في جميع الموارد سواء كانت بكرًا أو ثيبًا. ولكن هل يشترط مضافا إلى ذلك إذن أبيها أو جدها في صحة الزواج أيضاً أولاً، هنا تفصيل نشير إليه.

إذا كانت المرأة ثيبًا أي كان قد أزيلت بكارتها قبل ذلك فأنها لا تحتاج في الزواج الجديد إلى إذن الأب أو الجد أو أي فرد آخر. وهذا أمر قد صرّحت به أحاديث منها:

عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: في المرأة الثيب تخطب إلى نفسها، قال: هي أمّلك بنفسها تولي أمرها من شاءت إذا كان كفؤاً بعد أن تكون قد نكحت رجلاً قبله^(٣).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: لا بأس أن تزوّج المرأة نفسها إذا كانت ثيبًا بغير إذن أبيها إذا كان لا بأس بما صنعت^(٤).

(١) وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٢٠٣.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٢٠٦.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٢٠٢.

(٤) وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٢٠٤.

أما إذا كانت الفتاة بكرةً فإن أكثر الفقهاء يشترطون إذن أبيها أو جدّها أيضاً في صحة الزواج. وتمسكوا في هذا المجال بأحاديث منها:
 أبو مريم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: الجارية البكر التي لها أب لا تتزوج إلا بإذن أبيها^(١).

وبناء على فتوى هؤلاء الفقهاء تنقيد حرية الفتاة الباكرة في اختيار الزوج بإذن الأب أو الجد.

ولكن هذا الموضوع ليس فقط غير ضارّ بالفتاة، بل يكون غالباً في مصلحتها، لأن معرفة الزوج واختياره أمر جدّ مهمّ ومصيريّ من جهة، ومن جهة أخرى حيث أنّ الفتاة الباكرة لم تتزوج قبل هذا، وليست لديها تجربة سابقة، كما وأنّ حياءها يمنعها - في الأغلب - من الفحص التام والتحقيق الكامل حول من يخطبها، لهذا فهي تحتاج في مسألة اختيار الزوج إلى مشاورٍ حكيمٍ، ومرشدٍ مجربٍ مخلصٍ، والأب والجد هما في الغالب أفضل الأفراد الذين يمكنهم مساعدة الفتاة في هذا الأمر المهمّ.
 ثم إنّ استشارة الأب واستئذانه ينطوي على احترامه وتقديره، ولا شك أن لهذا الأمر أثراً كبيراً في حياة الفتاة المستقبلية، وحل المشاكل التي يُحتمل أن تعترض حياتها الزوجية.

ولا يخفى أن هناك موردين قد استثنيا من مسألة وجوب استئذان الأب وهما:
 أولاً: إذا لم يمكن تحصيل إذن الأب أو الجد.

ثانياً: إذا خطب الفتاة خطّابٌ صالحون أكفّاء، ولكن والدها امتنع عن تزويجها بحجج واهية ومعاذير تافهة.

لقد استثنى الفقهاء هاتين الحالتين وقالوا يمكن للفتاة أن تقرّر كما تريد في

شأن الزواج ولا حاجة إلى إذن الأب.

٤ - الحرية في تحصيل العلم: المرأة إذا لم تكن بذات بعل يمكنها مواصلة دراستها، ولا يحق لأحد منعها من ذلك.

نعم - كما قلنا سابقاً - من الأفضل أن تكون دراستها هادفة ومناسبة .. وأن تواصل دراستها في المجالات التي تهتم النساء ويحتاج إليها المجتمع النسوي، وتكون مناسبة للمرأة، وشأنها.

ولكن إذا كانت المرأة متزوجة يجب أن تشاور زوجها وتتفاهم معه في مسألة مواصلة دراستها كما أن عليها أن تراعي حقوق زوجها وأبنائها في هذا المجال.

٥ - الحرية في اختيار المسكن: المرأة إذا لم تكن متزوجة فهي حرة في اختيار المسكن والمكان الذي تقطنه.

ولكن إذا كانت متزوجة فهي تتبع زوجها في مسألة اختيار المسكن والمكان الذي تقطنه.

إن تهيئة المسكن تعد من نفقة المرأة وهي على عهدة الرجل (الزوج)، ولهذا فإن اختياره أيضاً من صلاحياته وحقوقه.

يجب أن يكون المسكن الذي يختاره الرجل (الزوج) لأهله مناسباً لشأنهم، وفي مستوى وحدود قدرته المالية، وأن يكون محلاً مريحاً.

إذا كانوا يعيشون في منزل مشترك ولم تكن الزوجة مرتاحة، فطلبت منزلاً مستقلاً وجب على الزوج - إذا كان قادراً - أن يحقق مطلبها هذا لأنه جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾^(٢).

(١) النساء ١٩.

(٢) الطلاق ٦.

ولكن إذا اشترط ضمن عقد الزواج أن يكون اختيار المنزل ، والوطن بيد المرأة وجب على زوجها أن يتبع اختيار زوجته في هذا المجال .. وتعد مخالفتها لها في ذلك معصية، إلا إذا حصل على رضا زوجته.

فكروا وأجيبوا

- ١ - هل يمكن للانسان أن يعيش مطلق العنان؟ ولماذا؟
- ٢ - لماذا يعتبر البعض الواجبات الشرعية معارضة للحرية؟
- ٣ - ما هي النواحي التي يجب أن تراعيها المرأة في اختيار العمل؟
- ٤ - هل يجوز أن تزوج الفتاة البالغة (البكر) بدون رضاها؟
- ٥ - متى تكون المرأة حرة في اختيار الزوج كاملاً؟
- ٦ - في أية حالة يجب إذن الأب أو الجد؟
- ٧ - ما فائدة إذن الأب للفتاة؟
- ٨ - إذا كانت المرأة متزوجة ماذا يجب عليها لمواصلة دراستها؟
- ٩ - من هم الذين يجب أن تراعي المرأة حقوقهم؟
- ١٠ - في أية صورة تكون المرأة حرة في اختيار المسكن.
- ١١ - إذا كانت المرأة متزوجة الى من يكون إختيار المسكن والموطن؟

الدرس الرابع والستون

الحجاب والمرأة

الحِجَاب في اللغة يعني الستر .. جاء في المنجد: الحِجَاب: السَّتر وكل ما احتجب به.

والمراد من الحجاب هنا هو اللباس الذي يستر جسد المرأة.

الأدلة على وجوب الحجاب:

استدل لإثبات وجوب الحجاب على المرأة بعدة آيات من القرآن الكريم؛ وبطائفة من الأحاديث الشريفة؛ منها قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ ابْنَائِهِنَّ أَوْ ابْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ

النِّسَاءَ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(١).

لقد تضمنت هذه الآية التي نزلت حول حجاب المرأة الإشارة إلى مسائل عديدة يجب بيانها وتفسيرها:

في البداية طُلِبَ من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات أن يَغُضُّوا من أبصارهم فلا يحدِّق الرجال في النساء ولا النساء في الرجال، ولا يواصِلوا النظر. إنَّ الغَضَّ في اللغة يعني الحَفْضَ والنقصان من الطرف، وغَضُّ البصر يعني عدم التحديق والإمعان في الشيء.

قد ينظر الإنسان إلى أحد وهو لا يهدف من نظره هذا النظرَ والالتذاذ، بل يهدف أمراً آخر.

وقد يكون هدفه هو النظر والالتذاذ وفي هذه الحالة يلتذُّ من النظر، ويُشبع به شهوة في نفسه.

إن مثل هذه النظرات المسمومة يمكن أن تجرَّ الإنسان إلى الفساد والانحراف وقد نهى الإسلام عن مثل هذه النظرات.

أما النظرات التي لا تكون مهدوفةً بذاتها، ولا تكون بقصد الريبة والالتذاذ فليست محرَّمة، لأنَّها من لوازم الحياة والمعايشة الاجتماعية بين الرجال والنساء .. وهي أمرٌ لا مناصَّ منه ولا مفرٍّ.

ثم انه يوصي - في الآية - الرجال والنساء بان يحفظوا فروجهم .. والفروج جمع فَرْج، ويعني: عورة الرجل والمرأة.

والمراد من حفظ الفروج سترها، أو الاجتهاد في حفظ العفاف، والطهر، بالغض من الطرف، ورعاية الحجاب والستر.

ثم يقول بعد ذلك للنساء: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ والزينة يعني الشيء الذي يزين الإنسان به نفسه ويحملها.

والزينة على نوعين: ما ينفصل عن البدن كالحلي، نظير: القرط، والقلادة، والخاتم، والسوار والخلخال (الحجل)، والمعصم، وما يوضع على الرأس والشعر من أكاليل والألبسة الجميلة والثياب الانيقة.

والنوع الثاني: ما يكون من الزينة مُلتصقا للبدن: كالكحل، والخنأ الذي يوضع على اليد والرجل، وأصباغ الشعور والأظافر. والزينة المذكورة في الآية تشمل كلا النوعين.

لقد أوصيت النساء بأن لا يُبدين زِينَتَهُنَّ للرجال الأجانب حتى لا يجلبن بذلك نظرهم ويثرن شهواتهم، وغرائزهم الجنسية.

ثم يقول عقب ذلك: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهذا يعني أن نوعاً من الزينة يجوز إظهاره، وهو عبارة عن الزينة الظاهرة.

فالزينة على نوعين: الزينة الخفية (المستورة) والزينة الظاهرة.

والأولى: هي التي تكون في الأغلب مخفية تحت الثياب، مستورة عن نظر الناظرين، مثل القلادة والمعصم، والإكليل ولون الشعر، والقرط، والخلخال، والألبسة الداخلية المستخدمة للتزين.

والزينة الظاهرة هي الأمور والأشياء التي تكون ظاهرة بادية بحكم الطبع والضرورة وتفرضها المعاشرة الاجتماعية مثل الكحل في العين، وصبغ الحواجب، وخضاب اليدين والخاتم، فإن المرأة تعيش في المجتمع وهي مضطرة - للوصول إلى حوائجها - إلى التردد على الرجال الأجانب، والتنقل بين الناس، ومن الطبيعي - في هذه الحالة - أن يظهر وجهها وكفاها للآخرين .. ولا شك أن إخفاءها أمر حرجي يحد من حركة المرأة ويعسر حياتها.

ولهذا استثنى هذا النوع من الزينة في الآية وقد عبر عنها بـ«إلا ما ظهر منها».
وقد أُشير إلى هذه الزينة الظاهرة في بعض الأحاديث أيضاً:
عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿إلا ما ظهر منها﴾ قال: الزينة الظاهرة الكحل والخاتم^(١).

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألت عن قول الله عز وجل
﴿ولا يبيدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ قال: الخاتم والمِسكة وهي القلب^(٢).
ويستلزم هذا الاستثناء للزينة الظاهرة أن لا يكون ستر الوجه والكفين واجباً
لأنه لا يمكن التفكيك بين الزينة الظاهرة والوجه والكفين.

ثم بعد ذلك وتعقيباً على بيان الحجاب يقول: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى
جُيُوبِهِنَّ﴾ .. والخُمُر جمع خمار، وهو ثوب تغطي به المرأة رأسها ورقبتها .. أو بعبارة
أخرى هي المقنعة الكبيرة؛ والجيوب جمع جيب، وهو من القميص موضع الشق الذي
ينفتح على المنحر والصدر.

ويقال: إن النساء في عصر النبي كن يلبسن ثياباً مفتوحة الجيوب (أي ثياب
ذات صدور مفتوحة) وبذلك كان يظهر شيء من صدورهن للنظرين.
كما كن يلقين على رؤوسهن خُمراً كان من عاداتهن أن يضعنها على أذنين
ويسدلنها خلف رؤوسهن، وبذلك تظهر أذنين وأقراطهن ورقابهن وشيء من نحورهن
للنظرين.

ولهذا أمرن بأن يضربن بخمرهن على جيوبهن أي يلقين بها زاد من غطاء
الرأس على صدورهن حتى يسترن بذلك أذنين وأقراطهن وصدورهن.
قال الشيخ الطبرسي: الخُمُر، المقانع، جمع خمار، وهو غطاء رأس المرأة المنسدل

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١٤٦.

(٢) الوسائل ج ١٤ ص ١٤٦.

على جيبها أمرن بإلقاء المقانع على صدورهن تغطية لنحورهن، فقد قيل: إنهن يلقين مقانعهن عن ظهورهن فتبدو صدورهن^(١).

وفي ذيل هذه الآية يقول: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أى بهدف التأكيد على رعاية العفاف والحيلولة دون المفاصد الإجتماعية يوصي النساء بأن لا يضربن الأرض بأرجلهن حين المشي حتى لا تثير هذه الضربة صوت الزينة (الخلاخل) فيسمعه الرجال الأجانب، فيوجب ذلك إثارة شهواتهم وغرائزهم الجنسية، فتنشأ على أثر ذلك مشاكل ليست في صالح المجتمع أبداً.
فاستفيد من الآية المذكورة عدة أمور هامة:

- ١ - ان على الرجال والنساء الأجانب أن يجتنبوا النظرات المسمومة ... أى النظر بدافع الشهوة والالتذاذ.
- ٢ - ان على النساء أن لا يُبدِينَ زِينَتَهُنَّ الباطنة الخفية للرجال الأجانب.
- ٣ - انه يجب على النساء أن يسترن أذنهن وأقراطهن ورقابهن وصدورهن سترًا كاملاً بالخمار والمقانع.
- ٤ - إن على المرأة زيادة في الحفاظ على الحجاب والعفاف أن تتجنب حتى من ضرب الأرض برجلها.
- ٥ - ستر الوجه والكفين وما عليها من الزينة الظاهرة ليس واجباً على المرأة.

الآية الأخرى في الحجاب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾^(٢).

(١) مجمع البيان ج ٧ ص ١٣٨.

(٢) الأحزاب ٥٩.

هنا يجب أن نبحث في عدة مواضيع: ١ - ما هو الجلباب؟ ٢ - ما معنى يدين عليهن؟ ٣ - ما فائدة هذا العمل؟

جاء في القاموس في معنى الجلباب: الجلباب: القميص وثوبٌ واسع للمرأة، دون المَلْحَفَة، أو ما تغطي به ثيابها من فوق كالمَلْحَفَة، أو هو الخمار. وقال الراغب: والجلايبب: القُمُصُ والخُمُر، الواحد جلباب. وجاء في المنجد: الجلباب: القميص أو الثوب الواسع. إذن يستفاد من كتب اللغة أن الجلباب كما يستعمل في القميص يستعمل في الخمار أيضاً، ولكن الظاهر أنه قد استعمل في الخمار في هذه الآية. وأما يدين فقد جاء في المنجد: أدنى الستر: أرخاه.

وقال العلامة الطباطبائي: «يُدْنِيَنَّ عَلَيْنَهُنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ» أي يتسترن بها فلا تظهر جيوههن وصدورهن للناظرين^(١). وفي هذه الآية أوصيت النساء أيضاً بأن لا يتركن جلبابهن، بل يسترن بها رقابهن وصدورهن، وغير ذلك من أنحاء البدن.

ثم قال تعالى في فائدة هذا العمل «ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذَنَ». قال العلامة الطباطبائي في تفسير ذلك: أي ستر جميع البدن أقرب إلى أن يُعرفن أنهن أهل الستر والصلاح فلا يُؤذَنَ، أي لا يُؤذَنُ أهل الفسق بالتعرض لهن^(٢).

فيستفاد من الآية أن على المرأة المسلمة أن تكون من حيث المتانة والستر عندما تخرج من المنزل بحيث تكون ظاهرة العفاف والوقار، حتى لا يجروا أحدٌ على مزاحمتها، والتعرض لها بسوء.

الآية الأخرى:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيْطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾^(١).

إن الخطاب في هذه الآية وإن كان موجهاً إلى نساء النبي، ولكن الوصايا المذكورة فيها تشمل النساء الأخريات أيضاً.

هنا أوصيت النسوة بثلاث توصيات:

التوصية الأولى: أن لا يخضعن بالقول، أي لا يرققن أصواتهن عند التحدث، لأن هذا النوع من التكلم يثير الرجال من ذوي القلوب المريضة، فيطمعون فيهن. بل عليهن أن يتكلمن بصورة عادية وعلى النحو المتعارف.

التوصية الثانية: أن يقرن في بيوتهن، أي يكن امرأة بيت.

التوصية الثالثة: أن لا يخرجن من البيت متبرجات غير محتجبات كما كانت النساء يفعلن في الجاهلية.

والمقصود من ﴿قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ليس هو أن تلازم النساء البيوت ولا يبرحنها إطلاقاً، لأن المرأة في نظر الاسلام عضو حقيقي من أعضاء المجتمع، وعليها مسؤوليات يقتضي القيام بها خروجهن من البيت.

إن الاسلام لم يفرح قط أن يتعطل نصف المجتمع .. ولقد كانت النسوة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يخرجن من البيوت، ويحضرن في المسجد، يستمعن إلى أحاديثه .. ويسألنه أمور دينهن.

ولقد كانت لرسول الله جلّسات خاصة بهنّ مقصورة عليهنّ .. وقد روت الكثير من النساء أحاديث النبي، كما روى الكثير من الرواة الحديث عنهنّ. ولقد شاركت طائفة من النساء في الحروب أيضاً، وكنّ يقمن بإسناد الجبهة، ويداوين الجرحى بل وحتى رسول الله كذلك كان يقرع بين نسائه في كل معركة يخرج إليها، ويأخذ منهن إحداهن إليها.

وعلى كلّ حال لم تكن سيرة النبي وأصحابه أن يحصروا النساء في البيوت. فليس المقصود في الآية هو هذا المعنى، بل المقصود من قوله ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ هو أن على النساء أن تجعل المرأة البيت مثابة لها والمقر الأصلي في حياتها. وأن تعتبر البعولة وتربية الأولاد، وإدارة شؤون المنزل أهم مسؤولياتها، لأنّ عدم الإكتراث واللامبالاة بأمور البيت، والخروج من المنزل من دون قيد أو شرط يزعزع صرح العائلة، ويعرض بنيانه لخطر الانهيار، وهو أمر لا يناسب شأن المرأة المسلمة. في هذا الدرس تعرّفتم على بعض الأدلة على وجوب الحجاب، وسوف تتعرفون في الدرس القادم على حدود الحجاب.

فكّروا وأجيبوا

- ١ - في الآية ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا...﴾ نهي عن أي نوع من النظرات؟
- ٢ - ماذا تعني الزينة؟
- ٣ - ما هي الزينة التي يجب أن تخفيها النساء؟
- ٤ - ما هي الزينة التي لا يجب سترها على المرأة؟
- ٥ - فسّروا جملة: «وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ».
- ٦ - لماذا على النساء أن لا يضربن الأرض بأرجلهنّ؟
- ٧ - كيف يستدل بهذه الآية على وجوب الحجاب؟

٨ - فسروا عبارة: «يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَائِبِهِنَّ».

٩ - فسروا جملة: «أدنى أن يُعرفن» وبينوا فائدة ذلك.

١٠ - كيف يجب أن تخرج المرأة المسلمة من البيت؟

* * *

الدرس الخامس والستون

حُدود الحجاب

يُعتبر أصل وجوب الحجاب من الأحكام الإسلامية القطعية. ففقهاء الاسلام جميعاً متفقون في أنَّ على النساء أن يسترن رؤوسهن وأبدانهن من عيون الرجال الأجانب، سواء بالعبائة أو اللباس، أو الجلباب أو المعطف أو المقنعة أو أية وسيلة أخرى.

فلا خلاف بين الفقهاء في أصل وجوب ستر الرأس والبدن، إنما الاختلاف هو في حكم ستر الوجه والكفين، فاکثر الفقهاء يستثنون الوجه والكفين، ولا يرون وجوب سترها، بينما اُفتى جماعة من الفقهاء بوجوب سترها او حكموا بوجوب الإحتياط في هذا المجال.

ونحن مع الرأي الأول، ويمكن أن نستدل لإثبات صحته بالأدلة التالية:

الدليل الأول: الأحاديث التي تدلُّ بصورة مباشرة على عدم وجوب ستر الوجه والكفين وجواز النظر إليها:

عن مسعدة بن زياد قال: سمعتُ جعفرًا (ع): وسئل عما تُظهر المرأة من

زينتها؟ قال: الوجه والكفين^(١).

وعن مروق بن عمير عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما يحلُّ للرجل أن يرى من المرأة إذا لم يكن محرماً؟ قال: الوجه والكفان والقدمان^(٢).

وعن علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام قال: سألته عن الرجل ما يصلح أن ينظر إليه من المرأة التي لا تحل له؟ قال: الوجه والكف وموضع السوار^(٣).

وعن علي بن سويد قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: إني مبتلى بالنظر إلى المرأة الجميلة يُعجبني النظر إليها. فقال لي: يا علي لا بأس إذا عُرِفَ مِنْ نَيْتِكَ الصِّدْقُ وَإِيَّاكَ وَالزَّنا فَإِنَّهُ يَمَحُقُ الْبِرْكَهَ وَمُهْلِكُ الدِّينِ^(٤).

وعن مفضل بن عمر قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جُعِلَتْ فداك ما تقول في المرأة تكون في السفر مع الرجال ليس فيهم لها ذو محرم ولا معهم امرأة فتموت المرأة ما يصنع بها؟

قال: يُغَسَّلُ مِنْهَا مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ التَّيْمُّ وَلَا تُمَسَّ وَلَا يُكْشَفُ لَهَا شَيْءٌ مِنْ مُحَاسِنِهَا الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِسِتْرِهَا.

قلت: فكيف يصنع بها؟ قال يغسل بطن كفيها ثم يغسل وجهها ثم يغسل ظهر كفيها^(٥).

إن الوجه والكفين - كما تلاحظون في الحديث الأخير - اعتبرت من مواضع التيمم التي لا يجب على المرأة سترها.

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١٤٦.

(٢) الوسائل ج ١٤ ص ١٤٦.

(٣) تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٥٩٠.

(٤) نور الثقلين ج ٣ ص ٥٩٠.

(٥) الوسائل ج ١٤ ص ١٤٤.

الدليل الثاني: الأحاديث التي لا تصرّح فيها بالوجه والكفين ولكن يمكن

استفادة عدم وجوب ستر الوجه والكفين منها بصورة غير مستقيمة مثل ما:

عن محمد بن أبي نصر عن الرضا عليه السلام قال: سألتُه عن الرجل يحلُّ له

النَّظَرُ إلى شعر أخت إمرأته؟

فقال: لا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْقَوَاعِدِ. قلت: أخت امرأته والغريبة سواء؟ قال:

نعم. قلت: فما لي مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ منها؟ فقال: شعرها وذراعها^(١).

لقد سئل في هذا الحديث عن جواز النظر إلى شعر أخت المرأة، ولم يكن في

السؤال أية إشارة إلى وجهها.. فيستفاد من هذا أن جواز النظر إلى وجهها كان أمراً

مسئلاً ومعلوماً عند السائل والإمام عليه السلام معاً، ولهذا لم تأت الإشارة إلى ذلك لا

في السؤال ولا في الجواب.

كما أنه يمكن الاستدلال بذيل الحديث أيضاً لأن الإمام قال في جواب السائل

الذي سأل عن مقدار ما يجوز النظر إليه من النساء القواعد: «شعرها وذراعها»، ولم

يقل شيئاً حول الوجه والكفين، ومن المعلوم أن النظر إلى الشعر والذراع إذا كان جائزاً

فلا بد أن النظر إلى الوجه والكفين جائزاً أيضاً.

من هنا يُعلم أن النظر إلى الوجه والكفين إذا كان جائزاً على كل حال لم تكن

حاجة إلى ذكره.

عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن الرضا عليه السلام قال: يُؤْخَذُ الْغُلَامُ

بِالصَّلَاةِ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ وَلَا تُغَطِّي الْمَرْأَةُ شَعْرَهَا مِنْهُ حَتَّى يَحْتَلِمَ^(٢).

عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن الجارية

التي لم تدرك متى ينبغي أن تغطي رأسها منه، ممن ليس بينها وبينه محرم؟ ومتى يجب

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١٦٩.

(٢) الوسائل ج ١٤ ص ١٦٩.

عليها أن تقنّع رأسها للصلاة؟

قال: لا تغطّي رأسها حتى تحرم عليها^(١).

في هذين الحديثين طُرِحت أيضاً مسألة ستر الشعر والرأس، ولم تأت فيهما الإشارة حول ستر الوجه، في حين إذا كان ستر الوجه واجباً كان أولى بالذكر. الدليل الثالث: يمكن أن يُستفاد من آية الحجاب أيضاً أن ستر الوجه والكفين غير واجب، ولكن لا بصورة صريحة بل بالملازمة، وذلك بالبيان التالي: في موضع من الآية المذكورة جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهنا استثنيت الزينة الظاهرة من موارد وجوب ستر الزينة، وحيث أن الأئمة المعصومين عليهم السلام - كما قرأتم في الدرس السابق - اعتبروا الكحل والخاتم من مصاديق الزينة الظاهرة لهذا لا يجب ستر الكحل والخاتم على المرأة وهذا يستلزم أن لا يكون الوجه واليدان أيضاً واجبة السّتر لأنها محالّ الزينة التي لا تكون واجبة الاستتار.

ثم يقول في موضع آخر من نفس الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ فهنا أيضاً يوصي النساء - تأكيداً على رعاية الحجاب - بأن يضعن خُمُرهنَّ على نُحُورهنَّ وصُدُورهنَّ حتى يكون الحجاب كاملاً، ولكن لم يتحدث أبداً عن ستر الوجه .. فيعلم من ذلك أنه ليس بواجب.

هذا مضافاً إلى أنه ذُكر الوجه والكفّان في بعض الأحاديث بعنوان أنها مصاديق للزينة المستثناة مثل ما عن:

مسعدة بن زياد قال سمعت جعفرأ (ع) وسئل عما تُظهر المرأة من زينتها،

قال: الوجه والكفين^(٢).

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١٦٩.

(٢) الوسائل ج ٤ ص ١٤٦.

الدليل الرابع: يُستفاد من بعض الشواهد التاريخية وبعض الأحاديث أن النساء في صدر الاسلام كنَّ يحضرنَ في المجالس والمجامع سافرات الوجوه، وكانت عيون الرجال تقع عليهن، ولكن النبي الكريم صلى الله عليه وآله لم يوص النساء بستر الوجه، ولم يمنع الرجال من النظر إليهن إذا لم يكن بريية وبقصد التلذذ.

عن جابر بن عبدالله الانصاري قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَرِيدُ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَأَنَا مَعَهُ. فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى الْبَابِ وَضَعَ يَدَهُ فَدَفَعَهُ ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: أَدْخُلِي؟ قَالَتْ: أَدْخُلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ادْخُلِي وَمَنْ مَعِي؟ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ عَلَيَّ قَنَاعٌ، فَقَالَ: يَا فَاطِمَةُ خُذِي فَضْلَ مِلْحَفَتِكَ فَتَقْنَعِي بِهِ رَأْسَكَ، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ أَدْخُلِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَنَا وَمَنْ مَعِي. قَالَتْ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: جَابِرٌ فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَدَخَلْتُ فَادْأَوْجَهَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامَ أَصْفَرَ كَأَنَّهُ وَجْهُ جَرَادَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): مَا لِي أَرَى وَجْهَكَ أَصْفَرَ؟ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْجُوعُ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اللَّهُمَّ مُشْبِعَ الْجُوعَةِ وَرَافِعَ الضَّيْعَةِ، أَشْبِعْ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ. قَالَ جَابِرٌ: فَوَاللَّهِ لَنَظَرْتُ إِلَى الدَّمِ يَنْحَدِرُ مِنْ قَصَصِهَا حَتَّى عَادَ وَجْهُهَا أَحْمَرَ، فَمَا جَاعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ^(١).

إن الحديث المذكور يدلُّ على أن وجه الزهراء المبارك كان مكشوفاً بحيث شاهد جابر الصفرة فيه ابتداءً ثم بعد دعاء النبي (ص) رأى انتشارَ الحمرة فيه.

عن سعد الإسكاف عن أبي جعفر عليه السلام قال: استقبل شاب من الانصار امرأةً بالمدينة وكان النساء يتقنعن خلف آذانهن فنظر إليها وهي مقبلة، فلما جازت نظر إليها ودخل في زقاق قد سمّاه يعني فلان. فجعل ينظر خلفها واعترض

وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه، فلما مضت المرأة نظرت فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره، فقال: والله لآتين رسول الله ولأخبرته، قال: فاتاه فلما رآه رسول الله قال له: ما هذا فاخبره، فهبط جبرئيل بهذه الآية: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(١).

يُستفاد من هذا الحديث أن النساء في زمن رسول الله لم يكن يسفرن عن وجوههن فحسب بل كن لا يسترن آذانهن بخمرهن أيضاً فكأن يضعن الحجاب خلف الآذان فتظهر بذلك آذانهن وأقراطهن ورقابهن وصدرهن .. ولهذا وقع ما وقع للشاب الأنصاري، وشكى إلى رسول الله ذلك، فنزلت آية الحجاب.

إن الجدير بالذكر هنا هو أن النساء أوصين في الآية المذكورة بأن لا يُظهرن زينتهن الباطنة للرجال الأجانب، وأن يُدلين بخمارهن على صدورهن ونحوهن ليسترن بذلك الرقبة والصدر والآذان ولكن لم يرد في الآية ذكر عن الوجه أصلاً وأبداً. ولكن منعاً من وقوع المفاسد ونشوء المشاكل الاجتماعية، وحتى لا تتكرر الحوادث المشابهة للحادثة التي وردت في شأن نزول الآية أوصيت النساء والرجال بأن يغضوا أبصارهم، ولا يواصلوا النظرات .. فيعلم أن ستر الوجه لم يجب على النساء.

فكروا وأجيبوا

- ١ - في الحديث الذي يتضمن السؤال حول جواز أن ينظر الرجل إلى شعر أخت زوجته كيف يُستفاد منه عدم وجوب ستر الوجه على المرأة؟
- ٢ - كيف تستفيدون من آية الحجاب عدم وجوب ستر الوجه والكفين؟
- ٣ - ماذا تستفيدون من حديث جابر في شأن السيدة فاطمة الزهراء عليها

السلام؟

الدرس السادس والستون

فلسفةُ الحُجَاب

في الدرس السابق قرأتم أن وجوبَ الحجاب على المرأة من الأحكام الإسلامية القطعية التي لا تقبل الشكَّ والإنكار.. والآن تنطرح هذه المسألة وهي: لماذا الحجاب، وما هي فلسفته وحكمته؟

ولماذا سلب الإسلام - بتشريع حكم الحجاب - حرية المرأة ، وقيدَها؟
أليس هذا الحكم هو نوع من التمييز، وبالتالي هو جورٌ على النساء؟
في الجواب على هذا السؤال يقال: صحيح أن تشريع وجوب الحجاب يقيد المرأة ويحددها في هذا المجال، ولكن هذا التحديد والتقيد ليس فقط لا ينطوي على الإضرار بها فحسب، بل يتضمن مصلحتها الحقيقية والواقعية.
إن حجاب المرأة ينطوي على فوائد للنساء، وللشباب والرجال أيضاً، وإن اثبات هذا الموضوع يحتاج إلى البيان والتوضيح ولكن قبل ذلك يجب الإنتباه والالتفات إلى عدة أمور:

الأمر الأول: إنّ المرأة والرجل وإن كانا يشتركان ويتساويان في أصل الإنسانية غير أن لكل واحدٍ منها خصائص خاصة به، يجب أن تلاحظ وتراعى عند

تشريع الأحكام لها، وإن تجاهل هذه الخصائص يضرّ المرأة وبالرجل معاً.
 إن المرأة والرجل إنسانان، ولكن من نمطين وبنوعين من الخصائص الجسدية
 والنفسية التي أودعت في خلقتهما، وتركيبهما، ولهذا فهما يقتضيان نوعين من الحكم.
 الأمر الثاني: إن المرأة والرجل يعيشان في أحضان المجتمع، وينتفعان أو
 يتضرران بمحاسنه أو مساوئه، وكلاهما يحتاجان إلى مجتمع سليم مبرأ من المفسد
 الأخلاقية والاجتماعية لأن المشاكل الأخلاقية والاجتماعية تسري إلى بقية الأفراد
 أيضاً، وتسلب أمنهم وراحتهم.

وعلى هذا الأساس فإنّ على المرأة والرجل كليهما أن يتعاونوا ويتساعدا في
 تشكيل مجتمع سليم معافى، وفي تكوين بيئة نزيهة طاهرة، وفي الحيلولة دون المفسد
 الأخلاقية، وأن يعمل كل واحد منها بمسؤوليته الخاصة.

الأمر الثالث: إن المرأة كائن لطيف وظريف ينطوي على عنصر الجاذبية
 الخاصة للرجل، فهي ترغب بشدة أن تتجمل وتنزّين، وتظهر بمظهر رائع وانيق، وتحب
 أن تكون جميلة تسحر العيون، وتسخر قلوب الرجال وتستحوذ عليها.

وأما الرجل فهو كائن يرغب في التنوع وهو ضعيف جداً أمام ضغط الغريزة
 الجنسية، فانه يتحرك جنسياً فوراً، وسرعان ما تخرج غريزته هذه عن قبضته .. وتفلت
 من سيطرته، بل وحتى يعجز العقل والقانون عن التحكم فيها، وكبح جماحها غالباً.

إن المرأة وجميع آثارها يمكن أن تحرك غريزة الرجل وشهوته الجنسية .. إن
 زينة المرأة وألبستها الجميلة، وصوتها الرقيق، وحركاتها الجذابة، ولمس بدنّها، ومشاهدة
 جسدها وشعرها، بل وحتى حرارة جسمها كل ذلك يمكن أن يحرك هذه الغريزة الجامحة
 ويشعلها.

الأمر الرابع: إنّ في المجتمع أفراداً لا يمكنهم الزواج، إما بسبب مواصلة
 الدراسة الجامعية، أو الفقر، أو البطالة أو بسبب آخر من الاسباب المعوّقة.

إنَّ وضع هؤلاء الخاص لا يمكن تجاهله قط، لأنَّهم أيضاً أبناء هؤلاء الآباء والأمهات، ومن أعضاء هذا المجتمع نفسه.

مع ملاحظة هذه النقاط والأمور وفي ضوئها ينطرح هذا السؤال وهو: ما هي مصلحة المرأة الحقيقية في ظلِّ هذه الاعتبارات والأمور؟

هل الأقرب والأفضل لمصلحتها أن تتسترَّ وتتجنب وتخرج من البيت في هيئة عادية غير مثيرة؟

أم تترين وتبرِّج ولا تراعي الحجابَ والسَّتر؟

لتحصيل الجواب على هذا السؤال الهامَّ من الأفضل أن ندرس آثار كلِّ واحدة من هاتين الحالتين وعواقبهما حسنة كانت أم سيئة.

في البداية لا بدَّ أن نفترض مجتمعاً تعاشر فيه النساء الرجال الاجانب بمطلق الحرية، ومن دون التقيّد بالحشمة والوقار والتستر والحجاب.

في مجتمع تخرج فيه النساء من البيت وقد تزين بالثياب الجميلة الأنيقة، الملونة، ومن دون حجاب، ويتواجدن في الأزقة، والأسواق والشوارع والدوائر والمتاجر الكبرى، والجامعات والمدارس، والمستشفيات والمستوصفات من دون التقيّد بشيء، ويعاشرن الرجال الأجانب ويتحدثن إلى الرجال من دون حجاب أو احتشام.

في مثل هذا المجتمع لا شكَّ قد حفظت للمرأة حريتها، وتركت طليقة غير مقيدة، ولكنَّ هذا المجتمع لن يكون مجتمعاً سليماً معافى، لأن هذا المجتمع لا ينفك - في هذه الحالة - عن تزعزع صرح العائلة، وظهور سوء الظن بين الزوجين، والإختلافات العائلية، وتضاعُد أرقام الطلاق والإفتراق وتزايد الأطفال بلا كفيل والمشردين، وازدياد الأمراض النفسية، وكثرة القتل والجناية والإنتحار والإعتياد، وتأخر سنِّ الزواج وتزايد الفتيات العازبات والشباب العزاب، وغياب الأمن الجنسي،

وانجرار الشباب إلى أنواع المفسد الأخلاقية والانحرافات الجنسية، وعشرات اللوازم الفاسدة الخطيرة.

ولعلكم تتعجبون من هذا الكلام وتعتبرونه إدعاءً مبالغاً فيه، ولكن إذا لاحظنا قوة الغريزة الجنسية وسرعة تحركها، واشتعالها والعوامل المثيرة لها، وآثارها وعواقبها الناشئة من ذلك بصورة كاملة ودقيقة لا يدُّم هذا الإدعاء، صدقتم هذا الكلام. إن الأوضاع المؤسفة والخطيرة للعلاقات العائلية في البلاد الغربية، وحالة الانفلات والتشتت فيها، وكثرة الجرائم والمفسد الاجتماعية، والانحرافات الجنسية بين الشباب، وانتشار مختلف أنواع الامراض النفسية أفضل شاهد على ذلك.

والآن ينطرح السؤال التالي وهو: هل مثل هذا الوضع هو في مصلحة النساء؟

هل النساء يعشن - في ظل هذا المجتمع - في أمنٍ وراحةٍ وسعادةٍ؟

جوابكم - هو بكل يقين - بالنفي القاطع، فانكم ولا شك لا يعجبكم مثل هذا المجتمع، والإسلام كذلك لا يعجبه مثل هذا الوضع المأساوي ولا مثل هذا السلوك الذي لا يعتبره في مصلحة المرأة.

إن الإسلام يجعل مسؤوليَّة الحيلولة دون المفسد، والحفاظ على طهارة البيئة الاجتماعية، على عاتق النساء، ويقرر لكل واحدة منها وظائف نشير إليها:

١ - يأمر النساء أن لا يُبدینَ زينتهنَّ، وأن يسترنَّ رؤوسهنَّ وأجسادهنَّ عن الرجال الأجانب سترًا كاملاً .. يقول في القرآن الكريم: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية (١١).

وفي حديث المناهي عن النبي (ص): وَنَهَى أَنْ تَتَزَيَّنَ لِفَرِّ زَوْجِهَا، فَإِنْ فَعَلَتْ

كان حقاً على الله أن يُحْرِقَهَا بِالنَّارِ^(١).

٢ - يوصي النساء والرجال بأن يتجنبوا النظرات التي تكون بنية التلذذ، والإستمتاع، وأن يعضوا أبصارهم في مواقع الرِّيبة يعني إذا احتملوا إنجرارهم إلى الفساد .. قال في القرآن الكريم: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾^(٢).

وقد أكد هذا الأمر في الاحاديث أيضاً.

قال النبي صلى الله عليه وآله: اشتدَّ غَضَبُ الله على امرأة ذات بعلٍ ملأت عينها من غير زوجها، أو غير ذي محرم منها، فإنها إن فعلت ذلك أحبط الله عز وجل كل عملٍ عملته فإن أوطأت فرأشه غيره كان حقاً على الله أن يُحْرِقَهَا بِالنَّارِ بعد أن تعذب في قبرها^(٣).

عن علي بن عقبة عن أبيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبليسٍ مَسْمُومٌ، وَكَمْ مِنْ نَظْرَةٍ أَوْرَثَتْ حَسْرَةً طَوِيلَةً^(٤).
وعن عقبة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبليسٍ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا لِغَيْرِهِ أَعَقَبَهُ اللَّهُ أَمْنًا وَإِبَانًا يُجِدُّ طَعْمَهُ^(٥).
عن الكاهلي قال قال أبو عبدالله عليه السلام النَّظْرَةُ بَعْدَ النَّظْرَةِ تَزْرَعُ فِي الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ وَكَفَى بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً^(٦).

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١٥٤.

(٢) نور ٣٠ - ٣١.

(٣) الوسائل ج ١٤ ص ١٧٢.

(٤) الوسائل ج ١٤ ص ١٣٨.

(٥) الوسائل ج ١٤ ص ١٣٩.

(٦) الوسائل ج ١٤ ص ١٣٩.

قال الصادق عليه السلام: مَنْ نَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ أَوْ غَضَّ بَصَرَهُ لَمْ يَرْتَدْ إِلَيْهِ بَصَرُهُ حَتَّى يَزُوجَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ^(١).

٣ - يوصي المرأة والرجل الأجنيين أن لا يتصافحا.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: وَمَنْ صَافَحَ امْرَأَةً حَرَامًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ^(٢).

وعن جابر بن يزيد الجعفي قال سمعتُ ابا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام (في حديث إلى ان قال): وَلَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُصَافِحَ غَيْرَ ذِي مُحَرَّمٍ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ ثَوْبِهَا وَلَا تَبَايِعَ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ ثَوْبِهَا^(٣).

٤ - طلب من النساء أن لا يتزین لغير أزواجهن وان لا يخرجن من البيت متزینات متعطرات.

عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث المناهي: ونهى أن تتزین لغير زوجها، فان فَعَلَتْ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَحْرِقَهَا بِالنَّارِ^(٤).

وعن جابر بن يزيد قال: سمعت ابا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام (في حديث) يقول: وَلَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَتَطَيَّبَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا^(٥).

٥ - طلب من الرجال ان لا يباحوا النساء ولا يضاكوهن.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وَمَنْ فَاكَهُ امْرَأَةً لَا يَمْلِكُهَا حَبَسَهُ اللَّهُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ فِي الدُّنْيَا أَلْفَ عَامٍ^(٦).

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١٣٩.

(٢) الوسائل ج ١٤ ص ١٤٣.

(٣) الوسائل ج ١٤ ص ١٦٣.

(٤) الوسائل ج ١٤ ص ١٥١.

(٥) الوسائل ج ١٤ ص ١٦٣.

(٦) الوسائل ج ١٤ ص ١٤٣.

وقال أبو بصير: كنتُ أقرءُ امرأةً كنتُ أعلمُها القرآنَ فهازحْتُها بشيءٍ، فقدمْتُ على أبي جعفر عليه السلام فقال لي: أيُّ شيءٍ قلتُ للمرأة؟ فَعَطَيْتُ وَجْهِي فقال: لا تَعُودَنَّ إِلَيْهَا^(١).

٦ - طلب من المرأة والرجل الأجنيين ان لا يختلِيا في مكانٍ واحد.
عن علي عليه السلام قال: لَا يَخْلُو بِامْرَأَةٍ رَجُلٌ، فَمَا مِنْ رَجُلٍ خَلَا بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ الشَّيْطَانُ ثَالِثَهُمَا^(٢).

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: عَلَى النِّسَاءِ أَنْ لَا يُنْحَنَ وَلَا يَخْمِشْنَ وَلَا يَقْعُدْنَ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْخَلَاءِ^(٣).
وعن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَبِيتُ فِي مَوْضِعٍ يَسْمَعُ نَفْسَ امْرَأَةٍ لَيْسَتْ لَهُ بِمَحْرَمٍ^(٤).

٧ - إن الاسلام مع أنه يعتبرُ المرأةَ مثلَ الرجلِ عضواً معترفاً به من أعضاء المجتمع، له حقوق ومسؤوليات خاصة يجب القيامُ بها، لم يشأ أن يحصرَ المرأةَ ويعزِلَها في البيتِ، ويجعلها عنصراً عاطلاً وعضواً مشلولاً، إلّا أنه في نفس الوقت يرى من مصلحة المجتمع، ومن مصلحة النساءِ خاصة أن ينظّم مشاغلَ النساءِ ومسؤولياتهن الاجتماعية بصورة لا تحتاجُ معها إلى معاشرَةِ الرجالِ الأجانب، والإختلاطِ بهم والتحدثِ معهم إلّا قليلاً.

وهذا هو ما قضت به السيدةُ فاطمةُ الزهراء سلام الله عليها ابنة رسول الله

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١٤٤.

(٢) مستدرک الوسائل ج ٢ ص ٥٥٣.

(٣) الوسائل ج ١٤ ص ١٣٤.

(٤) الوسائل ج ١٤ ص ١٣٤.

حول مصلحة النساء.

عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أخبروني أي شيء خيرٌ للنساء؟ فعيّينا بذلك كلنا حتى تفرّقنا. فرجعتُ إلى فاطمة (ع) فاخبرتها الذي قال لنا رسول الله (ص) وليس أحدٌ منا علّمه ولا عرّفه. فقالت: ولكنّي أعرفه: خيرٌ للنساء أن لا يرينَ الرجال ولا يراهنَ الرجال.

فرجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله سألتني أي شيء خيرٌ للنساء؟ وخيرٌ هُنَّ أن لا يرينَ الرجال ولا يراهنَ الرجال. قال: من أخبرك فلم تعلّمه وانتِ عندي؟ قلت: فاطمة، فاعجب ذلك رسول الله وقال: إن فاطمة بضعةٌ مِنِّي^(١).

ان السيدة فاطمة عليها السلام اعتبرت عدم رؤية النساء للرجال الأجانب والرجال للنساء ومعاشرتهما لبعضٍ، هو الأمر المطلوب المناسب للنساء، ولكنها نفسها كانت تعلم أن تحقيق مثل هذا الأمر لم يُمكن وقوعه بشكلٍ كاملٍ في أي زمانٍ ومكانٍ سابقاً ولا يمكن أن يقع في المستقبل، لأن المرأة والرجل مضطران إلى المعاشرة والتعايش جنباً إلى جنب وهو أمرٌ تقتضيه الحياة الاجتماعية .. إذن فهي كانت تهدف من هذا الكلام امرين:

أحدهما: أن تُقلّ المعاشرة والإرتباط إلى حدّ الضرورة والحاجة.

الأخر: أن تُفكّر المرأة في الاستقلال والاكتفاء الذاتي. وبخاصة في المجالات

التي تختص بها.

إن النساء يمكن أن تكون هنّ مدارس وجامعات، ومعاهد، ومستشفيات،

(١) كشف الغمة ج ٢ ص ٩٢.

ومستوصفات ومراكز للولادة، وصيديليات، ومدارس علمية، ومصانع، ومراكز فنية، وسينمات ومتاجر ومعارض خاصة بهنّ، تقوم النساء بجميع شؤونها، ويُدِرْنَها بأنفسهنّ دون مشاركة الرجال.

يمثل هذا البرنامج تقلُّ حاجة النساء لمعاشرة الرجالِ الأُجانبِ إلى الحدِّ الأدنى، وإلى درجة الضرورة.

المحارمُ:

لا يجب على المرأة أن يَسْتَرْنَ شعورهن وأجسادهنّ عن المحارم من الرجال ..
والمحارم من الرجال عبارة عن:

- ١ - الأب والجدّ مهما علّوا.
 - ٢ - الأب والجدّ من ناحية الأم مهما علّوا.
 - ٣ - الأخ وأبناء الأخ مهما نزلوا.
 - ٤ - ابن الأخت وأبنائها مهما نزلوا.
 - ٥ - العم وعم العم مهما علّوا.
 - ٦ - الخال وخال الخال مهما علّوا.
 - ٧ - الزوج وأبو الزوج مهما علّوا.
 - ٨ - أبو أم الزوجة مهما علّوا.
 - ٩ - ابن الزوج وأبنائه مهما نزلوا.
 - ١٠ - الابن وأبناء الابن والبنت مهما نزلوا.
 - ١١ - ابن البنت وأبناء ابنها وأبناء الابن مهما نزلوا.
 - ١٢ - الصهر، وصهر الصهر مهما نزلوا.
- هؤلاء ويسمّون بالمحارم، ولا يجب التسترُّ منهم ويجوز لهم ان ينظر بعضهم الى

بعض بشرط أن لا يكون النظر بقصد الريبة والالتذاذ، وإلا حُرِّمَ النظرُ حتى إلى المحارم، بل وحتى النظر إلى الأطفال غير البالغين، والمرأة والرجل إلى الرجل، لهذا السبب.

فكروا وأجيبوا:

- ١ - ما هي فلسفة الحجاب؟ بينوا ذلك كاملاً.
- ٢ - بماذا أُمِرَ الإسلامُ حول إظهار الزينة؟
- ٣ - ماذا يقول الإسلام حول نظر المرأة والرجل الاجنبيين بعضهما إلى بعض؟
- ٤ - هل المصافحة بين المرأة والرجل الاجنبيين جائزة؟
- ٥ - ما هو حكم مازحة الرجل الأجنبية للمرأة الأجنبية؟
- ٦ - بماذا قضت السيدة فاطمة حول مصلحة النساء؟
- ٧ - أيُّ مجتمعٍ هو في مصلحة النساء؟

* * *

الدرس السابع والستون

العائلة في الإسلام

العائلة عبارة عن وحدة اجتماعية صغيرة تبدأ من عقد الزواج بين امرأة ورجل، وتتسع دائرتها بانضمام وَلَدٍ أو وَلَدَيْنِ إليهما. إن الزواج ينشأ إنطلاقاً من حاجة طبيعية وجاذبية جنسية، وتتخذ صفةً شرعيةً ورسميةً باجراء عقد الزواج.

إن الإسلام يهتم إهتماماً كبيراً بالزواج وتأسيس العائلة، ويعتبر ذلك أمراً مقدساً وضرورياً، ويصفه في الأحاديث بأنه أفضل بناءٍ يبنى، واحسن صَرَحٍ يُشيد. عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما بُني بناءٌ في الإسلام أحبَّ إلى الله عزَّ وجلَّ من التزويج^(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله (في حديث): وما من شيءٍ أحبَّ إلى الله عزَّ وجلَّ من بُيْتٍ يُعمر في الإسلام بالنكاح وما من شيءٍ أبغضُ إلى الله من بُيْتٍ يُخرب في الإسلام بالفرقة يعني الطلاق^(٢).

(١) الوسائل ج ١٤ ص ٣.

(٢) الوسائل ج ١٤ ص ٥.

٤٤٠ دروس من الثقافة الإسلامية

إن الزواج سنةٌ إسلاميةٌ قيمةٌ وشمينةٌ أكد رسولُ الإسلام والائمةُ المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين على لزوم إتباعها. وإيقاعها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: تَزَوَّجُوا فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ قَالَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَّبَعَ سُنَّتِي فَإِنَّ مِنْ سُنَّتِي التَّزْوِيجَ^(١).

قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وآله: النِّكَاحُ سُنَّتِي فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي^(٢).

إن الزواج في نظر الاسلام ليس أمراً غير مَبْغُوض وغير مذمومٍ فحسب بل على العكس من ذلك إن ترك الزواج والتبتل أمرٌ مكروه مرغوب عنه .. وقد وُصف الزواج بأنه خير وسيلةٍ لتكميل العبادَةِ:

قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: رَكَعَتَانِ يُصَلِّيهِمَا الْمُتَزَوِّجُ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكَعَةً يُصَلِّيْهَا عَزَبٌ^(٣).

وقال النبي صَلَّى الله عليه وآله: رَكَعَتَانِ يُصَلِّيْهُمَا مُتَزَوِّجٌ أَفْضَلُ مِنْ رَجُلٍ عَزَبَ يُقَوْمُ لَيْلَهُ وَيُصُومُ نَهَارَهُ^(٤).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: رُذَّالٌ مَوْتَاكُمُ الْعَزَابُ^(٥).

إن الزواج وتكوين العائلة في نظر الإسلام مسألة قيمة وأمر ثمين جداً، وهو ينطوي على منافع وفوائد كثيرة نشير هنا إلى طائفة منها:

(١) الوسائل ج ١٤ ص ٦٥.

(٢) بحار الأنوار ج ١٠٣ ص ٢٢٠.

(٣) الوسائل ج ١٤ ص ٦.

(٤) الوسائل ج ١٤ ص ٧.

(٥) الوسائل ج ١٤ ص ٧.

١ - أنها كهفُ المحبة والأنس، فإنَّ الإنسانَ في خضمِّ هذه الحياة وأموالها المتلاطمة يحتاج إلى ملاذ يجد فيه الأنس والمحبة .. انه يحتاج إلى شخصٍ يكون أمينَ أسرارهِ، وشريكَ آلامهِ، وصديقه الوفيَّ، وحاميهِ المخلص، ليستأنس به، ويسكن إليه، وينتفع بالطفاه ومساعداته، وبمحبتة الصادقة، وحمايته المخلصة، وليشعر إلى جانبه بالسكينة والطمأنينة.

ولِضمان هذه الحاجة الروحية والنفسية الملحة ليس هناك أحد أفضل من الزوجة، وليس ثمة مكان أفضل من كهف العائلة، الدافئ وحسن الأسرة المنيع. وقد قال القرآن الكريم في هذا المجال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

٢ - المساعدة على حفظ العفة، والعصمة من المعصية: إن الغريزة الجنسية غريزة قوية جداً وهي تلحُّ على صاحبها بارتضاها، وان السيطرة عليها، والتحكُّم فيها أمرٌ صعبٌ ومشكِّلٌ جداً. وإذا أرضيت عن الطريق غير المشروع جرَّت الانسان إلى الفساد والانحراف والمصير الوبيء. وعلى هذا فإن الزواج أفضل وسيلة للحفاظ على العفة، والعصمة من الذنب والمعصية.

وقد أُشير إلى هذه الحقيقة في أحاديث عديدة نشير إلى بعضها:
قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا فَلْيَلْقَهُ بِزَوْجَةٍ^(٢).

وعن ابي عبدالله عليه السلام قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: مَنْ تَزَوَّجَ

(١) الروم - ٢١.

(٢) الوسائل ج ١٤ ص ٦.

أَحْرَزَ نِصْفَ دِينِهِ^(١).

وعن موسى بن جعفر عليه السلام عَنْ آبَائِهِ عَنِ النَّبِيِّ (ص) قَالَ: مَا مِنْ شَابٍّ تَزَوَّجَ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهِ إِلَّا عَجَّ شَيْطَانُهُ يَا وَيْلَاهُ يَا وَيْلَاهُ عَصَمَ مِنِّي ثُلُثِي دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ الْعَبْدُ فِي الثَّلَاثِ الْبَاقِي^(٢).

٣ - سلامةُ الجسد والنفس: إن الزواج وإرضاء الغريزة الجنسية حاجةٌ طبيعيةٌ تفرضُ نفسها على الإنسان في سنين معينة من العمر، وعمليةُ الإرضاء هذه تؤثر في سلامة الجسم والأعصاب وتكون سبباً لعافيتها، واعتدالها، على حين يوجّه قمعُ الغريزة الجنسية وكتبها ضَغْطاً خطيراً على الأعصاب، ويخرجها عن حدِّ الاعتدال، والسلامة، ولطال ما أوجب ذلك الأمراض النفسية نظير: الاكتئاب، اليأس، الإضطراب، والعبثية، اللاهذية، العصبية، إنعدام الثقة بالنفس، سوء الظن، الخوف، القلق.

وعلى هذا فإنَّ الزواج الذي يتحقق في وقته المناسب وأوانه الطبيعي، وإرضاء الغريزة الجنسية من الطريق المشروع يمكن أن يكون مفيداً وضرورياً جداً في سلامة الجسد والأعصاب.

وقد أُشير في الأحاديث إلى هذا الأمر أيضاً:

قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: زَوَّجُوا أَيَامَكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَحْسُنُ لَهُمْ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَيَوْسَعُ لَهُمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ وَيَزِيدُهُمْ فِي مُرَوَاتِهِمْ^(٣).

٤ - الحيلولة دون بعض المفاسد الاجتماعية: إذا أقدم الشباب على الزواج وتكوين الأسرة في مطلع شبابه، ارتبطوا بالحياة العائلية وانشدوا إليها، وحفظوا من

(١) الوسائل ج ١٤ ص ٥.

(٢) بحار الأنوار ج ١٠٣ ص ٢٢١.

(٣) البحار ج ١٠٣ ص ٢٢٢.

اللاهفية، والتسيب وهذا من شأنه ان يقلل من المفاسد الاجتماعية نظير: الخداع، والزنا، واللواط، والاستمناء، وتعاطي المخدرات، بل وحتى القتل والجريمة والسرقة. ولهذا يؤكد الإسلام على الشباب والشابات بأن يبتكروا في الزواج، ويوصي آباءهم وأمهاتهم والمسؤولين والمصلحين المخلصين بأن يهيئوا مقدمات الزواج وتكوين الأسرة للرجال والنساء غير المتزوجين.

جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١). وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: من حق الولد على والده ثلاثة: يحسن اسمه، ويعلمه الكتابة ويؤوجه إذا بلغ^(٢).

٥ - الحصول على أولاد وتكثير النسل: لقد اهتم الإسلام بانجاب النسل وتكثيره واعتبره أحد أهداف الزواج وغاياته.

عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما يمنع المؤمن أن يتخذ أهلاً لعل الله يرزقه نسمة تثقل الأرض بلا إله إلا الله^(٣). وقال النبي صلى الله عليه وآله: تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط^(٤).

٦ - اللذة والاستمتاع - إن إرضاء الغريزة الجنسية، والاستلذاذات والاستمتاعات المشروعة ليس في نظر الإسلام غير مذمومة فحسب، بل هو عمل مشروع ومطابق للحاجة الطبيعية، ولو تم ذلك بنية القربة إلى الله عُدَّ عبادة .. بل

(١) النور ٣٢.

(٢) مكارم الاخلاق ج ١ ص ٢٥٣.

(٣) الوسائل ج ١٤ ص ٣.

(٤) البحار ج ١٠٣ ص ٢٢٠.

هو في بعض الأحيان واجب شرعي.

وصفة القول؛ أن الإسلام يهتم بالزواج ويتكوين الأسرة إهتماماً كبيراً وبالغاً، ويعتبره أمراً مفيداً بل وضرورياً.

في هذا الميثاق المقدس يتعهد المرأة، والرجل (الزوجان) بأن يظلاً أوفياء إلى آخر العمر، وأن يجتهدا معاً لدعمه، وتقويته، وأن يتعاونوا في إدارة دفعة الحياة المشتركة، ويراعيا الحقوق المتقابلة.

إن أعضاء الأسرة لا يقتصرون على العضوين الأصليين (اي الزوجان) بل تشمل طائفتين أخريين يُحسبان من العائلة أيضاً:

الاولى: الأولاد الذين ينضافون إلى العضوين الأصليين في العائلة (اعني الأبوين) ويشكل مجموعهم عائلة كبيرة أو عائلة صغيرة.
إن للوالدين والأبناء حقوقاً ومسؤوليات متقابلة.

إن الآباء والأمهات مكلفون بأن يجتهدوا في أمر تربيته أولادهم وتعليمهم، وأن يهيئوهم للحياة الاجتماعية ولتحمل المسؤولية، والاستقلال والاكتفاء الذاتي، وأن يساعدوهم في مراحل إختيارهم الزوجة أو الزوج والعقد والزواج.
وهكذا الأولاد مكلفون كذلك بأن يحترموا آباءهم وأمهاتهم، ويراعوا حقوقهم، ويسارعوا إلى مساعدتهم عند الحاجة إلى ذلك.

إن التعاون، ووجود الإرتباط بين الوالدين والأبناء يجب - حسب نظر الاسلام - أن يستمر إلى آخر العمر، وأن لا ينقطع أبداً سواء كانوا يعيشون في بيت واحد، أو في بيوت متعددة، وبصورة منفصلة.

الطائفة الثانية: الآباء والأمهات وأحياناً الأجداد والجندات.

إن الإسلام يرى أن أولاد العائلة عندما يكبرون، ويؤسسون حياةً عائليةً مستقلة، يجب أن لا ينسوا أتعاب آبائهم وأمهاتهم، وجهودهم وتضحياتهم، وعواطفهم

والطافهم، فلا يتركوهم، ولا يبتعدوا عنهم، بل من وظيفتهم - وتقديراً لجهودهم وخدماتهم - أن يحيطوهم بالعناية والمراقبة، ولا يمتنعوا عن إظهار الحب لهم، واحترامهم ومد يد العون إليهم.

فاذا شاخ الوالدان أو عجزا عن العمل ورغبوا في العيش الى جانب أولادهم يجب أن لا يهجرُوهم ويحْرُوا عواطفهم.

قال في القرآن الكريم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(١).
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾^(٢).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ثلاثٌ لم يجعل الله عزَّ وجل لأحدٍ فيهنَّ الرُّخصةَ: أداءُ الأمانةِ إلى البرِّ والفاجر، والوفاء بالعهد للبرِّ والفاجر، وبرُّ الوالدين، برِّين كانا أو فاجرَين^(٣).

وعن إبراهيم بن شعيب قال قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ ابني قد كَبُرَ جداً وضعف فنحن نحمله إذا أراد الحاجة؟ فقال: إن استطعت أن تلي ذلك منه فافعل، ولقمة بيدك فانه جنة لك غداً^(٤).

* * *

(١) الاسراء : ٢٣ - ٢٤.

(٢) لقمان : ١٤.

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٦٢.

(٤) الكافي ج ٢ ص ٦٢.

فكروا وأجيبوا:

- ١ - ما هو نظر الإسلام حول الزواج؟
- ٢ - ما هي فوائد الزواج؟
- ٣ - ما هو أثر الزواج المبكر على سلامة الانسان؟
- ٤ - ما هو أثر زواج الشباب في وقته، في المجتمع.
- ٥ - من هم في نظر الإسلام يُعدُّون من أعضاء العائلة؟
- ٦ - ما هي وظائف الوالدين تجاه الأولاد؟
- ٧ - ما هي وظائف الأولاد تجاه الوالدين؟

* * *

الدرس الثامن والستون

المهرُ وفلسفته

عند الزواج يجب أن يقدم الرجل (الزوج) شيئاً إلى زوجته، وهو ما اصطلح عليه المهر والصدّاق.

ان لفظة «المهر» لم ترد في القرآن الكريم ولكن كلمة الصداق استعملت فيه. يقول في القرآن الكريم: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾^(١).

وقد جاء في الأحاديث التأكيد على وجوب المهر في النكاح أيضاً: فعن أبي عبدالله عليه السلام في المرأة تهب نفسها للرجل ينكحها بغير مهر، فقال: إنما كان هذا للنبي (ص) وأما لغيره فلا يصلح هذا حتى يعوضها شيئاً يقدم إليها قل أو كثر، ولو ثوب أو درهم. وقال: يجزى الدرهم^(٢).

إذن فيجب أن يُعطى شيء إلى المرأة عند نكاحها والتزوج بها، ولو أنه عين ذلك المهر جنساً وقدرًا وجب إعطاؤه كما عين وحدّد. وأمّا إذا لم يعين المهر جنساً وقدرًا

(١) النساء ٤.

(٢) الوسائل ج ١٥ ص ١٣.

وَجَبَ إعطاء مهر المثل إلى المرأة، وهو ما يكون عادة مهرُ نظرائها من فتيات المجتمع التي تعيش فيه ونسأؤه.

ثم إنَّ في مجال المهر اعتراضاً لا بدَّ أن نجيب عليه ونعالجه؛ فانه يمكن أن يقول قائل: إنَّ مكانة المرأة وقدرها قد حُطَّأ - بتشريع المهر - وأنزلت إلى مستوى البضاعة التي تباع وتشترى، وهذا نوعٌ من التحقير لها، لأنَّ الرجل والمرأة - في مجال النكاح - يحتاج أحدهما إلى الآخر حاجة طبيعية، فلا بدَّ أن يتحقق النكاح والزواج بينهما على أساس هذه الحاجة الطبيعية المتقابلة لا أن يُعطي الرجل للمرأة شيئاً ثم يملكها. في الإجابة على هذا الاعتراض (أو الإشكال) يمكن أن يقال: إنَّ المهر - حسب نظر الاسلام - ليس ثمن المعاملة، وليست المرأة بضاعة تباع وتشترى، إنما المهر هديةٌ يقدِّمها الرجل (الزوج) لزوجته، وبذلك يجسِّد إحترامه لها، ويكرِّم شخصيتها.

في فلسفة تشريع المهر لا بدَّ من الإشارة إلى نقطتين:
النقطة الأولى: إنَّ المرأة والرجل وإن كان أحدهما يحتاج إلى الآخر حاجةً طبيعيةً وينجذب أحدهما إلى الآخر بسبب الغريزة الجنسية، إلا أنَّ الجذب والإنجذاب ينشئان من خصيصتين، ويتحققان بطريقتين:
فمن جانبٍ إنَّ المرأة كائنٌ لطيفٌ جميلٌ تنطوي على جاذبية تسحر الرجل وتجذبه.

إن المرأة هي كذلك تملك غريزةً جنسيةً ولكنها أقدرُ من الرجل على مقاومتها لكنها تريد حب الرجل لها.

إن المرأة أدركت بوحىٍ من الفطرة أنَّ أفضل وسيلةٍ للنفوذ إلى قلب الرجل وأملاكه هو أن تتجمل وتترنِّ وتظاهر بذلك حتى تستحوذ على قلب الرجل، وتملك عواطفه، ولا تسلِّم نفسها إليه بسهولة وبصورة مجانية.

من جانب آخر إن الرجل طالبٌ ومريدٌ، وهو ضعيفٌ أمام القوة الجنسية .. إنه يخطب امرأة ليتزوج بها.

إن الرجل أدرك هو الآخر أنَّ المرأة تريد حبه لها ولهذا فهو يُظهر حبه لها، ويتحمّل دَلائلها، ولكي يثبت مدى حبه لها ومبلغ تعلّقه بها، يستفيد من كل وسيلةٍ ممكنةٍ .. هنا بالذات ينطرح موضوع المهر.

إنَّ الرجل لاثبات صدقه ووفائه، وبغية تكريم شخصية زوجته يقدم لها شيئاً كهديّة.

ولهذا فان المهر - هو في الحقيقة - هديّة من جانب الرجل (الزوج) إلى زوجته ليدلّل بذلك على صدقه في حبه لها، ويثبت وفائه ومخفيّ تعلّقه بها.

ولهذا عبّر عن المهر في القرآن الكريم بلفظة «الصدقات» كما صرح القرآن بلفظة «نحلة» التي تعني في اللغة الهدية والعطيّة.

النقطة الثانية: في تشريع المهر هناك فلسفة أخرى أيضاً، وهي أن المهر وسيلة لايجاد الأرضيّة المناسبة لاطمئنان المرأة إلى أنها قادرة على أن تقوم بالوظائف التي ألقتها الخليفة على كاهلها.

إن الحياة العائلية، ومسؤولية تربية الأولاد وإن كانت مسألة مشتركة بين المرأة والرجل، إلّا أن لكل واحد منهما تركيباً خاصاً يفرض عليه مسؤولية طبيعية خاصة وتطلب منه دوراً مخصوصاً.

إن الرجل بمثابة الزارع، والمرأة بمثابة المزرعة فالرجل يغرس نطفة الولد في رَحِم المرأة، ثم ينتهي دوره عند هذا الحد، فان الطبيعة لم تضع على كاهله وظيفة أخرى وراء ذلك .. فهو بعد هذا يتخلّى عملياً عن القيام بأية مسؤولية تجاه الولد، فهو يترك الولد بعد الانتهاء من مهمته وفي مرحلة التخلّق والتكوّن والترعرع والنمو، في حين تبدأ مسؤولية المرأة - الطبيعية من ذلك الزمان بالذات، فهي بحسب تركيبها الخاصّ

مضطرةً إلى أن تتحمل فترة الحمل المضنية، ومرحلة المخاض الشاقة، وما ينشأ عن ذلك من الآلام والأتعاب اللاحقة.

ونظراً إلى عاطفة الأمومة الشديدة فإنها مضطرة إلى أن تقوم بتغذية وليدها الضعيف طوال مدة سنتين، وتجتهد في حفظه ورعايته.

وحتى بعد هذه الفترة لا تتحمل الأم في الأغلب مفارقة ولدها، فهي مضطرة إلى أن تجتهد في المحافظة عليه وتربيته، وإن كان الرجل يشاركها في هذه المسؤولية شرعاً، ووجداناً، إلا أنه بحسب الطبيعة أكثر تحملاً منها، وليس له ما للمرأة من الإلتزام والتقيد الطبيعيين.

وعلى هذا الأساس لا بد أن تتوفر للمرأة - استعداداً لتحمل هذه المسؤوليات الصعبة - راحة البال، وسكون الخاطر، وطابينة النفس.

إن تشريع المهر إنما هو لأجل توفير ضمانٍ نسبيٍّ، وإيجاد أرضية مناسبةٍ لمثل هذا الأمر.

إن المرأة بواسطة المهر الذي يُقدمه إليها زوجها، تهتئ لنفسها لوازم الحياة وحاجاتها، ويحصل لديها الإطمئنان إلى أنها إذا حبلت فإن في مقدورها أن تواصل حياتها في بيئة آمنة، وتقوم بواجباتها ووظائفها الجديدة التي وضعت على عاتقها، وتقوم بحضانة وليدها وتربيته.

وقد أشير إلى هذه الفلسفة أيضاً في الأحاديث:

عن الصادق عليه السلام قال: إنما صار الصداق على الرجل دون المرأة وإن كان فعلها واحداً لأن الرجل إذا قضى حاجته منها قام عنها ولم ينتظر فراغها، فصار الصداق عليه دونها لذلك^(١).

مقدار المهر ونوعه:

في الإسلام لم يُعَيَّن قدرٌ للمهر، بل هو يرتبط باتفاق المرأة والرجل وتراضيهما. قال أبو جعفر عليه السلام: الصَّدَاق ما تراضيا عليه من قليلٍ أو كثيرٍ، فهذا الصَّدَاق^(١).

ولكن وَرَدَ التَّأَكُّيدُ في الأحاديث على أن لا يكون المهرُ قليلاً جداً.

عن جعفر بن محمد عن آبائه عن عليٍّ عليهم السلام قال: إني أكرهُ أن يكونَ المهرُ اقلَّ من عشرة دراهم لثلاث يشبه مهرَ البَغِيِّ^(٢).

كما ولم يُعَيَّن مقدار لأعلى قدر للمهر أيضاً، فهو جائزُهما كان كثيراً وعالياً، ولكن الإسلام لا يَعْتَبِر السِّبَاقُ في المهور، والتنافس فيها برَفَع مقدارها في مصلحة المجتمع، ونهى عن ذلك.

عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لا تُغالوا بِمُهورِ النِّساء فَتَكُونَ عِدَاوَةً^(٣).

صحيح أن الإسلام أوجب أصلَ المهر إلا أن قيمة المرأة ليست بمقدار المهر فيجب أن لا يُتَشَدَّدَ ويُصْعَبَ في قدر المهر ولا يبالغ فيه بحيث يصبح الزواج للشباب أمراً محالاً.

عند تعيين مقدار المهر ينبغي أن تراعى الشخصية الاجتماعية لأهل العروس والعريس، ويتجنب الإفراط والتفريط.

(١) الوسائل ج ١٥ ص ٢.

(٢) الوسائل ج ١٥ ص ١١.

(٣) الوسائل ج ١٥ ص ١١.

وعند اختيار جنس المهر كذلك ليس هناك أى تحديد، بل يمكن أن يكون المهر كل شيء قابلٍ للتملك، وكل شيء له مَالِيَّة، مثل: الذهب، الفضة، العقارات، النقود الرائجة، الأثاث واللوازم البيتية، الفرش، الآنية، السيارة، بل وحتى الإلتزام بالقيام بعمل وأمثال ذلك .. فكل هذه الأمور والأشياء تصلح أن تكون المهر الذي يقدمه الرجل للمرأة.

ولكن مِنْ مَصْلَحَةِ المرأة (الزوجة) أن يكون مهرها العقار أو الذهب أو الفضة أو ما يشبه ذلك إن أمكنَ ليبقى لها ولا يفنى، ولكي لا تَقِلَّ قيمته الشرائية مع مرور الزمان.

إن المهر كما يمكن أن يكون نقداً، يمكن أيضاً أن يكون نسيئةً وديناً في ذمة الزوج أو شخص آخر .. وهذا يرتبط برضا الزوجين .. فاذا إتفقا على أن يكون المهر نقداً جاز للمرأة أن تطالبَ به قبلَ الدُخول بها، وعلى الزوج أن يدفعه إليها إن أمكنه ذلك، وإذا لم يكن له دفعه لعلَّةٍ أو امتنعَ عن دفعه جاز للمرأة أن تمتنعَ من تمكين نفسها له، وإن عدم التمكين هذا لا يكون سبباً للنشوز وسقوط النفقة. وإذا كان المهر نسيئةً، وديناً في ذمة الزوج فإن كان موجَّلاً بأجل أي له موعدٌ معينٌ لم يحق للمرأة (الزوجة) أن تطالبَ به قبلَ حلول الأجل المسمَّى. وإن لم يكن له موعدٌ معينٌ وَجَبَ على الزوج دفعه للمرأة متى ما طالبتَ به، إذا أمكن ذلك للرجل.

ثم إنه بعد الانتهاء من إجراء صيغة العقد تتعلق ملكية الزوجة بالمهر يعني إنها تملكه ، فاذا كان المهر عقاراً أو نقوداً وجبَ على الزوج إعطاؤهَ إليها، لا يحق لأحد حتى الأب والأم أن يتصرَّف في ذلك المال أو العقار من دون إذن الزوجة. على أن منافع المهر تعودُ إلى المرأة أيضاً.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ اللهَ ليَغْفِرُ كلَّ ذنبٍ يومَ القيامةِ إلَّا مهرَ

امراً، وَمَنْ اغْتَصَبَ اجيراً أجزه ومن باع حراً^(١).
وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سأل أبو الحسن الأول عليه السلام عن
الرجل يزوج ابنته أله أن يأكل صداقها؟ قال: لا، ليس ذلك له^(٢).
وإذا كان المهر نسيئةً وفي ذمة الزوج كان ديناً حقيقياً يجب دفعه عند المطالبة
به، شأنه شأن سائر الديون الحقيقية.

عن فضيل بن يسار عن أبي عبدالله عليه السلام في الرجل يتزوج المرأة ولا
يجعل في نفسه أن يعطيها مهرها فهو زناً^(٣).
وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: مَنْ أَمَهَرَ مَهْراً ثم لا ينوي قضاءه كان
بمنزلة السارق^(٤).

وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله (في حديث
المناهي) قال: مَنْ ظَلَمَ امرأةً مهرها فهو عند الله زان، يقول الله عز وجل يوم القيامة:
عَبْدِي زَوَّجْتُكَ أُمِّي عَلَى عَهْدِي فَلَمْ توفِ بِعَهْدِي وَظَلَمْتَ أُمِّي فَيُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ
فَيُدْفَعُ إِلَيْهَا بِقَدْرِ حَاجَتِهَا، فإذا لم تَبَقْ لَهُ حَسَنَةٌ أُمِرَ بِهِ إِلَى النَّارِ بِنِكَتِهِ لِلْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ
كَانَ مَسْئُولاً^(٥).



(١) الوسائل ج ١٥ ص ٢٢.

(٢) الوسائل ج ١٥ ص ٢٦.

(٣) الوسائل ج ١٥ ص ٢١.

(٤) الوسائل ج ١٥ ص ٢١.

(٥) الوسائل ج ١٥ ص ٢٢.

فَكَّرُوا وَأَجِيبُوا:

- ١ - ماهي الفلسفة الأولى لتشريع المهر؟
- ٢ - ماهي الفلسفة الثانية لتشريع المهر؟
- ٣ - هل هناك حدٌ معين للمهر في الإسلام؟
- ٤ - ماهي توصية الإسلام في مجال المهر؟
- ٥ - ماهي الأشياء التي يمكن جعلها مهرًا؟
- ٦ - متى يجب دفع المهر؟
- ٧ - لمن تعود منافع المهر؟

* * *

الدرس التاسع والستون

النَّفَقَةُ وفلسفتها

حسب نظر الإسلام جُعِلَتْ مسؤولية الإنفاق على العائلة، وبخاصة الزوجة، على عاتق الرجل.

فعلى الرجل (الزوج) أن يقوم بجميع نفقات زوجته وإن كانت أغنى وأكبر ثراءً من زوجها .. فالنفقة من حقوق الزوجة، ومن بديهيّات الفقه الإسلامي التي جاء التصريح به في أحاديث، وعلى سبيل المثال:

قال أبو بصير سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ فَلَمْ يُكْسِهَا مَا يُوَارِي عَوْرَتَهَا، وَيُطْعِمُهَا مَا يُقِيمُ صُلْبَهَا كَانَ حَقًّا عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا^(١).

وعن إسحاق بن عمار قَالَ قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا حَقُّ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي إِذَا فَعَلَهُ كَانَ مُحْسِنًا؟

قال: يُشْبِعُهَا وَيُكْسِيهَا وَإِنْ جَهِلَتْ غَفَرَ لَهَا^(٢).

(١) الوسائل ج ١٥ ص ٢٢٣.

(٢) الوسائل ج ١٥ ص ٢٢٤.

يجب على الرجل أن يقوم برفع جميع إحتياجات زوجته بصورة متعارفة، ووفقاً لما هو العادة في زمانه ومكانه مع رعاية شؤون العائلة، وامكانياتها الاقتصادية.

ويمكن تقسيم النفقة إلى عدة طوائف:

- ١ - الطعام بمقدار الحاجة وحسب العُرف.
- ٢ - اللباس طبقاً لشؤون العائلة جنساً ومقداراً.
- ٣ - الفراش ووسائل الإستراحة والنوم.
- ٤ - الأدوات المنزلية والأثاث البيتي.
- ٥ - وسائل التدفئة والتبريد.
- ٦ - المسكن ولو بالإستيجار شريطة أن تكون مناسبةً لِسَانِهَا العائلي، وأن تضمن راحتها.

٧ - نفقات الصحة والعلاج.

٨ - وسائل النظافة والتجميل.

إن نَفَقَةَ الزوجة حقٌّ يجب أدائه إليها وإذا امتنع الرجل (الزوج) عن أدائه بقي ديناً في ذمته يجب أدائه عند المطالبة به، إلا أن تتنازل عنه الزوجة، وتبرئ منه ذمته.

اشكال وجواب:

لقد انتقد البعض مسألة النفقة فقالوا: لقد حَقَّرَ الإسلامُ المرأةَ بتشريعه هذا الحكم (اي وجوب الإنفاق من جانب الزوج على الزوجة) إذ يعني هذا أن المرأة مستخدمةٌ أجيرةٌ تعمل في البيت، وتخدم زوجها ليلَ نهار ثم تَتَلَقَّى أجرها من الرجل. يقال في الجواب على هذا الاشكال: إنَّ هذا الإشكال لا وجه له أبداً، وهو يحكي عن جهلٍ صاحبه وعناده، إذ حَسَبَ المقررات الإسلامية لم توضع على عاتق

المرأة أية مسؤولية قط حتى حضانة طفلها ورضاعه ورعايته، فانه يمكنها أن لا تقوم بأي عمل من الأعمال المنزلية بل وتطلب من زوجها ان يأتي لها بخادمة، ويمكنها ان تطالب بأجرة القيام بالأعمال المنزلية بل وحتى إرضاع الطفل، ومع أنه ليس عليها مسؤولية العمل في البيت فان على الرجل ان يقوم بجميع نفقاتها. ومع ملاحظة جميع هذه الامور كيف يمكن أن يقول أحد ان الاسلام اعتبر الزوجة خادمة وجعل النفقة أجراها.

فلسفة تشريع النفقة:

وهنا ينطرح السؤال التالي وهو: ما دام الرجل والمرأة يتساويان في احتياج كل واحدٍ منهما إلى الآخر في مجال الزواج وتوليد النسل وتربيته وتنشئته فلما ذا ولأي سبب جعل الاسلام جميع نفقات المرأة ومصارفها على عاتق الرجل؟ لماذا جعل المرأة تابعة للرجل في الأمور الإقتصادية وألغى استقلالها في هذا المجال؟

ألم يكن من الأفضل أن يتمتع كل واحدٍ منهما (الزوج والزوجة) بالإستقلال الإقتصادي، يعملان معاً، ويوفّران مُستلزمات الحياة ونفقاتها معاً؟ في الاجابة على هذا الإشكال يمكن أن يقال: إن الاسلام في تشريعه للقوانين المرتبطة بالزواج وحقوق الزوجين راعى سعادة المرأة والرجل والأولاد وبالتالي سعادة البشر أجمعين، ولم يدافع عن أحد اعتباراً. فإذا هو وضع نفقات المرأة على عاتق الرجل، فانه ولا شك راعى مصلحة الزوجين حتماً.

إن الإسلام رأى أن مصلحة العائلة هي في أن لا تلزم المرأة (الزوجة) بالسعي والعمل والركض وراء لقمة العيش والكد والكدح لتحصيل المال لتأمين احتياجات

المعيشة، والإشتغال بالأعمال الثقيلة ولهذا جعل مسؤولية توفير جميع نفقات المعيشة وكل نفقات المراه الشخصية على عاتق الرجل.

يجب البحث عن فلسفة تشريح النفقة في تركيب المرأة الخاص، وفي المسؤوليات التي جعلتها الطبيعة على عاتقها.

إن تركيب المرأة الجسدي، وقوتها البدنية ومسؤولياتها الطبيعية لا تناسب الكدّ والكدح والعمل والسعي من أجل الكسب، والقيام بالأعمال المضنية والثقيلة، لأن مسؤولية توليد الأولاد الثقيلة ومسؤولية تربية الأولاد المباهضة قد جعلت على عاتق المرأة بحكم الطبيعة.

إن المرأة مضطرة إلى أن تتحمل مشاكل العادة الشهرية، ومتاعب فترة الحمل والأمراض الناشئة من ذلك، وصعوبات المخاض والولادة..

إن عليها أن تغذي وليدها من لبنها الذي هو عصارة وجودها، وتقوم بحضانتها ورعايته بصعوبة كبيرة.

إن مسؤولية المحافظة على الطفل وحضانتها ومراقبته غالباً ما توضع على عاتق المرأة.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار كل هذه المشاكل والمسؤوليات كيف يمكن أن تشتغل المرأة بالكسب والعمل وتصرف طاقتها في سبيل لقمة العيش وتوفير مستلزمات الحياة ونفقاتها.

هذا مضافاً إلى أن المرأة من الناحية الجسدية أكثر ظرافة ولطافة من الرجل وعلى أثر هذه اللطافة والجمال استطاعت أن تجتذب الرجل وتستحوذ على قلبه، وإنما تستطيع المرأة أن تحافظ على مكانتها في قلب الرجل إذا هي حافظت على طراوتها وجمالها، ومثل هذا لا يتيسر غالباً مع الكدّ والكدح، والعمل الدؤوب من أجل توفير لوازم الحياة، والركض وراء لقمة العيش.

بناءً على هذا فإن مصلحة المرأة والرجل والأولاد والأسرة تقتضي أن تُعفى المرأة (الأم) من الكد والكدح، والسعي والعمل الإجباريين لتحصيل لقمة العيش. ولهذا حرّر الاسلام المرأة من ثقل وعبء توفير نفقات العيش، وجعل نفقتها على كاهل الرجل حتى تستطيع المرأة وبفراغٍ بالٍ وهدوءٍ خاطرٍ أن تعتمد إلى تربية اولادها، وتحول البيت إلى كهف آمنٍ، وملجأٍ دافئٍ، ومنتزهٍ وديعٍ تُنسى فيها الهموم والمتاعب، وأن تحافظ من خلال الحفاظ على طراوتها وجمالها على مكانتها في قلب الرجل (الزوج).

النقطة الثانية: التي يمكن الإشارة إليها في فلسفة تشريع النفقة هي: أن ما تقتضيه طبيعة الرجل الخاصة هو الطلب، يعني طلب المرأة .. إن الرجل بطبيعته يطلب المرأة ويهواها ويريدّها .. فهو الذي يجري وراء المرأة ويخطبها .. ويعلم أنه لا بد للوصول إليها من أن ينفق ويبذل ويضمن لها حوائجها ويوفر مستلزمات معيشتها. إنه بضمان المسكن والغذاء واللباس وسائر الاحتياجات لها يظهر ودّه لها وتعلقه بها، ويخطب ودّها ويمتلك قلبها.

الفائدة الثالثة لتشريع النفقة: هي أن النفقة مفيدة في صعيد تقوية صرح الأسرة ودعم أسسها.

إن من مصلحة الأسرة أن تكون مرتبطة من الناحية الاقتصادية بالرجل، لأنّ خلقة الرجل وتركيبه بحيث أنه يحتاج من الجوانب الجنسية، ولأجل تحصيل محطة حب وأنس إلى المرأة بشدة، كما وأن الحياة بصورة منفردة عذابٌ أليم، والرجل لا يمكنه أن يكتف بهذه الحاجة .. وإن المرأة تدرك هذا الموضوع كاملاً، وتستغله وتستفيد منه.. فإذا كانت المرأة مستقلة هي الأخرى من الناحية الاقتصادية استقلالاً كاملاً، وكانت بحيث لم تعد تشعر بالحاجة إلى الرجل تلاشت الأسرة - على الأغلب - وتكدّرت أجواءها ولا شك. ان مثل هذا الوضع يكون مضرّاً بالرجل بل ويكون مضرّاً

بالمرأة والأولاد والمجتمع جميعاً.

وفي الخاتمة، أرى من الضروريّ التذكيرُ بهذه النقطة وهي أن الإسلامَ بتشريعه للمهر والنفقة لم يرد أن ينتزعَ جميع المسؤوليات الاجتماعية من المرأة، ويجعلها جليسة البيت، وعنصراً مستهلكاً، بل إن المرأة - وكما أسلفنا - هي الأخرى عضوٌ معترف به من أعضاء المجتمع لها مسؤوليات يجب أن تقوم بها .. وإن نفقة المرأة وإن وُضعت برمتها على عاتق الرجل، ولم تكن المرأة ملزمةً بالعمل والكسب لتأمين إحتياجات المعيشة، إلا أنه لا يجوز أن تقضى كل حياتها بالبطالة والفراغ.

إن المرأة المسلمة تعلم أن إدارة الحياة أمرٌ صعب لا يمكن أن يتحقق من دون التعاون بين الزوج والزوجة، فهي تتفاهم مع زوجها، وتتكفل القيام بمسؤولياتٍ واشغالٍ خاصّةٍ مع مراعاة ظروفها وأوضاعها العائلية الخاصّة، سواء داخل البيت أو خارجه.

ولو أنها حصلت من هذا الطريق على مدخول فانه وإن كان ملكاً شخصياً لها إلا أنها تقدّمه على طَبَقٍ من الاخلاص والحب إلى زوجها، وهذا تزيد من المحبة والصفاء الزوجيين.

فكروا وأجيبوا:

- ١ - ماهي نفقات المرأة الواجبة؟
- ٢ - هل الإسلام حقر المرأة بتشريع المهر للمرأة؟ ولماذا؟
- ٣ - ماهي فلسفة تشريع النفقة؟
- ٤ - بينوا الفائدة الثانية للنفقة؟
- ٥ - ماهي الفائدة الثالثة للنفقة؟
- ٦ - ماهي وظيفة المرأة في العائلة؟

الدرس السبعون

حقوق الزوجين ووظائفهما

الأسرة - في نظر الاسلام - وحدة اجتماعية صغيرة مقدسة تنشأ من عقد ميثاق العلاقة الزوجية بين امرأة ورجل .. وهذه الطريقة تتحول إلى وحدة ذات أهداف ومصالح مشتركة.

إن أعضاء هذا المجتمع الصغير مثل أفراد المجتمعات الأكبر لهم حقوق وواجبات متقابلة من دون رعايتها لا تتحقق سعادتهم وراحتهم وأمنهم. إن المرأة والرجل لا يمكنهما - بعد الزواج - بل ولا يحق لهما أن يعيشا حريين ومن دون التزام كما كانا قبل الزواج.

فاذا كان كل واحد منهما يرى سعادته في ضمان مصالحه ومنافعه الشخصية الفردية فهو الآن لا بد أن يلاحظ مصالح أسرته وزوجه أيضاً، وأن يرى سعادته في سعادة الجماعة.

إن الإسلام يعتبر الارتباط والعلاقة بين الزوج والزوجة ارتباطاً وثيقاً وعلاقة عميقة إلى درجة الاتحاد والاتصال. وقد وردت في نصوص الثقافة الإسلامية عبارات جميلة حول هذا الموضوع.

فقد قال في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).
 إن عبارة ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تدل على شدة الارتباط وعمقه.
 وفي آية أخرى يقول: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾^(٢).

في هذه الآية عُذَّت المرأة لباساً للرجل وعُدَّ الرجل لباساً للمرأة .. إن هذا التعبير كذلك يُفيد شدة الارتباط بين الرجل والمرأة، .. فكما أن اللباس هو أقرب الأشياء إلى جسد الإنسان، وهو يقيه الحرو والبرد، ويزننه ويحفظ شخصيته، ويستر عيوبه ويضمن راحته وأمنه، كذلك تكون الزوجة بالنسبة إلى الزوج والزوج بالنسبة إلى الزوجة ويجب أن يكونا كذلك.

إن الإسلام اهتم غاية الإهتمام بتقوية ودعم صرح الأسرة، وحسن العلاقة بين الزوجين، ولهذا قرّر لكل واحدٍ منها واجباتٍ وحقوقاً.
 ويمكن تصنيف حقوق المرأة والرجل (الزوجين) وواجباتها إلى صنفين: أحدهما الواجبات المشتركة، والآخر الواجبات الخاصة .. وهنا لا يمكننا أن نطرح هذه المسائل على نحو التفصيل، ولكننا نشير إلى بعضها على نحو الاختصار:

الأول: الحقوق والواجبات المشتركة: وهي عبارة عن:

١ - المعاشرة بالمعروف، فقد قال في القرآن الكريم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ

بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٣).

(١) الروم ٢١.

(٢) البقرة ١٨٧.

(٣) النساء ١٩.

والمعروف هو ما يقابل المنكر، وهو ما كان حسناً ومحموداً من الأعمال شرعاً وعقلاً.

إن الخطاب في هذه الآية وإن كان متوجهاً إلى الرجال، إلا أن صيغة «عاشروهن» حيث أنها من باب المفاعلة، لهذا تشمل النساء كذلك.

إن الله يوصي الرجال والنساء في هذه الآية بأن عاشروا الطرف الآخر بالمعروف والحسنى.. كونوا بشاشين.. طيبى اللسان رحماء، صادقين.. أعينوه في تحمل المصاعب، وحل مشاكل الحياة، وعاملوه على أساس الصدق والإنصاف والصفاء وتجنبوا إيذاء الآخر حتماً.

وبكلمة: عليكم أن تعاملوا زوجكم أو زوجتكم كما تحبون أن تعاملوا.. ولقد جاء موضوع حسن المعاشرة بين الزوجين في الأحاديث أيضاً.

ونذكر على سبيل المثال ما يلي:

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائه^(١).

٢ - إن التلذذ والاستمتاع، والارضاء المشروع للغريزة الجنسية وإن لم يكن هو الهدف الوحيد للزواج، ولكنه ولا شك يعد أحد الأهداف المهمة.

إن لإرضاء الغريزة الجنسية أثراً في إيجاد الصفاء والاستقرار، وحسن العلاقة بين الزوجين، كما أن له أثراً كذلك في تقوية صرح الأسرة، ودعم أسسه.

فعلى هذا الأساس يكون مختلف أنواع الاستمتاع الجنسية أحد الحقوق المشروعة للزوجين، وعلى كل واحد منها أن يمتنع نفسه للآخر بل يهيئ نفسه لذلك. وقد جاء التأكيد على هذا الموضوع في الأحاديث أيضاً:

وعلى سبيل المثال:

أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
لِلنِّسَاءِ: لَا تَطُولَنَّ صَلَاتُكُنَّ لِتَمْنَعَنَّ أَزْوَاجَكُنَّ^(١).

يجب أن لا يفكر كل من الزوجين عند المقاربة الجنسية، في إرضاء غريزته
الجنسية وتلذذه الشخصي بل عليه أن يسعى لإرضاء الطرف الآخر ايضاً، لأن هذا
يُعَدُّ أحد حقوق الزوجين كما أن له تأثيراً عميقاً في تقوية العلاقات الزوجية.
عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا أتى أحدكم
امراته فلا يُعجلها^(٢).

وعن الرضا عليه السلام في حديث إلى أن قال: واشتهت منك مثل الذي
تشتهيه^(٣).

٣ - اللباس الجميل والزينة: إن الإسلام يوصي النساء بأن يلبسن الثياب
الجميلة الانيقة في البيت لأزواجهن، وأن يتجملن ويتزينن، ويتعطرن، وبذلك يجلبن
نظر أزواجهن إليهن، ويسيطرن على قلبه.

عمرو بن جبير العزمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاءت امرأة إلى
رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله ما حق الزوج على المرأة؟
فقال: أكثر من ذلك.

قالت: فخبّرني عن شيء منه.

قال: ليس لها أن تصوم إلا بإذنه، يعني تطوعاً، ولا تخرج من بيتها بغير إذنه
وعليها أن تتطيب بأطيب طيبها، وتلبس أحسن ثيابها، وتتزين بأحسن زينتها، وتعرض

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١١٧.

(٢) المستدرک ج ٢ ص ٥٤٥.

(٣) الوسائل ج ١٤ ص ١١٢.

نفسها عليه غُدوةً وعشية، وأكثر من ذلك حقوقه عليها^(١).

وكما أن على المرأة أن ترتدي أجمل ثيابها في المنزل وتعرض نفسها على زوجها في هيئة جميلة كذلك على الرجل أيضاً أن يعتني في المنزل بنفسه وهندامه، فيتنظف ويتزين ويتعطر، وبذلك يجلب نظر زوجته إلى نفسه ويطيب خاطرها، ويمتلك قلبها. قال النبي صلى الله عليه وآله: حَقُّ المرأةِ على زوجها أن يَسُدَّ جوعَها وأن يَسْتُرَ عورتَها، ولا يقبَحَ لها وجهها، فإذا فعلَ فقد - والله - أَدَّى حَقَّها^(٢).

عن جعفر بن محمد عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه عن علي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لِيَتَهَيَّأَ أَحَدُكُمْ لِزَوْجَتِهِ كَمَا تَتَهَيَّأُ زَوْجَتُهُ لَهُ. قال جعفر بن محمد عليها السلام يَعْنِي يَتَهَيَّأُ بِالنِّظَافَةِ^(٣).

حسن بن الجهم قال رأيتُ أبا الحسن عليه السلام اختَضَبَ فقلتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ اختَضَبْتَ؟ فقال: نَعَمْ إِنَّ التَّهَيَّئَةَ مِمَّا يَزِيدُ فِي عِفَّةِ النِّسَاءِ، وَلَقَدْ تَرَكَ النِّسَاءُ الْعِفَّةَ بِتَرْكِ أَزْوَاجِهِنَّ التَّهَيَّئَةَ. ثم قال: أَيْسَّرَكَ أَنْ تَرَاهَا عَلَى مَا تَرَكَ عَلَيْهِ إِذَا كُنْتَ عَلَى غَيْرِ تَهَيَّئَةٍ؟ قلتُ: لَا قَالَ: فَهُوَ ذَاكَ^(٤).

الثاني: الواجبات الخاصة بالزوجة أو الزوج

١ - الوظائف الخاصة بالرجل تجاه زوجته:

إن على الرجل مضافاً إلى الواجبات والوظائف العائلية المشتركة وظائف وواجبات خاصة بسبب تركيبه الخاص .. ونحن نشير إلى طائفة منها:

(١) الوسائل ج ١٤ ص ١١٢.

(٢) البحار ١٠٣ ص ٢٥٤.

(٣) المستدرک ج ٢ ص ٥٥٩.

(٤) الوسائل ج ١٤ ص ١٨٣.

١ - قوامة الأسرة: إن الاسلام جعل مسألة إدارة الأسرة، وولايتها على عاتق الرجل.

قال في القرآن الكريم: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِأَنفُسِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَاحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾^(١).

إن تسيير وتنظيم أمور الأسرة والبيت العائلي، وإن كان يجب أن يتم بالتفاهم والمشاورة والتعاون بين المرأة والرجل (الزوجين) ولكن على كل حال لا يمكن لهذا المجتمع الصغير، شأنه شأن المجتمعات الأكبر، أن تتم ادارته جيداً من دون ولي ومدير مدبر نافذ القول، مسموع الكلمة.

إن الأسرة من دون مدير غالباً ما يكون له وضع غير محبوب ولا مطلوب فإما أن تمسك المرأة بزمام الأسرة وتتقبل إدارتها، وتسيير دفتها، ويكون لها الكلمة الأخيرة، وإما الرجل.

وحيث أن الجوانب الفكرية والعقلية لدى الرجل أفضل وأقوى غالباً من المرأة، ويمكنه أن يقوم بتدبير شؤون الأسرة بنحو أفضل، لذلك وضعت مسؤولية قوامة الأسرة وإدارة دفتها على عاتق الرجال، على العكس من النساء حيث تفوق لديهنّ الأحاسيس والعواطف على ما لدى الرجال، وهنّ يناسبن الأعمال العاطفية أكثر، لهذا فإن من مصلحة الأسرة أن تقبل بولاية الرجل، وقوامته، وتقوم بالأعمال المهمة بمشورته، وحسب إرشاداته.

ولا يخفى أن المراد من ولاية الرجل وقوامته ليس هو أن يقوم بأمور الأسرة بالقهر والعنف، والعناد، واستخدام القوة، ولا يسمح للآخرين بممارسة حق اتخاذ

القرار أو إبداء الرأي، ويجعل من نفسه الفعّال لما يشاء، ذلك لأن المرأة ليست أمة ولا خادمة، كما لا يمكن تحويل البيت بالعنف والقهر إلى محطة للاستراحة والاستقرار بل المراد هو أن يقوم الرجل، ووفقاً للضوابط والمقررات الإسلامية الأخلاقية والاجتماعية وبالمشاورة، ويتدير العقل، وضمن رعاية حقوق الآخرين من أعضاء الأسرة، بادارة شؤون الأسرة، على أن تكون له الكلمة الأخيرة، والقرار الأخير عند اختلاف الآراء، وتشتمل الاقتراحات، والميول والاتجاهات.

ويمكن تلخيص مسؤوليات القوامة، وولاية الرجل في ثلاثة أقسام هي:

١ - ضمان نفقات الأسرة وتنظيم برنامجها الاقتصادي ومحاسبة الوارد والمصروف.

٢ - المحافظة على أفراد الأسرة وحراستهم والدفاع عنهم ومراقبتهم.

٣ - مراقبة القضايا الدينية والأخلاقية والنمو الثقافي لأعضاء الأسرة وهدايتهم وإرشادهم نحو الكمال والتسامي، والمنع من وقوعهم في المفسدات الاجتماعية، والأخلاقية. قال في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

٢ - المداراة، وتجاهل العثرات: إن الخطأ والتعثر من لوازم الطبيعة البشرية، ومن خصائص الإنسان .. وإن المرأة والرجل لا بد وأن تقع منها بعض الأخطاء، والعثرات في الحياة الزوجية، فاذا لوحق الخاطئ جرّ ذلك إلى مشاكل ومتاعب وعواقب لا تُحمد.

ولهذا فإن مصلحة الأسرة أن يتعامل كل من الطرفين مع أخطاء الطرف

الآخر بلطفٍ وسعةِ صدر، ويتجاهلَ عثراته وزلاته، وبخاصّة الرجل حيث أنه أعقل، وحيث أنه يتحمل مسؤولية إدارة الأسرة، فإن عليه أن يغضي عن أخطاء زوجته ويحاول إصلاحها برفقٍ ولين، وحكمةٍ ومداراةٍ.

إن التشدد والعنف لا هو في مصلحة الأسرة، ولا من مصلحة الرجل نفسه ولهذا عدّ الإسلام الاغضاء عن الإخطاء أحدَ حقوق المرأة (الزوجة) على زوجها. في رسالة علي بن الحسين عليه السلام إلى أن قال: وأما حقُّ الزوجة فأن تعلم أن الله عز وجل جعلها سكناً وأنساً فتعلم أن ذلك نعمة من الله عليك فتكرمها وترفق بها، وإن كان حقك عليها أوجب، فإن لها عليك أن ترحمها لأنها اسيرك، وتطعمها وتكسوها وإذا جهلت عفوت عنها^(١).

سأل إسحاق بن عمار أبا عبدالله عليه السلام عن حق المرأة على زوجها؟ قال يُشبع بطنها ويكسوها وإن جهلت غفر لها^(٢).

٣ - الوظائف الخاصة بالمرأة تجاه زوجها:

إن على المرأة هي الأخرى وظائف خاصة تجاه زوجها جاءت الإشارة إليها في الأحاديث، وإن أهمها واشملها عبارة عن حسن التبعل.

عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: جهادُ المرأة حُسْنُ التَّبَعْلِ^(٣).
إن حسن التبعل ليس أكثر من جملة قصيرة ولكن معناها واسع جداً تشمل كل الواجبات والوظائف.

إنما يمكن أن يقال أن هذه المرأة أحسنت التبعل إذا حولت البيت بحسن سلوكها ومحبتها إلى محطة أنس ومرفاً راحة، وواحة صفاء .. شاورت زوجها في الأعمال

(١) بحار الانوار ج ٧٤ ص ٥.

(٢) مكارم الاخلاق ج ١ ص ٢٤٨.

(٣) البحار ج ١٠٣ ص ٣٥٢.

المهمة، وقبلت بقوامته، وأطاعت أوامره، حتى إذا هو لم يأذن لها ذات مرة بالخروج من المنزل لم تخرج .. أكرمت زوجها، وشكرت جهوده عاشرته بخلق حسن، ورحمة وحفظت أسرارها، ونصحت له، كانت أمينة على أمواله، حافظت عليها، ساعدته في المشاكل وعاونته في المتاعب تجتنب إيذائه وإزعاجه بلسانها، اجتنبت الإسراف والتبذير، وحتى في الصدقات والهدايا استأذنت زوجها، وهي وإن كانت غير ملزمة شرعاً بالقيام بالأعمال المنزلية ولكن من لوازم حسن التبعل أن تجتهد بمقدار استطاعتها في الأمور البيتية، وحضانة الأطفال ورعايتهم.

وبالتالي أن تقوم بتزيين نفسها، وترتدي الثياب الجميلة في البيت لزوجها، وتهيء نفسها له وتمكّنه من نفسها على الدوام .. تشجع زوجها على القيام بالأعمال الحسنة وتمنعه عن الأعمال السيئة.

يمكن أن يقال في شأن مثل المرأة، أنها أحسنت التبعل .. وإن عملها يضاهي الجهاد في سبيل الله.

ولقد عدت مثل هذه الزوجة في الأحاديث من أكبر النعم الإلهية التي لا يمكن تقيّمها لعظمتها:

عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال قال النبي صلى الله عليه وآله: ما استفاد امرؤ مسلمً فائدةً بعد الإسلام من زوجةٍ مسلمةٍ تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله^(١).

عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: خير نسائكُم الخمس، قيل وما الخمس، قالك الهيئة، اللينة المواتية التي إذا غضب زوجها لم تكتحل بغمض حتى يرضى، وإذا غاب عنها زوجها حفظته في غيبته فتلك عامل

مِنْ عَمَالِ اللَّهِ، وَعَامِلِ اللَّهِ لَا يَخِيبُ^(١).

فكروا وأجيبوا:

- ١ - اشرحوا: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ».
- ٢ - فسرّوا: «عاشروهن بالمعروف».
- ٣ - لِمَنْ يَجِبُ أَنْ تَتَزَيَّنَ الْمَرْأَةُ؟
- ٤ - هل يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ شَيْءٌ فِي مَجَالِ التَّزَيُّنِ أَيْضاً؟
- ٥ - لِمَنْ قِوَامَةُ الْأُسْرَةِ، وَكَيْفَ يَقُومُ بِذَلِكَ؟
- ٦ - ماذا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْقِفُ الرَّجُلِ مِنْ أخطاءِ زَوْجَتِهِ؟
- ٧ - وَضُّحُوا حُسْنَ التَّبَعْلِ.

* * *

الدَّرْسُ الْوَاحِدُ وَالسَّبْعُونَ

الاسلام وتعدّد الرّوَجات

لقد أباح الإسلام تعدّد الزوجات ورخص للرجل في أن يزوّج بالعقد الدائم وفي ظروفٍ خاصّة وشروطٍ معيّنة بأكثر من امرأة على أن لا يتجاوزن الأربع. ولقد تعرّض هذا الحكم الإسلامي للنقد اللاذع من قِبَلِ المغرّضين، وحملوا عليه بشدة، زاعمين بأن المرأة تعرّضت للظلم والحيف بسبب هذا الحكم. ولهذا تحتاج هذه المسألة إلى التقييم والدراسة من جديد.

ولابدّ أن نذكر - قبل هذا - بأنّ الإسلام لم يُنشئ مسألة تجويز تعدّد الزوجات، ولم يبتدعه ابتداءً بل كانت عادة تعدّد الزوجات موجودة في الشرق قبل هذا..

نعم الإسلام لم ينسخ هذه العادة، إنّما أصلحها وحدّدها بأربع نسوة.. ولهذا لم تبطل مسألة تجويز تعدّد الزوجات، فقد اعتبرها الاسلام في بعض الظروف ضرورة من الضرورات الإجتماعية وأحد الحقوق الطبيعية للمرأة، وفي مصلحة المجتمع النسوي - الحقيقية.

إن الاسلام لم يقصد مناصرة الرجال وتلبية رغباتهم بتشريعه، (وبالاحرى)

ترخيصه لتعدد الزوجات، ولا تشجيعهم على تكوين الحريم، والإفراط في الاستجابة للشهوات.. بل إن أهم أهداف الإسلام هو الدفاع عن حق طبيعي من حقوق المرأة، يعني حق الزواج وتشكيل الأسرة، وإنجاب الأولاد، وتربيتهم.

ولاثبات هذا الموضوع وتوضيحه لا بد من الإشارة إلى مقدمتين:

المقدمة الأولى: إن المواليد من الإناث من حيث المجموع ليس أكثر من المواليد من الذكور، ولكن الإحصائيات تفيد بأن عدد النساء الصالحات للزواج أكثر - في الأغلب - من الرجال الصالحين للزواج.

ويمكن الإشارة إلى علتين من علل هذه الظاهرة:

العلة الأولى: أن الخسائر في الأرواح من الذكور - على أثر الحوادث، وبصورة خاصة الشباب أكثر من النساء والفتيات.

ولو أننا لاحظنا الإحصائيات المرتبطة بحالات الوفاة الناشئة من الحوادث كالحرب، والسقوط، والهدم، والغرق، وخسائر العمال في الأرواح في المعادن والمعامل، وحوادث السير لوجدنا أن أكثر هذه الخسائر والحالات ترتبط بالرجال.

وعلى أثر هذه الحوادث يختل التوازن ويضطرب التعادل بين عدد الرجال وعدد النساء، فيغلب عدد النساء عدد الرجال.

ولكي نصدق بهذا الموضوع يكفي أن نلقي نظرة فاحصة إلى إحصائيات الخسائر في الأرواح البشرية في الحرب العراقية الإيرانية، وحرب الخليج الفارسي وحرب أفغانستان، وغير ذلك من الحروب التي تقع باستمرار في مختلف نقاط العالم. إن خسائر هذه الحروب كثيرة، ورهيبة جداً والأغلبية الساحقة من صرعى هذه الحروب هي من بين الرجال، وفي الغالب من الشباب، أو الحديشي العهد بالزواج، أو غير المتزوجين، وهو ينتج اضطراب واختلال التوازن بين عدد الرجال وعدد النساء.. وأن يفوق عدد النساء الصالحات بل والمحتاجات إلى الزواج عدد الرجال.

العلة الثانية: إنَّ الوَفَيَات من الأطفال، والصبيان والشباب - حسب شهادة بعض العلماء والمختصين، ونتائج الإحصائيات والتقصّيات هي أكثر من الإناث. إنَّ مقاومة الجنس الأنثويّ تجاه الأوبئة والأمراض هي - في الغالب - أكثر من مقاومه الذكور ، وإنَّ متوسط العمر لدى النساء - هو بصورة عامّة - أعلى من متوسط العمر لدى الرجال، وإنَّ عدد النساء الأرامل هو أكثر من عدد الرجال الذين فقدوا زوجاتهم.

إنَّ مسألة تفوُّق عددِ النساء المهَيَّئات والمحتاجات إلى الزواج على عدد الرجال الصالحين المحتاجين إلى الزواج مسألة واضحة، وأمر ملموس ومشهود للجميع.. ونحن كثيراً ما نواجه ونشاهد النساء الأرامل المحتاجات إلى الزواج، ولكنهن لا يجدن الرجل العازب المناسب للتزوج به، بينما هناك رجال عزاب يرغبون في الزواج لكن قلماً لا يجدون المرأة التي يناسب التزوج بها.

المقدمة الثانية: إنَّ من الحقوق الطبيعية والقطعية لكل إنسان هو حقّ الزواج والإنسال وتكوين الأسرة.

فكما أن لكل إنسان الحق في العمل، واختيار المسكن والخدمات الصحيّة، والملبس، والحرية كذلك له الحق في الزواج وتكوين أسرة.

فإن كل إنسان رجلاً كان أو امرأة له الحق في أن يتزوج، ويحصل على السكنى العائلية والطمأنينة في ظلال الأسرة، وأن يكون له أولاد شرعيون، قانونيون.

إنَّ المرأة هي الأخرى إنسانة لها مثل هذا الحق على المجتمع .. ولا بدّ أن تنظّم القوانين الإجتماعية بنحو يتمكن كل شخص في ظلها من التمتع بحقوقه الطبيعية.

بعد ملاحظة هاتين المقدمتين يمكن أن نستنتج أن قانون إباحة تعدد الزوجات قد شرّع في الحقيقة لمصلحة جميع أفراد المجتمع، وبالأخص المجتمع النسوي، والنساء اللاتي لأزواج لهنّ، واللاتي يفوق عددهن عدد الرجال العازبين، ولو كان الأمر

غير هذا حرمت مثل هذه النسوة من حقوقهن الطبيعية وظُلْمَنَ. إذا لم يعترف المجتمع بحق الزواج للنساء الأرامل ولم يسمح للرجال المؤهلين بتكرار الزواج، واتخاذ زوجة أخرى إزداد الفحشاء وازدادت المفاسد الاجتماعية، وراجت عادة اتخاذ الأخدان والعشيقات كما هو الحال في الغرب الآن، لأنه عندما تحرم النساء الأرامل من حقوقهن الطبيعية، ولم يجدن طريقاً إلى تكوين أسرة شرعية، يمكن أن يتعقدن من مثل هذا المجتمع، ويعمدن إلى الانتقام منه، وإغواء الرجال الضعاف في الأغلب أمام قوة الغريزة الجنسية، بالحيل النسائية، ويعزمن على زعزعة بناء العوائل وهدمها، لأن النساء المتزوجات إذا شعرن بخيانة أزواجهن يمكن أن يفكرن في الانتقام، والمقابلة بالمثل، فيفقدن بذلك عفتهم ويسقطن في الخطيئة، والرذيلة.

ولا يخفى أنه مع الالتفات إلى فلسفة الزواج والهدف الواقعي منه، وهو توفير السكنية والأنس والمودة والإنشداد العائلي، يترجح الاكتفاء بزوجة واحدة على التعدد، والاسلام ايضا لا يشجع الرجال على التزوج من زوجة اخرى اذا لم يكن لضرورة بل كان لمجرد الاستمتاع والاستلذاذ وقضاء الشهوة، وبذلك يضحي بالصفاء والانسجام العائليين في سبيل لحظات معدودة من اللذة الجنسية العابرة.

ولو أن الإسلام أباح تعدد الزوجات فإنما هو يفعل ذلك رعاية لضرورة اجتماعية ملحة، وضماناً لحقوق النساء الأرامل، والمحتاجة إلى الزوج.

وقد تكون الضرورة إلى اتخاذ الزوجة الثانية من جانب الرجل، ولمصلحته، وذلك مثلاً إذا كانت زوجته عاقراً نهائياً، أو أنها على أثر المرض كان الإنجاب ثانية أو أصلاً مضراً بها، وأحسَّ الرجل بالحاجة إلى الولد، وإلى إنجاب أولاد آخرين، فإن العقل والوجدان يسمحان للرجل بأن يتزوج بأخرى.

وهكذا إذا كانت الزوجة الأولى مريضة بحيث لا يمكنها تلبية الاحتياجات

الجنسية للرجل وبذلك يمكن أن يفقد الزوج عُفَّتَهُ، ويقع في الإثم والمعصية، فإن هذه الحالة هي الأخرى تُعتبر امراً مبرراً وجيهاً للتزوج بأخرى اتقاء الطلاق، واتقاء الوقوع في المعصية، والتلوث بأدران السفاح والزنا.

وعندما تقتضي الضرورة الاجتماعية تعدد الزوجات يجب على الرجال - بغية ضمان حقوق النساء الأرمال والمحتاجات إلى الزواج - أن يتحملوا مشاكل التعدد ومتطلباته .. فعليه أن يقوم بالتزوج بأخرى بعقل وتدبير، فيتفاهم مع زوجته الأولى أولاً، ويجلب رضاها وثقتها بكل طريق ممكن، ويطمئنها إلى أنه سيراعي جانب العدل والأنصاف.

ويجب على زوجات مثل هؤلاء الرجال أيضاً - وبغية ضمان حق نظرائهن - الطبيعى من النساء الأرمال المحتاجات إلى الزواج، أن يغضين عن فوائد الإستفراد بالزوج، ويقبلن باقتراح أزواجهن.

وإذا ما تحقق التفاهم بين الزوجين في هذه المسألة لم تبق هناك مشكلة. وفي الخاتمة يجب أن نذكر بهذه النقطة وهي أن الإسلام وإن كان يرخص في تعدد الزوجات ولكنه يقيد بشروط يكون التقيد بها عملاً صعباً جداً. ويمكن أن نعتبر الأمرين التاليين من أهم شروط التعدد:

الأول: القدرة المالية على توفير وضمان جميع نفقات الزوجات، والقدرة الجسميّة على تلبية إحتياجاتهن الجنسية على النحو المتعارف.

الثاني: رعاية العدل والأنصاف والمساواة بين الزوجات وأولادهن، ومن جميع الجهات رعاية كاملة، وبالتالي تجبب ائى نوع من أنواع التمييز.

يقول في القرآن الكريم: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ حِفْظُهُمْ إِلَّا تَعَدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾^(١).

إن الرجل إنما يُسَمَّح له بأن يتزوَّج باكثر من واحدة إذا كان واثقاً من نفسه بأنه سيُعَامِلُهُنَّ على أساس العدل والإنصاف والمساواة، فالرجل الذي له زوجات متعددة يجب عليه أن يعامل زوجاته في مجال الانفاق، المضاجعة، والمبيت والإستمتاع الجنسية، بل والتعامل الأخلاقي على أساس العدل والإنصاف والمساواة.

على أنه قد يكون العمل بالواجب والوظيفة يعني رعاية العدل والمساواة، نظراً لوجود بعض الفوارق الجسميّة أو الأخلاقية، أو التفاوت في العمر، بين الزوجات المتعددة، عملاً صعباً للغاية، فتكون النتيجة أن لا يكون إتخاذ أكثر من زوجة أمراً سهلاً أيضاً.

والملفت للنظر أن القرآن الكريم صرَّح بأنه لو كنتم تشكون في مقدرتكم على رعاية العدل، فاكتفوا بواحدة.

ولقد اهتم رسول الاسلام الذي جاء تشريع هذا القانون على يديه، واختار زوجات متعددة، هو أيضاً برعاية العدل والمساواة بينهن بصورة كاملة، ولم يميّز بينهن بأقل تمييز، بل لم يفرّق حتى بين زوجته الشابة عائشة، وزوجاته العجائز ... فكان ينفق عليهن بالتساوي، ويقسم ليلاليه بينهن، فيبيت في كلّ ليلة في حجرة إحداهن، ويراعي هذه التسوية حتى في اصطحابهن في المعارك والحروب.

ولو أن الرجال التزموا بهذه الوظيفة الإسلامية وطمأنوا النساء بعملهم إلى أنهم يُراعون العدل والمساواة لاختفى الشيء الكثير من مشاكل تعدد الزوجات والانزعاجات والإختلافات والمشاجرات الناشئة منها، وبشكل محسوس.



فكّروا وأجيبوا

- ١ - ما هي فلسفة الترخيص في تعدد الزوجات؟
- ٢ - ماذا كان يحدث؟ إذا لم يشرع حق التزوج للنساء الأرمال؟
- ٣ - هل ظلمت المرأة بتشريع قانون تعدد الزوجات؟
- ٤ - ماهي وظيفة الرجال الأخلاقية إذا فاق عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال.
- ٥ - في آية حالة يحق للرجل أن يتخذ أكثر من زوجة.
- ٦ - كيف كان يتعامل رسول الإسلام مع زوجاته؟

* * *

الدرس الثاني والسبعون

إرث المرأة في الإسلام

المرأة والرجل يتمتعان في الإسلام بحقوق إنسانية متساوية، ولم يكن هناك أي تمييز بينهما.

فهما يشتركان في حق تحصيل المال والثروة، والملكية وكذا في أصل التوارث، فالمرأة ترث الرجل، كما أن الرجل يرث المرأة.

يقول في القرآن الكريم: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾^(١).

لقد شرع حق التوارث للنساء، جنباً إلى جنب مع الرجال، كما تلاحظون في الآية الحاضرة، وبتكرار جملة ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ﴾ أشار إلى استقلالهما في التوارث.. وبجملة نصيباً مفروضاً صرح بأن للنساء كذلك نصيباً مفروضاً في الإرث. لقد نزلت آيات الميراث والإرث في عصر لم تكن المرأة فيه تتمتع بأية قيمة أو

منزلة في العالم، وبالأخص في المجتمع العربي الجاهلي، .. فقد كانت الأنثى محتقرة ومهانة إلى درجة أن الرجال الجهلة كانوا يُظهرون الغم والخجل إذا بُشروا بالأنثى، وربما كانوا يعمدون إلى وأد الفتيات البريات وإقبارهن .. وكان الرجل ينقل جميع أمواله لأبنائه أو ابنه البكر دون البنات، فقد كنَّ يُحرمن من الإرث، حرماناً كاملاً اللهم إلا أن يُوصي لهن بشيء في وصيته، أو يعطيها الإخوان شيئاً قليلاً إشفاقاً .. ورحمة.

ولهذا عندما نزلت آيات الإرث، وتقرر للنساء سهم في الميراث تعجب بعض الناس يومذاك.

يقول الفخر الرازي في شأن نزول هذه الآية: قال ابن عباس: أن أوس بن ثابت الأنصاري توفي عن ثلاث بنات وامرأة، فجاء رجلان من بني عمه وهما وصيان له يقال لهما: سويد، وعرفجة وأخذا ماله. فجاءت امرأة أوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرت القصة، وذكرت أن الوصيين ما دفعاً إليّ شيئاً وما دفعاً إلى بناته شيئاً من المال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إرجعي إلى بيتك حتى أنظر ما يحدث الله في أمرك، فنزلت على النبي هذه الآية، ودلت على أن للرجال نصيباً وللنساء نصيباً^(١).

نعم لقد منح الإسلام للمرأة شخصيتها في مثل هذا العصر بتشريع إرث المرأة، وجعلها في مصاف الرجل. ولكن جعل سهمها من الإرث في التشريعات الإسلامية نصف سهم الرجل يقول في القرآن: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ

(١) التفسير الكبير ج ٩ ص ١٩٤.

لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ^(١).

نعم في مورد والد الميت ووالدته، فإنها إذا كان حيَّين عند موت ولدهما، يرث كل واحدٍ منهما السُّدُس من مال الميت على السواء. أي أنها يرثان بصورة متساوية في هذه الحالة.

ولهذا فإن قانون الإرث في الإسلام تعرّض للإعتراض والنقد من هذه الجهة فقالوا: لماذا ميّز الإسلام بين المرأة والرجل في مجال الإرث فَوَرِثَ المرأة نصف الرجل ، أليس هذا ظلم بالمرأة؟

إنّ الإجابة على هذا الإشكال واضحة، فإنّ قانون الإرث يجب أن لا يُلاحظ . وبحسب بمعرّل عن سائر القوانين والتشريعات الإسلامية المتعلقة بالمرأة، بل يجب أن تدرس المسؤوليات المختلفة، والظروف الخاصة لكلٍّ من الرجل والمرأة أيضاً. صحيح أنّ الإسلام فرّق ظاهراً بين المرأة والرجل في صعيد الإرث والتوارث، ولكنّ هذا ناشيء من مسؤوليات الرجل في مجال وجوب دفع المهر، وتكفل نفقات العائلة وغير ذلك.

لقد قرأتم في الدُّروس السابقة أنَّ على الرجل عندما يخطب امرأةً ويريدُ الزواج منها أن يقدِّم لها مبلغاً بعنوان المهر، وهذه الطريقة يكرِّمُ زوجته، ويبرز لها احترامه، ويثبت حبَّه الباطني وإخلاصه في مودته لها.

ومن جانب آخر إنَّ المرأة بالنظر إلى تركيبها الخاص، وبالنظر إلى المسؤوليات التي ألقتها الطبيعة على كاهلها، ليست ملزمة بالكسب والعمل، وتوفير نفقات المعيشة، بل إنَّ مسؤولية تأمين جميع نفقات الزوجة، والأولاد، والعائلة هي مُلقاة بكلِّ ثقلها على عاتق الرجل.

ولو أنَّ المرأة اختارت شُغلاً بمحض إرادتها، واكتسبت مالاً، كان ذلك ملكاً لها، ولا تُجبر على صرفه على المعيشة .. ولقد تعرّفتم في تلك الدروس على فلسفة المهر والنفقة فلا حاجة إلى التكرار.

في ضوء الأمور المذكورة يجب محاسبة سهم المرأة من الإرث، لنرى ما هي علة هذا التمييز الظاهري بين سهم المرأة وسهم الرجل من الميراث؟ وهل إنَّ المرأة ظُلِّمت واقعاً، وعُوِّمِلَتْ على أساس التمييز الجائر، أم أنه ليس هناك أي تمييز؟

يقال لدى الاجابة: لو أننا درسنا هذه المسألة ونظرنا إليها بعين الإنصاف لاظْمَنَّا إلى أن المرأة ليس فقط لم تتعرض في القانون الاسلامي للظلم والتمييز، بل على العكس من ذلك قد دُوفِعَ عن حقها دفاعاً كاملاً، ونُصِرَتْ أيما نصر.

إنَّ المرأة - حسب نظر الاسلام - تملك أموالها سواء عن طريق الإرث، أو الكسب والعمل أو المهر، أو الهبة والهدية، أو أي طريق مشروع آخر.

إنَّ أموال المرأة ترتبط بها شخصياً، وهي ليست مُلزمة بأن تنفقها على الأسرة، بل ويجوز لها أن تطالب بأجرٍ حتى لقيامها بالأموال المنزلية وحضانة أطفالها.

وعلى هذا الأساس فإنَّ كلَّ أموال المرأة هذه تبقى لها، وهي ليست مجبورة على إنفاقها، على العكس من الرجال الذي يكون مضطراً لتقديم مبلغٍ من المال إلى

زوجته من باب المهر، كما أنه مكلف شرعاً وقانوناً بأن يتكفل بتوفير كل ما تحتاج إليه الأسرة من مستلزمات الحياة، ومتطلبات المعيشة، بل وحتى الإحتياجات الشخصية للمرأة.

وهذا يعني أن كل ما يحصل عليه الرجل من مالٍ عن طريق الكسب أو الإرث، أو الهبة أو أي طريق مشروع آخر تشاركه فيه زوجته، وينتج هذا أن سهم الرجل من الإرث سيُصرف في مجال تأمين إحتياجات الأسرة، ويُنفق على مصارفها، وعلى إحتياجات المرأة الشخصية. يعني أنه سيوضع تحت تصرف المرأة بصورة غير مباشرة في المال.

وصفوة القول: أن مسؤولية تأمين وتوفير جميع إحتياجات الأسرة حيث قد وُضعت بكل ثقلها على عاتق الرجل، أراد الاسلام بتشريع لقانون الإرث أن يجبر شيئاً من ذلك، ولهذا جعل سهم الرجل ضعف سهم المرأة.

ولقد أشير إلى هذه العلة في الأحاديث أيضاً فعن ابن سنان عن الرضا عليه السلام قال: **عَلَّةُ إعطاءِ النساءِ نصف ما يعطى الرجال من الميراثِ لأنَّ المرأةَ إذا تزوجتْ، أخذتْ والرجل يُعْطى، فلذلك وفّرَ على الرجال.**

وعَلَّةُ أُخرى في إعطاءِ الذَّكرِ مثلي ما تُعطى الأنثى لأنَّ الأنثى في عيال الذَّكرِ إن احتاجتْ، وعليه أن يعولها وعليه نفقتها، وليس على المرأة أن تعول الرجل ولا تؤخذ بنفقتها إن احتاج، فوفّرَ على الرجل لذلك، وذلك قولُ الله عز وجل: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِأَنَّهُمْ أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١).

وعن هشام بن سالم أن أبي العوجاء قال للأحول: ما بال المرأة الضعيفة لها سهم واحد وللرجل القوي الموسر سهمان؟

إرث المرأة في الإسلام ٤٨٣

قال: فذكرتُ ذلك لأبي عبد الله عليه السلام فقال: إنَّ المرأةَ لَيْسَ عَلَيْهَا عَاقِلَةٌ ولا نَفَقَةٌ ولا جِهَادٌ وعدَدُ أَشْيَاءٍ غَيْرَ هَذَا، وَهَذَا عَلَى الرِّجَالِ، فَلِذَلِكَ جَعَلَ لَهُ سَهْمَانِ وَلَهَا سَهْمٌ^(١).

فَكُتُّوا وَأَجِيبُوا:

- ١ - فِي أَيِّ عَصْرِ أُعْطِيَ الْإِسْلَامُ حَقَّ التَّوَارِثِ لِلْمَرْأَةِ؟
- ٢ - كَمْ هُوَ سَهْمُ الْمَرْأَةِ مِنَ الْمِيرَاثِ فِي التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ.
- ٣ - مَا هِيَ الْعِلَّةُ لِجَعْلِ سَهْمِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْإِرْثِ نِصْفَ سَهْمِ الرَّجُلِ فِي التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ؟
- ٤ - هَلْ ظَلَمَتِ الْمَرْأَةُ فِي نِظَامِ الْإِرْثِ الْإِسْلَامِيِّ؟

* * *

الدرس الثالث والسبعون

الطَّلَاق

الزَّوْجُ - حَسَبَ نَظَرِ الْإِسْلَامِ - مِيثَاقٌ مُقَدَّسٌ وَغَلِيظٌ يَتَعَهَّدُ بِمَوْجِبِهِ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ بِأَنْ يَبْقِيَا وَفِيَّيْنِ لَهُ إِلَى نِهَائِهِ الْعُمُرُ، وَأَنْ يَجْتَهِدَا فِي تَقْوِيَةِ بَنِيَانِهِ وَدَعْمِ أُسُسِهِ. ولكن قد يرخص - مع ذلك - في الانفصال والطلاق في ظروف وحالاتٍ خاصَّةٍ، وقد جعل أمر الطلاق بيد الرجل.

على أن الطلاق وإن كان أمراً مشروعاً وحلالاً إلا أنه في نفس الوقت أمرٌ مَبْغُوضٌ عِنْدَ الْمَشْرِعِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُقَدَّسِ .. وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ذِمَّةِ أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ نَذَرٌ بَعْضُهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ:

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الْعَرْسُ، وَيُبْغِضُ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الطَّلَاقُ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَبْغَضَ مِنَ الطَّلَاقِ^(١). وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: مَا مِنْ شَيْءٍ مِمَّا أَحَلَّهُ اللَّهُ أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّلَاقِ وَإِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْمَطْلُوقَ الدَّوَاقَ^(٢).

(١) و (٢) الوسائل ج ١٥ ص ٢٦٧.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: بَلَغَ النبي صَلَّى الله عليه وآله أن أبا أيوب يريد أن يَطْلُقَ امرأته فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله: إِنَّ طَلَاقَ أُمِّ أَيُّوبَ لِحَوْبٍ، أَيْ إِثْمٍ^(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قَالَ قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله: أَوْصَانِي جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْمَرْأَةِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي طَلَاقُهَا إِلَّا مِنْ فَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ^(٢).
وعن الصادق عليه السلام قال: تَزَوَّجُوا وَلَا تَطْلُقُوا فَإِنَّ الطَّلَاقَ يَهْتَزُّ مِنْهُ الْعَرْشُ^(٣).

وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله: مَا أَحَبَّ اللَّهُ مَبَاحاً كَالنِّكَاحِ وَمَا أَبْغَضَ اللَّهُ مَبَاحاً كَالطَّلَاقِ^(٤).

يُستفاد من هذه الأحاديث ونظائرها أَنَّ الطَّلَاقَ رَغْمَ أَنَّهُ عَمَلٌ مَشْرُوعٌ وَحَلَالٌ فَانَّهُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ عَمَلٌ مَبْغُوضٌ جَدًّا إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ يَهْتَزُّ مِنْهُ الْعَرْشُ الْإِلَهِيُّ.
وهنا يمكن أن تقولوا: إِذَا كَانَ الطَّلَاقُ مَبْغُوضاً وَمَكْرُوهاً عِنْدَ الشَّارِعِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُقَدَّسِ، فَلِذَاذَا لَمْ يَحْرَمْهُ، بَلْ وَأَسَاساً كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ هَذَا عَمَلٌ مَبْغُوضٌ وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ حَلَالٌ، فَانَّهُ إِذَا كَانَ مَبْغُوضاً حَقِيقَةً لِأَعْلَنِ عَنْ رَفْضِهِ وَحُرْمَتِهِ؟
يُقَالُ فِي مَعْرِضِ الْإِجَابَةِ عَلَى هَذَا الْأَشْكَالِ: أَنَّهُ لَا تَنَافٍ بَيْنَ الْحَلَالِيَةِ وَالْمَبْغُوضِيَّةِ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَمَلٌ مَّا مَبْغُوضاً تَمَاماً، وَلَكِنْ عَمَلُهُ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ضَرُورِيّاً وَلَا زَمّاً، فَمَثَلًا يُعْتَبَرُ قَطْعُ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ أَمراً مَبْغُوضاً وَلَكِنَّهُ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ - مِثْلَ حَالَةِ الْإِبْتِلَاءِ بِالسَّرَطَانِ - ضَرُورَةً لَا مَنَاصَ مِنْهَا وَلَا مَخْلَصَ.

(١) الوسائل ج ١٥ ص ٢٦٧.

(٢) مكارم الاخلاق ج ١ ص ٢٤٨.

(٣) مكارم الاخلاق ج ١ ص ٢٢٥.

(٤) مستدرک الوسائل ج ٣ ص ٢.

والأمر في مسألة الطلاق هكذا، فإن الطلاق أمرٌ مبغوضٌ ومكروهٌ عند الشارع الإسلامي المقدس، وهو يخالفه بشدة ويندد به، إلا أنه يعدّه أفضل طريقة حلّ في بعض الأوقات، أي في نفس الوقت الذي يكره فيه وقوع الطلاق، وتحقيقه، ولا يخفي تأسّفه وانزعاجه منه .. ولكن لا يوجد في بعض الأحيان حلُّ أفضل منه.

ونقول في توضيح هذا الموضوع لا بدّ أولاً من دراسة طبيعة الزواج. إن الزوجية عُلقةٌ طبيعيةٌ وميثاقٌ باطنيٌّ بين رجل وامرأة يختلف اختلافًا كاملاً عن جميع الموائيق والعقود الاجتماعية الأخرى مثل البيع والصلح والإجارة والرهن. فإنّ هذه العقود والموائيق مجرد موائيق إجتماعية واعتبارية لا دخالة للطبيعة والغريزة فيها، على العكس من ميثاق الزواج وعقد الزوجية الذي له جذور في صميم طبيعة الزوجين وغرائزهما، وينشأ من رغبةٍ طبيعيةٍ، وميل غريزيٍّ. إن الزواج ينشأ من ميل وانجذاب باطنيين لدى كلّ من الرجل والمرأة تجاه الآخر ومن رغبةٍ غريزيّةٍ في الاتحاد والتوافق القلبيين.

ففي جانب الرجل يكون الميل إلى المرأة وتعشّقها وخطبتها وبالتالي تصرف شخص المرأة ذاتها، وفي جانب المرأة تكون الإثارة والمجاذبة، ولفت نظر الرجل، ومحاولة النفوذ في قلبه والسيطرة عليه.

إنّ صرح العائلة وبناء الأسرة يقوم في الحقيقة على هاتين الدعامتين، فالمرأة تطلب حبّ الرجل ومودته لها، والسيطرة على قلبه، فإذا وصلت إلى هدفها، وحصلت على مقصودها هذا إطمأنت إلى حياتها الزوجية، وعاشت رخيّة البال نشطة، مسرورة، وحوّلت جو الأسرة إلى محيطٍ آمنٍ، ومحطةٍ إستراحةٍ للرجل (الزوج) والأولاد، وبالتالي اطمأنّ الرجل (الزوج) إلى أسرته، وأنس بها، واستراح إليها، وعلّق عليها آماله، واجتهد في توفير مستلزمات الرفاه والراحة، لاعتنائها، وقام في هذا السبيل بكلّ تضحيةٍ ممكنةٍ.

فعلى هذا الأساس يُعتبر حبُّ الرجل لزوجته أحد أهمِّ عوامل السَّعادة الزوجية بل مما تتوقف عليه عواطفُ الأمومة التي تبديها الأم تجاه اولادها كذلك. فان المرأة التي تتمتع بمحبة زوجها لها يمكنها أن تربي أولادها بشكل صحيح، وتروّيهم بالعواطف، وتربيهم في حضنها الدافئ.

أما إذا فقدت المرأة - ولأَيِّ سببٍ كانَ - حبَّ الزوج لها، وجاذبيَّتها عنده، وتضاءلت نيران مودّته لها أو انطفأت بالكامل، فإنّه حينئذٍ يجب اعتبار مثل هذه الأسرة منهارةً ومَحْطَمَةً لأنها لا تنطوي على عُنصر الجاذبية، ولم يعد فيها ما يجذب لا الرجل ولا المرأة .. إنه بيتٌ باردٌ خالٍ عن دِفء المحبة، خال عن سخونة المودة .. إنه بيتٌ مقفرٌ وموحشٌ، ومظلمٌ ورهيبٌ، إن مثل هذا البيت لا يمكن أن يكون محلًّا استراحةٍ ومحطة استجمامٍ للرجل بل هو سجنٌ لا يُتحمَّل، وجحيم لا يطاق.

إن الاسلام رغم أنه يبغض الطلاق ويندّد به بشدة لا يمكنه في مثل هذه الحالات المساوية أن يحمل الرجل والمرأة اللذين اختلفا بحكم الطبيعة وتنافرا من حيث الغريزة، على الاستمرار في تحمّل ثقل مثل هذا الزواج المزعج وغير المطلوب لهما، بل يظهر تأسفه الشديد من هذا الوضع، ويرخص في الطلاق ذلك العمل الذي يبغضه بشدّة.

إنّ الاسلام لا يحرم الطلاق قانوناً، ولكنه يكافح بشدة العلل التي تؤدي إلى الطلاق، ليتوقّاه، ويتجنّبه .. وقد قلنا سابقاً ان حبَّ الرجل لزوجته هو أهمِّ عوامل ودوافع حدوث الزواج، وأفضل ضمانة لبقائه واستمراره ولسعادة الأسرة وراحتها وأمنها، ولهذا فهو يكافح العلل والعوامل التي يمكن أن تعرّض هذا الحبَّ لخطر النقصان أو الزوال.

فهو من جانب يوصي النساء بأن يراعين الحجاب ولا يُعرضن زينتهن للرجال الأجانب، وان يكنَّ في معاشرتهن بحيث لا تلفتن نظرهم، ولا تجلبن إهتامهم، وبالتالي

لا يحاولون إثارة غير أزواجهم من الرجال الأجانب، وأزواج غيرهن من النساء. ومن جانب آخر يوصي الرجال بأن لا ينظروا إلى النساء الأجنبية، وأن يغضوا من أبصارهم إذا صادف أن وقعت عيونهم عليهن، وأن يتجنبوا مفاكتهن وممازحتهن.

ولقد كان الاسلام يهدف من هذا تطهير البيئة الاجتماعية من عوامل الانحراف، والزلل، والاستمتاع الجنسية غير المشروعة، وأن يحصر الاستمتاع الجنسية في إطار البيوت، وبين الأزواج الشرعيين.

لقد أراد الاسلام أن يمنع من التفرج على الأجنبية، الذي يعد من أهم عوامل الانحراف والعشق الحرام، والميل إلى غير الزواج المشروع، والذي هو نتيجة النظر إلى الفتيات والنساء في الأزقة والشوارع والطرق.

ومن جانب آخر حث النساء على أن يُقدرن محبة أزواجهن، ويجتهدن في الحفاظ عليه، فيتزين لأزواجهن، ويرضين رغباتهم الجنسية، ويشغلن كل قلوبهم لكي لا يتركن فيها مجالاً لآخرى، ولكي يزدن من شعلة حبهن يوماً بعد يوم.

ومن جانب آخر يوصي الرجال قائلاً بأن زوجتك أمانة إلهية عندك فأكرمها، وأظهر حُبك ومودتك لها.

إن الاسلام يهدف من وراء كل هذه التدابير الحكيمة أن يُبقى على حب الرجل لزوجته الذي هو أهم ضمانة للسعادة الأسرية وأفضل وسيلة لتقوية دعائم الرابطة الزوجية، والابقاء على علاقة الزواج، وأن يصون الأسرة من خطر نقصان هذا الحب أو زواله الذي هو أهم عوامل حدوث الطلاق والافتراق البغيض.

ولقد استخدم الاسلام - في هذا المجال - عدة تعاليم أخلاقية للإبقاء على جذوة الحب بين أعضاء الأسرة ومنعها من الإنطفاء، وظهور أرضية الطلاق بسبب إنزعاج الرجل، واستيائه.

لقد حَدَّدَ الاسلامُ وظائفَ وحقوقاً لكلِّ واحدٍ من الزوجين، وأوصى الزوجين معاً بأن يجتهدا في تقوية دعائم الأسرة، وروابطها بالرعاية الكاملة للحقوق المتقابلة والإحترام المتقابل، وبُحَسْنِ المعاشرة والتزام سعة الصدر والعفو، وإن يقدِّما الحبَّ والأنس الزوجيين على كلِّ شيء، وأن يجتهدا في حفظهما واستمرارهما، وأن يتجنبا الانانية والاستبداد والعناد، والعنف، ويعالجا الاختلاف في السلائق والرغبات، بالعقل والإنصاف وحسن النية، ولا شك أنه برعاية الوظائف والأخلاق الأسرية التي رَسَمَهَا الاسلامُ يمكن المنع من حدوث أجواء وعوامل الطلاق إلى درجة كبيرة وملحوظة.

أما إذا اشتدَّت الخلافات بين الرجل والمرأة وخيف أن تنتهي إلى الطلاق فإن الاسلام يقترح - هنا - تشكيل محكمة العائلة .. يقول في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾^(١).

في مثل هذه الحالة يقترح الاسلام بأن يتدخل أولياء الزوجين وأقرباؤهما، فيشكّلوا محكمة يكون أحد قضاتها من أقرباء الزوجة، والآخر من أقرباء الزوج، ويمكن أن يكون الحكمَان من غير أقرباء الزوجين أيضاً.

ثم يقوم القاضيان المذكوران باستعراض ودراسة موارد الخلاف، ومواطن الاختلاف، بصورة دقيقة ومنصفة، فاذا أحسَّ بأن موارد الاختلاف بين الزوجين ليست عميقة، وأن جذوة الحبِّ الزوجي لا تزال مشتعلة، وكان الصلح والاستمرار في الحياة الزوجية ممكناً، عملاً على الإصلاح بين الزوجين، وزأب الصّدع، وحكما بينهما على أساس العدل والانصاف والتذكير بموارد التخلّف عن الحق بلهجة ناصحة صادقة، وإيقاف كلِّ واحدٍ من الجانبيين (الزوجين) على وظائفه ولزوم العفو والاغماض،

وبالتالي أن يبحث عن علل الاختلاف وبعد التعرف يعمل على إزالة أسباب الانزعاج، والاختلاف، ويصلح بينهما..

على أن الصلح الذي يوجده ويقره الحكماء الإسلاميين يختلف اختلافاً كبيراً عن الصلح الذي يمكن أن يقيمه ويقره القانون عن طريق الإكراه والإجبار. فان الصلح القانوني يشبه الصلح بين شريكين أو جارين أو دولتين اختصمتا، فانهما ملزمان بموجب حكم القانون أن لا يعتدي أي واحدٍ منهما على حقوق الطرف الآخر.

ولكن الصلح الذي يريده الاسلام وينشئه هنا هو عبارة عن إيجاد الوحدة والمحبة، والعلاقة الباطنية بين الرجل والمرأة بحيث يصبحان قلباً واحداً ويرى كل واحدٍ منهما سعادته في سعادة الآخر.

إن الحكمين الإسلاميين يجتهدان هما الآخران ليقيا مثل هذا الصلح بين الزوجين.

أما إذا توصل الحكماء في تحقيقها إلى أن جذوة الحب والعلاقة بين الزوجين المتنازعين قد انطفأت بالكامل، وإن إختلافاتها عميقة جداً إلى درجة أنه لم يعد هناك أمل في الإصلاح ولم يمكن بالعفو العودة بالمحبة الزوجية إلى حالتها الطبيعية مطلقاً، فإن الإسلام يجوز في هذه الصورة الطلاق، والإفتراق، إذ لا مناص منه ولا خلاص. على أنه بعد جميع هذه المراحل لا يكون إيقاع أمر الطلاق من السهولة واليسر والبساطة بحيث يقع فوراً بل إن الإسلام تعمد في أن يقرر شروطاً من شأن مراعاتها أن توجب تأخير وقوع الطلاق عسى أن يحصل انصراف من ذلك الحل البغيض. وأساساً إن الطلاق هو أحد الخسائر المؤسفة المؤلمة في مجال الزواج والعالم الزوجي، وهو يستتبع تبعات ومشاكل كثيرة يصعب تحملها على الزوجين وبخاصة الرجل.

في القوانين الإسلامية جُعِلَتْ أكثر تبعات الطلاق على عاتق الرجل، بحيث أنه لو فكر بتعقل لا نصرف عنه.
إن على الرجل أن يعطي مهر زوجته كاملاً - عند الطلاق - إن لم يكن قد دفعه إليها بعد.

يقول في القرآن الكريم: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾^(١).
ويقول أيضاً: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٢).
إن المهر حق شرعي وقانوني من حقوق المرأة ويمكنها أن تستوفيه كاملاً عن طريق القانون.

وعلى هذا يجب على الرجل أن يدفع مهر زوجته المطلقة كاملاً .. هذا مضافاً إلى أن عليه إذا أراد أن يتزوج من جديد أن يفكر في مهر الزوجة الجديدة وجميع نفقات الزواج المجدد.
هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن عليه أن يتحمل مسؤولية حضانة ورعاية أولاده الذين فقدوا أمهم - بالطلاق - ويتكفل نفقات الحضانة إذا أراد أن يسلمهم إلى أحد.

كما أن عليه أن لا يغفل عن مشكلات عدم الانسجام بين زوجته الجديدة وبين أولاده من الزوجة الأولى، كما أن وضع الزواج الجديد ليس من الواضح بحيث يطمئن إليه، فربما يبتلى بامرأة أسوأ من سابقتها بدرجات ومراتب أشد.

(١) النساء ٤.

(٢) النساء ٢٠ - ٢١.

إن أخذ كل هذه المشاكل بنظر الاعتبار يجسّد أمام عيون الرجل صورة قائمة من الطلاق، تكفي - لو فكّر بعقلانية - أن ينصرف عنه غالباً.

ولكن المشكلة هي مع الأسف تكمن في اللجاج والعناد والتوقعات غير الصحيحة التي قد يصاب بها الزوجان فتمنعهما من التفكير الصحيح، ورؤية العاقبة المشؤومة للطلاق والانفصال.

ولهذا فإن الإسلام بتدابيره الحكيمة حاول أن يؤخر وقوع عملية الطلاق علّ ان تخف سورة اللجاج والعناد، ويفكّر الزوجان المتنازعان في العواقب وينصرفا عن الطلاق والانفصال.

يجب أن لا يستعجل منفذ صيغة الطلاق ومجرها الذي هو غالباً من علماء الدين في إجراء الطلاق، بل يجب أن يؤخر هذه العملية بحجج مختلفة، ويجتهد في أن يزيل الاختلافات ويقيم الصلح، والوفاق بين الزوجين.

ولقد اشترط الإسلام حضور شاهدين عادلين يشهدان إجراء مراسيم الطلاق، وحيث أن الحصول على شاهدين عادلين يقبلان بالحضور في مجلس الطلاق أمر عسير غالباً وهو يحتاج إلى مدة لهذا فان من الطبيعي أن يتأخر الطلاق بعض الوقت.

هذا مضافاً إلى أنه ربما يسعى الشاهدان العادلان بحكم واجبهما الإنساني، وبمقتضى العدل والتقوى اللذين يتمتعان بهما إلى وعظ الزوجين، وإزالة الخلاف بينهما، وصرفهما عن الطلاق، والافتراق.

كما أن صحة الطلاق مشروطة بأن تكون المرأة في طهر لم يواقعها فيه زوجها، وهذا الشرط نفسه يوجب تأخير عملية الطلاق قهراً.

لقد أراد الإسلام بهذه التدابير الحكيمة ونظائرها أن يؤخر عملية الطلاق قدر الإمكان علّ أن تخف أو تزول حالة اللجاج والعناد والعصبية والغضب ويعود الزوجان

إلى رشدهما، وينصرفا عن الطلاق، ويعودا إلى حياتهما الزوجية. لقد بلغ من اهتمام الاسلام أنه سمح للرجل في زمان عدة الطلاق الرجعي^(١)، إذا ما ندم، أن يرجع إلى زوجته من دون حاجة إلى تجديد صيغة الزواج. وهنا يمكن أن يقول قائل: إن كلامكم هذا أنها يصح ويجري في حق الرجال الملتزمين بالأخلاق الحسنة والضوابط الإنسانية والاسلامية أما طلاب الهوى، وعبيد الهوس، والشهوانيون والفسقة من الرجال فلا يجديهم كل هذا، فإن قانون الطلاق يسمح لأمثال هؤلاء كلها هووا امرأة جديدةً بأن يفكروا في تطليق زوجتهم السابقة التي أفنت زهرة شبابها، وخيرة طاقاتها في بيته، وخدمته، وإخراجها من عشه الزوجي، فكيف يمكن أن نوفق بين هذا، وبين العدل الاسلامي؟

ألستم تقولون إن قوانين الاسلام قامت على أساس العدل والإنصاف؟ اذا لم يكن هذا ظلماً، فما هو ترى الظلم إذن؟ ألم يكن من الأفضل أن يمنع الاسلام الطلاق رأساً، أو يقيده بقيود وشروط ليمنع من هوس الرجال من طلاب الهوى وأسرى الهوس؟

في الإجابة على هذا السؤال نقول: إن الإسلام يخالف كل لون من ألوان الهوس، ويعارض كل طلاق يقع على هذا الأساس معارضة شديدة. ويندد بفاعله بشدة، ولكن الإسلام لا يرى مصلحة الأسرة في أن يحمل امرأة سقطت من عين زوجها، وفقدت مكانتها في قلبه على أن تعيش بقوة القانون إلى جانبه.

إن المرأة يمكن أن تبقى بقوة القانون في بيت زوجها، ويجبره على الإنفاق عليها ولكن مثل هذه المرأة لن تكون محبوباً عند زوجها، ولن تحظى بالشخصية

(١) زمان عدة الطلاق الرجعي عبارة عن الزمان الذي يقع فيه الطلاق إلى ان ترى المرأة ثلاث حيضات.

والاحترام لديه في هذه الظروف.
 إن أكبر عذاب للمرأة وأسوأ تحقير لها هو أن تكون مبغوضةً مكروهةً عند زوجها ثم تريد مع ذلك أن تعيش بقوة القانون في بيت مثل هذا الرجل .. إن مثل هذا البيت لن يكون محطة استراحة، وكهف آمن ومرافاً خير.
 إن محبوبة المرأة التي هي أمنيتها الطبيعية لا تتوفر بقوة القانون واجباره قط.

إشكالٌ وجوابٌ:

يمكن أن يقول قائلٌ: لماذا جعل الاسلام حق الطلاق بيد الرجل فقط، وحرّم المرأة من ذلك؟ مع أن نفس الأمور التي ذكرتموها في فلسفة تشريع الطلاق للرجل، يحتمل أن تقع في جانب المرأة أيضاً؟

فمثلاً قلتم: إن الحبّ أساس الحياة الزوجية ثم استنتجتم بأن جذوة الحب والعلاقة إذا انطفأت في قلب الرجل حيال زوجته، فكرهها، ولم يكن هناك أمل ولا طريق رجعة، كان له الحق في مثل هذه الصورة أن يضع حداً للعلاقة الزوجية بالطلاق لانعدام الحياة الطبيعية في مثل هذه الأسرة، فان نفس هذا الاحتمال واردٌ في جانب المرأة، اذ يمكن أن تنطفئ جذوة الحب في قلب المرأة بالنسبة لزوجها فلم تعد تحبه وتهواه، ولم يعد هناك طريق رجعة، ففي مثل هذه الحالة يجب أن يكون من حق المرأة أن تطلق زوجها هي أيضاً، فلماذا لا يكون كذلك؟

إن الجواب على هذا الاعتراض هو: صحيح أن الحياة الزوجية تتوقف على وجود العلاقة بين الرجل والمرأة ولكن نقصان أو زوال علاقة المرأة بزوجها لا يمكن أن يعتبر بمثابة انتهاء العمر الطبيعي للحياة الزوجية بل يجب عدّه من علائم تقصير أو قصور الرجل في اجتذاب زوجته وكسب محبتها.

لقد قلنا سابقاً أنّ العلاقة الزوجية قد أودعت في طبيعة الرجل والمرأة على

نحوين متفاوتين: فالرجل طالب، والمرأة مطلوبة .. والطلب وإظهار الحب هو دائماً يبدأ من جانب الرجل، والمرأة على العكس من ذلك تلبي هذا النداء. وتستجيب لهذا الطلب. فحب المرأة وعلاقتها ناشئة من إظهار الرجل للرغبة والحب، وردة فعل على موقفه، وعمله.

وعلى هذا فان مفتاح العلاقة والمحبة الزوجيتين هو في يد الرجل. فالرجل هو الذي يحب زوجته ويظهر حبه هذا لها قولاً وعملاً، وبالتالي يجعلها تطمئن إلى أusrتها، وزوجها .. والرجل هو الذي بعدم محبته لزوجته وعدم الاكتراث بها يجعل زوجته غير راغبة فيه، فهو الذي يحملها على حبها له وهو الذي يحملها على عزوفها عنه.

وعلى هذا الأساس فان برود الرجل في حبه لزوجته وخمود جذوة مودته لها بالكامل هو الذي يمكن أن نعتبره النهاية الطبيعية لحياة الأسرة، وأما برود المرأة في حبها، وعزوفها عنه فلا يكون من علائم الموت الحتمي للحياة الزوجية، بل هو علامة تدل على أن زوجها لم يتمكن بحبه وإظهار مودته لها ان يكتسب حبها له ورغبتها فيه، ويجعلها تطمئن إلى الحياة، وتكون وفيةً لزوجها. مُشَدَّةً إليه.

وفي مثل هذه الصورة يجب على الرجل أن يعيد النظر في برامج ومواقفه وفي أخلاقه وسلوكه، ويجتهد حتى يتألف قلب زوجته، ويجعلها تطمئن مرةً أخرى إلى محبته ووفائه .. وإلى حياتها الزوجية.

بناءً على هذا لا يمكن ان يعتبر برود جذوة الحب لدى المرأة بالنسبة لزوجها من علائم إنتهاء الحياة الطبيعية العائلة، لئستنتج حينئذ أنه يكون للمرأة في مثل هذه الحالة حق تطليق زوجها.

مثال آخر:

إذا ظلم رجل زوجته وتجاوز على حقوقها، ولم يف بها أو ببعضها أو ضيق عليها،

ولم يسدّد نفقات معيشتها، أو لم يقدّم بحق المضاجعة، أو لم يعمل وفق ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ بل راح يضربها ويشتمها، ومن جانب آخر لا يرضى بطلاقها، وتسريحها، فما هو وظيفة هذه المرأة المظلومة في هذه الحالة؟؟

فهل عليها أن تصبر وتحمل كلّ ذلك العذاب والعناء إلى أن يأتي أجلها وتودّع الحياة؟؟

أليس هذا ظلماً؟ فلماذا لا يعطى حقّ الطلاق بيد المرأة حتى تخلص نفسها من هذا السجن المقرون بالأعمال الشاقة؟

الجواب هو: أن الإسلام قام على أساس العدل والإنصاف ورعاية حقوق الأشخاص، وهو لا يجوز أبداً سلوك الرجل المشين مع زوجته فإذا عمد رجلٌ إلى إيذاء زوجته، وهضم حقوقها ولم يرض بالطلاق، لم يسدّ الطريق على مثل هذه المرأة المظلومة، بل يمكن لهذه المرأة أن تراجع إما الحاكم الإسلامي الشرعي وأما محكمة العائلة وتعرض شكواها عليهم، ليقرروا وظيفتها وواجبها.

وعلى المحكمة أن تلزم الرجل (الزوج) بأداء كافة حقوق زوجته أو يطلقها ويسرحها.

قال في القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(١).

إن الآية المذكورة وإن وردت في مورد الطلاق لكنها لا تختص به، بل يمكن - وكما قال بعض الفقهاء - أن يستنبط منها حكمٌ كليٌّ.

فانه يستفاد من هذه الآية ومن الأدلة والشواهد الأخرى أن على الرجل أن

يختار في الحياة الزوجية أحد طريقين:

إما حسن المعاشرة مع زوجته والقيام بحقوقها بصورة جيدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ - وَعَاشِرُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

وإما أن يقطع علاقة الزوجية ويسرح زوجته بالطلاق (سرحوهن بمعروف). ولكنه لا يجوز أن يختار طريقاً ثالثاً يعني لا أن يؤدي إلى المرأة حقوقها، ولا أن يطلقها.

إن اختيار الشق الثالث قد نُفي في ذيل الآية الحاضرة إذ قال: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾.

وعلى هذا الأساس إذا عصى الرجل، ولم يَقم بحقوق زوجته خير قيام كان للمرأة الحق في أن ترفع شكواها إلى الحاكم الشرعي الاسلامي ليوضح ويُجَدِّد لها وظيفتها.

فكروا وأجيبوا:

- ١ - ما هو رأي الإسلام وموقفه من الطلاق؟
- ٢ - لماذا اعتبر الإسلام الطلاق أفضل حل في بعض الحالات؟
- ٣ - ماذا اقترح الإسلام للحيلولة دون وقوع الطلاق؟
- ٤ - ما هي تعاليم الإسلام للحفاظ على محبة الرجل لزوجته؟
- ٥ - ماذا يقترح الإسلام إذا اشتدت الخلافات بين الزوج وزوجته؟
- ٦ - ما هي التدابير التي اتخذها الإسلام لتأخير عملية الطلاق قدر الأمكان؟
- ٧ - ما هي فائدة تأخير إيقاع الطلاق؟
- ٨ - لماذا لم يسمح الإسلام للمرأة بطلاق زوجها إذا هي كرهته؟
- ٩ - هل جعل الإسلام طريقاً لنجاة المرأة وخلصها إذا ظلمها زوجها وامتنع

٤٩٨ دروس من الثقافة الإسلامية

من تطبيقها؟

* * *

المصادر

- ١ - قرآن الكريم.
 - ٢ - نهج البلاغة - مجموعة ما اختاره السيد محمد الرضي من كلام امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.
 - الدكتور صبحي صالح - طبعة دار الهجرة - ايران - قم.
 - ٣ - الميزان في تفسير القرآن، تأليف الاستاذ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي - المطبعة الاولى - دار الكتب الاسلامية.
 - ٤ - تفسير روح البيان، للشيخ اسماعيل حقي البرسوي - ط بيروت - دار احياء التراث العربي.
 - ٥ - بحار الانوار، للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي - ط اولى - دار الكتب الاسلامية - طهران - ايران.
 - ٦ - الكامل في التاريخ - لابن الاثير - ط بيروت - دار صادر - ١٣٨٥ هـ.
 - ٧ - مستدرك الوسائل - للشيخ ميرزا حسين النوري - ط المكتبة الاسلامية - طهران.
 - ٨ - السيرة النبوية - لابن هشام - مطبعة مصطفى البابي - مصر - ١٣٥٥ هـ.
 - ٩ - انساب الاشراف - احمد بن يحيى البلاذري - ط اولى - دار المعارف - مصر.
 - ١٠ - السيرة النبوية، لابي الفداء اسماعيل بن كثير - ط دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٦ هـ.
 - ١١ - البداية والنهاية لابي الفداء - ط دار احياء التراث العربي - الطبعة الاولى - ١٤٠٨ هـ.
- هجريه .

٥٠٠ دروس من الثقافة الإسلامية

١٢ - المستدرك على الصحيحين - للحافظ ابي عبدالله الحاكم - مكتب المطبوعات الاسلامية - بيروت.

١٣ - اسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الاثير - طبعة منشورات اسماعيليان - طهران.

١٤ - وسائل الشيعة - للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي - الطبعة الثانية - المكتبة الاسلامية - طهران.

١٥ - تحف العقول - لابي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة البحراني - ط منشورات الاعلمي - بيروت.

١٦ - الكافي - لمحمد بن يعقوب الكليني - دار الكتب الاسلامية - الطبعة الثالثة - ١٣٨٨ هـ - طهران.

١٧ - الوافي - لمحمد بن محسن الفيض الكاشاني - مكتبة الامام امير المؤمنين - اصفهان.

١٨ - صحيح مسلم - طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت.

١٩ - الطبقات الكبرى - لابن سعد - ط دار صادر - بيروت ١٣٨٠ هـ.

٢٠ - مناقب لمحمد بن علي بن شهر آشوب - المطبعة العلمية - قم.

٢١ - عيون الاثر - لابن سيد الناس - دار المعرفة - بيروت.

٢٢ - الاتقان في علوم القرآن - لجلال الدين عبد الرحمان السيوطي - دار المعرفة - بيروت.

٢٣ - التراتيب الادارية - للشيخ عبد الحي الكتاني - دار احياء التراث العربي - بيروت.

٢٤ - تاريخ يعقوبي - احمد بن أبي يعقوب - دار صادر - بيروت ١٣٧٩ هـ.

٢٥ - الفهرست لابن النديم - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة.

٢٦ - جامع الاصول - محمد بن الاثير الجزري - دار الفكر - الطبعة الاولى - ١٤٠٥ هـ.

٢٧ - مكارم الاخلاق - للشيخ رضي الدين ابي نصر الطبرسي - مؤسسة الاعلمي - كربلاء.

٢٨ - صحيح البخاري - محمد بن اسماعيل البخاري - دار احياء الكتب العربية - بحاشية

السندي.

٢٩ - مجمع الزوائد - علي بن ابي بكر الهيثمي - دار الكتاب - بيروت - الطبعة الثانية.

٣٠ - تاريخ بغداد - احمد بن علي الخطيب - دار الكتاب العربي - بيروت.

٣١ - ينابيع المودة - سليمان بن ابراهيم القندوزي - الطبعة السابعة - النجف - ١٣٨٤ هـ.

المصادر ٥٠١

٣٢ - الصواعق المحرقة - احمد بن حجر الهيثمي - مكتبة القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٨٥ هجرية .

٣٣ - التفسير الكبير - الفخر الرازي - دار الكتب العلمية - طهران - الطبعة الثانية .

٣٤ - تذكرة الخواص - سبط بن الجوزي - المطبعة الحيدرية - النجف - ١٣٨٣ هـ .

٣٥ - ذخائر العقبى - احمد بن عبدالله الطبري - مكتبة القدس - القاهرة - ١٣٥٦ هـ .

٣٦ - الفصول المهمة - علي بن محمد، الشهير بابن الصباغ - مطبعة العدل - النجف .

٣٧ - المناقب للخوارزمي - المطبعة الحيدرية - النجف الاشرف - ١٣٨٥ هـ .

٣٨ - السيرة الحلبية - علي بن برهان الدين الحلبي - مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٣٨٢ هـ .

٣٩ - فرائد السمطين - ابراهيم بن محمد بن المؤيد - مؤسسة المحمودي - بيروت .

٤٠ - جامع احاديث الشيعة، المؤلف تحت اشراف آية الله العظمى البروجردي - المطبعة العلمية - قم .

٤١ - نسيم الرياض - احمد شهاب الدين الخفاجي - المكتبة السلفية - المدينة المنورة .

٤٢ - غرر الحكم - عبد الواحد الآمدى - دار الكتاب الاسلامي - قم - ايران .

٤٣ - الحقائق - العلامة الفيض الكاشاني - مكتبة الاسلامية - طهران - ١٣٧٨ .

٤٤ - تاريخ ايران - پژوهش دانشگاه كمبريج - بالفارسية .

٤٥ - تاريخ ويل دورانت - بالفارسية الطبعة الثانية - طهران .

٤٦ - تاريخ ايران از سلوكيان تا فروياشى دولت ساساني - بالفارسية .

٤٧ - المفردات للراغب .

٤٨ - كتاب الطهارة - الفقيه المجاهد والامام القائد السيد روح الله الموسوي الخميني (قدس سره) - مطبعة الحكمة - قم .

* * *

الفهرس

٥		١	بداية ابحاث النبوة
٥		٢	الدرس الاول
١١		٣	الإنسان وبرنامج سعادته
١٦		٤	الدرس الثاني
٢٠		٥	من القادر على وضع برنامج السعادة
٢٣		٦	الدرس الثالث
٢٧		٧	عصمة الانبياء
٣٠		٨	الدرس الرابع
٣٥		٩	سبب العصمة ومنشأوها
		١٠	الدرس الخامس
		١١	علم الأنبياء
		١٢	الدرس السادس
		١٣	الأنبياء والعلم بالغيب
		١٤	الدرس السابع
		١٥	المعجزة: وثيقة النبوة ودليلها

٣٨	الدرس الثامن	٩
٣٩	ما هي المعجزة ومن عمل من هي؟	
	المعجزة فعل من؟	
٤٢	الدرس التاسع	١٠
	الفرق بين المعجزة والسحر	
٤٥	الدرس العاشر	١١
	الطريق الى معرفة النبي	
٤٨	الدرس الحادي عشر	١٢
	الوحي	
٥٤	الدرس الثاني عشر	١٣
	الأنبياء على مدار التاريخ	
٥٧	الدرس الثالث عشر	١٤
	اهداف الأنبياء	
٦٢	الدرس الرابع عشر	١٥
	هدف الأنبياء النهائي	
٦٧	الدرس الخامس عشر	١٦
٦٧	الأنبياء والنظرة العامة إلى الحياة	
٦٧	الرؤية المادية الى الإنسان والحياة	
٦٨	الرؤية الآلهية الى الإنسان والحياة	
٦٩	رؤية الأنبياء حول الانسان والحياة	
٧٠	الحجر الأساس في دعوة الأنبياء	
٧٣	هدف الأنبياء	
٧٥	الدرس السادس عشر	١٧
	الأنبياء ووحدة الطريق والهدف	

الفهرس ٥٠٥

١٨ الدرس السابع عشر

- ٨٠ الأنبياء والإستقامة
٨١ استقامة النبي إبراهيم (ع)
٨٢ استقامة النبي موسى (ع)
٨٣ استقامة رسول الإسلام (ص)

الفصل الثاني - النبوة الخاصة

الدرس الثامن عشر

- ٩١ محمد نبي الاسلام
٩٢ الطريق الاول دراسة حياة النبي (ص)
٩٣ الطريق الثاني دراسة العقائد والأحكام والقوانين

الدرس التاسع عشر

- ٩٧ رسول الإسلام والبشارات

الدرس العشرون

- ١٠١ رسول الإسلام والإعجاز

الدرس الواحد والعشرون

- ١٠٦ القرآن والمعجزة الخالدة

الدرس الثاني والعشرون

- ١١٠ اعجاز القرآن في اسلوب النظم والتأليف

الدرس الثالث والعشرون

- ١١٦ عدم وجود الاختلاف في القرآن

الدرس الرابع والعشرون

- ١٢١ القرآن والأخبار الغيبية

الدرس الخامس والعشرون

- ١٢٨ محمد خاتم الأنبياء (١)

- ١٢٨ البرهان الأول: آيات القرآن الكريم

٥٠٦ دروس من الثقافة الإسلامية

١٢٩ البرهان الثاني: الأحاديث الشريفة

١٣٠ الاشكال الاول

١٣١ الإجابة على الاشكال

٢٧ الدرس السادس والعشرون

١٣٥ محمد خاتم النبيين (٢)

١٣٥ الاشكال الثاني

١٣٥ الجواب على الإشكال

١٣٧ الوسيلة الاولى: الاجتهاد

١٣٨ الوسيلة الثانية: الصلاحيات الممنوحة للحاكم الإسلامي

١٣٩ الإشكال الثالث

١٤٠ الطريق الاول: تشريع الإمامة

١٤١ الطريق الثاني: تربية العلماء حملة المسؤولية

١٤٢ الطريق الثالث: تحريك العقول وإثارتها

٢٨ الدرس السابع والعشرون

١٤٥ محمد قبل البعثة

٢٩ الدرس الثامن والعشرون

١٥٥ بعثة رسول الإسلام

٣٠ الدرس التاسع والعشرون

١٦١ نزول القرآن وحفظه وكتابته

١٦٥ على أي شيء كان يكتب القرآن

٣١ الدرس الثلاثون

١٦٨ جمع القرآن

١٦٨ المرحلة الأولى في زمان رسول الله (ص)

١٧٠ المرحلة الثانية في عهد أبي بكر

١٧٢ جمع القرآن بواسطة علي بن أبي طالب (ع)

٥٠٧	الفهرس	
١٧٤	المرحلة الثالثة	
	الدرس الحادي والثلاثون	٣٢
١٧٨	لمحات من اخلاق رسول الاسلام (ص)	
١٨٠	الاخلاق الاجتماعية	
١٨٢	اخلاق النبي في بيته	
١٨٣	زهد النبي (ص)	
١٨٤	عبادة النبي (ص)	
	الفصل الثالث - من المعارف الإسلامية	٣٣
	الدرس الثاني والثلاثون	
١٩١	الإسلام والإيمان	
	الدرس الثالث والثلاثون	٣٤
١٩٨	الكفر	
٢٠٠	المنكر للضروري من الدين	
	الدرس الرابع والثلاثون	٣٥
٢٠٣	المرتد - المنافق	
	الدرس الخامس والثلاثون	٣٦
٢٠٧	وحدة الأمة الإسلامية	
	الدرس السادس والثلاثون	٣٧
٢١٥	الوظائف والحقوق المتبادلة بين آحاد المسلمين	
	الدرس السابع والثلاثون	٣٨
٢٢٠	بعض خصائص الأمة الإسلامية ومسؤولياتها	
	الدرس الثامن والثلاثون	٣٩
٢٢٥	الانسان من منظور الإسلام	
	الدرس التاسع والثلاثون	٤٠
٢٣١	الانسان كائن مُخَيَّر	

الدرس الرابعون	٤١
٢٣٩ الانسان وقبول المسؤولية	
الدرس الحادي والاربعون	٤٢
٢٤٤ مسؤوليات الانسان	
٢٤٤ المسؤولية تجاه الله	
٢٤٥ مسؤولية الإنسان تجاه نفسه	
٢٤٧ مسؤولية الإنسان تجاه الآخرين	
الدرس الثاني والاربعون	٤٣
٢٥١ التكاليف والاحكام الاسلامية	
٢٥٢ الاحكام التكليفية والوضعية	
٢٥٣ الواجبات	
٢٥٤ المستحبات	
٢٥٥ المحرمات	
٢٥٥ سائر الاحكام	
الدرس الثالث والاربعون	٤٤
٢٥٨ المصادر الاساسية للمعارف والاحكام الاسلامية - ١ - القرآن	
الدرس الرابع والاربعون	٤٥
٢٦٧ ٢ - سنة رسول الله (ص)	
٢٧٠ أدلة حجية السنة	
٢٧١ أقسام الحديث	
الدرس الخامس والأربعون	٤٦
٢٧٥ ٣ - سنة أهل البيت وسيرتهم (ع)	
٢٧٩ أهل البيت	
الدرس السادس والاربعون	٤٧
٢٨٢ حملة علوم النبي	

٥٠٩		الفهرس	
٢٨٥		الجامع للعلوم	
٢٨٦		كتابة الأحاديث	
		الدرس السابع والاربعون	٤٨
٢٩٠		العقل	
٢٩٣		استنباط الاحكام التكليفية	
		الدرس الثامن والاربعون	٤٩
٢٩٧		الاجتهاد والتقليد	
		الدرس التاسع والاربعون	٥٠
٣٠٣		العقائد في الاسلام	
		الدرس الخمسون	٥١
٣١٣		الاخلاق في الاسلام (١)	
٣١٥		تعريف الاخلاق	
		الدرس الواحد والخمسون	٥٢
٣٢٠		الاخلاق في الاسلام (٢)	
		الدرس الثاني والخمسون	٥٣
٣٢٤		العبادة في الاسلام	
		الدرس الثالث والخمسون	٥٤
٣٣٠		الصلاة	
		الدرس الرابع والخمسون	٥٥
٣٣٦		الصوم	
		الدرس الخامس والخمسون	٥٦
٣٤٣		الحج	
٣٤٧		المؤتمر الإسلامي العالمي	
		الدرس السادس والخمسون	٥٧
٣٥٣		الدعاء	

٥١٠ دروس من الثقافة الاسلامية

الدرس السابع والخمسون	٥٨
..... الجهاد والدفاع	
٣٦١	
الدرس الثامن والخمسون	٥٩
..... الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	
٣٦٨	
..... مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	
٣٧٤	
الدرس التاسع والخمسون	٦٠
..... وجوب الدفاع عن الاسلام	
٣٧٦	
الدرس الستون	٦١
..... الزكاة	
٣٨٥	
..... مصارف الزكاة	
٣٨٨	
..... موارد الزكاة	
٣٨٩	
الدرس الواحد والستون	٦٢
..... الخمس في الاسلام	
٣٩٢	
..... الأدلة على وجوب الخمس	
٣٩٣	
..... مصرف الخمس	
٣٩٤	
الدرس الثاني والستون	٦٣
..... مكانة المرأة في الإسلام	
٣٩٨	
الدرس الثالث والستون	٦٤
..... المرأة والحريية	
٤٠٦	
الدرس الرابع والستون	٦٥
..... الحجاب والمرأة	
٤١٤	
..... الأدلة على وجوب الحجاب	
٤١٤	
..... آيات الحجاب	
٤١٨	
الدرس الخامس والستون	٦٦
..... حدود الحجاب	
٤٢٣	

٥١١	الفهرس	
	الدرس السادس والستون	٦٧
٤٢٩	فلسفة الحجاب	
٤٣٧	المحارم	
	الدرس السابع والستون	٦٨
٤٣٩	العائلة في الاسلام	
	الدرس الثامن والستون	٦٩
٤٤٧	المهر وفلسفته	
	الدرس التاسع والستون	٧٠
٤٥٥	النفقة وفلسفتها	
٤٥٦	اشكال وجواب	
٤٥٧	فلسفة تشريع النفقة	
	الدرس السبعون	٧١
٤٦٢	حقوق الزوجين ووظائفهما	
٤٦٢	الحقوق والواجبات المشتركة	
٤٦٥	الواجبات الخاصة بالزوجة او الزوج	
	الدرس الواحد والسبعون	٧٢
٤٧١	الاسلام وتعدد الزوجات	
	الدرس الثاني والسبعون	٧٣
٤٧٨	إرث المرأة في الاسلام	
	الدرس الثالث والسبعون	٧٤
٤٨٤	الطلاق	
٤٩٩	المصادر	
٥٠٣	الفهرس	

تقطيع ومونتاج: عبد الامير الموسوي